روجيه مارتان دوغار

اسرة تيبو

٣

ترجمة
بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

أسرة تيبو

الجزء الثالث

روجيه مارتان دُوغار

اسرة تيبو

الجزء الثالث

صيف ١٩١٤

ترجمة

بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٠

صيف عام ١٩١٤

١

كان جاك تعباً ، يصلّب عنقه لئلا يفقد شكل الجلسة ، ولم يكن يجرؤ أن يحرك سوى الحدقتين . وقد شمل جلاّده بنظرة حاقدة .

وكان باترسون قد تراجع حتى الجدار بوثبتين ، ولوحة الألوان بيده والفرشاة مرفوعة ، وحنى الرأس يميناً وشمالاً بالتتابع وتأمل مجتهداً قماشته الموضوعة على مسافة ثلاثة أمتار منه ، على الحاملة . وفكر جاك : « اي حظٍ له بالحصول على صورته ! » وانخفض نظره حتى ساعة اليد : « لدي مقال يجب أن انهيه هذا المساء . انه يسخر جيداً ، الحيوان ! »

كانت الحرارة خانقة . ونور لا يرحم يسقط من الزجاج ، مع أن ذلك المطبخ القديم كان قد أقيم في الطابق الأخير من بناية مجاورة للكاتدرائية ، ويطل على المدينة ولا ترى منه البحيرة ولا جبال الألب . لا شيء سوى مواجهة سماء حزيران ذات الزرقة المعمية .

في داخل الغرفة ، تحت السقف المنحدر ، فراشان من قش كانا ممدودين على البلاط جنباً إلى جنب ، وحيوانات معلقة بمسامير . وعلى موقد صدىء ، وعلى شريط قفّة ، وعلى مجلى المطبخ ، تتكدس بشكل مختلط الأشياء الاكثر تنوعاً : طست من المينا ، وزوج من الاحذية ، وعلبة سكاير ملأى بأنابيب الألوان

الفارغة ، وفرشاة من شعر متيبسة من الأشنة Mousse الجافة ، وآنية مائدة ، ووردتان ذابلتان في كأس ، وغليون . وعلى الأرض قماشات مقلوبة ومسندة الى الجدار .

كان الانكليزي عاريا حتى الحزام. وكان يشد على اسنانه ويتنفس من الأنف بقوة عظيمة كأنه كان يركض . وتمتم دون أن يلفت رأسه :

– ليس سهلاً ...

كان جذعه الابيض ، جذع رجل من الشمال ، يلمع بالعرق . والعضلات تختلج تحت رقة البشرة . والهزال يحفر مثلثاً ظليلاً في اسفل قفص الصدر . وتحت القماش المسترق لبنطلون قديم كان الانتباه المنقبض يبعث الرجفة في عرقوبي الساقين . وتنهد بصوت منخفض :

– وفضلة من التبغ ايضاً .

ان السيكارات الثلاث التي اخرجها جاك من جيبه عند وصوله دخنها الرسام واحدة اثر واحدة ، بنفخات كبيرة منذ بدء الجلسة . ومعدته التي هي في عطلة منذ البارحة كانت تسبب له آلاماً ، ولكنه معتاد على ذلك . وفكّر : « يا له من ضوء في هذه الجبهة ، هل لدي من اللون الابيض ما يكفي؟ .. » . وألقى نظرة على انبوب الاسبيداج الذي كان ملقى على الارض مسطحاً كعصابة معدنية . لقد أصبح مديناً بمئة من الفرنكات لغيران Guérin بائع الالوان ، ومن حسن الحظ فإن غيران ، وهو فوضوي قديم اعتنق الاشتراكية حديثاً ، كان رفيقاً طيباً .

وبدون ان يرفع عينيه عن الصورة ، كشر باترسون كما لو كان وحيداً . ورسمت فرشاته في الهواء صورة مشجرات (آرابيسك) ، وفجأة التفتت عينه الزرقاء نحو جاك ، ووجّه إلى جبهة رفيقه نظرة غراب سارق ، غير انسانية بسبب حدتها . وقال جاك لنفسه لاهياً : « انه ينظر الي كما ينظر الى تفاحة في صحن فواكه . لو لم يكن لدي فقط ذلك المقال الذي يجب ان انهيه .. »

وحين اقترح باترسون ، بخجل ، الشروع بهذه الصورة لم يجرؤ جاك على

الرفض . ولما كان الرسام فقيراً لا يستطيع دفع اجور نماذج ، وغير قادر على البقاء اربعا وعشرين ساعة دون أن يستعمل أقلامه ، فإنه كان منذ شهور يستهلك موهبته في صور طبيعة ميتة . ولكن باترسون كان يقول : « اربع او خمس جلسات على الأكثر ... » مع ان اليوم هو الأحد ، وهو اليوم التاسع الذي كان جاك يرغم نفسه ، كاظماً غيظه ، على الصعود بصورة منتظمة ، عند نهاية فترة الصباح ، إلى أعلى المدينة القديمة لأجل جلسات لم تكن تدوم أقل من ساعتين !

وكان باترسون يأخذ في حك فرشاته على لوحة الألوان بحركة محمومة . وثانية أخرى ايضاً . وقد انطوى على ساقيه على طريقة غاطس يجرب مرونة لوح الوثب ، وجمد ، وعينه متجهة نحو جاك . وفجأة هجم ممدود الذراع ، كلاعب سيف ، ليسحق على نقطة واضحة جداً على القماش صورة ضوء ، صورة واحدة ، وبعد ذلك تراجع من جديد حتى الجدار ، مغضّن العينين ، محركاً الرأس ، نافخا كهر غاضب . ثم التفت نحو جاك وابتسم اخيراً :

– يوجد كثير من القوة يا عزيزي في هذين الحاجبين ، في ذلك الصدغ ، في ذلك الشعر المغروس على الجبهة ! ليس سهلاً !

ووضع لوحة الرسم والفرشاة على المجلى ودار على نفسه وراح يتمدد بطوله على احد الفراشين .

– يكفي لهذا الصباح .

فانتفض جاك وقد تخلص :

– أأستطيع ان أرى ؟.. اوه ! ولكنك تقدمت اليوم كثيراً .

كان جاك جالساً وقد رؤي ثلاثة ارباعـــه . وكانت الصورة تتوقف عند الركبتين . والكتف الايسر لا يبدو للنظر . اما الكتف الايمـــن ، فالذراع والمرفق مستقيمان يأتيان بقوة الى الامام . واليد العَضِلة ، المفتوحة كثيراً على الفخذ كانت تشكل في اسفل القماشة بقعة واضحة ، حية . والرأس ، مع انه مرتفع في النور ، كان ينحني انحناءً خفيفاً نحو الكتف الايسر كأن كتلة الشعر

والجبهة تشد به . والنور يسقط من ناحية اليسار .وبقي نصف الوجه في الظل ، ولكن على اثر انحناء الرأس فان الجبهة كلها كانت مضاءة . والذؤابة الداكنة ذات الانعكاسات الشقراء التي تقطعها من الشمال الى اليمين، تزيد ايضاً، بسبب التضاد ،من اشراقة الجسد .وباترسون أظهر بشكل خاص صفة الشعر المغروس بشكل منخفض ، والقاسي كالعشب . وكان الفك القوي يستند على الطوق الابيض المفتوح قليلاً .وهناك ثنية غم تكسب الوجه صرامة شرسة ، وتكسب صفة النبل للفم الكبير والشفتين المرسومتين بشكل سيء . وتحت خط الحاجبين المهتز فان النظرة الجاثمة في النور - المظلم كانت وفق المراد صريحة وعنيدة، ولكن مع تعبير كثير الجرأة وقح ، لم يكن مجانساً . وقد انتبه باترسون الى ذلك . واوضح تماماً في المجموع القوة الضخمة المنبثقة من الجبهة والكتفين وعظام الفك . ولكنه كان يائساً لعدم استطاعته إثبات تلك الفروق الدقيقة من التأمل، والحزن ، والجسارة ، التي كانت تتتابع دون ان تمتزج في النظرة المتحركة .

- ستأتي غداً ايضاً أليس كذلك ؟

فقال جاك دون حماسة :

- اذا لزم الامر .

وكان باترسون قد نهض ليبحث في جيوب معطف لا ينفذ اليه الماء معلق فوق السرير . وانفجر بضحكة صافية :

- ان ميتورغ يحذر ، فلا يضع تبغاً في جيوبه ابداً.

ما إن يضحك باترسون حتى يعود ذلك الولد الماكر الذي اضطر ان يكونه منذ خمس او ست سنوات حين قطع علاقته بعائلته البوريتانية [1] وهرب من اوكسفورد ليأتي ويعيش في سويسرة . وتمتم بمزاج :

- مؤسف . كنت قدمت اليك سيكارة بطيبة خاطر لنهار الاحد يا عزيزي.

كان يستسهل ان يحرم نفسه من الغذاء اكثر من التبغ . ومن التبغ اكثر

---

١ - البوريتانية : احدى الشيع البروتستانتية

من الالوان . وبعد ، فلم تكن تنقصه لوقت طويل الالوان ولا التبغ ولا الغذاء .

كانوا يشكلون في جنيف جماعة كبيرة من الشبان الثوريين بدون موارد ، والمنتمين بشكل يكثر أو يقل الى التنظيمات الموجودة . من ماذا كانوا يعيشون ؟ .. لقد كانوا يعيشون . بعضهم مثل جاك ، مفكرون ممتازون ، كانوا يساهمون في صحف وفي مجلات . وغيرهم عمال اختصاصيون جاؤوا من مختلف زوايا العالم . مساحون ، ورسامون وساعاتية ، كانوا يربحون خبزهم مهما كان الامر ويتقاسمونه حسب الصدف مع رفاقهم الذين لا عمل لهم ، ولكن لم يكن لمعظمهم عمل ثابت .بل كانوا يُستخدمون حسب الصدف في أعمال غامضة وبأجرة سيئة بحيث كانوا يتركونها منذ ان يصبح في جيوبهم قليل من المال . وبينهم كثير من الطلبة بملابس مهلهلة يعيشون بالتقتير من اعطاء دروس والقيام بأبحاث في المكتبات ، وأشغال دقيقة في المختبر . ومن حسن الحظ فانهم لم يكونوا كلهم في حالة بؤس . وكان يكفي حافظة نقود محشوة لتؤمن قليلاً من الخبز ولحم الخنزير ، وقهوة ساخنة ، وعلبة سكاير لأولئك الذين يتوهون طول النهار فارغي الجيوب . وكان التعاون يحدث من تلقاء نفسه . وقد يعتاد المرء على ان لا يأكل سوى مرة واحدة بالنهار ، ولا يهم ماذا ، حين يكون فتياً ويعيش مع جماعة ، بنفس الرغبات الحارة في النظر والمعرفة ، ونفس اليقين ، ونفس العاطفة الاجتماعيةونفس الأمل . وبعضهم امثال باترسون ، كانوا يتلهون بان هياج معدة حرة يوصل الىالدماغ نشوة نافعة . وهذه اكثر من فكاهة. ان قناعة نظامهم الغذائي كان يساعد على حفظ هذا الهيجان الروحي الذي كانت تستفيد منه الاجتماعات التي لا تنتهي والتي كانوا يعقدونها كل ساعة في حدائق الساحات ، والمقاهي ، وفي غرفهم المفروشة ، وفي « المكان » الذي يجتمعون فيه لتناقل الاخبار التي يأتي بها الثوريون الاجانب لمجابهة تجاربهم ، ومذاهبهم، وليشتغلوا معاً بنفس الحمية في بناء مجتمع المستقبل

كان جاك واقفاً امام المرآة يسوي طوق ورباط عنقه . وتمتم باترسون :

– لست متعجلاً يا عزيزي ... فالى اين ذاهب بهذه السرعة .

كان مضطجعاً نصف عارٍ ، متباعد الذراعين ، على عرض السرير . وكان له معصما فتاة نحيفان ، ويدا رجـــل ، وكعبان رقيقان ،وقدما انكليزي حقيقيان . وكان الرأس صغيراً ، والشعر اشقر اصهب ، ملتصقاً بسبب العرق ، ويتخذ تحت الزجاج بريق فضة مذهّبة قديمة . وفي عينيه اللامعتين قليلاً لتكونا معبرتين تبدو سلامة الطوية انها في صراع دائم ضد الشقاء .

وقال بتراخٍ :

– عندي الكثير مما اقوله لـك . اولاً ، لقـد تركت « المكان » باكراً مساء امس .

– كنت تعباً .. انهم يدورون في حلقة ويكررون الشيء نفسه دائماً ..

– نعم ، ومع ذلـــك فقد توصلت المناقشة الى ان تكون حقيقة مثيرة يا عزيزي . وقد أسفت لك . وقد انتهى الربّان بان أجاب بواسوني . اوه ! بضع كلمات فقط : ولكن من الكلمات التي تعطي – كيف اقول لك ؟ – لحم الدجاجة !

كانت اللهجة تشي بنفور خفي . وكان جاك قـد لاحظ عدة مرات نوع الاعجاب المبغض الذي يحمله الانكليزي لمينستريل– « للربّان » كما كان يدعى. ولم يستوضح الرسام ابداً عن ذلك. وكان هذا متعلقاً جداً بمينستريل! ولم يكن يحبه كصديق فقط : بل كان يحترمه كمعلم .

والتفت بحدة :

– اي كلمات ؟ .. ماذا قال ؟

فلم يجب باترسون حالاً . كان يتأمل السقف ويبتسم بشكل غريب .

– كان ذلك في النهاية ، وفجأة . . . كثيرون مثلك كانوا قد ذهبوا . . وقد ترك بواسوني يتكلم ، بهيئته التي لا تصغي .. وفجأة انحنى نحوالفريدا التي كانت جالسة عند قدميه كما هو الامر دائماً ، وقال ما قاله بسرعة كبيرة ودون ان ينظر الى أحد .. انتظر لأتذكر جيداً .. قال تقريباً كهذا : « لقد الغى

نيتشه فكرة الله ووضع مكانها فكرة الانسان . وهذا لا شيء . هذا فقط مرحلة اولى . والالحاد يجب ان يتقدم الى ابعد من ذلك : يجب ان يلغي ايضاً فكرة الانسان ».

فقال جاك محركاً كتفيه حركة خفيفة :

– وبعد ، ماذا ؟

– انتظر ... عندئذ سأل بواسوني : « ليستبدله بماذا ؟» فابتسم الرّبان على طريقته – الرهيبة – كما تعلم . واعلن بقوة . « بلا شيء ! »

وابتسم جاك ايضاً تهرباً من الجواب . وكان الطقس حاراً . وكان تعباً من جلوسه امام الرسام ، ومتعجلاً العودة الى شغله . ولم يكن لديه اية رغبة بمناقشة غيبية (ميتافيزيكية) مع باترسون الشجاع . وكف عن الابتسام وقال فقط :

– انه روح نبيلة لا جدال فيها يا بات .

فانتصب الانكليزي على مرفقه وتطلع في وجه جاك :

– بلا شيء !.. مهما كان الامر فهذا قبيح جداً . الا ترى ذلك [1] ؟

وحين ظل جاك صامتاً ، فأنه ارتمى على السرير .

– ما الذي استطاعت ان تكونه حياة الربان يا عزيزي ؟.. اني اتساءل دائماً عن ذلك . فلكي يصل الى هذا .. هذا الجفاف اعتقد انه اضطر الى المرور بطرقات مخيفة ، وتنشّقِ هواءٍ مسموم . قل لي يا تيبو . – كان يستطرد حالاً دون تغيير النبرة ولكنه يلتفت من جديد نحو جاك : – كنت اريد منذ وقت طويل ان اسألك عن امر ، انت الذي تعرف الاثنين جيداً : هل تعتقد ان الفريدا مسروزة مع ربانها ؟..

وخطر ببال جاك انه لم يلقِ هذا السؤال على نفسه . ومهما كان الامر فليس السؤال غير صوابي ولكنه كان دقيقاً على الحل وهناك حدس مبهم اشار عليه بألا يغامر مع الانكليزي على هذا الصعيد . فأنهى عقد رباط عنقه وأحدث

---

١ – بالانجليزية في الأصل .

بكتفيه حركة مراوغة .

الا ان باترسون لم يظهر ان هذا الصمت قد اغاظه. وكان قد تمدد من جديد. وسأل :

– هل ستأتي هذا المساء لسماع محاضرة جانوت ؟

فالتقط جاك هذه التعلّة :

– لست متأكداً .. علي اولاً ان انهي شغلا لاجل « المشعل » . واذا أنهيته فسأذهب الى « المكان » نحو الساعة السادسة – واعتمر قبعته – ربما هذا المساء يا بات .

فقال عندئذ باترسون ، وقد جلس :

– لم تجبني فيما يتعلق بألفريدا .

وكان جاك قد فتح الباب . والتفت وقال بعد تردد يكاد لا يُرى :

– لا ادري . ولماذا لا تكون سعيدة ؟

٢

كانت الساعة قد تجاوزت الواحـــدة والنصف . وكانت جنيف تتأخر في تناول الفطور يوم الاحد . والشمس تسقط رأساً على ساحة بور – دي – فور محوّلةً الظل الى حاشية ذات لون بنفسجي عند اسفل البيوت .

واجتاز جاك الساحة المقفرة مواربـــة وكان خرير النبع وحده يشوش الصمت . وجاك يسير بسرعة ، منخفض الرأس ، والشمس تسقط على رقبتــه ، وعيناه محترقتان من الاسفلت اللامع . ومـــع انه لم يخش ان تتجاوز حرارة صيف جنيف حدها – تلك الحرارة البيضاء والزرقاء ، الحاقدة السليمة ، غير المسترخية ، المحرقة في النادر – فقد دهش لوجود قليل من الظل وهو يسير على محاذاة حوانيت شارع لافونتين الضيق .

كان يفكر بمقاله : تعليق ببضع صفحات على آخر مؤلف لفريتش ، لباب « مجلة الكتب » في « المشعل السويسري » . وكان قـد كتب ثلثيه ، ولكن

يجب إعادة المطلع بكامله . وربما يبدأ مستشهداً بذلك المقطع من لامارتين ، والذي نسخه اول البارحة في المكتبة : « هناك نوعان من الوطنية ، واحد يتألف من جميع الاحقاد ، وجميع العوامل المؤثرة ، وجميع المنفّرات الفاحشة التي تغذيها الشعوب المنحطة ، بسبب حكومات مهتمة بتفرقتها ، ضد بعضها البعض ... وآخر يتألف ، على العكس ، من جميع الحقائق وجميع الحقوق المشتركة بين الشعوب .. » ان الفكرة عادلة بالتأكيد وسمحة ، ولكن الشكل... وفكر وهو يبتسم : « هيه ، ربما هذر ثمانية واربعيني Quarante - huitard.. ولكن اليست مفرداتنا تقريباً هكذا ؟ .. » وقال لنفسه على الاثر : « باستثناء واحد . انها ، مثلاً ، ليست مفردات الربّان ... » وقد جعله مينستريل يفكر بسؤال بات ، هل كانت الفريدا سعيدة ؟ .. لم يجرؤ على الجواب بنعم او لا . النساء ... هل يمكن معرفة شيء عن النساء ؟ .. واجتازت ذهنه ذكرى تجربته مع صوفي كامرزين. لم يكن يفكر بها ابداً منذ ان ترك لوزان وبنسيون الاب كامرزين . وفي الايام الاولى جاءت عدت مرات إلى جنيف لأجله . ثم كفّت عن زياراتها . الا انه كان يستقبلها بسرور . هل ادركت اخيراً انه لا يشعر نحوها بأي حب ؟ ... وساورته حسرة . . مخلوقة غريبة . انه لم يستبدلها بغيرها .

وأسرع الخطى . وكان عليه ان ينحدر حتى الرون ، فقد كان يسكن الناحية الاخرى من الماء ، في ساحة غرينوس : حي فقير كله ازقة واكواخ . وفي زاوية من تلك الساحة التي تشغل منتصفها مبولة ، بيت مفروش للايجار ذو ثلاثة طوابق ، « فندق الكرة » كان يخفي واجهته المبقّعة . وفوق الباب المنخفض ، خريطة نصفي الكرة الأرضية من زجاج كانت تنار في المساء بشكل آرمة . وكان بعكس فنادق الحي الاخرى لا تقيم فيـــه مومسات . والبيت بإدارة عازبين ، الاخوين فرسيليني ، المسجلين في الحزب الاشتراكي منذ سنوات . وكانت جميع الغرف تقريبـــاً مؤجرة لمناضلين يدفعون قليلا وحين

يستطيعون : لم يطرد الاخوان فرسيليني أي مستأجر بسبب المـــال ، ولكن كان يحدث لهم أن يطردوا مشبوهاً ، لأن هذا المحيط من المتمردين كان يجتذب الأفضل والأسوأ معاً .

كانت غرفة جاك في أعلى الفندق ، صغيرة ولكنها نظيفة ، ومن سوء الحظ فإن النافذه الوحيدة تفتح على سطح الدرج ، والضوضاء والروائح المستنشقة من قفص الدرج كانت تتغلغل في الغرفة بشكل ظاهر . ولكي يستطيع أن يشتغل بهدوء كان عليه أن يبقي النافذة مقفلة ، وينير مصباح السقف . وكان الاثاث كافياً : سرير ضيق ، خزانة ، طاولة وكراسي ، وفي الجدار مغسلة . وكانت الطاولة صغيرة ومزدحمة دائماً. ولكي يكتب جاك كان يجلس عادة على سريره ، ويضع على ركبته مجموعة خرائط عوضاً عن القمطر .

كان يشتغل منذ نصف ساعة حين طُرق بابه ثلاث دقات متباعدة ، فصاح :

ــ أدخل .

وظهر في فتحة الباب وجه اشعث ، انه فانهيد الصغير الشاحب البشرة ، فهو ايضاً قد ترك لوزان إلى جنيف في السنة الماضية في الوقت الذي تركها فيه جاك . وكان يسكن ايضاً في « الكرة » .

ــ عفواً .. فقد ازعجتك يا بولتي .

كان من اولئك الذين ثابروا على الاشارة إلى جاك باسمه الادبي القديم المستعار ، مع ان جاك منذ موت والده اصبح يوقع مقالاته باسمه الحقيقي .

ــ رأيت مونيه في مقهى لاندو . وقد كلّفه الربان بمهمتين لك ، الأولى هي أنه بحاجة إلى رؤيتك ، وانه ينتظرك عنده حتى الساعة الخامسة ، والثانية هي ان مقالك لن ينشر هذا الاسبوع في « المشعل » ، وان لا فائدة من ايداعه هذا المساء .

فوضع جاك كفيه على الأوراق المبعثرة أمامــه وأسند رأسه إلى الجدار . وقال وقد سُرّي عنه :

حسناً ! .

ولكنه فكر حالاً: هذه خمسة وعشرون فرنكاً لن اقبضها هذا الأسبوع..»

كانت الاسس واهية . واقترب فانهيد من السرير مبتسماً :

– أساءك الامر ؟.. عن ماذا كان مقالك ؟

– عن كتاب فريتش : « الامية » .

– اذن ؟..

– في الاساس ، كما ترى ، فاني انا نفسي لا اعرف تماماً رأيي فيه ...

– في الكتاب ؟

– في الكتاب ... والامية .

وانقبض حاجبا فانهيد اللذان لا يكادان يظهران على جبهته . وتابع جاك :

– ان فريتش متشيع . ثم يبدو لي انه يخلط عدة اشياء ذات قيم مختلفة جداً : فكرة الامة ، فكرة الدولة ، فكرة الوطن. ومن هنا هذا الانطباع بأنه يفكر خطأ حتى عندما يقول اشياء تبدو صحيحة .

كان فانهيد يصغي مغمض العينين . واهدابه التي لا لون لها تخفي نظره ، وهناك ارتخاء يخفض اماكن اتصال الشفتين . وقد تراجع حتى المنضدة ودفع الملفات قليلاً ، واشياء الزينة ، والكتب ، وجلس .

واستمر جاك بنبرة مترددة :

– ان المثل الأعلى الامي عند فريتش واشباهه يتضمن أولاً حذف فكرة الوطن ، فهل هذا ضروري ؟.. هل هو حتمي ؟.. لست متأكداً من ذلك .

فرفع فانهيد يده التي تشبه يد الدمية :

– حذف النزعة الوطنية في جميع الحالات !.. كيف نتخيل الثورة في اطار البلد الوحيد الضيق ؟. فالثورة ، الثورة الحقيقية ، ثورتنا ، هي عمل دولي ! ويجب ان تتحقق دفعة واحدة في كل مكان ، بواسطة جميع أكثريات العمال في العالم !

– نعم ، ولكنك ترى : لقد ميزت انت نفسك بين النزعة الوطنية وفكرة الوطن .

فهز فانهيد بعناد رأسه الصغير الذي تعلوه طاقة شعر أجعد أبيض تقريباً :

– انه نفس الشيء يا بولتي . انظر ما فعل القرن التاسع عشر : بتجميده النزعة الوطنية والشعور بالوطن في كل مكان ، أيّد مبدأ الدول القومية ، وبذر الحقد بين الشعوب ، وعمل على اشعال حروب جديدة !

– موافق . ولكن ليس الوطنيون هم الذين زيفوا معنى الوطن في كل بلد ، بل القوميون . فقد أبدلوا التعلق العاطفي ، المشروع ، غير الضار ، بمذهب ، بتعصب اعتدائي . مقاضاة هـذه النزعة القومية ، نعم ، دون اقل شك ! ولكن هل يجب ، كما فعل فريتش ، ان نستبعد عاطفة الوطن في الوقت نفسه ؟.. هذا الواقع البشري الجسدي ، اللحمي إذا صح القول ؟

– نعم ! لكي يكون المرء ثورياً حقيقياً يجب أولاً قطع جميع العلاقات ، استئصال النفس ...

فقاطعه جاك :

– إحذر . انت تفكر بالثوري ، الثوري النموذج الذي تريد ان تكونه ، وأهملت الانسان ، الانسان بوجه عام ، كما اعطته الطبيعة ، والواقع والحياة ... ومع ذلك فتلك الوطنية العاطفية التي أتكلم عنها ، هل بالامكان الغاؤها حقيقة ؟.. أنا لست متأكداً من ذلك . وقد حاول الانسان : انه من مناخ خاص ، وله مزاجه في الاصل . وله بنيته القومية . يتمسك بعاداته وبالاشكال الخاصة للمدنية التي صاغها . وأينما كان فهو يحفظ لغته . انتبه !. هذا مهم جداً ، فمشكلة الوطن ربما لا تكون في الاساس مشكلة لغة ! وأينما يكون الانسان ، وأينما يذهب ، فانه يستمر في أن يفكر بكلمات . بقواعد لغة بلاد ... انظر حولنا .. فاصدقاؤنا في جنيف ، كل أولئك المنفيين بارادتهم ، الذين يؤمنون عن يقين انهم تنازلوا عن مسقط رؤوسهم وألّفوا مستعمرة دولية اصلية !

انظر اليهم ، فهـم بالغريزة يبحثون عن بعضهم البعض ، وينضمون الى بعضهم البعض ، ويتكتلون كقبائل صغيرة ، ايطالية ، ونمساوية ، وروسية ...قبائل صغيرة من سكان البلاد الاصليين ، اخوية « وطنيـة » . وانت نفسك يا فانهيد ، مع ابناء بلدك البلجيكيين !

فارتعش الشاحب اللون . وحدقتاه الشبيهتان بحدقتي عصفور ليلي استقرتا على جاك وتألقتا بوميض توبيخ ، ثم اختفتا من جديد تحت خمـــائل الاهداب . وكانت عاهته الجسدية تزيد من استكانة هيئته . ولكنه استعمـــل صمته على الخصوص لصيانة ايمانه ، وهو اكثر متانة من تفكيره ، وكان تحت مظاهر خجولة واثقاً من نفسه بشكل غريب . وما من احد ، حتى جاك ، حتى الربان ، كان له تأثير حقيقي على فانهيد .

وتابع جاك :

– كلا ، كلا . يستطيع الانسان النزوح عن وطنه ولكنه لا يستطيع نسيانه . وتلك النزعة الوطنية ليس فيها شيء متناقض في الاصل مع مثلنا الاعلى كثوريين امميين ! وعندئذ اتساءل اذا لم يكن من عدم الفطنة مهاجمة هذه العناصر كما فعل فريتش ، هذه العناصر التي هي انسانية في جوهرها ، وتمثل قوى . واتساءل ايضاً اذا لم يكن مضراً تجريد رجل الغد .

وصمت بضع ثوان ، ثم قـــال بنبرة اخرى مترددة ، كأنه مرتبك من الوساوس : – اني افكر بذلك الا اني لا اجرؤ على كتابته ، وخصوصاً ببضع صفحات . يجب تأليف كتاب لتجنب سوء الفهم – وصمت من جديد ، وقـال فجأة : – ومع ذلك فلن اكتب هذا الكتاب ابداً . . . لأنني بعـد كل شيء ، لست واثقاً من أي أمر ! وهل من يدري ؟.. فالانسان الذي يترك وطنه ليس شاذاً . الانسان يتكيف وربما انتهى الى الاكتفاء بهذا البتر ...

وانفصل فانهيد عن الطاولة ، وخطا خطوة تلقائية نحو جاك ، وعلى وجهه الذي يشبه وجه الاعمى يطوف تعبير من الفرح الملائكي :

– الا يجد في هذا التكيف تعويضاً عما فقده !

وابتسم جاك . كان يحب فانهيد الصغير بسبب اندفاعـــات كهذه . وقال الشاحب اللون :

– اني اتركك الآن .

واستمر جاك في الابتسام . ونظر الى فانهيد وهو يبلغ الباب بخطى قافزة ، ويأتي بأشارة وداع صغيرة ويترك الغرفة دون ضجة .

ومع ان لا شيء يضطره الى اتمام مقاله – وربما بسبب ذلك – اخذ يشتغل بحماسة .

كان لا يزال يكتب حين سمع الساعة تدق الرابعة في الدهليز. وكان مينستريل ينتظره . فوثب عن السرير . وما كاد يقف حتى ادرك انه جـــائع . ولكنه لم يكن يستطيع انتظار وقت توقفه في المدينة . وكان لا يزال لديــه ، في داخل خزانة ، كيسان صغيران من الشوكولا المسحوقة التي تذوب حالاً في الماء الساخن. وكان قنديله الكحولي قد ملىء في السهرة . وحين كان يغسل وجهــه ويديه فان الماء كان يغلي في الطنجرة الصغيرة . وشرب فنجاناً ساخناً من الشوكولا ، وسار مسرعاً .

٣

كان مينستريل يعيش بعيداً عن ساحة غرينوس ، في حي كاروج الذي اختاره الكثير من الثوريين ، وبشكل رئيسي اللاجئون الروس . وكان ضاحية لا صفة مميزة لها ، على شاطىء الأرف L'Arve وراء سهل بلانباليه . وهناك مقاولون كانوا بحاجة الى الفضاء ، وبائعو حطب او فحم ، وسبّاكون، وصانعو عربات ، ومبلطون بالخشب ، ومزينون بالنقوش ، كانوا قد اقاموا مشاغلهم في تلك الضاحية : وعلى طول الشوارع الواسعة المهوّاة كانت سقائفهم تتتابع بجزر صغيرة من البيوت القديمة ، والحدائق المشوهة ، واراضي للتقسيم .

وكانت البناية التي يسكن فيها الربان ترتفع في زاوية رصيف شارل – باج وشارع كاروج ، عند مدخل الجسر الجديد : بناية طويـلة من ثلاثة طوابق ،

صفراء مسطحة ، بدون شرفات ولكنها تأخذ تحت شمس الصيف صبغة لذيذة من الجص الايطالي . وكانت أسراب من طيور زمّج الماء تمر أمام النوافذ وتلهو على ضفة الأرف الذي كان مجراه السريع ، القليل العمق يكسب مظهر السيل ، مغطياً صخوره بالزبد حتى سطح الماء .

وكان مينستريل وألفريدا يشغلان ، في داخل رواق ، شقة من غرفتين يفصلها مدخل ضيق. واحداهما وهي الصغرى كانت تستعمل كمطبخ،والأخرى غرفة ومكتب .

وبالقرب من النافذة المشمسة التي كان مصراعاها مقفلين كان مينستريل المنحني على منضدة صغيرة يشتغل منتظراً وصول جاك . وبخط دقيق، صبياني، مليء بالايجازات ، كان يضع على أوراق مسودّة بعض الملاحظات المقتضبة ، وكانت الفريدا تقوم بمهمة فك طلاسمها ، وطبعها على الآلة الكاتبة ، بواسطة آلة قديمة .

في تلك اللحظة كان الربان وحده . وكانت الفريدا قد تركت الكرسي الذي تجلس عليه دائماً.وهو كرسي منخفض موضوع قبالة كرسي مينستريل.وقد اغتنمت فرصة توقف معلمها عن الشغل وذهبت إلى المطبخ تفتح الصنبور لتملأ زجاجة من الماء الطازج . وتحوم في الهواء الحار رائحة مزة لدراقن بالسكر كان يطبخ على نار هادئة ، على الغاز : كانا يتغذيان فقط بالحليب والخضار والفواكه المطبوخة تقريباً .

— فريدا !

فأنهت فرك مصفاة القهوة التي كانت في يدها وجعلتها تقطر ، ومسحت أصابعها بسرعة .

— فريدا !

— نعم .

وأسرعت بالرجوع إليه وجاءت تجلس على الكرسي المنخفض . وتمتم مينستريل واضعاً يده على الرقبة السمراء المنحنية :

– اين كنت اذن ايتها الفتاة الصغيرة ؟

لم يكن السؤال يدعو اي جواب . وقد ألقاه بصوت حالم دون أن يقطع شغله . وكانت تبتسم مرفوعة الوجه . وكان نظرها حاراً ، مخلصاً ، هادئاً ، وحدقتاها الممتدتان بشكل واسع كانتا تعبران عن الرغبة في رؤية كل شيء ، وفهم كل شيء ؛ ولكن لم يكن يتبين منهما أقل ألق من اللجاجة والفضول . كانت تبدو أنها ولدت لتتأمل وتنتظر . ومنذ أن يبدأ مينستريل بالتفكير عالياً ، بالنسبة إليها ، (وهذا ما كان يفعله دون انقطاع) فإنها تلتفت نحوه وتبدو انها تصغي بعينيها . وأحياناً ، حين تكون الفكرة دقيقة ، فانها تستصوب برفة من اهدابها . هذا الوجود القريب جداً ، الصامت ، المنتبه باستمرار ، هو كل ما كان مينستريل يحتاجه ، انه بحاجة إليه الآن بمقدار حاجته إلى الهواء ليعيش .

لم يكن لها من العمر سوى اثنتين وعشرين سنة . وكانت أصغر منه بخمس عشرة سنة. وما من أحد عرف أن يقول بالضبط كيف التقيا ،ولا أي نوع من الاتحاد يربطهما تحت مظاهر حياتهما المشتركة . وكانا قد وصلا معاً إلى جنيف في السنة الماضية . وكان مينستريل سويسرياً ، اما هي فالمعروف انها من أصل اميركي جنوبي مع انها لم تشر ابداً إلى عائلتها ولا إلى طفولتها .

واستمر مينستريل في كتابته . ووجهه الرقيق – المستطيل بسبب لحية سوداء مشذبة قصيرة ومروّسة – كان ينحني إلى الامام ، والجبهة الضيقة وكأنها مشدودة إلى الصدغين تبرز في الضوء . وقد تريثت يده اليسرى على رقبة الفريدا – وكانت المرأة الشابة ساكنة ، منحنية الظهر ، راضية عن هذه المداعبة بجمود مرتعش لهرة .

وتوقف مينستريل عن الكتابة دون أن ينقل يده . ونظر إلى الفضاء وهز رأسه نفياً :

– كان دانتون يقول : « نريد أن نضع فوق ، ما هو تحت ، وتحت ، ما هو فوق » . هذه ، أيتها الفتاة الصغيرة ، كلمة رجل سياسي وليست كلمة

اشتراكي ثوري . ولم يكن لويس بلان ، وبرودون ، وفوريه ، وماركس ليقولوا هذا .

ولفتت عينيها نحوه . ولكنه لم يكن ينظر إليها . ووجهه المرفوع نحو أعلى النافذة ، حيث أتاح المصراعان مرور شعاع شمسي ، ظل غير متأثر . كانت القسمات منتظمة ولكنها عاطلة من الحياة بشكل غريب . والصبغة ، دون أن تكون مرضية ، كانت رمادية كأن الدم تحت الجلد لا لون له ، والشفتان تحت الشارب الأسود المحلوق ، كانتا بنفس صبغة البشرة . والحيوية كلها متركزة في العينين : فقد كانتا صغيرتين ومتقاربتين بشكل غريب ، والحدقتان السوداوان جداً يشغلان كل المكان الحر في شق الجفون بحيث لا يكاد يظهر البياض . وكان لبريقهما حدة تكاد لا تحتمل ومع ذلك فلا يصدر عنها أية حرارة . وهذه النظرة ، غير المتنوعة ، الواضحة فقط ، والممتدة دائماً كما يبدو حتى حدود الانتباه ، لم تكن نظرة رجل ، انها تخضع وتثير ، وتبعث على التفكير بالنظرة الثاقبة ،الوحشية الغامضة لبعض الحيوانات،لبعض القرود .

وتمتم دفعة واحدة كأنه كان يتم فكرة داخلية :

— ... الجدل المنطقي للايديولوجية الفردية .

كان الصوت بدون قوة ، متحداً ، يتكلم دائماً بعبارات مقتضبة كأقوال العرّافات يبدو أنه يدفعها أمامه بنفس فقير ولكنه لا ينضب . والطريقة التي يربط فيها بنفس واحد ، فاصلاً كل مقطع ، تتمة كلمات زالقة امثال « جدل منطقي للايديولوجيات الفردية » كانت تذكر بمهارة عازف كمان يجمع في سحبة قوس واحدة شلالاً من المقطوعات المزدوجة . وتابع :

— ان اشتراكية الطبقة ليست هي الاشتراكية . وقلب نظام الطبقات يعني فقط استبدال شرٍ بشرٍ آخر ، وظلم بظلم . ان جميع الطبقات الحالية تتألم . ونظام الكسب ، وطغيان المنافسة ، والنزعة الفردية الساخطة تثبت كلها سلطة رب المهنة . إلا أن هذه لا تفهم ذلك . — ولمس صدره مرتين وهويسعل ، ثم لفظ بسرعة : — إن ما يلزمنا أيتها الفتاة الصغيرة هو أن نذيب بشكل

واسع ، جميع العناصر السليمة بدون تمييز ، في مجتمع دون طبقات ، وبواسطة تنظيم جديد للشغل ... ثم أخذ يكتب .

كان اسم مينستريل مرتبطاً ببدء الطيران . وهو ربان ، ومهندس ميكانيكي معاً ، وكان من أولئك الذين دعتهم شركة الطيران .S. A. S عند إنشاء مصنع زوريخ ، ولا تزال عدة تدابير تستعمل لضبط أجهزة الآلات تحمل اسمه . في ذلك العهد ، فان تجاربه المتتابعة للطيران فوق جبال الالب عرّضته لانتباه الجمهور . ولكنه جرح في ساقه في الحادث الذي جعله يخفق في رحلته بين زوريخ وتورن (ولولا القليل للاقى مصرعه) ،وأقلع عن الملاحة الجوية.ثم على أثر اضرابات شركة الطيران التي ترك أثناءها مكتبه عمداً كرجل فني ليساهم في الحركة العمالية ، فإنه ترك سويسرا فجأة. ماذا حلّ به ؟.. هل قضى سنوات الغياب هذه في أوروبا الشرقية ؟ كان على علم عظيم بالقضايا الروسية . وقد سنحت له الفرصة عدة مرات ليظهر انه تملّص تماماً من صعوبة اللهجات السلافية ؛ ولكنه يعرف أيضاً أمور آسيا الصغرى واسبانيا . وما من شك في أنه كان على علاقات شخصية مع معظم الأشخاص النافذين في عالم أوروبا الثوري؛ وكان أيضاً يراسل عدداً منهم بصورة متتابعة ، ولكن في أيةظروف، وبأية نية كان يقترب منهم ؟.. كان يتحدث عنهم بمزيج محيّر من الوضوح والابهام ،بمناسبة أمر آخر دائماً ، ليأتي بمعلومات اضافية في مناقشة نظام عام ، وحين كان يذكر كلمة نموذجية يبدو أنه سمعها ، أو حادثاً يبدو أنه شاهده ، فإنه لم يكن يوضح أبداً الدور الذي قام به في القضية . وكانت تلميحاته دائماً غير منتظرة ؛ وحين كان الأمر يتعلق بوقائع ، وبمذهب ، وبشخصيات ، فان نبرته تكون جدية ومسندة بالوثائق ، ولكنها تكون مراوغة حتى الكذب حين يتعلق الأمر به .

ومع ذلك ، فقد كان يبعث على الاعتقاد انه يكون موجوداً دائماً في كل مكان يحدث فيه أمر ؛ أو على الأقل ، فهو يعرف أكثر من أي انسان ما جرى حقيقة

في ذلك اليوم وفي ذلك المكان ، وقد كان له في الحادث نظرة خاصة تتيح له أن يستخرج منه استنتاجات غير منتظرة ولا يمكن دحضها .

لماذا جاء إلى جنيف ؟ .. « ليكون مطمئناً » كما قال ذات يوم . وأثناء الأشهر الأولى عاش كمتوحش ، يهرب من اللاجئين كما يهرب من اعضاء الحزب الروسي ، ويقضي أيامه في المكتبات مع الفريدا ، يقرأ ، ويعلق على مؤلفات آباء المذهب الثوري ، دون أي هدفٍ آخر ، كما يبدو ، سوى اتمام ثقافته السياسية .

وذات يوم ، نجح ريشاردلي ، وهو مناضل شاب من جنيف ، بالاتيان به إلى «المكان»حيث يجتمع كل مساء جمهور متنوع من الثوريين السويسريين والاجانب. ولكن هل راق له هـذا الوسط ؟ لم يكن يفتح فمه . ولكنه كان يعود اليه في الغد من تلقاء نفسه . وفرضت شخصيته القوية نفسها بسرعة كبيرة . وبين هذه الجماعة من النظريين المحكومين آنياً بالبطالة والثرثرة ، فان قوة ذلك العقل النقدية ، وتلك الطاقة التي لا تخطىء وتبدو انها ثمرة تجربة أكثر مما هي ثمرة القراءة أو ثمرة منتخبات من عدة كتب ، وتلك الغريزة التي توصل جميع المسائل إلى الصعيد الحسي وترمي دائماً إلى فرض اهداف عملية على التفكير الثوري ، وذلك الفن الذي لديه في القضايا الاجتماعية الأكثر تشابكاً بأن يستخرج الجوهري ويلخصه ببعض صيغٍ مدهشة كل هذا حقق له على الجميع نفوذاً غير عادي . وببضعة اشهر ، اصبح هو المركز ، وباعث الحياة في هذه الجماعة ؛ وكان البعض منهم يقولون : « الرئيس » . وكان يأتي يومياً إلى هناك دون أن يتوضح الغموض الذي يحيط نفسه به ، غموض رجل يريد الاحتفاظ بخط الرجعة ، وأن يتحفظ ، وأن « يستعد » .

وقالت الفريدا وهي تدخل جاك إلى المطبخ :

– تعال من هنا ، انه يشتغل .

ومسح جاك جبهته . وعرضت عليه ، مشيرةً إلى زجاجة تحت ماء المجلى :

– اذا كان هذا يروق لك .

– أعتقد جيداً .

وتغطى القدح الذي ملأته حالاً بالبخار . وكانت تقف أمامه ، والزجاجة في يدها ، بتلك الهيئة المتواضعة الخدوم المعتادة عليها . وجهها الكامد الذي لم تمسه البودرة إلا قليلا ، وأنفها الأفطس ، وفمها الذي يشبه فم طفل كان يتفتح كثمرة فريز ناضجة حين تضم شفتيها ، وعيناها المشقوقتان بشكل خفيف نحو الصدغين ، وذلك الشعر الاسود القاسي اللامع الذي كان يغطي جبهتها حتى الحاجبين ، كل هذا كان يجعلها شبيهة بدمية يابانية، مصنوعة في اوروبا.وفكّر : « ربما كان ذلك بسبب كيمونتها الزرقاء » . وعندئذ عاد سؤال باترسون إلى ذاكرته وهو يشرب : « أتظن أن الفريدا مسرورة مع ربّانها » . واضطر إلى الاعتراف أنه لم يكن يعرفها مع أنه يحضر حديثها دائماً مع مينستريل. وقد أعتاد على اعتبارها ككائن حي أقل من اعتبارها كتابع منزلي – وبصورة اضبط ، كشذرة من مينستريل . وخطر بباله لأول مرة القلق الخفيف الذي كان يحس به حين يكون وحيداً مع الفريدا .

– قدح آخر ايضاً ؟ ..

– بطيبة خاطر .

ان الشوكولا التي شربها سببت له العطش . وفكر بأنه لم يتناول غداءه وأن الطعام مستحيل . ثم مرت فجأة في رأسه فكرة مضحكة: « هل أطفأت قنديل الكحول ؟ » واستنجد بذاكرته . ولكن ذكرياته ظلت غير أكيدة :

ورن صوت الربان من خلال الحاجز .

– فريدا !

– نعم ..

وابتسمت ونظرت إلى جاك نظرة لاهية ، مشاركة ، كانت تبدو انها تقول: « يا له من ولد كبير ذي نزوات ، هذا الموجود عندي ! » وقالت :

– تعال

كان مينستريل قد نهض . وكان واقفاً بعكس الضوء، أمام النافذة التي فتح

مصراعيها قليلا . ودخل شعاع شمسي إلى الغرفة فأنار السرير الكبير المنخفض، والجدران العارية ، والمنضدة التي لا يوجد عليها شيء سوى قلم حبر وبعض الأوراق المجموعة .

وميسنتريل الواقف في بيجامة من القطن الرمادي اللون كان يبدو كبيراً . انه ممشوق الجسم ، ونصفه الأعلى ضيق ، إلا أن الكتفين يميلان إلى التقعر. وقد استقرت عيناه النافذتان على عيني جاك بينما كان يمد يده إليه :

– لقد ازعجتك . ولكننا نكون أكثر اطمئناناً هنا من « لابارلوت » . خذي ايتها الفتاة الصغيرة ، هذا شغل لك .

اضاف ذلك مقدماً لألفريدا كتاباً وضعت فيه عصابة صغيرة كعلامة .

وأخذت آلتها مطيعة ، وجثمت على الأرض الخشبية وظهرها إلى الحائط ، وبدأت عزفها .

وجلس مينستريل وجاك بقرب الطاولة . وكان وجه الربان قد اصبح قلقاً . واستند إلى مسند الكرسي ومدّ ساقه. (لقد ترك له الحادث تصلباً في ركبته اليمنى جعله يعرج عرجاً خفيفاً) .

وقال عوضاً عن الاستهلال :

– حكاية مزعجة . كتب « أحدهم » إلي . هنــاك أثنان يجب أن نحذرهما كما يبدو . أولاً : غيتنبرغ .

فهتف جاك : غيتنبرغ ؟ ..

– ثانياً : توبلر .

وصمت جاك .

– ايدهشك هذا ؟

فردد جاك : غيتنبرغ ؟

– هذه هي الرسالة .

قال مينستريل ذلك وهو يسحب من جيب بيجامته غلافاً وقال: اقرأ .

– نعم .

تمتم جاك بعد أن قرأ متمهلا الرسالة المؤلفة من قرار اتهام بارد غير موقع .

– انت تعرف المكانة التي احتلها غيتنبرغ وتوبلر في الحركة الكرواتية . وسوف يأتيان إلى فيينا لأجل المؤتمر . فالمهم إذن أن نعرف مقدار الثقة التي يمكن أن نمنحها لهما . وهذا خطير . ولا أريد أن أنذر انساناً بالخطر قبل أن أكون واثقاً .

– نعم .

قال جاك . وكاد يضيف : « ماذا تنوي أن نعمل ؟ .. » ولكنه امسك ، ومع أن علاقاته بمينستريل مطبوعة بشيء من الرفقة ، إلا أنه كان يحتفظ ، بدافع الغريزة ، ببعض المسافة بينهما .

وكأن مينستريل توقع السؤال فتناول الكلام :

– أولاً ... (كان همه في أن يكون واضحاً يبلغ حد الهوس ، وكان يبدأ عادة عباراته بكلمة « اولاً » واضحة عنيفة – ولا تكون دائماً متبوعة بكلمة « ثانياً » .) اولاً : هناك وسيلة واحدة للتأكد : التحقيق في مكان الجريمة . في فيينا . تحقيق يجري دون ضجة ، بواسطة واحد لا يستلفت الانتباه. واني افضّل واحداً لا يكون مسجلا في أي حزب .. ولكن – وتابع متطلعاً إلى جاك بإلحاح – واحد موثوق به . أريد أن اقول أن حكمه يقدم ضمانات .

فقال جاك مندهشاً ومزهواً في سريرته : نعم .

وفكر حالاً بدون غم : « لقد انتهيت من الجلوس للرسم .. ولا يهمني باترسون » . ثم عادت مرة ثانية إلى ذهنه فكرة قنديله الكحولي .

ومضت بضع ثوان من الصمت لم يكن يُسمع اثناءها سوى طقطقة الآلة الكاتبة والتمتمة البعيدة للنبع الذي يجعل الماء سائلا في المجلى .

وقال مينستريل : أتقبل ؟

فرضي جاك بحركة مقتضبة من رأسه . وتابع مينستريل :

– يجب الذهاب في مدى يومين . الوقت الكافي لجمع المستندات . والبقاء في

فيينا كل الوقت اللازم . خمسة عشر يوماً إذا لزم الأمر .

ورفعت الفريدا عينيها لحظة نحو جاك الذي حنى رأسه من جديد دون أن يجيب ، ثم تابعت عملها .

وتابع مينستريل :

– وفي فيينا سيساعدك هوسمر .

وقطع كلامه : فقد طـُرق باب الدخول :

– اذهبي وانظري ايتها الفتاة ..

ثم قال ملتفتاً نحو جاك :

– اذا كان توبلر تلقـّى حقيقة ً مالاً فيجب أن يعلم هوسمر بذلك .

كان هوسمر صديقاً لمينستريل . وكان نمساوياً يعيش في فيينا . وقـد عرفه جاك في السنة الماضية في لوزان حيث أتى يقضي بضعة أيام. وهذا اللقاء ترك فيه انطباعاً عميقاً . وقد كانت هي المرة الأولى التي يجد نفسه فيها على اتصال بأحد هؤلاء الثوريين الانتهازيين بشكل وقح ، اللامبالين بالوسائل ، والذين يكون الهدف النهائي عندهم هو بالحقيقة الهدف الوحيد، ولا يشعرون بالخجل لارتدائهم عند الحاجة ملابس احتياطية بشرط أن يخدم تخليهم عن حقوقهم قضية الثورة مهما كانت الخدمة قليلة .

وعادت الفريدا لتعلن :

– انه ميتورغ .

فالتفت مينستريل نحو جاك ودمدم :

– سنعود إلى الكلام حالاً في « لابارلوت » .

وقال رافعاً صوته :

– ادخل ياً ميتورغ .

كان ميتورغ يضع نظارتين كبيرتين مستديرتين تحت حاجبين بشكل قوس دائرة يكسبانه تعبيراً خائفـاً باستمرار . وكان الوجه كثير اللحم والقسمات

مسترخية منتفخة قليلا كقسمات « متروبص [1] » لم ينم كفايته .
وكان مينستريل قد نهض :
ـ ما الذي جاء بك يا ميتورغ ؟
وجال نظر ميتورغ في الغرفة واستقر على الربان ، وعلى جـــاك ، ثم على الفريدا ، وقال موضحاً :
ـ لقد وصل جانوت إلى « المكان » .
وقال جاك لنفسه : « كلا ، لست متأكداً من انني اطفأت الفتيل . بعد أن ملأت طاسي من الممكن جداً انني أعدت الطنجرة على الموقد دون أن اطفئه .. لقد افرغت الطاسة وذهبت ... ربمــا كان الفتيل لا يزال يشتعل ... » وصمت ثابت العين . وتابع ميتورغ :
ـ يحرص جانوت كثيراً على أن يراك قبــل محاضرته هذا المساء . ولكنه منهوك جداً من الرحلة .. ولا يتحمل الحر .
فتمتمت الفريدا :
ـ لبدة طويلة ..
ـ وقد ذهب لينام قليلاً .. ولكنه أراد أن أحمل اليك افضل تحياته .
فقال مينستريل بصوت حاد غير منتظر :
ـ حسناً ، حسناً .. يا صغيري ميتورغ اننا لا نهتم ابداً بجـــانوت . أليس كذلك ايتها الفتاة الصغيرة ؟
وكان وهو يتكلم قد وضع ذراعه على كتف الفريدا السمين وداعبت يده شعر المرأة الشابة . وسألت الفريدا وهي تدير عينيها بخبث نحو جاك :
ـ أتعرفه ؟
ولم يسمع جاك . فقد كان يبحث عبثاً في ذاكرته عن بعض التفاصيل المعينة التي تطمئنه . وكان يعتقد جيداً أنه وضع الطنجرة على الأرض. أيكون إذن قد

---

١ ـ من يمشي وهو نائم .

نفخ اللهبة وأعاد السدادة ؟ .. ومع ذلك ..

وتابعت الفريدا ضاحكة :

– له لبدة كلبدة أسد عجوز . ان هذا المعادي للاكليروس يشبه رأسه رأس عازف ارغن في كاتدرائية .

وزجر مينستريل بهدوء :

– اسكتي ايتها الفتاة الصغيرة .

وابتسم ميتورغ القلق ابتسامة صفراء . وكان شعره المنتفش يكسبه هيئةمن يوشك أن يغضب . وكان يغضب في اغلب الأحيان .

انه من أصل نمساوي . ومنذ خمس سنوات ترك سالزبورغ حيث بدأ يدرس الصيدلة ، وذلك تهرباً من الخدمة العسكرية . وسكن سويسرا ، في لوزان اولاً ، ثم في جنيف . وكان قد أنهى دروسه المهنية فيها وصار يشتغل بصورة منتظمة أربعة أيام في الأسبوع ، في مختبر . ولكن علم الاجتماع كان يشغله أكثر من الكيمياء . ولما كان متحلياً بذاكرة مدهشة ، فقد قرأ كل شيء ، وحفظ كل شيء ، ونظّم كل شيء في رأسه المربع . وأصبح بالإمكان استشارته ككتاب مختصر . ولم يخطىء رفاقه . ومينستريل في أولهم ، بالاعتماد عليه . وكان عالماً بأصول العنف . ومع ذلك فهو حساس ، عاطفي ، خجول وبائس . وتابع بوقار .

– لقد ألقى جانوت محاضرته في كل مكان تقريباً. وهو ذو معلومات عظيمة عن أوروبا . وقد جاء من ميلانو . وفي النمسا قضى يومين إلى جانب تروتسكي . وما يسرده عجيب . ولدينا خطة ، بعد محاضرته ، أن تأتي به إلى « مقهى لاندول » لنجعله يسرد ذلك . ستأتيان ، اليس كذلك ؟ ..

قال هذا متطلعاً إلى مينستريل ثم إلى الفريدا . وأضاف ملتفتاً نحو جاك :

– وأنتَ ؟

فقال جاك :

– إلى « لاندول » ربما نعم . ولكن إلى المحاضرة ، كلا .

لقد جعله وسواسه عصبياً . ومع أنه تخطى كل اعتقاد ديني منذ وقت طويل إلا أن عداء الآخرين للاكليروس كان يزعجه دائماً . (لا شيء سوى العنوان فيه شيء هجوهي بشكل صبياني : « البراهين على عدم وجود الله ») . وأخرج من جيبه ورقة خضراء تشبه بياناً . وهتف هازاً كتفيه : - « الاعلان - المنهاج » . - وقرأ بتفخيم : - « في نيتي أن اعرض عليكم نظاماً للكون يجعل كل لجوء إلى افتراض مبدأ روحي عديم الفائدة نهائياً » .

فقاطعه ميتورغ ، مقلباً عينين مستديرتين (عندما يتحمس تسيل غدده الريقية بغزارة وترافق كلامه جلبة طين) :

- من السهل السخرية بالنسق الانشائي . أنا موافق أن هذه الأشياء يمكن أن تكون في أفضل فلسفة عقلانية . ولكني لا أرى فائدة في عدم قول هذه الاشياء ، وإعادة قولها . لقد سيطر الاكليروس على الناس طوال قرون بواسطة الاعتقاد بالخرافات . ولولا الدين لما قبل الناس الشقاء طويلا ولكانوا اصبحوا متمردين منذ وقت طويل ، واحراراً .

فقال جاك مسلّماً وهو يدعك المنهاج ويقذفه من فتحة المصاريع بشيء من السفاهة :

- هذا ممكن . ومن الممكن ايضاً أن خطاباً من هذا النوع يثير التصفيق هذا المساء كما في فيينا ، وكما في ميلانو.. أنا لا أنكر ما هناك من مؤثر في هذه الحاجة إلى الفهم والتحرر التي تجمع ، رغم الحرارة ، في جو عابق بالدخان ، غير صالح للتنفس ، عدة مئات من الرجال والنساء ، يكونون أفضل بكثير وهم جالسون على ضفة بحيرة ، ينظرون إلى الليل والنجوم .. ولكن أنا . أن اكرس أمسيتي للاستماع إلى ذلك ، كلا . فوق قواي !

وارتخى صوته فجأة عند الكلمات الأخيرة . فقد تخيل بكثير من الوضوح اللهب يفتل الأوراق المبعثرة على طاولته ، بحيث اشتد الضغط على حنجرته . وميندستريل ، والفريدا ، وميتورغ نفسه الذي لم يكن كثير الملاحظة . أخذوا ينظرون إليه مندهشين . وقال باقتضاب :

- الآن . إلى اللقاء .

فسأل مينستريل :

- ألا تأتي معنا إلى « المكان » ؟ ..

وكان جاك قد وضع يده على مفتاح الباب وقال :

- يجب اولاً أن أمر على بيتي .

وفي شارع كاروج أخذ يركض وعند دائرة« بلانباليه »رأى قطاراً كهربائياً قد انطلق ، فاندفع نحو مؤخرته . ولكن عند وقوفه على الأرصفه فرغ صبره، فقفز من العربة وبلغ الجسر بخطوات جبازية .

ولم يختف هذا الرعب الذي لا داعي له بفعل السحر إلا حين أطل من شارع ديزيتوف وشاهد الاطار المألوف لساحة غرينوس، والمبولة ، والواجهة المتواضعة لفندق « الكرة » . وفكر : « هل أنا احمق ؟ » .

لقد تذكر الآن أنه غطّى الفتيل بالسدادة النحاسية ، وأنه احرق أيضا أطراف اصابعه . وكان لا يزال يشعر باحتراق شحمة الابهام ، وتطلع إلى ابهامه ليجد فيه أثر الحرق . هذه المرة كان التذكار واضحا ، لا يقبل الجدل ، بحيث لم يهتم بتسلق الطوابق الثلاثة ليتأكد من صحة ذلك . ودار على عقبيه ونزل نحو الرواق .

كانت المدينة القديمة المدرجّة من الجسر بتناسق ، ابتداء من الخضرة السابحة في الماء حتى ابراج القديس بطرس ، مقطعة أمامه على خلفية جبال الألب الزرقاء . وكان يردد لنفسه : « انها لحماقة ! » وعدم التناسب بين تفاهة المغامرة والاضطراب الذي سببته له ، ظل لغزاً بالنسبة إليه . وتذكر أمثلة أخرى . لم تكن هي المرة الأولى التي كان فيها لعبة تخيلته كذلك . وتساءل : « كيف استطيع في هذه اللحظات أن افقد كل مراقبة على نفسي ؟ .. وبأي رضى غريب ومَرَضي استسلم للقلق ! ليس للقلق فقط : للوسواس ... »

وبخطى صغيرة ، وهو لاهث مغمس بالعرق ، ارتقى هذه الأزقة المألوفة ، دون أن يراها ، الداكنة ، الرطبة التي تقطعها سطوح الادراج والدرجات

المسطحة ، التي تصعد مغيرة على المدينة بين البيوت القديمـــة ذات الحوانيت الخشبية .

ووجد نفسه في شارع كالفان دون أن يفطن إلى الطريق وكان الشارع يتبع خط الذروة . احتفاليا وكئيبا . ويحمل اسمه جيداً[1] . فعدم وجود الدكاكين، وصف الواجهات من الحجر الرمادي ، الكالحة الوقورة ، والحيوات الشاقة المتخيَّلة وراء تلك النوافذ العالية ،كانت توقظ فكرة بوريتانية غنية. وفي داخل المنظر الحزين فان الظهور المشمس لساحة القديس بطرس ، بالمثلث الذي في أعلى البناء ، واعمدتها ، واشجار الزيزفون القديمة ، كان يقدم نفسه كمكافأة .

٤

لقد فكر جاك حين رأى نساءً وأولاداً في ساحة الكنيسة : « نهار الأحد، ٢٨ حزيران ... سواء أدام تحقيقي في النمسا عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً .. فهو كل ما بقي علي أن اعمله قبل المؤتمر » .

كان كجميع رفاقه في هذا الصيف من عام ١٩١٤ ينتظر كثيراً من الحلول التي سيتخذها المؤتمر الاشتراكي الذي سيجتمع في فيينا في ٢٣ آب حول المشاكل الدولية الكبرى .

وتبصّر دون استياء في المهمة التي أوكلهـا اليه الربان . كان يحب النشاط : كانت هذه طريقة ليستطيع أن يحب نفسه دون توبيـــخ ضمير . ثم انه لم يكن غاضباً لابتعاده بضعة أيام ، وللتخلص من تلك الاجتماعات التي لا تنتهي ، ومن تلك المجادلات والمصارعات .

ومنذ أن اصبح في جنيف لم يكن يستطيع الامتنـــاع عن المجيء كل يوم تقريباً لينهي نهاره في « المكان » . وفي بعض الأمسيات لم يكن يفعل شيئاً سوى أن يدخل ويشدّ على بعض الأيدي ، ويخرج . وفي أيام أخرى ، بعد أن ينتقل

---

١ ـ لأن كالفان الذي يحمل الشارع اسمه هو أحد مؤسسي المذهب البروتستانتي .

من جماعة إلى جماعة كان ينسحب مع مينستريل إلى الغرفة الداخلية وكانت هذه افضل أيامه . (لحظات ثمينة من المودة القلبية كانت تجعل له كثيراً من الحساد . لأن اولئك الذين تركوا وراءهم سنوات من حياة النضال ، اولئك الذين « صنعوا العمل الثوري » فهموا خطأ أن الربان يفضل صحبة جاك على صحبتهم) . وفي أغلب الأحيان كان يتريث وسط رفاقه . وكان يظل بوجه عام خـارج المناقشة ، صامتاً ، متباعداً قليـلا . وحين كان يدلي دلوه فيها فقد كان يظهر اتساع نظر ، ورغبة في الفهم والتوفيق ، وصفة ذهبية تكسب الحديث مجرى غير عادي .

وكان يجد في هذه الجمعية الصغيرة الشائعة الوطنية ، كما في جميع الجماعات المماثلة ، نموذجين من الثوريين : الرسل والفنيون .

وكانت عواطفه الطبيعية تحمله نحو « الرسل » - سواء أكانوا اشتراكيين أو شيوعيين أو فوضويين . وكان يشعر تلقائياً أنه على خير حـال مع هؤلاء الصوفيين الكرام حيث للتمرد نفس الأصل الذي لهم : حساسية طبيعية بالظلم . والجميع يحلمون مثله بأن يبنوا على خرائب العالم الحالي مجتمعاً عادلاً . ونظرتهم إلى المستقبل يمكن أن تختلف في التفصيل ولكن أملهم واحد : نظام جديد من السلام والأخوة . وكانوا مثل جاك - وبهـذا كان يشعر أنه قريب منهم - غيورين جداً من نبلهم الداخلي . وكانت غريزة سرية وحس بالعظمة يدفعانهم إلى الارتفاع فوق انفسهم ، والتفوق على انفسهم . وفي الأعماق ، فان ما يربطهم بالمثل الأعلى الثوري هو أنهم وجدوا فيه ، مثله ، سبباً يمجّد الحياة . وبذلـك يظل هؤلاء الرسل فرديين رغماً عنهم ، مع أنهم نذروا حياتهم لانتصار قضية جماعية ، الأمر الذي كانوا يتذوقونه لاشعوريا على الخصوص في هذا الجو المسكر جو المعركة والأمل ، انه شعورهم بأن قوتهم ، وامكاناتهم قد زادت عشر مرات . وهو تحرير مزاجهم بتكريس انفسهم لعمل كبير قد تخطاهم .

ولكن تفضيله للمثاليين لم يكن يمنعه من الاعتراف بأنهم إذا تُركوا لحميتهم وحدها لأصبحوا دون شك يتحركون على غير طائل إلى ما لانهاية له . والخميرة

الحقيقية ، خميرة العجين الثوري قد أبرزتها الاقلية : الفنيّون . فهؤلاء كانوا يرفعون مطالب واضحة ويعدُّون تحقيقات ملموسة . وثقافتهم الثورية متسعة ومغذاة بعناصر جديدة دون انقطاع . وأظهر تعصبهم اهدافاً محدودة مصنفة وفقاً لنظام الأهمية ولم تكن خيالية . وفي جو الايديولوجيا المتحمسة الذي يتعهده الرسل ، فإن أولئك الفنيين يمثلون الايمان الفعّال .

ولم يكن جاك مصنفاً في أية واحدة من هذه الفئات . أما الذين يختلف عنهم أقل من غيرهم فهم « الرسل » ، ولكن وضوح ذهنه ، أو على الأقل ، ذوقه في التمييز الواضح وميله نحو المحسوسات المحددة ، والاتجاه الصحيح الذي كوّنه حول الوضعيات ، والافراد . والعلاقات ، تجعل منه ، مع شيء من الاجتهاد ، « فنياً ممتازاً » . ومن يدري ؟.. ربما يستطيع أن يصبح رئيساً إذا ساعدته الظروف . ومما يميز « الرؤساء » أليس هو انهم يجمعون إلى صفات الفنيين السياسية حمية الرسل الصوفية ؟.. وبعض الرؤساء الثوريين الذين اقترب منهم يملكون كلهم ميزة مزدوجة : الطاقة (بصورة أكثر دقة ، نظرة إلى الواقع عامة وذكية معاً ، بحيث يكونون عند كل ظرف محتمل قادرين على أن يذكروا حالاً ما يجب عمله للاجابة على الحوادث وتغيير مجراها) ، والنفوذ (قوة جاذبة تؤمن لهم دفعة واحدة سيطرة مباشرة على الرجال وعلى الأمور نفسها ، وعلى الأعمال) . وجاك ليس خالياً من البصيرة ولا من السلطة . حتى انه يتمتع بموهبة التعاطف ، بقدرة الاجتذاب غير العادية ، وإذا لم يكن قد حاول تنمية استعداداته فلأنه ، في حالات شاذة ، نادرة ، كان يشعر بنفور غريزي من فكرة التأثير على نمو الكائنات وطريقة فعاليتها .

كان غالباً ما يفكر بغرابة وضعه في هذه الجماعة الجنيفية . وكانت تبدو له مختلفة جداً وفقاً لنظرته إليها أكان بالنسبة للجماعة أم للافراد .

فبالنسبة للجماعة كان موقفه سلبياً بوجه عام . فهل يعني هذا ان عمله كان لا شيء ؟.. بالتأكيد كلا . وهذا ما كان يثير دهشته أكثر من أي شيء آخر. فقد كان يجد نفسه ، بقوة الأشياء ، إنه قام بأعباء دور ، دور كريه ، دور

شرح وتبرير بعض القيم ، بعض اقتباسات النزعة الانسانية ، بعض أشكال الفن والحياة التي يدعوها الجميع حوله « بورجوازية » ، والـتي أدانوها بالجملة . أما هو – مع أنه كان مقتنعاً أكثر من رفاقه ان البورجوازية ، على صعيد المدنية ، قد بلغت نهاية مهمتها التاريخية – فلم يكن قد توصل إلى القبول بهذا الالغـــاء النظامي والجذري لتلك الثقافـــة البورجوازية التي لا يزال يشعر أنها متغلغلة تماماً . ووقف للدفــاع عما فيها من أفضل وخالد ، عن نوع من الارستقراطية الفكرية الفرنسية جداً ، والتي كانت تثير محدثيه بشكل عميق ، ولكنها تضطرهم أحياناً ، ان لم يكن إلى إعادة النظر بأحكامهم ،فعلى الأقل إلى تخفيف شكل قراراتهم القاطع . وربما كانوا يشعرون بسرور خفي ، وبوعي يقــل أو يكثر ، لأن يعدّوا بين صفوفهم هذا التارك أهله ، والذي كانوا يعرفون أنه معتنق نفس مثلهم الأعلى الاجتماعي ، وان وجوده بينهم يحمل إلى فكرة الثورة الضرورية التي لا يمكن تجنبها تكريس هذا العالم للانهيار المنذور له .

وبالنسبة للافراد – في المواجهة – فــــان عمله الشخصي كان يأخذ اتساعاً آخر . فبعد أن أيقظ ، في البدء ، شيئاً من الحذر ، صار له نفوذ أخلاقي واضح – على أفضلهم بحكم الطبيعة – . فقــد كانوا يجدون تحت تحفظه ، تحت نبرة عواطفه وأساليبه موقـــداً من الحرارة البشرية يذيب تصلبهم وينشط ثقتهم . ولم يكونوا يعاملون جاك كما يفعلون فيما بينهم : كرفيق فرقة . بل كانوا يميزون علاقاتهم معه بالمودة القلبية والمحبة . وكانوا يسرّون إليه بحيرتهم ، بوساوسهم . ويذهبون في بعض الأمسيات إلى الاعتراف له بالاسرار التي يخفونها عن الجميع . أنانياتهم ، عيوبهم ، نقصهم كرجـال . ويعون أنفسهم بشكل أفضل حين يكونون بقربه ، وينشطون قواهم . ويسألونه النصيحة كما لو أنــه يملك ، على صعيد الحياة الداخلية ، تلك الحقيقة التي كان يبحث عنها لنفسه ، في كل مكان ومنذ البدء . وبفعلهم ذلك كانوا يضايقونه مضايقة فظة دون أن يرتابوا بهذا : لأنهم يمنحون شخصه وأقواله من القدرة أكثر مما يريد،ويضطرونه إلى مراقبة نفسه دون إنقطاع ، وإلى الصمت،وإلى إخفاء خيباته ، وتشككه،

وخمود همته. وكانوا يحددون له مسؤولية تخلق حوله منطقة عازلة تلقيه في عزلته بشكل لا يرحم. وكان أحياناً يتألم من ذلك حتى اليأس. ويتساءل: «من أين أتت هذه الحظوة غير المستحقة؟..» وعندئذ تذكر هوس انطوان: «نحن من آل تيبو... يوجد فينا شيء لا يُدرك، يفرض نفسه ..» ولكنه تخلص بسرعة من أشراك الكبرياء هذه: انه، مع الأسف، يعي ضعفه جيداً، ولهذا لا يقبل بأن قوة غامضة يمكن أن تشع منه.

٥

ان «المكان» الذي يسميه المقربون من مينستريل «لابارلوت»، يقوم بشكل خفي في قلب المدينة العليا، في شارع لابارييز القديم على محاذاة الكاتدرائية.

إذا رؤيت البناية من الخارج تبدو متغيرة المعالم. انها إحدى تلك البنايات الفانية التي لا يزال بعضٌ منها قائماً في ذلك الحي المحتشم. وواجهة الطبقات الثلاث كانت مدهونة بدهان وردي اللون، متصدع، قرضه النطرون Salpétre، ومثقوبة بنوافذ دون مصاريع حيث الزجاج المكسو بالغبار يبدو كأنه زجاج مسكن مهجور. وكان البيت منفصلاً عن الشارع بساحة ضيقة محاطة بجدران وملأى بالنفايات والحدائد والأنقاض نبتت بينها شجرة بيلسان كبيرة. وحاجز المدخل لا وجود له. وعموداه الحجريان متصلان بواسطة عصابة من الزنك تشكل الآرمة، حيث لا يزال يُقرأ فيها: «مسبك النحاس» والمسبك قد انتقل منذ وقت طويل، ولكنه احتفظ بالبيت ليودع فيه إنتاجه.

وراء هذه البناية غير المسكونة كان يختبيء «المكان». وهو يشغل بناية منفصلة مؤلفة من طابق واحد، قائمة في ساحة ثانية ولا ترى من الشارع. ويوصل إليه بواسطة الممر المعقود الذي يقطع المسبك القديم من ناحية إلى أخرى. وكان الطابق الأرضي من البناية محطات قديمة للعربات. وكان يسكنه مونيه، الرجل الذي يصنع كل شيء. ويحتوي الطابق على أربع غرف بجانب

بعضها البعض ويصل بينها رواق مظلم. والغرفة التي في الداخل - غرفة ضيقة - أصبحت بفضل الفريدا شيئاً كالمكتب الشخصي للربان . والثلاث الأخريات فسيحات بشكل كاف وتُستعمل أماكن اجتماع . وقد صف في كل منها دزينة من الكراسي ، والمقاعد ، وبعض الطاولات التي يمكن الرجوع إلى الصحف والمجلات المنشورة عليها . لأنه كان يوجد في « المكان » ليس جميع الصحف الاشتراكية في أوروبا فقط ،بل أيضاً معظم تلك النشرات الدورية الثورية التي تصدر أحيـــاناً بلا انقطاع عدة أعداد للدعاية ثم تتعرض للاحتجاب ستة أشهر أو سنتين لأن صناديقها تكون فارغة أو يكون محرروها مسجونين .

وما أن اجتاز جاك الممر المعقود ودخل في مؤخر الساحة حتى أنذرتـــه جلبة المناقشات المتفلتة من النوافذ المفتوحة في الطابق بوجود أناس هذا اليوم في « لابارلوت » .

وكان ثلاثة رجال في أسفل الدرج يتحدثون بجدة وبلغة ليست الاسبانية ولا الايطالية . انهم ثلاثة من مستعملي لغـــة الاسبيرانتو المقتنعين وأولهم شاربنتيه . وهو أستاذ في لوزان جاء هذا النهار ليستمع إلى محاضرة جانوت ، وكان يدير مجلة منتشرة بشكل كاف في الأوساط الثورية : « اسبيرانتي ليان » ولم تكن تفوته فرصة ليؤكد أن إحدى الحاجات الأولى للعالم الدولي هي لهجة عمومية وأن اختيار لغة الاسبيرانتو ، وهي مساعد مشترك لجميع اللغـــات القومية ، سوف يسهل التبادل الروحي والمادي بين النـــاس . وكان يحب الاستناد إلى سلطة ديكارت العظيمة الذي أبدى في رسالة خاصـة ، وبشكل واضح جداً ، رغبته في « لغة كونية سهلة التعلم واللفظ والكتابة ، وتساعد على الحكم ، وهذا هو الأمر الرئيسي ... »

وشد جاك على أيدي الرجال الثلاثة وصعد الدرجات .

كان مونيه واقفا على أربـع ، على قرص الدرج ، يعيد تنظيم مجموعـة من مجلة « فوروارت ». وكانت مهنته خادماً في مقهى . ولقول الحق ، فمع أنــه كان يرتدي صدرة على درع من السلليلويد في كل فصل وفي كل ساعة ، فإنــه

كان قليلاً ما يشتغل في مهنته . كان يكتفي في جميع الأشهر أن يعمل أسبوعاً زيادة في معمل للجعة يؤمن له أوقات فراغ يكرس نفسه أثناءها « للثورة » فقط . وكان يزاول جميع المهام بحمية متساوية : في تدبير المنزل، في الرحلات، في عملية النسخ ، في تصنيف النشرات الدورية وحفظها .

وفي الغرفة التي على المدخل ، والتي كان بابها مفتوحاً على الدرج ، كانت الفريدا وباترسون يتحدثان وحدهما ، وكانت واقفة بقرب النافذة مع الانكليزي – وقد لاحظ جاك ذلك قبلا – وأقلعت المرأة الشابة عن دور المشاهدة الصامتة . وبدت أنها وجدت بجانبها شخصية ربما استترت في الخارج بدافع الخجل . وكانت الفريدا تحمل تحت ذراعها محفظة مينستريل وتمسك بيدها نشرة كانت تقرأ فيها بصوت منخفض فقرة لباترسون الذي كان يستمع لاهياً والغليون في فمه . كان يتفحص الوجه المنحني ، والشعر الأسود ، والظل الذي مدته الاهداب على الخد ، والبريق غير العادي لتلك الصبغة الكامدة ، وكان يفكر دون شك :«رسم هذه البشرة ...» ولم ينتبه أي منهما إلى مرور جاك أمامهما .

وفي الغرفة الثانية كان المعتادون على المكان كثيرين . وكان بواسوني جالساً بجانب البـــاب ، وبطنه على فخذيه . وحوله ميتورغ ، وغيران ، وشارشوفسكي تاجر الكتب القديمة واقفون .

وشد بواسوني على يد جاك دون أن يقاطع نفسه :

– ولكن ... ولكن ... على ماذا يدل ذلك ؟.. الشيء نفسه دائماً ؛ عدم كفاية ديناميةالعصيان ... لماذا ؟... نقص في التفكير .

وألقى نصفه الأعلى إلى الوراء وابتسم ، ووضع يداً على كل ركبة .

كان في جميع الأيام يأتي مع الأوَل . وكان يعبد المناقشات . وهوفرنسي، أستاذ قديم للعلوم الطبيعية في جامعة بوردو وكانت دراساته في عـــلم طبائع الانسان قد انتهت إلى علم طبائع الانسان الاجتماعية (انتروبو ـ سوسيولوجيا) . وانتهت جرأة تعليمه بأن جعلته مشبوهاً في الجامعة ، وجاء يستقر في جنيف .

وكان يمثل شيئاً من الغرابة لأن رأسه كبير الحجم ، ووجهه صغير ، وجبهته عريضة عارية ، والخدان متهدلان ، وعـــدة ذقون فوق بعضها البعض تؤلف حول سحنته منطقة من اللحم الفائض في وسطها ، وفي منطقة محصورة ، تجمعت قسمات الوجه : عينان متوقدتان مشحونتان بالمكر والطيبة ؛ وأنف قصير ذو منخرين مفتوحين ، طفيلي وشره ، وشفتان لحميتان مستعدتان دائما للابتسام . وكانت كل حياة الرجل الكبير تبدو أنها متركزة في ذلك الوجه الصغير الحي ، الضائع كالواحة في هذا القفر من الشحم القليل الدم .

وتابع وهو يُمِرّ لسانه على شفتيه بشراهة :

– لقد قلت ذلك وأكرره . يجب أن نحمل الكفاح أولاً إلى الجبهة الفلسفية .

وقلب ميتورغ عينين غير مستصوبتين وراء نظارتيه وهز رأسه المشعّث .

– يجب أن يظل الفكر والعمل متقارنين .

وبدأ شارشوفسكي :

– انظروا ما جرى في ألمانيا في القرن التاسع عشر .

وضرب الأب بواسوني على فخذيه وقال ضاحكاً من سروره بأنه على حق :

– ولكن ... بالضبط ... لنأخذ الألمان كمثل ...

كان جاك يعرف مسبقاً كل ما سيقولونه . أما الذي يختلف فقط فهو ترتيب الاعتراضات والأدلة كترتيب البيادق على رقعة شطرنج .

وفي وسط الغرفة يقف زيلافسكي وبيرنيه وسافريو وسكادا يؤلفون رباعياً متحمساً . واقترب جاك منهم .

وصرح زيلافسكي ، وهو روسي ذو شاربين كبيريين بلون القنّب :

– كل شيء يتسلسل . كل شيء يتماسك جيداً في النظام الرأسمالي .

فتمتم اليهودي سكادا مفصلاً كلماته بعذوبة مستمرة :

– في سبيل هذا يكفي الانتظار يا عزيزي سرجي بافلوفيتش . ان انهيار العالم البورجوازي سيحدث من تلقاء نفسه .

كان سكادا اسرائيلياً من آسيا الصغرى في الخمسين من عمره . أحسر كثيراً ،

يحمل على أنف أعقف، زيتوني، نظارتين زجاجهما سميك كعدسات التلسكوب. كان قبيح المنظر : شعر اجعد، قصير ، ملتصق بجمجمة بيضوية الشكل ؛ واذنان ضخمتان . ولكنه ذو نظرة حارة ، مفكرة ، ذات رأفة لا تنضب ، وكان يحيا حياة ناسك ، ومينستريل يدعوه : « التأملي الاسيوي ».

وقال صوت جهير بينما وقفت يد حمّال على كتف جاك :

– كيف الحال ؟.. َحرّ ً أليس كذلك ؟

انه كيلليف قد دخل. ودار بين الجماعات موزعاً ضرباته الفجائية ومصافحاته : « كيف الحال ؟... » ولم يكن ينتظر الجواب التقليدي : « وأنت ؟... » وفي الشتاء كما في الصيف كان يجيب مسبقاً : « َحرّ اليس كذلك ؟..» (لكي يفكر بتبديل الصيغة يجب ان يكون في الشوارع ثلج على الاقل) .

وردد سكادا :

– ربما كان الانهيار بعيداً ولكن لا يمكن تجنبه . والزمن يعمل لصالحنا . وهذا ما يسمح بالموت دون اسف .

وانخفضت جفونه الرخوة ، وابتسم ابتسامة لم توجَّه الى احد ، ولم تكن سوى انعكاس يقينه . وقد موّجت شفتي فمه المشقوق واسعاً ، الواحدة ضد الاخرى كحيتين .

واستصوب جان بيرنيه بهزّات صغيرة حازمة من رأسه :

– نعم ، الزمن يعمل ... في كل مكان حتى في فرنسا .

كان يتكلم بسرعة وبصوت مرتفع ، وبنبرة واضحة . ويقول بسلامة طوية كل ما يجول في ذهنه . ولهجته الباريسية تضع نغماً مسلياً في هذه الاجتماعات الاممية . ومن الممكن انه في الثامنة والعشرين أو الثلاثين . نموذج العامل الشاب من إيل دي فرانس : نظر متيقظ ، ظل شارب ، انف روحاني ، وهيئة نظيفة وسليمة . لقد كان ابناً لصانع مفروشات في ضاحية سان انطوان. وترك عائلته وهو لا يزال صغيراً بسبب قضية نسائية ، وعرف البؤس ، وتردد على اوساط فوضوية ، ودخل السجن . وهو مطلوب لدى بوليس ليون على اثر شجار ،

فاجتاز الحدود. وكان جاك يحبه كثيراً. اما الاجانب فيبقونه بعيداً ،مندهشين من ضحكته السهلة ، ولطائفه البديهية ، مجروحين على الخصوص من عـادته المغضبة في قوله وهو يتكلم عنهم : « الانـكليش ..» و « المعكرونة » و « أكلة الملفوف » .. ولم يكن يرى في ذلك شيئاً مكدراً : وهو نفسه ، الم يكن يسمي نفسه« باريغو . » ؟

والتفت نحو جاك كأنه يريد ان يتخذه شاهداً :

– في فرنسا ، حتى في الاوساط الصناعية وارباب العمـل ، فإن الجيل الجديد قد تنسم الريح . انه يشعر ، في قرارة نفسه ، ان الأمر قد انتهى. وانه لن يحتفظ بصحن الزبدة الى ما لا نهـاية له ! وان الأرض ، في وقت قريب ، والمناجم ، والمصانع ، والشركات الكبرى ، ووسائل النقل ، وكل ذلـك يجب أن يعود حتماً الى جماهير الشعب ، الى الشغيلة ... والشبان يعرفون هـذا . اليس كذلك يا تيبو ؟..

والتفت زيلافسكي وسكادا بحدة ليسألا جاك بالنظر كما لو أن السؤال كان ذا ضرورة استثنائية وانهم ينتظرون رأي جاك ليحـددوا الخطورة الاخيرة . وابتسم جاك . لأنه بالتأكيد يعلق اهمية اقل منهما على هذه العلاقات عن التحول الاجتماعي . ولكنه كان اقل اقتناعاً منهم بفائدةهذه الاحاديث . وقال مسلماً:

– هذا صحيح. اعتقد ان الايمان بمستقبل الرأسمالية متزعزع بشكل خفي عند كثير من البورجوازيين الفرنسيين الفتيـان . وهم لا يزالون يستفيدون من النظام . ويأملون ان هذا سيدوم مثلهم . ولكنهم ليسوا « سليمي النية ».. . فقط ، هذا كل شيء . ويجب ان نستنتج بسرعـة انهم على اهبة إلقاء السلاح . اني اعتقد العكس ، بانهم سيدافعون بقوة عن امتيـازاتهم . وهم لا يزالون متمكنين بشدة ! وقبل كل شيء فهم يستفيدون من هذا الامر المحير : القبول الضمني باكثرية الافراد الذين يستغلونهم .

وقال بيرنيه :

– ثم انهم هم الذين يمسكون بأيديهم جميع مراكز القيادة .

وتابع جاك :

– ليس فقط يمسكونها فعلاً ، بل ان لهم في الوقت الحاضر شيئاً من الحق في الاحتفاظ بها .... حيث ، اخيراً ، اين سيجدون ؟....

– « ذكريات بروليتاري ! »

هكذا زمجر فجأة كيلليف ، وكان قد توقف في داخل الغرفة ، امام الطاولة التي كان شارشوفسكي ، بائع الكتب القديمة والمكلف بالمهـام المكتبية ، يعرض عليها كل مساءٍ الصحف والنشرات الدورية والكتب التي ظهرت حديثـاً . ولم يكن يُرى سوى رقبته المنحنية وكتفيه اللذين يرفعهما ضاحكاً .

وأنهى جاك جملته :

– اين سيجدون من اليوم الى الغد،وبعدد كاف، رجالاً متعلمين،متخصصين، قادرين على اخذ مراكزهم ؟.. لماذا تضحك يا سرجي ؟..

كان زيلافسكي منذ برهة يشمل جـــاك بنظرة لاهية محبة . وقال محركاً رأسه :

– في كل فرنسي يوجد متشكك لا ينام الا بنصف عين ..

وكان كيلليف قد التفت وأجال نظره في الجماعات المتنوعة وجاء رأساً نحو جاك ، هازاً كتاباً قد خيط حديثاً :

– « اميل بوشار : ذكريات طفولة بروليتاري » ... ما هذا ، هاه ؟

كان يضحك محملقاً بعينيه ، مقدماً فم رجل يعيش جيـداً وناظراً في وجوه الآخرين بالتتابع ، ويختنق مضحك يبالغ فيه قليلاً ، بسبب المزحة .

– رفيق آخر كان ناقصاً ، هيه ؟ رجل ذو « مشاكل » ؟.. مستخدم في مكتب جاء يضع أدبه الى جانب البروليتاريا ؟

وكان يدعى تارة « المحامي عن حقوق الشعب » وطوراً« الاسكافي» وقد ولد في البروفانس ، وبعد ان سافر في البحر سنوات ، في البحرية التجارية ، وبعد ان مارس عشرين مهنـة في جميع مرافىء البحر المتوسط ، استقر في جنيف . وكانت دكانه كإسكافي مزدحمة بالمناضلين العاطلين عن العمـــل ، والذين كانوا

يجدون هناك ، حين يكون « المكان » مقفلاً ، في الشتاء ناراً وفي الصيف جوز هند طازج : والتبغ والحطب في كل الفصول .

كان صوته المغني صوت لرجل من الجنوب ، يملك فضيلة جذابة يستخرج منها بالغريزة فائدة مدهشة . وفي الاجتماعات العامة كان يحدث له في آخر الجلسة ، وبعد ان يكون قد ظل ساعتين يتململ على مقعد ، ان يقفز فجأة الى المنبر ، بدون ان يأتي بشيء جديد ، معبراً ببساطة سحر صوته العنيف لأفكار الآخرين ، وينال الرضى العام بعدة عبارات ، والتصويت على اقتراحات لم يستطع أبرع الخطباء ان يجمعوا عليها الاكثرية. فالصعب كان اذن في إيقاف هذا التطرف السخي في الكلام ؛ لأن فوران غنائيته ، ورقة صوته ، وذلك السائل الذي يشعر انه ينبثق منه وينتشر في القاعة ، كل ذلك أناله متعة جسدية ذات قوة بحيث يجد نفسه انه لم يشبع منها ابداً .

كان يقلب اوراق الكتاب ، مجيلاً عينيه في عناوين الفصول ، جاراً سبابته الضخمة على السطور كطفل يتهجأ :

– « ... مسرات عائلية ... حرارة الموقد ... » آه ! المومس !

واطبق الكتاب ، وبحركة معينة للاعب كرة ، قذف الكتاب حتى الطاولة طاوياً عرقوبيه . مؤرجحاً ذراعه ، وقال موجهاً الكلام من جديد إلى جاك :

– انظر . اريد ايضاً ان اكتب مذكراتي. ولماذا لا ؟.. انا ايضا لدي مسرات عائلية ! ولدي ذكريات طفولة استطيع ان اعبر منها الى الذين ليس لديهم شيء من ذلك .

وكانت جماعات اخرى اجتذبها انفجار الاصوات قد اقتربت. وكان لمزحات المحامي عن حقوق الشعب مزية تنقية جو هذه المناقشات في اناء مقفل ، بين وقت وآخر .

وتصفح جمهوره مغضناً عينيه ، وبدأ بمهارة فائقة وبصوت منخفض كأنه مناجاة :

– الإستاك L'Estaque في مرسيليا يعرفه الجميع ، اليس كذلك ؟ ونحن

كنا نسكن الطابق السادس في داخل زقاق من الإستاك . غرفتـــان كنا كلانا نبقى في منتصف احداهما ، والاخرى بدون نوافذ ... كان الاب ينهض على نور الشمعة ، في برد الفجر ويسحبني من كومة الخرق التي كنت انام فيها مع اخوتي. لماذا لم يكن يريد ان ينام احد عندما يستيقظ هو؟ كان في المساء يعود متأخراً جداً ، نصف سكران ، تعبا . البائس . لأنه كان يدحرج البراميل على أرصفة المرفأ . والأم دائما مريضة ، تعدّ الفلس إلى الفلس . وكانت ترتجف امامه اكثر منا . وهي ايضا كانت تظل في الخارج طول النهار تعمل فيما لا ادري من اعمال منزلية في المدينة ... وأنا ، بما انه كان لي شرف الولادة اولاً ، كنت مسؤولاً عن ثلاثة اطفال . وكنت اضربهم لأنهم كانوا يغيظونني ببكائهم ، وبمخاطهم على انوفهم ، وبمشاجراتهم ... لم نكن نحصل على قطعة بطاطا ساخنة ولا مرة في النهار ! قطعة خبز ، بصلة ، ودزينة من حب الزيتون ، واحياناً قطعة صغيرة من شحم الخنزير . لا قطعة جيدة ابداً ، ولا كلمة حلوة ، ولا اي لهو ، لا شيء ابداً . من الصباح الى المساء في الشارع أجرُّ نفسي جراً وارتمي عـــلى أكوام الاقذار لأجل ليمونة فاسدة ُوجدت في الساقية...وكنت اشم رائحة الاصداف التي تسخر من قنافذ البحر على الرصيف ، بقدح فارغ... وفي سن الثالثة عشرة كنا نغازل الفتيــــات وراء سياج الاراضي البور ... آه ! الموسس ! مسراتي العائلية ! البرد ، الجوع ، الظلم ، الحسد، التمرد .لقد وضعوني اتعلم عند حداد كان يدفع لي اجري رفسات على قفاي . دائماً حرق من حديدةٍ محماةٍ في يدي، والرأس ُيشوى بنار الكور، والذراعان يتقطعان من سحب المنفاخ ! — ورفع نبرته . واهتز صوته من اللذة والتحدي ، وبلمحة عين شمل الحضور بنظرة : — وانا ايضاً لديّ ما اسرده من ذكريات الطفولة !

والتقى نظر جاك بنظر زيلافسكي اللاهي . ورفع الروسي يده بهدوء نحو كيلليف وسأل :

— كيف أتيت الى الحزب ؟

فقال كيلليف :

– هذا قديم . في الجندية كنت بحاراً . وكان من حظي ان يكون في غرفتي اثنان « يعرفان » ويقومان بالدعاية . وبدأت اقرأ وأستعلم . وآخرون ايضاً كانوا يستعيرون الكتب ، ويتناقشون ، ويتقدمون .. وبعد ستة اشهر اصبحنا نشكل فرقة ... وحين خرجت من هناك كنت فاهماً ، وكنت رجلاً .

وصمت . ثم قال متطلعاً امامه في الفضاء :

– كنا فريقاً ، عصابة من « القساة » ... ماذا حل بهم؟.. انهم لا يكتبون « ذكرياتهم » .

ثم هتف بتظرّف ملتفتاً نحو امرأتين شابتين اقتربتا :

– كيف حال جميلاتي ؟.. الطقس حار ، هاه ؟..

واتسعت الدائرة لتفسح مكانا للاثنتين الجديدتين، انهما رفيقتان سويسريتان أنابيس جوليان واميلي كارتيه . وكانت الاولى مدرّسة . والاخرى ممرضة في الصليب الأحمر . وكانتا تسكنان نفس المنزل وتأتيان عادةً معاً الى الاجتماعات. وأنابيس المدّرسة كانت تتكلم عدة لغات وتنشر في الصحف ترجمات لمقالات ثورية اجنبية .

كانتا مختلفتين جداً بالمظهر . والثانية اميلي ، صغيرة ، سمراء ، بدينة ، ووجهها المحاط بالقناع الازرق الذي يناسبها جيداً ولا تتركه ابداً كان ذا صبغة لبنية لطفل انكليزي ، بشوشة دائماً ، مغناجة قليلاً ، وحركات حية ، حاضرة البديهة ، ولكن دون ذكاء . ومرضاها يعبدونها. وكيلليف ايضاً كان يلاحقها بمناكدات نصف ابوية . وكان يقول موضحاً برصانة لا نظير لها : « لا لأنها جميلة ، بل لأنها خاطئة . انها تسوّي امورها جيداً ! »

والاخرى ، انابيس ، سمراء ايضاً ، ذات وجه ملون ، عظمية الوجنتين ، ورأس ذي شعر خشن قليلاً . ولكن الاثنتين يوحيان انطباعاً بالتوازن والقوة الداخلية : ذلك النبل الذي يمنحه للكائنات التوافق التام بين ما يفكرون ، وماهم ، وما يفعلون .

واستؤنف الحديث .

وكان سكادا التأملي يتكلم عن العدالة . واخذ يعظ بعذوبته الساخرة:
– المهم لأجل السلام بين الناس ان يُدخل المرء كثيراً من العدالة حوله .
فقال كيلليف :
– عدالتك ، اني اسير الى النهاية في سبيلها !هذاليس موضع بحث !ولكن مع ذلك يجب الا نعتمد كثيراً على هذا لإقرار السلام في العالم : ليس هنـــاك اكثر مماحكة ولا اكثر حباً للجدال من رجل مفتون بالعدالة !
فتمتم فانهيد الصغير الذي وقف الى جانب جاك :
– لا يدوم شيء بدون حب . والســـلام هذا ، انه عمل ايمان .. ايمان واحسان .. وظل جامداً بضع دقائق . ثم ابتعد وعلى شفتيه ابتسامة مبهمة .
وشاهد جاك باترسون والفريدا يجتازان الغرفة مستمرين في حديثهما بصوت منخفض . وكانا سائرين بتوانٍ نحو الغرفة الاخرى حيث يجب ان يكون مينستريل . وكانت المرأة الشابة تبدو صغيرة جـداً الى جانب الانكليزي . طويل ومرن ، الغليون في فمه ، وكان ينحني نحوها وهو يمشي. وقسماته المهذبة ، ووجهه المنير الحليق حديثاً ، وتفصيل ملابسه مهما كانت رثة ، تكسبه دائماً هيئة معتنى بها اكثر من رفاقه . والفريدا أثناء مرورها رفعت نحو جماعة جاك نظرها العميق حيث تلمع احياناً ، كما في هذه اللحظة ، شرارة غير منتظرة ، نار خفية تبدو انها تنذرها لمصير بطولي .
وابتسم باترسون لجاك . كان ذا هيئة منتعشة ، سعيدة ، زادت من شبابه . وصاح مقدماً لجاك نصف علبة من التبغ :
– لقد ارسل الي ريشاردلي كل هذا . لفّ سيكارة يا تيبو ! كلا ؟.. انت مخطيء . – واستنشق سحبة ثم تركها تخرج من منخريه بلذة : – اؤكد لك يا عزيزي : ان التبغ شيء محبوب حقيقة .
ورآه جاك يبتعد مبتسماً . ثم سار بدوره آلياً نحو الباب الذي رآهـا يختفيان فيه ولكنهتوقف على العتبة وأسند ذراعه الى اطار الباب .
وتناهى اليه صوت مينستريل جافاً ، قاطعاً ، مع تنمير ساخر في الصوت في

نهاية العبارة .

– لا شك في اني لا اعارض « الاصلاحات » « بلا » مبدئية . والكفاح في سبيل الاصلاحات ربما كان في بعض البلدان هو سطح المعركة . وتحسين الوضع الذي نالته البروليتاريا يستطيع ، إذا رفع مستواه ، ان يساهم إلى حدٍ ما في زيادة تربيتها الثورية . ولكن « مصلحيكم » يتخيلون ان الاصلاحات هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ الهدف . انها ليست سوى وسيلة ، بين كثير غيرها !.. ويتخيل مصلحوكم ان القوانين الاجتماعية والمكاسب الاقتصادية تزيد بالضرورة من نشاط البروليتاريا وتحسين وضعها في الوقت نفسه .. وهذا فيه نظر ! ويتخيلون ان المصلحين يكفون لمجيء الساعة التي لا يكون للبروليتاريا فيما إلا ان تأتي باشارة لتسقط السلطة السياسية آلياً في ايديهم . وهذا فيه نظر ! لا ولادة بدون المرور بالآلام العظيمة .

وقال صوت :

– لا ثورات بدون ازمة عنيفة ، بدون أعصار .

(وعرف جاك نبرة ميتورغ الجرمانية) .

وتابع مينستريل :

– يخطىء معلموكم خطأ فادحاً . يخطئون خطأ مزدوجاً : اولاً ، لأنهم يعتبرون البروليتاريا اعتباراً زائداً ، وثانياً ، لانهم يزيدون من اعتبار رأس المال . والبروليتاريا لا تزال بعيدة جداً عن درجة النضوج التي يعزونها اليها . وليس فيها تلاحم كاف ولا وعي طبقي كافٍ ، ولا .. الخ . لتنتقل إلى الهجوم وتنتزع السلطة ! أما رأس المال ، فانه بتخليه عن بقعة ، جعل مصلحيكم يتخيلون انهم بسيرهم من اصلاحات إلى اخرى سيبتلعونه حتى النهاية . مستحيل ! فإرادته المعادية للثورة ، وقواه في المقاومة لم تمس . ولم تنقطع ماكيافيليته عن اعداد الهجوم المعاكس . اتعتقدون انه لا يعرف ما يفعل ، بقبوله بتلك الاصلاحات التي وفّقت بينه وبين الرسميين في الحزب وقسمت الطبقة العاملة ، باقرارها التمييز بين الشغيلة ؟ الخ . لا شك في ذلك ، واني اعلم ان رأس المال

مقسم في الداخل بشكل عميق ، واعلم ، ان الخصومات الرأسمالية ستشتد رغم بعض المظاهر ! وهذا سبب آخر للتفكير بان رأس المال سيلعب كل أوراقه قبل ان يتخلى عن ملكيته . كل اوراقه !.. واحدى الأوراق التي يعتمد عليها اكثر من غيرها ، عن خطأ أو عن صواب ، هي الحرب !.. الحرب التي يجب أن تعيد اليه دفعة واحدة جميع البقاع التي افقدته اياها المكاسب الاجتماعية ، الحرب التي يجب ان تتيح له تفكيك البروليتاريا وملاشاتها ! أولا ، تفكيكها : لأن البروليتاريا ليست كلها بعيدة عن العواطف الوطنية ، والحرب سوف توقف قسماً هاماً من البروليتاريين القوميين ضد القسم الآخر من المخلصين للأممية ... ثانياً ، ملاشاتها : لأن القسم الاكبر من الشغيلة في ناحيتي الجبهة سوف يتجزأ في ميادين القتال ، والباقي أما ان تفسد اخلاقه في البلد المغلوب ، وأما أن يسهل شله وان ينام ، في البلد الغالب .

٦

قال سيرجي زيلافسكي بالقرب من جاك :

— كيلليف هذا !

وكان قد رأى جاك ينفصل عن الجماعة وينضم اليه .

— عجيب كيف تظل فينا الأمور التي تحدث في الطفولة .. اليس كذلك ؟ — كان يبدو أكثر ذهولاً من المعتاد ، وسأل : — وأنت يا تيبو . كيف اصبحت .. كيف اتيت معنا ؟ .. (لقد تردد حين أراد اطلاق صفة « الثائر » على جاك) .

وقال جاك ، وقد جنبه السؤال ابتسامته النصفية وانقباض نصفه الأعلى :

— اوه ! انا !

فتابع زيلافسكي حالاً باندفاع خجولٍ سعيد يخضع مرة واحدة لميله إلى التكلم عن نفسه :

— انا ، اعرف جيداً كيف ان الأمور تتابعت شيئاً فشيئاً منذ هربي من

المدرسة .. ولكني اعتقد انني كنت مهيأ جداً .. والصدمة الأولى حدثت في وقت بعيد جداً .. في طفولتي الصغرى ..

وكان يحني انفه نحو الأرض ويتأمل يديه اللتين كان يعقدهما ويحلها وهو يتكلم ، يدان بيضاوان سمينتان قليلاً ، وأصابعها القصيرة مربعة في رؤوسها ، وجلدة وجهه تبدو عن قرب بالية عند تجويف الصدغين حول العينين .. وله انف طويل ذو منخرين مائلين ، انف اعقف تزداد حركة رأسه بسبب خط الحاجبين المنحني ومنظر الجبهة الجانبي . وشارباه الأشقران بأبعادهما غير العادية يبدوان كأنهما صنف من حرير مخملي ، من اسلاك زجاج ، من مادة مجهولة ، غير وازنة : كانا يتموجان في الهواء بخفة شال ، بليونة تلك اللحى البخارية التي ترى عند بعض أسماك الشرق الأقصى .

وقد دفع جاك بلطف حتى داخل الغرفة ، وراء طاولة النشرات الدورية ، حيث اصبحا وحيدين .

وتابع دون أن ينظر اليه :

- أنا ، كان ابي مديراً لمصنع كبير بناه في أملاك العائلة على مسافة ستة فراسخ من غوروديا . واذكر كل شيء جيداً . ولم افكر بذلك أبداً ، وأنت تعلم .

ثم قال رافعاً رأسه ، ملقياً على جاك نظرته المداعبة :

- لماذا هذا المساء ؟ ..

كان لجاك طريقة في الاصغاء،صبورة ، جدية، رصينة تجتذب دائماً المسارّات اليه . وازداد ابتسام زيلافسكي :

- كل هذا مسلٍّ ، اليس كذلك ؟ اني اذكر البيت الكبير وفوما البستاني، وقرية العمال الصغيرة عند مدخل الغاب .. واذكر جيداً ، وأنا طفل صغير مع امي ، احتفالاً كان يعاد كل سنة - ربما لأجل عيد ميلاد والدي ! وكان ذلك في ساحة المصنع ، وكان ابي يقف وحيداً أمام منضدة حيث يوجد كدسات كبيرة من الروبلات على طبق . وكان العمال جميعهم يسيرون أمامه ، الواحد

بعد الآخر ، ويأخذون يده ويقبلونها .. نعم ، في تلك الأيام كنا هكذا في روسيا ؛ وانا واثق ان هذا لا يزال موجوداً في بعض المقاطعات إلى اليوم ، عام ١٩١٤ .. وكان والدي رجلاً كبيراً جداً ، عريض المنكبين ، يقف مستقيماً دائماً ، ويخيفني . وربما يخيف العمال أيضاً . وأذكر ، بعد وجبة الساعة العاشرة ، في الدهليز ، حين يتركنا والدي ليذهب إلى المصنع ، ويرتدي رداءه المبطن بالفرو وقبعته . انني كنت اراه دائماً يأخذ مسدسه الذي كان في الدرج ، ويدخله هكذا دفعة واحدة في جيبه ! ولا يخرج أبداً بدون العصا ، وهي عصا كبيرة من الرصاص ثقيلة جداً كنت اجد صعوبة في رفعها ؛ أما هو فكان يجعلها تدور بين اصبعيه وهو يصفر ..

ووجد تسلية في تذكر هذه التفاصيل فابتسم ، وتابع بعد وقفة قصيرة :

– كان ابي رجلاً شديد القوة . وكان يخيفني بسبب ذلك ، ولكني كنت احبه بسبب ذلك أيضاً . وكان العمال كلهم مثلي ، يخافونه لأنه كان قاسياً ، مستبداً ، وشرساً إذا لزم الأمر . ولكنهم يحبونه أيضاً لأنه كان قوياً . وثم كان عادلاً ، انه دون شفقة ولكنه عادل جداً .

وتوقف من جديد كأن وسواساً متأخراً ساوره ، إلا انه تابع وقد طمأنه انتباه جاك :

– ثم ذات يوم ، كان كل شيء مشوشا في البيت . أناس يدخلون ويخرجون بالملابس الرسمية . وابي لم يعد إلى البيت ليأكل معنا . وامي لم تشأ ان تجلس إلى المائدة . وكانت الأبواب تطرق ، والخدم يركضون في الاروقة . وامي لم تترك نافذة الطابق . وقد سمعت من يقول : إضراب ، شجار ، تكليف البوليس .. وفجأة قامت صيحات في أسفل . وعندئذ أخرجت رأسي من بين درابزيني الدرج ، ورأيت محملاً طويلاً ملوثاً بالوحل والثلج ، وماذا رأيت فوقه ؟ .. ابي نائم ، ومعطف الفرو ممزق ، ورأسه عارٍ .. ابي صغير جداً ، منطوٍ على نفسه ، وذراعه متدلٍّ فاخذت اصرخ . فوضعوا لي منشفة على رأسي ودفعوني إلى ناحية اخرى من البيت ، بين الخادمات اللواتي كن يتلين الصلوات

أمام الايقونة ، ويثرثرن كالغربان .. وفي النهاية فهمت انا أيضاً ... انهم العمال ، اولئك الذين اكتفوا اليوم من تقبيل اليد وتلقي الروبلات .. كسروا الآلات وأصبحوا هم الأكثر قوة ! .. نعم ، العمال أكثر قوة من الاب !

لم يكن يبتسم . كان يملس بطرف أصابعه رأس شاربه الطويل ، وينظر إلى جاك من تحت ، بهيئة احتفالية :

– في ذلك اليوم يا عزيزي تغير كل شيء بالنسبة إلي : لم أكن متحزباً لأبي ، بل كنت متحزباً للعمال .. نعم في ذلك اليوم ... وللمرة الأولى ، ادركت كم هو كبير ، وكم هو جميل ذلك الشعب من الرجال المنحنين الذين رفعوا ظهورهم !

وسأل جاك :

– أقتلوا اباك ؟

فانفجر زيلافسكي ضاحكاً كولد :

– كلا ، كلا .. رضوض زرقاء ، لا شيء ، لا شيء تقريباً ... فقط ، لم يعد والدي مديراً بعد ذلك . لم يعد إلى المصنع أبداً . فقد عاش عندنا مع الفودكا ، وكان يعذب دائماً امي ، والخدم ، والفلاحين ... أما انا فقد وُضعت في مدرسة في المدينة ، ولم آت إلى البيت أبداً ... وبعد سنتين أو ثلاث كتبت امي إلي ذات يوم ان علي ان اصلي وأن احزن لأن والدي مات. – وعاد إلى وقاره ، وأضاف بسرعة كأنه يتكلم لنفسه فقط : – ولكني آنذاك لم اكن اصلي .. وعلى اثر ذلك هربت .

وظلا صامتين بضع دقائق .

وكان جاك منخفض العينين يفكر بطفولته ، فتخيل الشقة في شارع الجامعة ، وتنشق عفونة السجاد ، والبسط ، والرائحة الخاصة الحارة المنبعثة من مكتب والده حين كان يعود مساءً من المدرسة ... وتخيل المدموازيل دي ويز العجوز وهي تمشي قافزة في الرواق ، وجيز ، جيز طفلة ، بوجهها المستدير وعينيها الجميلتين المخلصتين .. وتخيل الصفوف والدروس وفرص

التنفس ... وتذكر صداقة دانيال ، وحـــذر المعلمين ، والمشقة الجنونية في مرسيليا ،والعودة إلى البيت مع انطوان ،ووالده الذي كان ينتظره بالريدنكوت ، واقفاً تحت ثريا الغرفة الداخلية .. ثم الأيام الملعونة ، الاصلاحية ، وزنزانته ، والنزهة اليومية تحت رقابة الحارس .. وانتابته رعشة لاارادية بين كتفيه . ورفـــع جفونه وتنفس تنفساً عميقاً وتطلع حوله وقال ، وقد انتزع نفسه من الزاوية التي كان فيها ، مهتزاً ككلبٍ خارجٍ من الماء :

– انظر ، هذا هو بريزل ..

كان لودفيغ بريزل وشقيقته كوسيليا قد دخلا . وكانا يحاولان السير بين الجماهير كآتيين جديدين لم يألفا المكان إلا قليلاً . وحين شاهدا جاك رفعا ايديهما معاً وتقدما نحوه بهدوء .

لقد كانا بنفس القامة ، والاثنان اسمران متشابهان تشابهاً غريباً . وكان كل منهما يحمل على عنق مستدير ضخم قليـــلاً رأساً أثرياً ذا قسمات جامدة ولكنه ذو بروز قوي ، رأس ذو طراز زخرفي يبدو مكوّناً بواسطة الطبيعة أقل مما يبدو مؤلفاً وفقاً لقانون : كان حرف الانف يمدد خط الجبهة الأفقي دون أي ارتخاء على ارتفاع المحجرين . وكان النظر يتوصل بشكل سيء إلى بعث الحياة في وجه هذا التمثال : لا يكاد يوجد في عيني لودفيغ بريق أكثر حيوية من عيني اخته اللتين لا تعكسان اية عاطفة انسانية . وقالت كوسيليا موضحة :

– لقد عدنا البارحة .

فقال جاك وهو يشد على الايدي الممتدة :

– من مونيخ ؟

– من مونيخ وهامبورغ وبرلين .

وأضاف بريزل :

– وفي الشهر الماضي كنا في ايطاليا ، في ميلانو .

وتوقف رجل صغير اسمر ذو كتفين غير متساويين كان يمر في تلك اللحظة ،

متألق الوجه ، وقال بابتسامة عريضة تظهر أسنان حصان جميلة :
– في ميلانو ؟ .. هل رأيت رفاق مجلة « الأفانتي ؟ » .
– ولكن نعم ..
ولفتت كوسيليا رأسها وقالت :
– أأنت من هناك ؟
فأتى الايطالي باشارة ايجابية رددها عدة مرات ضاحكاً . وقدّمه جاك :
– الرفيق سافريو .
كان سافريو في الاربعين من عمره على الأقل. وكان صغيراً ، ربعة ، على شيء من قبح المنظر . وعينان بديعتان سوداوان ، مخمليتان ولامعتان كانتا تنيران وجهه . وصرح بريزل :
– لقد عرفت حزبك الايطالي قبل عام ١٩١٠ . وقد كان أحد الأحزاب الأكثر بؤساً . والآن ها هو : لقد رأينا إضرابات الاسبوع الأحمر ! انه تقدمٌ لا يُصدّق !
وهتف سافريو :
– نعم ، اية قوة ! واية شجاعة !
وتابع بريزل بنبرة حكمٍ وأمثال :
– من المؤكد ان ايطاليا اقتدت كثيراً بالاسلوب التنظيمي للاشتراكية الديموقراطية الالمانية . وأيضـــاً الطبقة العاملة الايطالية ، فهي اليوم مجتمعة ومحافظة تماما على النظام : مستعدة حقيقةً للركض إلى الامام . خصوصاً : ان البروليتاريا الفلاّحة أكثر قوة هناك من أية ناحية اخرى .
وكان سافريو يضحك سروراً :
– لنا تسعة وخمسون نائباً في المجلس ! وصحافتنا ! مجلة « الأفانتي » ! أكثر من خمس واربعين الف نسخة من كل عدد ! .. متى كنت عندنا ؟
– في نيسان وايار . لأجل مؤتمر أنكون Ancone.
– اتعرف سيراتي ! .. وفيللا ؟ ..

– سيراتي ، فيللا ، باكسي ، موسكا ليغرو ، مالاتستا ..
– وعظيمنا توراتي ؟ ..
– انه لمصلح عظيم .
– وموسوليني ؟ اليس مصلحاً ، هو ! انه مصلح حقيقي .. اتعرفه ؟
– نعم .

قال بريزل ذلك بايجاز وبكشرة خفيفة لا تدرك لم يلاحظها سافريو . وتابع الايطالي :

– كنا نسكن معاً في لوزان ، بنيتو وأنا . كان ينتظر العفو العام ليستطيع العودة إلى بلادنا .. في كل مرة يأتي إلى سويسرا كان يمر ليراني . وهذا الشتاء أيضاً .

فتمتمت كوسيليا :

– مغامر .

وتابع سافريو وهو يجيل بالجميع نظره الضاحك الذي يهتز فيه شيء من الكبرياء .

– انه من مقاطعة رومانيا Romagne مثلي . روماني . صديق منذ ان كنت طفلاً. اخ .. كان والده خماراً ، يبعد عن بيتنا ستة كيلومترات .. وقد عرفته جيداً .. أحد أوائل الرومانيين الاميين ! وكان يجب ان تسمعه في خمارته وهو يصرخ ضد محبي الكهنة ، ومحبي الوطن ! وبما انه كان فخوراً بولده فقد كان يقول : « بنيتو وأنا ، إذا شئنا ذات يوم ، فهذا يكفي لسحق جميع رعاع النظام القائم ! .. » وكانت عيناه تلمعان تماماً كعيني بنيتو .. اية قوة لبنيتو في عينيه ! اليس كذلك ؟

فتمتمت كوسيليا ملتفتة نحو جاك :

– نعم ، ولكنه يبقي رأسه عالياً[1] .

---

١ – بالالمانية في الأصل .

وأكمدّ وجه سافريو :

– ماذا قالت عن بنيتو ؟

فشرح جاك :

– قالت : يبقي رأسه عالياً .. أي انه يثير شيئاً من الدهشة . انه خيالي .

فهتفت سافريو :

– موسوليني ؟ ..

وألقى على الفتاة نظرة غاضبة .

ـ كلا ، موسوليني ،انه حقيقي ونقي ! وهو دائماً ضد الملكية ،وضد النزعة الوطنية ، وضد الاكليروس . وهو أيضاً قائد كبير .. القائد الثوري الحقيقي ! انه دائماً ايجابي ، واقعي .. العمل أولاً والمذهب بعد ذلك ! وكان في فورلي اثناء الاضرابات كالشيطان في الشارع ، في الاجتماعات ، في كل مكان ! وهو يعرف ان يتكلم ! ليس خطباً جوفاء ! « افعلوا هذا ، افعلوا ذاك » . آه ! كم كان مسروراً حين فككت الخطوط الحديدية لإيقاف القطار ! وكل النشاط الذي بُذل ضد غزوة طرابلس فقد جرى بواسطة صحيفته ، بواسطته ! في ايطاليا ، هو روحنا المناضلة . في مجلة الأفانتي هو الذي ينفخ الهيجان الثوري في جميع الصحف الشعبية .. وليس لحكومة الملك خصم كبير آخر مثله . وإذا اتيح للاشتراكية ان تصبح قوية عندنا فان ذلك يكون ، بصورة رئيسية ، بفضل بنيتو ! نعم . وقد رؤي جيداً هذا الشهر ، في الاسبوع الأحمر ! كيف انتهز الفرصة .. آه ! لو أصغو إلى صحيفته ! لأصبحت ايطاليا كلها مشتعلة ببضعة أيام . لو لم يستولِ الخوف على اتحاد الشغل ويقطع الاضراب لكان ذلك بدء الحرب الأهلية ، ولكان انهيار الملكية ، ولكانت الثورة الايطالية ! .. ان الرفاق يا تيبو ، عندنا في رومانيا ،اعلنوا الجمهورية في احدى الأمسيات!.. نعم ، نعم !

وادار ظهره لكوسيليا وبريزل . ولم يوجه كلامه الا الى جاك . وابتسم من جديد ووضع في صوته نوعاً من الجدّية المداعبة :

– احرص يا تيبو على ان لا تصدق كل ما تسمع .

ثم هز كتفيه بهدوء وابتعد دون ان يحيّ الالمانيين .

وساد صمت قصير .

وكانت الفريدا وباترسون قد تركا باب القاعة مفتوحاً حيث يوجد مينستريل ولم يكونوا يرونه ، ولكنهم كانوا يسمعون صوته بين لحظة واخرى مع انه لا يرفع صوته . وتوجه زيلافسكي بالسؤال الى بريزل :

– وعندكم ، هل تسير الامور سيراً حسناً ؟

– في المانيا ؟ .. دائماً افضل !

وصرحت كوسيليا :

– منذ خمس وعشرين سنة كان عندنا مليون اشتراكي فقط . ومنذ عشر سنوات اصبحوا مليونين . واليوم هم اربعة ملايين !

كانت تتكلم بعجلة دون ان تحرك شفتيها تقريباً ، ولكن بنبرة مثيرة ، ونظرها الثقيل كان يسقط بالتتابع على جاك وعلى الروسي . وكان جاك حين ينظر اليها يفكر دائماً بجينون [1] هوميروس ، هيرا ذات عيني البقر.

وقال بصوت يميل الى المصالحة :

– هذا لا شك فيه. فالاشتراكية الديموقراطية حققت منذ عشرين سنة جهداً بنّاءً عظيماً . وعبقرية التنظيم التي برهن عنها قادتها هي مدهشة . وهذا ما يبعث على التساؤل اذا لم تكن الروح الثورية ليست – كيف اقول ؟ على وشك ان تخف تدريجياً في الحزب الالماني... تماماً بمقتضى هذا الجهد الموجّه فقط نحو « التنظيم .... »

وتناول بريزل الكلام :

– الروح الثورية ؟ كلا ، كلا . كن مطمئنا هنا ! اولا التنظيم لتكوين

---

١ – جينون Junon : زوجة جوبيتر وابنه ساتورن ، إلهة الزواج (وهي نفسها هيرا في الاساطير الاغريقية) ويمثلها الشعراء متكبرة ، غيورة ، حقودة. « المعرب »

قوة ! .. فعندنا ، لا يوجد ايديولوجية فقط ، بل يوجد واقعية. وهذه أفضل ! وإذا كان السلام قد حُفظ في اوروبا في هذه السنوات الاخيرة، اريد ان أقول في عامي ١٩١١ و ١٩١٢ ، فبفضل من ؟ .. وإذا كان بالامكان اليوم ان نأمل بتجنب حرب اوروبية كبرى لوقت طويل ، فبفضل من ؟ .. بفضل البروليتاريا الألمانية ! والعالم كله يعرف ذلك . أنت تقول : جهد الاشتراكية الديموقراطية البناء . انها أيضاً أكثر مما تظن . انها بناء جبار . وقد اصبحت حقيقة دولة في دولة . ولكن كيف ؟ .. بفضل قوة عملنا البرلماني . ان نفوذنا في الريخستاغ [1] لم ينقطع عن الازدياد . وإذا اتاح دعاة الجامعة الألمانية لأنفسهم غداً ضربة كضربة أغادير [2] ، فليس فقط المائتا الف متظاهر في بارك تربتلو Treptlow هم الذين يعترضون ، بل معظم النواب الاشتراكيين في الريخستاغ ومع جميع اليساريين في بلادنا !

وكان سيرجي زيلافسكي يصغي بانتباه :

– ومع ذلك فان نوابكم ، حين سُنَّ قانون التسلح صوتوا إلى جانبه !

فقالت كوسيليا رافعة أصبعها :

– عفواً .

وقاطعها اخوها وقال بكبرياء :

– آه ! يجب أن تفهم (التكتيك) يازيلافسكي . لديك هنا شيئان مختلفان جداً: لديك قانون التسلح الحربي ، ولديك القانون الذي يمنح الاعتمادات لتحقيق هذا القانون الحربي . إن الاشتراكيين الديموقراطيين صوتوا أولا ضد القانون الحربي ، وبعد ذلك ، عندما صوت الريخستاغ على القانون الحربي رغماً عنهم ، صوتوا مع قانون الاعتمادات . وهنا « التكتيك » الجيد .. لماذا ؟ .. لأن في هذا

---

١ – مجلس النواب الألماني .

٢ – اشارة الى ان المانيا أرسلت دارعة حربية الى ميناء أغادير في مراكش عام ١٩١١ وكانت هذه البادرة بدء الخلاف الفرنسي الألماني . « المعرب »

القانون شيئاً جديداً كل الجدة في الريخ ، شيئاً رئيسياً جداً بالنسبة الينا : ضريبة امبراطورية مباشرة على الثروات الكبرى ! هنا اغتنام للفرصة ، لأنـــه نصر اجتماعي جديد وحقيقي للبروليتاريا ! افهمت الآن ؟ .. والبرهان على أن نوابنا ظلوا متصلبين ضد النزعة الحربية هو انهم حاربوا بالاجماع في جميع المرات التي استطاعوا فيها محاربة سياسة المستشار الخارجية الأمبريالية .

فقالت كوسيليا مسلّمة :

– هذا صحيح . ومع ذلك ..

وترددت . فسأل زيلافسكي مهتماً :

– ومع ذلك ؟ ..

وقالت كوسيليا : ومع ذلك ؟ ..

– وبعد .. ماذا تريدون .. لقـــد سنحت لي الفرصة في برلين لأقترب من نوابكم الاشتراكيين في الريخستاغ ، وقد شعرت إن نضالهم ضد النزعـة الحربية ظل بالاجمال افلاطونياً .. اني لا اتكلم عن ليبنخت بالتأكيد،بل عن الآخرين . كان معظمهم يكرهون بشكل ظاهر أن يهاجموا الشر من جذوره وأن يحاربوا بصراحة روح الخضوع عند جماهير الشعب الألماني أمام الشيء الحربي ..وشعرت – كيف أقول ؟ – انهم ظلوا رغم كل شيء « المانيين » بشكل رهيب .. مقتنعين بالمهمة التاريخية للبروليتاريا « الألمانية » ! ومن المستبعد جداً أن يدفعوا نزعتهم الأممية ونزعتهم اللاحربية إلى النقطة التي دُفِعنا اليها في فرنسا .

– هذا طبيعي .

قالت كوسيليا ، وحجبت جفونها نظرها لحظة .

– هذا طبيعي .

ردد بريزل بنبرة استعلاء هجومية .

وأسرع زيلافسكي بالتدخل ، وقال ملاحظاً وهو يبتسم برقة :

– ان ديموقراطياتكم البورجوازية تقبل الاشتراكيين في برلمانها لأنها تعرف جيداً ان اشتراكي الحكومة ليس اشتراكياً حقيقياً خطراً .

في الطرف الآخر من الغرفة كان ميتورغ وشارشوفسكي ، والأب بواسوني قد نهضوا واقتربوا .

وشد بريزل و كوسيليا على ايديهم .

وهز زيلافسكي رأسه بهدوء وهو دائم الابتسام ، وقال ملتفتاً هذه المرة نحو جاك :

– اتدري بماذا أفكر ؟ .. أفكر ان انظمتكم الديموقراطية ، وجمهورياتكم ، وملكياتكم ، وكذلك البرلمان ، ربما كانت أدوات أكثر رهبة وأكثر خبثاً ، دون أن تبدو ، من قيصريتنا المشينة لتحويل جماهير الشعب إلى عبيد .

وميتورغ الذي كان يصغي صرّح بعنف :

– لقد كان الرّبان على حق أيضاً في ذلك المساء حين قال : « الصراع حتى الدم ضد الديموقراطية ، هذا هو الأمر الأول للفعالية الثورية » .

فقال جاك معترضاً :

– عفواً . أولاً ان الربان لم يكن يقصد سوى روسيا ، والثورة في روسيا ؛ وما قاله هو ان الثورة الروسية يجب الا تبدأ بديموقراطية بورجوازية ، بل أن تصبح بروليتاريا دفعة واحدة .. وبعد ذلك يجب الاّ نبالغ : مهما كان الأمر ، فمن الممكن القيام بعمل نافع في داخل ديموقراطية .. رجل كجوريس .. كل ما حصل عليه الاشتراكيون في فرنسا ، وأكثر من ذلك أيضاً ، في المانيا .

فقال ميتورغ :

– كلا . إن الثورة ، ثم التحرر داخل الديموقراطية ، هما اثنان ! وفي فرنسا أصبح الرؤساء نصف بورجوازيين . فقد فقدوا المعنى الثوري الحقيقي .

وقاطع بواسوني طارفاً عينيه بخبث نحو الباب المفتوح :

– يجب أن نسمع قليلاً ما يُحكى بجانبنا .

فسأل بريزل :

– هل مينستريل هنا ؟ ..

فقال ميتورغ :

ـ الا تسمعه ؟ ..

وصمتوا ليرهفوا السمع . وكانت رنة صوت مينستريل ترتفع ، على وتيرة واحدة مميزة .

وكان زيلافسكي قد ادخل ذراعه تحت ذراع جاك وقال :

ـ هيا نسمع ، نحن أيضاً .

٧

جاء جاك يقف إلى جانب فانهيد الذي كان مضموم اليدين، مطبق الجفون نصف إطباقة ، مسنداً ظهره إلى رفوفٍ علاها الغبار وكدّس عليهـــا مونيه نشرات قديمة .

وقال تروتنباخ ، وهو الماني يهودي أشقر أمغر أجعد يسكن عادة في برلين ولكنه غالباً ما يأتي إلى جنيف :

ـ وأنا ، لا اعتقد ان باستطاعتكم القيام بعمل جيد بوسائل مشروعة . أنها وسائل وجلة لأصحاب المذهب العقلي !

والتفت نحو مينستريل طالباً إشارة استحسان ، ولكن الربان الجالس في وسط الجماعة إلى جانب الفريدا كان يتأرجح على كرسيه ونظره ثابت وبعيد .

وقال ريشاردلي ، وهو غلام كبير ذو شعر أسود مقصوص بشكل فرشاة (قبل ثلاث سنوات تألفت حوله هـــذه الجماعة الاممية ، وكان حتى مجيء مينستريل هو باعث الحياة فيها ، إلا إنه تنحى من تلقاء نفسه أمام تفوق الربان الذي أصبح يلعب بجانبه منذ ذلك الوقت ، بذكاء واخلاص ، دور الرجـــل الثاني) :

ـ يجب ان نميز . فعلى قـــدر البلدان تكون الاجوبة . في بعض البلدان الديموقراطية كفرنسا، وانكلترا ، يمكن القبول بان الحركة الثورية تتقدم بوسائل مشروعة .. وقتياً .

كان دائماً يقدم ذقنه وهو يتكلم : ذقن مروسة ، عنيدة . ووجهه المحلوق

ذو الأرضية البيضاء المرصعة بشعر أسود كان لطيفاً كفاية لأول نظرة ، إلا أن حدقتيه بلون الكهرباء السوداء تنقصها العذوبة ،وشفتاه الرقيقتان كانتا تنتهيان في مكان اتصالها بخط حاد كأنه شق ، وكان لصوته نشوفة كريهة .

وقال شارشوفسكي معبراً :

ـ الصعوبة هي في معرفة اللحظة التي يجب فيها الانتقال من العمل المشروع إلى العمل العنيف العصياني .

فرفع سادا انفه الاعقف :

ـ حين تشتد قوة دفع البخار فان الغطاء يثب عن السماور من تلقاء نفسه .

وسالت ضحكات ، ضحكات شرسة كان يدعوها فانهيد « ضحكات أكلة اللحوم البشرية » .

وصاح كيلليف :

ـ برافو أيها الاسيوي !

وقال بواسوني ملاحظاً ، وهو يمر بلسانه الطويل على شفتيه الورديتين :

ـ ما دام الاقتصاد الرأسمالي يتصرف بالسلطة فإن المطلب الشعبي بالحريات الديموقراطية لا يستطيع أبداً أن يدفع الثورة الحقيقية إلى الامام .

فقال مينستريل دون ان يلقي نظرة على الاستاذ الهرم :

ـ لا شك في ذلك .

وساد الصمت : وأراد بواسوني متابعة الكلام :

ـ التاريخ هنا .. انظروا ما جرى لأجل ..

هذه المرة كان ريشاردلي هو الذي قاطعه :

ـ أجل ، نعم ، التاريخ ! هل يجيز لنا التاريخ الظن ان بالامكان « توقع » تعيين موعد تحرك الثورة مقدماً ؟ .. كلا .. في ذات يوم جميل يثب السماور .. ان دينامية القوى الشعبية لا تدركها التخمينات .

فقال مينستريل بنبرة لا جواب لها :

ـ هذا موضع نظر .

وصمت . ولكن جميع الذين اعتادوا أساليبه يعرفون أنه يستعد للكلام . كان في الاجتماعات يتبع فكرته بصمت ، ويظل وقتاً طويلاً قبل ان يتدخل في المناقشة . وكان يكتفي بين وقت وآخر بمقاطعة المكثارين بكلمة لغزية : « هذا موضع نظر ! » أو بكلمة مجاملة مهدئة : « لا شك في ذلك ! » والتي إذا اتت من أي انسان غيره تحدث تأثيراً هزلياً ، ولكن حدة النظرة ، وقساوة الصوت ، وتلك الارادة ، وذلك التفكير المجهد ، كل هذه الأمور التي يدركها المرء فيه لا تهيء للابتسام وتستلفت انتباه أولئك الذين يكرهون أساليبه الحازمة .

وأوضح فجأة :

– يجب الا نخلط .. « توقع ! » هل بالامكان توقع ثورة ؟ .. ماذا يعني ذلك ؟

كان الجميع يصغون . وقد مدّ أمامه ساقه المريض وسعل . ويده التي تذكر ببرثن ، والتي تبقى أصابعها في أكثر الأحيان نصف مطبقة كأنها تمسك بكرةٍ غير منظورة ، ارتفعت ، ولامست اللحية وجاءت تستند إلى الصدر .

– يجب الا نخلط بين « ثورة » و « عصيان » . يجب الا نخلط بين «ثورة» و « وضعية ثورية » .. فكل « وضعية ثورية » لا تلد بالضرورة « ثورة » حتى لو ولدت « عصياناً » .. ففي عام ١٩٠٥ مثلاً ، في روسيا : أولاً وضعية ثورية ثم عصيان ، ولكن ليس ثورة – واستجمع أفكاره بضع ثوان : – ريشاردلي يقول : « تخمينات » . ما معنى هذا ؟ .. والمتوقع بدقة لتلك اللحظة التي تصبح الوضعية فيها « ثورية » أمر صعب . إلا ان العمل البروليتاري بتمرنه على وضعية ما قبل الثورة ، فإن بامكانه التسهيل ، باستطاعته التعجيل في نمو وضعية ثورية . ولكن الذي يخلق الحركة فهو دائماً حادث خارجي عنها : لا يمكن تحديد تاريخه مسبقاً .

وكان قد وضع مرفقاً على مؤخر الكرسي الذي تشغله الفريدا ، ووضع وجهه على قبضته ، ومضت دقيقة وعيناه كعيني مدعي وحيٍ جلي ، تحدقان

بجدة في نقطة بعيدة .

– المقصود اعتبار الأشياء كما هي . في الواقع . في التطبيق العملي . (كان له اسلوب خاص به، ذو صوت كريه ، كصدمة صنوج حين يلفظ كلمة «تطبيق عملي . »). مثلاً : روسيا .. نعود دائماً إلى الامثلة ! إلى الوقائع.وليس سوى هذا يمكن أن يعلمنا شيئاً . نحن لسنا في الرياضيات . أن الأمر في مادة الثورة كما في الطب : هناك النظرية ، ثم هناك التطبيق العملي . وهناك أيضاً شيء آخر : الفن .. لننتقل (وقبل ان يتابع ابتسم لالفريدا ابتسامة مقتضبة كأنه يجدها وحدها قادرة على تذوق الاستطراد .) إلى عام ١٩٠٤ ، في روسيا ، قبل حرب مندشوري ، كان يوجد وضعية ما قبل الثورة ، وضعية ما قبل الثورة كانت تستطيع ، وكان عليها أن تقود وضعية ثورية . ولكن كيف ؟ هل كان بالامكان أن نعرف كيف ؟ .. كلا . كمية من الدمامل يمكن أن تميت . وهناك أيضاً المسألة الزراعية ، والمسألة اليهودية . وهناك تواريخ فنلندا وبولونيا . كان هناك النزاع الروسي – الياباني في الشرق . مستحيل معرفة ماهية العنصر غير المنتظر الذي سوف يبدل وضعية ما قبل الثورة إلى وضعية ثورية .. وفجأة حدث هذا الأمر غير المنتظر ، بطانة من المغامرين القائمين بأشغال تجارية نجحوا في الحصول على نفوذ كافٍ على القيصر ليقذفوا به في حرب الشرق الأقصى بمعزل عن وزير الخارجية وضد سياسته . من يستطيع توقع هذا ؟ ..

فلاحظ زيلافسكي بهدوء :

ـ يمكن التخمين ان المنافسة الروسية اليابانية في مندشوري سوف تثير القتال حتماً .

ـ ولكن من كان يستطيع القول ان هذا القتال سوف ينفجر عام ١٩٠٥ ؟ وأنه سوف ينفجر ليس بسبب مندشوري بل بسبب كوريا ؟ هذا مثل عن ماهية « العنصر الجديد » الذي يبدل وضعية ما قبل الثورة إلى وضعية ثورية . وقد احتاجت روسيا إلى هذه الحرب وتلك الاخفاقات . عندئذ فقط رؤيت

الوضيعة انها اصبحت « ثورية » ، ونمت حتى درجة « العصيان » ... العصيان – ولكن ليس « الثورة » ! ليس الثورة البروليتارية ! لماذا ..، لان الانتقال من الوضعية الثورية الى العصيان شيء . والانتقال من العصيان الى الثورة شيء آخر ... اليس كذلك ايتها الفتاة الصغيرة ؟...

أضاف ذلك بصوت منخفض .

وكان وهو يتكلم يحني جبهته بحركة سريعة مرة بعدمرة ليستشير وجه المرأة الشابة . وصمت دون ان ينظر الى احد . وكان يبدو اقل تفكيراً بما قاله منه بالتأمل في المطلق بذلك المجموع المذهبي الذي يجب ان يتحرك فيه دون ان يهمل العلاقة بين النظرية والواقع ، بين المثل الاعلى الثوري وتلك الوضعية المعطاة او تلك . كانت عيناه ثابتتين . وفي تلك اللحظات كانت حيويته تبدو مركزة في لهب النظرة القاتم ؛ وتلك النظرة ، الانسانية قليلاً ، كانت توقظ فكرة نار مخبأة ، حارقة دون إمهال في داخله . تحرق الكائن وتتغذى بمادته .

وقطع الصمت الاب بواسوني الذي كانت النظريات الثورية تشوقه اكثر من الثورة :

– نعم ! حسناً ! موافق ! من الصعب استشفاف الانتقال من وضعية ما قبل الثورة الى الوضعية الثورية ... ولكن ، ولكن ... ولكن حين تكون هذه الوضعية الثورية قد خُلقت ، الا يصبح توقع الثورة ممكناً ؟

فقاطعه مينستريل منزعجاً :

– التوقع ! التوقع ... ليس المهم ان نتوقع كثيراً .. بل المهم ان نُعِدّ ، ان نعجل هذا الانتقال من وضعية ثورية الى الثورة . وعندئذ يتوقف كل شيء على العوامل الذاتية ، قابلية الرؤساء والطبقة الثورية للعمل الثوري . وهذه القابلية ، علينا كلنا نحن تشكيلات الطليعة ، ان نوصلها الى اعلى درجة بجميع الوسائل . وحين تكون هذه القابلية كافية يمكن عندئذ الاسراع في الانتقال الى الثورة ! عندئذ يمكن توجيه الحوادث ! عندئذٍ نعم ، اذا اردت ، يمكن التوقع !

ولفظ هذه العبارات الاخيرة لاهثاً ، خافضاً صوته ، وبسرعة جعلتها غير مفهومة جيداً الكثير من هؤلاء الاجانب . وصمت ، قالباً رأسه قليلاً ، وابتسم ابتسامة مقتضبة واغمض عينيه .

وجاك الذي ظل واقفاً ، رأى بقرب النافذة كرسياً فارغاً فذهب وجلس عليه . (لم يكن يشترك في الحيـــاة الجماعية بصورة فضلى الا حين يكون باستطاعته الابتعاد ، دون ان يقطع الاتصال ، ويستعيد السيطرة على نفسه وهو منتحٍ جانباً ، وعندئذ لم يكن يشعر انه متضامن فقط ، بل اخوي) . كان ثابتاً على مقعده ، متصالب الذراعين ، والرأس على الجدار ، وترك نظره يجول لحظةً في الجماعة التي التفتت من جديد الى مينستريل بعد دقيقة راحة . كانت الهيئات متنوعة ولكنها متنبهة بشغف ... كم كان يحبهم ، كل هؤلاء الرجال الذين انصرفوا بكليتهم الى المثل الاعلى الثوري ، والذي كان يعرف حياتهم النضالية المطاردة ! كان باستطاعته ، من الناحية الايديولوجية ، معارضة بعض منهم ، وكان يتألم من بعض سوء الفهم ، ومن بعض القساوة . كان يحبهم كلهم لان الجميع « طاهرون » . وكان فخوراً لأنهم يحبونـــه رغم الاختلاف بينهم ، ذلك لانهم يشعرون انه هو ايضاً «طاهر» . وفجأة غطى التأثر على نظره وكف عن رؤيتهم وتمييزهم الواحد من الآخر ؛ وفي لحظة ، فان هذا الاجتماع للخارجين على القانون ، الآتين من اربع زوايا اوروبا لم يعد بنظره سوى صورة لتلك الانسانية المهانة التي وعت عبوديتها والتي شقت عصا الطاعـــة اخيراً وجمعت كل طاقاتها لإعادة بناء العالم .

وارتفع صوت الربان في الصمت :

– لنعد الى المثل الروسي ، الى التجربة الكبرى . يجب دائماً العودة اليها . في عام ١٩٠٤ هل كان يمكن التوقع ان تصبح وضعية ما قبل الثورة وضعية ثورية في السنة الثانية بعد الفشل في الشرق ! .. كلا .. وفي عام ١٩٠٥ ، وقد خلقت الظروف الوضعية الثورية ، هل كان بالإمكان معرفة ما إذا كانت الثورة ، الثورة البروليتارية ، ستحدث ؟ .. كلا ! وأقل من ذلك أيضاً معرفة ما إذا كان بالإمكان أن تنجح .. كانت العوامل

المحسوسة ممتازة ، معينة تعييناً دقيقاً ، تستحق الإعجاب ! كوارث حربية ، أزمة سياسية . أزمة اقتصادية : أزمة اعاشة ، قحط .. الخ .. ودرجة الحرارة ترتفع بسرعة كبيرة : اضرابات عامة ، عصيان الفلاحين ، تمردات ، عصيان كانون الأول في موسكو .. ومع ذلك فلماذا لم تنجح « الثورة » في ان تنبثق عن « الوضعية الثورية » ؟ بسبب نقص العوامل « الذاتية » يابواسوني ! لأن ما من شيء كان في مكانه ! لا توجد إرادة ثورية حقيقية ! لا توجد تعليمات واضحة في رؤوس القادة ! لا يوجد تفاهم بينهم ! لا يوجد سلسلة رتب ، لا يوجد نظام ! لا توجد علاقة كافية بين القادة وعامة الشعب ! وعلى الخصوص : لايوجد اتحاد بين كتلة العمال وكتلة الفلاحين : لا يوجد أي إعداد ثوري قوي عند الفلاحين .

فجازف زيلافسكي :

– إلا ان الموجيك [1] ..

– الموجيك ! لقد قاموا ببعض الفتن في قراهم . واجتاحوا ممتلكات النبلاء وأحرقوا هنا وهناك قصراً . لا شك في ذلك ! ولكن من الذي رضي أن يسير ضد العمال ؟ .. الموجيك ! – ردد ذلك بقساوة – حين نعرف ما جرى في كانون الأول ١٩٠٥ ، حين نفكر بالوقت الضائع ، بالمناقشات النظرية في داخل الاشتراكية الديموقراطية ؛ وحين نتأكد ان القادة لم يتفاهموا حتى على الأهداف الواجب الوصول اليها ، لم يتفقوا حتى على مخطط للعمل الجماعي ، إلى درجة أن اضرابات بطرسبورج قد انقطعت ببلاهة في اللحظة التي بدأت بها الانتفاضة في موسكو ، إلى درجة أن اضراب البريد والسكك الحديدية قد انتهى في كانون الأول ، تماماً في اللحظة التي كاد فيها توقف المواصلات أن يشلّ الحكومة ويمنعها من أن تقذف موسكو بكتائب الجيش التي سحقت العصيان – عندئذ نفهم جيداً لماذا الثورة في روسيا عام ١٩٠٥ .. – وتردد ربع ثانية ، وخفض رأسه نحو الفريدا ، وتمتم بسرعة : – .. قضي عليها مقدماً .

---

١ – الفلاح الروسي .

وريشاردلي الذي كان جالساً ومرفقاه على الركبتين ، ونصفه الأعلى منحن . وكان يلعب باصابعه ، رفع عينيه مندهشاً :

ـ قضي عليها مقدماً .

وقال مينستريل : تماماً .

وساد صمت . وجازف جاك من مكانه :

ـ ولكن ، اذن ، بدلاً من أن نريد دفع الأمور إلى النهاية اليس من الأفضل .. ؟

فتطلع مينستريل إلى الفريدا ، وابتسم دون أن يدير عينيه نحو جاك . وأبدى سكادا ، وتروتنباخ ، وزيلافسكي وبريزل اشارات استحسان . وتابع جاك :

ـ ما دام القيصر منح الدستور ، ألم يكن من الأفضل ؟ ..

ـ .. التفاهم موقتاً مع الأحزاب البورجوازية ؟

هكذا أوضح بواسوني .

ـ .. والاستفادة من ذلك لتنظيم الاشتراكية الديموقراطية الروسية بشكل أفضل وفقاً لأسلوب .

وهكذا أضاف بريزل .

ولاحظ زيلافسكي بهدوء :

ـ كلا . أنا لا افكر بهذا الشكل . فروسيا ليست المانيا . واعتقد ان لينين كان على حق .

فنهض جاك :

ـ أبداً ! ان بليكانوف هو الذي كان على حق ! لم يكن يجب « حمل السلاح » بعد دستور اكتوبر ، بل كان يجب ايقاف الحركة . وتوطيد المكسب !

فقال سكادا :

ـ لقد اخمدوا همة عامة الشعب . وقتلوا لأجل لا شيء .

فقال جاك بجدة :

ـ هذا صحيح . كان بامكانهم توفير كثير من الآلام .. كثير من الدم والعرق بلا فائدة !

فقال مينستريل بجدة :

ـ هذا موضع نظر !

ولم يبتسم . وسكت الجميع منتبهين . وتابع بعد وقفة قصيرة :

ـ مجازفة قضي عليها ، نعم . ومنذ تشرين الأول ! .. ولكن أهو دم بدون فائدة ؟ .. بالتأكيد كلا !

وكان قد نهض ، الأمر الذي لم يكن يفعله أبداً حين يكون قد بدأ بالكلام ، وسار حتى النافذة ، وتطلع إلى الخارج لاهياً ، وعاد بسرعة إلى جانب الفريدا :

ـ لم يكن باستطاعة عصيان كانون الأول أن يقود إلى الاستيلاء على السلطة . ليكن ! فهل كان هذا سبباً لعدم التحرك « كما لو أن » هذا الاستيلاء كان ممكناً ؟ . بالتأكيد كلا . أولاً لأن أهمية القوى الثورية لا تُعرف إلا عند التجربة ، عندما يقام بالثورة . وبليكانوف مخطىء . كان يجب أن « يحمل السلاح » بعد تشرين الأول . كان يجب أن يسيل الدم ! وسنة ١٩٠٥ هي مرحلة ، مرحلة ضرورية : ضرورية تاريخياً . أنها بعد الكومونه ، وعلى مقياس أكبر ، هي المحاولة الثانية لتحويل حرب امبريالية إلى ثورة اجتماعية . والدم الذي سال لم يسل لأجل لا شيء ! فحتى عام ١٩٠٥ كان الشعب الروسي ـ الشعب والبروليتاريا نفسها ـ يؤمن بالقيصر . كانوا يرسمون علامة الصليب عند لفظ اسمه . ولكن منذ ان اطلق القيصر النار على الشعب ، فإن البروليتاريا ، وكثيراً من الفلاحين أيضاً ، بدأوا يدركون أنه لا ينتظر شيء من القيصر ، ولا من الطبقة القائدة . وفي بلاد كثيرة الغموض ، كثيرة التأخر كان الدم لاغنى عنه لإنماء وعي الطبقة .. وليس هذا كل شيء . فمن وجهة نظرٍ اخرى أيضاً ، من وجهة نظرٍ تقنية ، تقنية ثورية ، فإن التجربة كانت ذات اهمية عظيمة جداً .

فقد استطاع القادة أن يتتلمذوا بشكل لم يسبق له مثيل. وربما يفطنون إلى ذلك غداً .

كان دائما واقفـــا ، لامع العين ، مميزاً كل جملة باشارة من يديه . وكان لمعصميه مرونة نسائية ، وحركاته وهو يتكلم ، بالطريقة الدقيقة الحلزونية في عقف اصابعه ، كانت تذكر بالشرق ، براقصات كمبودجيا ، بالهندوس الذين يسحرون الافاعي .

وداعب كتف الفريدا ، وعاد الى الجلوس ، وتابع :

– سيفطن الى ذلك غداً ، واوروبا اليوم كروسيا عام ١٩٠٥ ، هي في وضعية ما قبل الثورة ، ومنازعات العالم الرأسمالي تشتغل في اوروبا ، وليس الازدهار سوى وهمي ؟.. ولكن متى ، وكيف ينشأ العمل الجديد !.. ما سيكون !،، ازمة اقتصادية ؟.. ازمة سياسية ؟.. حرب ؟ .. ثورة في داخل دولة ؟.. كيف ومتى ستشكل الوضعية الثورية ؟.. ان من يستطيع استشفاف ذلك لذكي جداً !. ومع ذلك فقليلاً ما يهم ، فالعامل الجديد قد نشأ ، والمهم في ذلك اليوم ان نكون على استعداد !، ففي روسيا عـام ١٩٠٥ لم تكن البروليتاريا مستعدة ؟.. ولهذا اخفق كل شيء. فهل بروليتاريا اوروبا مستعدة؟.. هل قادتها مستعدون ؟.. كلا ، . وهل التعاضد بين اجزاء الامية كاف ؟.. كلا !.. وهل الاتحاد بين رؤساء البروليتاريا قوي بشكل كاف ليكون فعّالاً؟.. كلا . ايُعتقد ان انتصار الثورة يكون ممكنا دون حشد دقيق للقوى الثورية في جميع البلدان ؟ لقد اسسوا ذاك « المكتب الدولي » ، ولكن ما هو ؟.. ليس سوى جهـاز للاستعلامات . حتى انـه ليس ذاك الجنين لتلك « السلطة المركزية البروليتارية » التي لا يكون ممكنا بدونها اي عمل مشترك وحاسم ... الامية ؟.. انها اظهار لوحدة البروليتاريا الروحية. وهذا ليس بالشيء القليل... ولكن تنظيمها الحقيقي لا يزال في طور التكوين ، كل شيء في طريق العمل !. كيف ستتوضح فعاليتها ؟.. بالمؤتمرات !. اني لا اطعن بالمؤتمرات ... سأكون في فيينا في ١٣ آب ... ولكن بالفعل لا ينتظر شيء من المؤتمرات ... مثلاً :

بال ١٩١٢ ، مظاهرة عظيمة ضـــد الحرب البلقانية . لا شك في ذلك ! . لنر النتائج الآن . لقد صوتوا ، وسط الحماسة ، على حلول مدهشة . ومدهشة على الخصوص تلك المهارة التي تجنبوا بموجبها المشكلة ! وتجنبوا حتى كلمة « الاضراب العام » في حلولهم ! تذكروا المناقشة ، هل تفحّصوا مشكلة الاضراب تفحصاً « عميقاً » كمشكلة « عملية » على اعتبار أنها تعرض وفقـــاً للحالات ، وفقاً للبلدان ؟ .. ماذا يجب أن يكون الموقف الأكيد لهذه البروليتاريا أو تلك عند احتمال وقوع هذه الحرب أو تلك ؟ الحرب شيء والبروليتاريا شيء آخر . وعلى هذه الشيئيات القى قادتنا خطباً متنوعة كالقس على المنبر يتحدث عن الخير أو عن الشر . هذا هو الموقف ! لقد ظلت الاممية على صعيد عواطف يوم الأحد ! لقد ذاب المذهب من ناحية ، ومن ناحية اخرى فإن الوعي ، والقوة ، والاندفاع الثوري لجماهير الشعب لم تبدأ بعد .

وصمت بضع لحظات وتمتم مفكراً :

– كل شيء يجب عمله . كل شيء . ان إعداد البروليتاريا يفترض جهـــداً عظيماً ومنسقاً ، لا يكاد يرتسم حتى الآن . وسأتحدث عن ذلك في فيينا – وردد بصوت منخفض : – كل شيء يجب عمله ، اليس كذلك أيتها الفتاة الصغيرة ؟

وابتسم ابتسامة مقتبضة ، ثم جال نظره في دائرة المستمعين وتغضنت جبهته .

– مثلاً : كيف حدث ان ليس للاممية صحيفتها الشهرية حتى الآن ، أو الاسبوعية أيضاً ؟ .. « مجلة أوروبية » تحرر بجميع اللغات وتكون مشتركة بين جميع التنظيمات العمالية في جميع البلدان ؟ .. سأتكلم عن ذلك في المؤتمر .. أنها أفضل طريقة للرؤساء لإعطاء جواب موحد لهذه الملايين من البروليتاريين الذين يلقون نفس الأسئلة تقريباً في جميع البلدان . وهي أفضـــل طريقة تتيح لجميع الشغيلة ، مناضلين أم لا ، أن تتكون لديهم معلومات صحيحة حول وضعية العالم السياسية والاقتصادية . وهي ، في الحالة الحاضرة ، احدى أفضل الطرق لزيادة نمو الحركة الانعكاسية الأممية عند العامل : يجب على عامـــل التعدين في

موتالا أو عامل السفن في ليفربول أن يشعرا بدون تمييز أن الاضراب الذي اندلع في هامبورغ ، أو في سان فرنسيسكو ، أو تفليس، كأنه حادث شخصي! والواقع ، ان كل عامل ، كل فلاح ، عند عودته مساء السبت من عمله سوف يجد على طاولته ، وسوف يأخذ بيده ورقة يعرف انها ستكون في نفس الساعة في العالم كله ، بين أيدي جميع البروليتاريين ؛ والواقع أنه سوف يستطيع أن يقرأ فيها اخباراً ، واحصاءات، وبيانات ، وأوامر يومية ، سيقرأها في نفس الساعة، وفي العالم كله جميع الذين يعون مثله حقوق جماهير الشعب . وهذا العمل وحده سيكون له قوة تربوية لا يمكن حسابها ! دون أن نحسب أن تأثيرها مع الحكومات سيكون ..

كانت العبارات الاخيرة متلاحقة بطلاقة سريعة جعلت إدراكها صعباً . وتوقف حين شاهد جانوت ، المحاضر ، الذي دخل إلى الغرفة محاطاً ببعض الأصدقاء .

وأدرك جميع رواد « المكان » إن الربان لن يقول شيئاً هذا المساء .

٨

لم يكن جاك يعرف جانوت . وقد كان كما وصفته الفريدا . مربوع القامة ، على شيء من التصنع في ملابس سوداء ذات شكل قديم . وقد اجتاز الغرفة على رؤوس أصابعه ، وانحناءاته النصفية ،وحركاته التي تشبه حركات خادم كنيسة ، لم تكن تتناسب مع وجهه الاحتفالي الذي تحيط به . ببياض اسطوري ، لبدة حيوان أصيل النسب .

وكان جاك قد نهض . واغتنم الفرصة ليختفي من جلبة التعارف ، وانسلّ إلى المكتب الصغير في الداخل ينتظر مينستريل فيه .

وفعلاً ، فإن هذا لم يتأخر في اللحاق به . وكانت الفريدا ترافقه كما هو الأمر دائماً .

وكان الحديث قصيراً . فمن ملف غيتبرغ ـ توبلر عرف مينستريل ببضع

دقائق أن يستخرج الأوراق الخمس أو الست التي يرتكز الاتهام عليها . وأعطاها لجاك ، وضم اليها كلمةً لهوسمر ، ثم صاغ بعض النصائح العامة حول الأسلوب العملي في بدء التحقيق .

– والآن إلى الحساء ايتها الفتاة الصغيرة !

فجمعت الفريدا الأوراق المبعثرة بمهارة ورتبتها في المحفظة . وكان مينستريل قد اقترب من جاك وتفحصه هنيهة وسأل بصوت منخفض ، وبرنة صداقة تختلف كل الاختلاف عن نبرته اثناء حديثهما :

– ما الذي على غير ما يرام هذا المساء ؟

فابتسم جاك ، قلقاً ، ابتسامة دهشة :

– ولكن كل شيء على ما يرام .

– الا يزعجك أن تذهب إلى فيينا ؟

– بالعكس ، لماذا ؟ ..

– لقد خيل إلي الآن إنك مهموم .

– ولكن كلا .

– منفي .. قليلاً .

فازداد جاك ابتساماً وردد :

– منفي ؟ ..

وتحرك كتفاه حركة خفيفة من السأم ، وانطفأت الابتسامة :

– هناك أيام يشعر المرء فيها بشكل خاص أنه منفي ، دون أن يعرف لماذا .. اليس عليك ان تعرف هذا أيها الربان ؟

وخطا مينستريل ، دون أن يجيب ، الخطوتين اللتين تفصلانه عن الباب ، والتفت ليتأكد من أن المرأة الشابة مستعدة . وفتح المصراع وجعل الفريدا تمر أمامه . وقال عندئذٍ ، راشقاً جاك بابتسامة مقتضبة :

– ما في ذلك شك ! .. نعرف ذلك .. نعرف ذلك ..

كان « المكان » قد فرغ . ومونيه يصفّ الكراسي ويعيد شيئاً من النظام .

(السبت والأحد يمتد الاجتماع عادة حتى ساعة متقدمة من الليل ، ولكن هذا المساء فإن معظم الرواد قد تواعدوا بعد العشاء في قاعة فيريه لأجل محاضرة جانوت) .

كان مينستريل قد ترك المرأة الشابة تتقدم قليلاً ، ووضع ذراعه تحت ذراع جاك ومد ساقه قليلاً وهو يهبط الدرج .

ـ إني وحيد يا صغيري .. ويجب القبول بذلك نهائياً .

كان يتكلم بسرعة وبصوت منخفض ، وتوقف ، وانساب نظره باتجاه الفريدا ، وردد بصوت أكثر انخفاضاً « دائماً وحيد » . وكانت لهجته لهجة تأكيدية بشكل محسوس دون كآبة أو اسف . إلا أن جاك كان متأكداً من أن الربان يفكر هذا المساء بشيء شخصي .

وقال جاك ، مخففاً سيره حتى التوقف الكامل ، كأنه يجر وراءه حملاً من الأفكار المشوشة التي تعيق سيره :

ـ نعم ، أعرف جيداً . انها لعنة بابل ! رجال لهم نفس السن ، نفس الحياة ، نفس اليقين ، باستطاعتهم ان يلعبوا نهاراً بكامله في التحدث معاً ، في التحدث بالشكل الأكثر حرية ، الأكثر صدقاً ، دون أن يتفاهموا دقيقة واحدة . دون أن « يلتقوا » ثانية واحدة ! نحن هنا ، بعضنا بجانب البعض الآخر ، مغلقون ، متجاورون ، كالحصى على ضفة بحيرة .. واني لأتساءل إذا كان الكلام لا يفرقنا أكثر مما يقربنا ، ونحن نتوهم أننا على اتفاق !

ورفع عينيه . وكان مينستريل قد وقف هو أيضاً في أسفل الدرج ، وكان يسمع صامتاً هذا الصوت الحزين الذي يرن في الدهليز الحجري .

وتابع جاك بحدة مباغتة :

ـ آه لو تعلم كم شبعت من الكلام ، كم شبعت من خطبنا ! كم شبعت من كل خطبنا ! كم شبعت من كل هذه الايديولوجية !

عند هذه الكلمة الاخيرة حرك مينستريل يده بشدة .

ـ بالتأكيد يجب الا يكون الكلام سوى وسيلة للعمل .. ولكن ما دام

العمل غير مستطاع ، فيجب عمل شيء غير الكلام ..

وألقى نظرة نحو الساحة حيث كان باترسون وميتورغ يمددان « خطاباً » بدأ فوق ، وكانا يخطوان المئة خطوة وهما يحركان أيديهما . ثم وجه إلى جاك نظراته الحادة .

– صبراً ! .. فالمرحلة الايديولوجية ليست سوى مرحلة .. مرحلة تمهيدية وضرورية .. والصلابة المذهبية تتوطد بالجدال . لا يوجد حركة ثورية بدون نظرية ثورية . وبدون نظرية ثورية لا يوجد طليعة ، لا يوجد قادة .. إن « ايديولوجيتنا » تزعجك .. نعم : انها سوف تبدو لمن يأتي بعدنا بعثرة مضحكة للقوى .. فهل الخطأ منا ؟ – وتمتم بسرعة : – إن وقت العمل لم يأت بعد .

وجاك المنتبه بدا انه يقول : « أوضح » . وتابع مينستريل :

– ان الأقتصاد الرأسمالي لا يزال بخير . والآلة تعطي إشارات البلى ، ولكنها لا تزال تقوم بعملها بشكل لا بأس به . والبروليتاريا تتألم وتتحرك ، ولكنها لم تمت من الجوع بعد . في هذا العالم الأعرج ، الضيق النفس ، الذي يعيش على قوّته المكتسبة . ماذا تريدهم أن يعملوا ، جميع اولئك المضطهدين الذين ينتظرون ساعة العمل ؟ . انهم يتكلمون ! .. ويفتخرون بالايديولوجيا ! وليس لفعاليتهم حقل آخر سوى حقل الأفكار . اننا لم نستول على الأمور بعد .

فقال جاك :

– آه ! الاستيلاء على الأمور !

– صبراً يا صغيري . كل هذا لا يحتاج إلا إلى وقت ! ان متناقضات النظام تفصح عن نفسها أكثر فاكثر . والمنافسة ، والتنازع على الأسواق يتفاقمان . مسألة حياة أو موت : كل نظامهم قائم على أساس أسواق تمتد باستمرار ! كما لو أن الأسواق يمكن أن تزداد إلى ما لانهاية له ! في طرف الحفرة ، السقوط الشديد ! والعالم يسير رأساً إلى الأزمة ، إلى الكارثة التي لا يمكن تجنبها . وستكون عالمية .. انتظر فقط ! انتظر حتى يختل كل شيء في حياة العالم الاقتصادية .. وحتى تزيد الآلات من تخفيف عدد الاجراء .. وتزيد سرعة الافلاسات

والخراب ، وينعدم الشغل في كل مكان ، ويجد الاقتصاد الرأسمالي نفسه في وضعية شركة تأمين نكب جميع المؤمّنين فيها في نفس اليوم . عندئذٍ ! ..

– عندئذٍ !

– عندئذٍ سنخرج من الايديولوجية ! عندئذ يكون وقت الخطب قد مضى ! وسنشمر أكمامنا لأن ساعة العمل تكون قد أتت ، ولأننا حصلنا أخيراً على « الاستيلاء على الأمور ! »

وأنار البريق وجهه وانطفأ . وردد : « صبراً .. صبراً ! » ثم لفت رأسه ليبحث بعينيه عن الفريدا . وقال آلياً ، مع أنها كانت بعيدة فلا تسمعه : « اليس كذلك أيتها الفتاة الصغيرة ؟ .. »

وكانت الفريدا قد اقتربت من باترسون وميتورغ .

واقترحت على ميتورغ دون أن تنظر إلى باترسون :

– تعال معنا إلى « الكافو » لنأكل شيئاً .

ثم هتفت بمرحٍ قائلة لمينستريل : – اليس كذلك أيها الربان ؟ ..

(وكان هذا يعني لدى باترسون وميتورغ : « سيدفع الربان عن الجميع » .

ووافق مينستريل بخفض جفنيه ، وأضاف :

– وبعد ذلك نذهب جميعاً إلى قاعة فيريه .

فقال جاك : أنا لا ؟ انا لا ؟

كان « الكافو » باراً صغيراً فيه اطعمة نباتية ، قائماً في طبقة تحت الأرض في شارع سان - اور ، وراء منتزه الباستيون ، في منتصف الحي الجامعي ، وكان يتردد اليه الطلاب الاشتراكيون بوجه خاص . وكان الربان والمرأة الشابة يذهبان غالباً اليه لتناول العشاء في الأمسيات التي لا يعودان فيها إلى الشغل في كاروج .

وسار مينستريل وجاك في المقدمة . وتبعتها الفريدا والرجلان على مسافة بضعة أمتار .

وواصل الربان الكلام بذلك الأسلوب المباغت الذي هو أسلوبه :

ـ انت تعلم أنه لا يزال لدينا حظ كبير في أن نعيش هذه المرحلة الايديولوجية .. وان نولد على عتبة شيء يبدأ .. انت صارم جداً مع الرفاق ؟ اما أنا فأصفح عن كل شيء ، حتى عن خطبهم ، بسبب حيويتهم .. بسبب شبابهم ؟

وبدا شيء من الكآبة على رفيقه ومر على وجهه ، فالتفت ليتأكد من وجود الفريدا وراءه .

وكان جاك حروناً يهز رأسه بعناد . ففي الساعات التي تخمد فيها شجاعته كان يحدث له ، فعلاً ، ان يصدر حكماً صارماً على الشبان الذين يحيطون به . وكان يبدو له ان معظمهم يفكرون بطريقة موجزة ، ضيقة ، متصلبة بشكل لطيف ، ومبغضة ،وان ذكاءهم يعمل وفقاً لقاعدة على توطيد مفاهيمهم لا على توسيعها وتجديدها ، وان عدداً كبيراً منهم متمرد أكثر منه ثوري ؛ وانهم يحبون تمردهم أكثر من الإنسانية .

الا انه امتلك نفسه عن نقد رفاقه امام الربان ، وقال فقط :

ـ شبابهم ، .. ولكني احقد عليهم لأنهم ليسوا شباناً بشكل كاف .

ـ ليسوا شباناً بشكل كاف ؟ ..

ـ كلا ؟ .. فبعضهم على الخصوص هو رد فعل شيخ عجوز. وفانهيد الصغير على حق : الشباب الحقيقي ليس حقداً ، ولكنه حب .

ـ حالم ! ..

هكذا قال ميتورغ بوقار وقد انضم اليهما . والقى من خلال نظارتيه نظرة منحرفة نحو مينستريل ، وصرح بعد وقفة وهو ينظر هذه المرة أمامه ، في البعيد .

ـ لتريد حقيقةً يجب أن تبغض .

ثم أضاف على الأثر بنبرة هجومية :

ـ وأيضاً يجب دائماً القيام بمجزرة لإحراز الغلبة . إن الأمر كذلك !

فقال جاك برصانة :

– كلا . لا حقد ، لا عنف . كلا ! وبهذا لن تجدوني معكم ! ..

فشمله ميتورغ بنظرة لا رحمة فيها . وكان جاك قد انحنى انحناءً خفيفاً نحو مينستريل . وانتظر لحظة قبل ان يتابع . ولما لم يتدخل مينستريل فانه حزم أمره بقساوة تقريباً :

– يجب الحقد ، يجب القتل ، يجب ، يجب ! .. مـــاذا تعرف عن ذلك يا ميتورغ ؟ .. حين ينجح ثوري كبير في التغلب بدون إحداث مجزرة – بالروح – فإن كل مفاهيمكم عن الثورة العنيفة تتغير .

كان النمساوي يسير بتثاقل ، منحنياً قليلاً . وكان وجهه قاسياً . ولم يجب . وتابع جاك بعد نظرة جديدة نحو مينستريل :

– إذا كانت جميع الثورات في مجرى التاريخ قد أسالت كثيراً مـــن الدماء فقد كان ذلك لأن الذين صنعوها لم يُعدّوها إعداداً كافياً ، ولم يفكروا بها . كانت كلها مرتجلة بشكل يكثر أو يقل ، بين يوم وآخر ، في الرعب ، بواسطة أشياع مثلنا جعلوا من العنف عقيدة . كانوا يعتقدون انهم صنعوا ثورة واكتفوا بحرب أهلية .. أريد جيداً ان يكون العنف ضرورة للارتجـــال ؛ ولكني لا أرى شيئاً مستحيلاً في مدنيتنا أن تقوم ثورة من طراز آخر ، ثورة بطيئة تقودها بصبرٍ عقول من نوع جوريس : أناس مكونون بواسطة مدرسة الإنسانية ، اتسع لهم الوقت ليبلغوا بمـذهبهم درجة النضج ويقرروا مخطط عمل تقدمي ؛ وهناك انتهازيون بالمعنى السليم للكلمة قد أعـدّوا للاستيلاء على السلطة سلسلة مناورات أسلوبية ، لاعبين على جميـع اللوحات معاً ، من برلمان، ونقابات ، وحركات عمال ، وإضرابات ؛ انهم ثوريون ولكنهم يصبحون في الوقت نفسه رجال دولة ،وينفذون مخططهم بشكل واسع ، وبسلطة ، وبالطاقة المطمئنة الناتجة عن تفكير نيرّ بمساعدة الديمومة ؛ واخيراً ضمن النظام ! دون السماح بافلات زمام السيطرة على الحوادث .

فزمجر ميتورغ بحركات مشوشة :

- السيطرة على الحوادث ! أبله ! .. إن إقامة نظام جديد ، يمكن تخيله فقط تحت ضغط كارثة في لحظة فوران تشنجي جماعي تكون فيه كل العواطف هائجة . (كان يتكلم الفرنسية بسرعة كافية ولكن بلهجة جرمانية ، شديدة وخشنة .) لا شيء جديد يمكن أن يحدث دون القيام بتلك الاندفاعة التي يولدها الحقد. ولأجل البناء يجب اولاً إعصار يهدم كل شيء ، ويمهد كل شيء حتى آخر انقاض .

ولفظ هذه الكلمات منخفض الرأس ، بنوع من التجرد جعله مخيفاً . ورفع جبهته ، وبدت حركة يده العنيفة انها تسحق العوائق وتحدث الفراغ أمامه .

وخطا جاك بضع خطوات قبل ان يجيب . وتأوه ، وحاول ان يبقى هادئاً : - نعم . أنت تعيش - كلنا نعيش - على تلك الحقيقة البديهية القائلة بان فكرة الثورة تتنافى مع فكرة النظام . كلنا مسممون بهذه الرومنتيكية البطولية الدموية .. ولكن أتريد أن أقول لك يا ميتورغ ؟ .. هناك أيام اسال فيها نفسي عن ذلك واتساءل إلى ماذا تعزى هذه الملازمة العامة لنظريات العنف . الأن العنف فقط لا غنى لنا عنه لنعمل بفعالية ؟ .. كلا ، بل أيضا لأن هذه النظريات تدغدغ فينا الغرائز الأكثر انحطاطا ، والأكثر قدما ، والأكثر تغلغلاً في أعماق الإنسان ! .. لننظر في المرآة .. باي عينين نفورتين وبأي فتحات أفواه متوحشة ، وبأي سرور شرس وبربري نتظاهر كلنا بقبول هذا العنف كأنه ضرورة ! والحقيقة هي اننا نتمسك به لأسباب لا يمكن الاعتراف بها ، وهي شخصية جداً : لأن لنا جميعا في أعماق القلب ثأراً يجب أن نأخذ به ، وحقداً يجب أن نرضيه .. ولتذوق شهية الثأر هذه بدون توبيخ ضمير ، فهل هناك أفضل من استطاعة تبريرها بالخضوع لقانون حتمي ؟ ..

وشعر ميتورغ بالإهانة فلفت رأسه فجأة وقال معترضاً :

- انا ، اني ..

فلم يتركه جاك يقاطعه وقال :

- انتظر ... اني لا أتهم احداً . اني اقول : « نحن » . وأؤكد . ان

الحاجة الى الهدم هي اكثر قوة من الامل في البناء ... كم من الرجال بيننا يرون ان الثورة قبل ان تكون عمل تغيير اجتماعي هي اولاً فرصة لإشباع حاجة انتقام تجد ترضية مسكرة ، في الشغب، والفتنة ، والحرب الاهلية، والاستيلاء العنيف على السلطة ؟.. اي هذيان ثأري يوم نستطيع بانتصار دامٍ ان نفرض طغياننا بدورنا - طغيان « عدالتنا » ؟... مهيج اضطرابات يا ميتورغ ، هذا ما يوجد في اعماق كل ثورة ! لا تقل كلا ... من منا سيجرؤ على الزعم انه تملص تماماً من عدوى التخريب المسكرة هذه ؟ وبين افضل الناس ، وأكثرهم اريحية واكثرهم قدرة على انكار الذات اري في بعض الايام نهوض هذا المجنون السكران.

فتطلع مينستريل :

- لا شك في ذلك : ولكن هل المسألة هنا ؟

والتفت جاك بحدة ليلاقي نظرته عبثاً . فقد خيل اليه ان مينستريل قد ابتسم ، ولكنه لم يكن متأكداً . فابتسم هو ايضاً ، ولكن لسبب شخصي : فقد تذكر ما قاله منذ بضع دقائق ، « لقد اكتفيت من كل هذه الخطب ! »

واحتفظ ميتورغ بالحاجبين مرتفعين فوق نظارتيه . وبدا انه لا يريد ان يجيب .

وكانوا قد وصلوا الى ساحة بور - دي - فور واجتازوها بصمت . وكان نور المغيب يصبغ قرميد السطوح القديمة بالاحمر ، وكان شارع سان - ليجه الضيق ينفتح كرواق من الظل ، ووراءهم باترسون والمرأة الشابة يتحدثان بصوت مرتفع ، وقد سُمعت ضحكاتهما دون تمييز اقوالهما، ومرة بعد اخرى كان مينستريل يلقي من فوق كتفه نظرة باتجاههما .

وتمتم جاك دون ان يشرح تداعي افكاره :

- كما لو ان الفرد لا يستطيع الانضمام ، والمساهمة في الجماعة وفي القوة الجماعية دون ان يتخلى عن قيمته اولاً .

- اية قيمة ؟

سأل النمساوي الذي دل إيماؤه على انه لم يكن يميز العلاقة بين هذه الاقوال

والاقوال السابقة .

وتردد جاك وقال اخيراً ، بصوت منخفض مراوغ كأنـه يتهيب ان يرى النزاع يحتدم على هذا الصعيد الجديد .

ـ قيمته كإنسان !

وساد صمت قصير ، وفجأة انفجر صوت مينستريل الحاد.

ـ قيمة الانسان ؟

لقد ظل الاستفهام المازح غامضاً ، وظن جاك انه شعر فيه بشيء من التأثر ، وظن عدة مرات انه ميز في نشوفة مينستريل فرقاً يبعث على التفكير ان هذه النشوفة مكتسبة ، وانه يخفي شقاء قلب حساس ليس لديه اكتشافات يقوم بها حول طبيعة الانسان ، ولكنه يبقى بشكل سري جداً غير متعزٍّ عن اوهامه الضائعة .

ولم يلاحظ ميتورغ سوى دعابة الربان ، واخـذ يضحـك وقضقض ظفر ابهامه بين اسنانه ، وصرح كأنه يقفل باب المناقشة .

ـ لا يوجد فيك يا تيبو اتجاه رجل سياسة !

فلم يستطع جاك كبح حركة غضب :

ـ اذا كان الحصول على اتجاه سياسي يعني ان ...

فقاطعه مينستريل هذه المرة :

ـ الحصول على اتجاه سياسي ، ما هـذا يا ميتورغ ؟.. انه معرفـة القبول باستعمال وسائل في النضال الاجتماعي تناقض في الحياة الخاصة كلاًّ منا كأنها عدم استقامة ـ او جرائم ... اليس كذلك ؟

كان قد بدأ العبارة كفكاهة وأنهاها بنظرة جدية، متحفظة ، مع انها حادة. والآن ، كان يضحـك بصمت ، مطبق الفم ، نافخـاً نفخات صغيرة من انفه ، وكان جاك على وشك ان يجيب مينستريل ، ولكن الربان كان يداهنـه دائماً . وقد وجه الكلام الى ميتورغ .

ـ ثورة حقيقية ....

فزبجر ميتورغ :

ـ ثورة حقيقية بشكل صحيح ، ثورة لإنقاذ الشعوب ، مهما كانت ضارية فهي ليست بحاجة الى تبرير .

ـ نعم ... والوسائل قليلاً ما تهم ؟..

ـ بالضبط ! فالعمل ليس على نفس طريق دروسك النظرية ! العمل يا رفيقي يمسك بالمرء من عنقه ، وفي العمل ، نعم ، ليس المقصود سوى شيء واحد ، الانتصار ! وبالنسبة الي ، مهما تظن ، فالهدف ليس الثأر ! كلا ، الهدف هو تحرير الانسان ، ورغماً عنه اذا لزم الامر ! وبطلقات البنادق اذا لزم الامر ! بالمقصلة ! حين تريد انقاذ رجل يغرق في النهر فانك تبدأ بضربه بقوة على رأسه ليتركك تنجح بانقاذه مطمئناً ! وفي اليوم الذي يكون فيه الدور قد بدأ حقيقة فلن يكون هناك سوى دور واحد لي: طرد وكنس الاستبداد الرأسمالي. ولكي نقلب جوليات الذي له هذه العظمة والذي يجد جميع الوسائل صالحة حين يريد استعباد الشعوب فانني لست بهذه السذاجة لأخلق الصعوبة في اختيار وسائلي. لسحق البلاهة والشر فان كل ما يسحق هو صالح، حتى البلاهة والشر! حتى اذا لزم الظلم ، اذا لزمت الضراوة . اجل ، انا ظالم ، انا ضارٍ ! كل سلاح هو جيد بالنسبة الي اذا جعلني اكثر قوة لربح النصر . في هذه الحرب اقول : كل شيء مسموح به ، كل شيء ، كل شيء مهما كان ـ بشرط الا أغلب .

فقال جاك بحرارة :

ـ كلا ، كلا .

وبحث بنظره عن مينستريل. ولكن الربان كان قد شابك يديه خلف ظهره، وخفض كتفيه . وكان يمشي منتحياً جانباً على محاذاة البيوت دون ان يلتفت حوله .

وتابع جاك: كلا .

(كاد ان يقول : « هذه الثورة لا تروق لي ابداً . والانسان قادر على هذه الشراسات الدموية وتزيينها باسم العدالة . وهذا الانسان ، وهو منتصر ، لن يجد

طهارته ، كرامته ، احترامه لما هو انساني ، شغفه بالانصاف ، حرية روحه . اني لا ابتغي الثورة لأرفع هذا المجنون الى السلطة .. ») . وقال ببساطة :

– كلا ، اني اشعر جيداً ان هذا العنف الذي تبشر به يهدد الصعيد الروحي ايضاً .

– لا يهم ! يجب الا نصبح مشلولين بسبب وساوس المفكرين . واذا وجب ازالة ما تدعوه الصعيد الروحي ، اذا وجب ان تخنق الحيوية الروحيـة طوال نصف قرن ، لا يهم ، اني آسف مثلك . ولكني اقول : لا يهم ! واذا احتـاج الامر أن اكون اعمى لأصبح فعّالاً حقيقياً ، فاني اقول : إفقأ عيني .

فأتى جاك بحركة انتفاض :

– اجل ، كلا ! ليس « لا يهم ».. افهمني يا ميتورغ . (كان يوجه الكلام الى النمساوي ولكنه كان يحاول ان يوضح فكرته لمينستريل). لا لأني أعلق أهمية اقل منك على الهدف النهائي . وإن أتمرد فذلـك لصالح الهدف نفسه ! وثورة تتم بالظلم ، بالكذب ، بالقساوة لن تكون للانسانية سوى نجاح مزيف . وهذه الثورة سوف تحمل في البيضة بذرة التفكك . وما تكتسبه بوسائل كهذه لا يمكن ان يدوم . وسوف يقضى عليه عاجلاً أم آجـلاً بدوره ... والعنف سلاح الظالم ! ولن يحمـــل ابداً التحرر الحقيقي الى الشعوب ... ولا يستطيع الانصتار سوى ظلم جديد .. دعني اتكلم . (هتف فجأة وقد رأى ان ميتورغ اراد مقاطعته) والقوة التي تستمدونها انتم من هذه النظرية الوقحـة لم تغب عني وربما باستطاعتي الانتصار على نفوري الشخصي ، وحتى مقاسمة هذه الوقاحة ، لو كنت آمل بفاعليتها . ولكن بالحقيقة لا أؤمن بها ! وانا على يقين بأن ما من تقدم حقيقي يمكن ان يتحقق بوسائل سيئة . اثارة العنف والكراهيـة لتشييد ملك العدل والاخوة ، فهذا لا معنى له؛انه منذ البدء خيانة لهذه العدالة وتلك الاخوة اللتين نريد اقامة ملكهما على العالم ! كلا . فكـّر بهذا كما يحلو لـــك . ولكن بالنسبة الي فان الثورة الحقيقية ، الثورة التي تستحق ان ينذر المرء لهـا كل قواه ، فانها لن تتم ابداً في رفض القيم الاخلاقية .

واراد ميتورغ ان يجيب بسرعة الا ان مينستريل قال ، بذلك الصوت الحاد

الذي يستعمله احياناً والذي يدهش دائماً :

– يا لجاك الصغير الذي لا يمكن اصلاحه !

لقد حضر هذه المناقشة كمتفرج . واصطدام مزاجين كان يشوقـــه دائماً. وهذه التمييزات المدرسية بين الروحي والمادي ، بين العنف واللاعنف ، كانت تبدو لها غير معقولة ولا فائدة منها : طراز المشكلة الخطـــأ ، وطراز السؤال المطروح بشكل سيء .. ولكن ما فائدة قول ذلك ؟..

وصمت جاك وميتورغ مندهشين .

والتفت النمساوي نحو الربان ودقق النظر لحظة في وجهه المغلق ؛ وجمدت ابتسامة المشاركة التي أعدها على شفتيه ، وتجهمت قسماته . كان مستاءً من الدور الذي اعطاه جاك للمناقشة ، وثائراً ضد جاك ، ضد الربان ، وضد نفسه .

وبعد بضع رقائق من الصمت خفف خطواته ، وترك الرجلين يبعـدان عنه وانضم الى باترسون والفريدا .

واغتنم مينستريل فرصة غياب ميتورغ ليتقرب من جاك وقال :

– ان ما تريده هو تنقية الثورة مسبقاً قبل ان تُصنع . قبل الأوان . ويعني هذا منعها من ان تولد .

وتوقف قليلاً . وكأنه ادرك مبلغ الصدمة التي سببّها قوله لحساسية جاك ، فأضاف بسرعة ، مع نظرة نافذة .

– ولكني ... افهمك جيداً .

وتابعا هبوطهما الشارع صامتين .

وكان جاك يسعى ، بوقار ، ليعود الى نفسه . كان يفكر بتربيته . « ثقافة كلاسيكية...تكوين بورجوازي..وهذا يكسب الذكاء عادةً لا تمّحي ابداً... لقد ظللت وقتاً طويلاً اعتقد انني ولدت لأكون روائيـــاً : ولم يمض علي وقت طويل منذ اقلعت عن التفكير بذلـــك . وكُنت دائماً اكثر ميلاً الى النظر والتسجيل مني الى الحكم والاستنتاج ... وهذا بالتأكيد ضعف بالنسبـة لرجل ثوري » . قال ذلك ليس بدون قلق ولم يكن يخدع نفسـه ؛ على الاقل ليس

بشكل واع . ولم يكن يشعر انه منحط عن رفاقه ولا ارفع منهم : يشعر انه رجل آخر ، وانه « أداة صالحة للثورة » اقل منهم . فهل بامـــكانه مثلهم ان يتخلى عن ضميره الشخصي ويذيب تفكيره وارادته في المذهب المجرد ، في العمل المشترك ، لحزب ؟..

وقال فجأة بصوت منخفض :

– الاحتفاظ والدفاع عن استقلال عقله ، فهل هذا يعني حتمياً انه غير اهل للعمل المشترك ؟ .. وماذا تفعل غير ذلك ، انت ايها الربان ؟..

لم يبد مينستريل انه سمع الا انه تمتم بعد قليل :

– قيم فردية ... قيم انسانية ... اتعتقد ان اللفظتين مترادفتان ؟

وظل جاك ملتفتاً نحوه ؛ وبدا صمته المستفهم انه حرّض الربان على زيادة التوضيح .

وتناول هذا الكلام كأنه مرغم :

– الانسانية التي تنهض معنا تبدأ نهضة ستبدل للعصور ليس فقط وضـع الانسان بالنسبة للانسان ، بل الانسان نفسه ، في نفس الوقت وبطريقة لا تزال غير مفهومة – حتى فيما يعتقد انها غرائزه !..

ثم صمت من جديد ، وبدا مستغرقاً في تأملاته .

٩

على مسافة بضعة امتــار الى الوراء كان ميتورغ يمشي بالقرب من باترسون والفريدا دون ان يدخل في الحديث معهما .

كانت المرأة الشابة تركض بخطى قصيرة الى جــانب الانكليزي الذي كان ساقاه الطويلان يخطوان خطوة بينما هي تخطو خطوتين . وكانت تثرثر بحرية ، وتظل قريبة من رفيقها بحيث ان مرفق باترسون كان يلامس كتفها في كل لحظة . وكانت تقول :

ـ عندما رأيته لأول مرة ، كان ذلك اثناء الاضراب ، وقد جئت لأحضر

اجتماعاً مع اصدقاءٍ من زوريخ . وتناول الكلام ، وكنا في الصفوف الاولى . وكنت انظر إليه ، إلى عينيه ، إلى يديه...وفي نهاية الاجتماع حدث اقتتال . فتركت اصدقائي وركضت لأقف بجانبه . . (كانت هي نفسها مندهشة من الذكريات التي اثارتها .) ومنذ ذلك الوقت لم أتركه . ولا يوم ، حتى ولا ساعتين متواليتين ، كما اعتقد ...

والقى باترسون نظرة نحو ميتورغ ، وتردد وقال : انت جالبة سعده ... فضحكت :

— أن الربان اكثر لطفاً منك يا بات . فهو لا يقول « جالبة السعد » ، بل يقول « الملاك الحارس » .

لم يكن ميتورغ يسمع إلا بأذنٍ واحدة . وكان يتابع داخلياً مناقشته مع جاك . وكان واثقاً من انه على حق ، ويقدّر « الرفيق » في جاك ، وحاول ايضاً أن يجعل منه صديقاً ولكنه كان يقاضي المتشيع بصرامة . وكان في تلك اللحظة يشعر بحقد ضده ، « كان علي أن اقذف هذه الحقائق في وجهه مرة واحدة ؛ وأمام الربان بالضبط ! .. » وكان ميتورغ من اولئك الذين تدهشهم صداقة جاك مع مينستريل اكثر من غيره ، لأنه كان غيوراً بشكل حقير : كان يتألم من ذلك كما يتألم من ظلم . ولم يشكّ ابداً بحصوله على رضى الربان الضمني منذ قليل . وقد سبب له صمت مينستريل المبهم حزناً شديداً . وكان يتمنى فرصة لإيضاح الأمر ، ليس بدون رغبة شرسة بالانتقام .

توقف مينستريل وجاك ، اللذان كانا متقدمين ،امام مدخل منتزه باستيون. (بالسير خلال الحديقة يصل المرء رأساً إلى شارع سان ـ اور) . وكانت الشمس تغيب . ووراء الحواجز من القضبان الحديدية بخار ذهبي لا يزال يحوم على الارض المغطاة بالحشائش . وكانت نهاية هذا الاسبوع قد اجتذبت كثيراً من المتسكعين إلى المنتزه الذي كان يعتبر « لوكسمبورغ » جامعة جنيف . وكانت جميع المقاعد مشغولة ،وعناقيد حية من الطلبة كانت تتنزه في الممرات المستقيمة

حيث الظلال العالية تحفظ شيئا من الرطوبة .

واسرع ميتورغ الخطى ليلحق بالرجلين تاركا وراءه الفريدا والانكليزي ، وكان جاك يقول :

– ... انه مفهوم خشن قليلاً عن الحياة ، وثنية الازدهار الماضي !

وقاسه ميتورغ بنظره ، متعمداً ، وبدون أن يعرف عمَّ يتحدث القى بنفسه معارضا ، وزمجر مع ضحكة صغيرة مشؤومة :

– ماذا الآن ؟ .. اني اكيد من انه يلوم « الشهيات المادية » عند الثوريين !

ودهش جاك ، وتفحصه بمودة . كانت وثبات الغضب عند النمساوي تجده دائما مليئا بالتسامح . فقد كان يحب ميتورغ كرفيق مجرب ، قليل الدلالة ولكنه ذو اخلاص غير عادي في الصداقة . وكان قد فهم أن قساوته آتية من وحدته ، من طفولة يائسة ، من كبرياء سريعة التأثر يخفي ميتورغ تحتها دون شك صراعاً خاصاً أو ضعفاً . (ولم يكن جاك مخطئاً . فهذا الجرماني العاطفي يحمل في نفسه شقاء : يعرف نفسه قبيح المنظر ، ويبالغ بهذا القبح بشكل مَرَضي إلى درجة أنه في بعض الأيام ييأس من كل شيء) .

وأوضح جاك ملاطفاً :

– كنت اقول للربان أن كثيرين بيننا لا يزال اسلوبهم في التفكير ، والشعور وإرادة السعادة رأسماليا صريحا ... الا تعتقد ذلك ؟ . . ماذا يعني أن يكون المرء ثوريا اذا لم يكن قبل كل شيء موقفا شخصيا داخليا ؟ ؟ اذا لم يكن قبل كل شيء قد صنع الثورة في نفسه وطهر روحه من العادات التي تركها فيه النظام القديم ؟ ..

فألقى مينستريل نحوه نظرة سريعة . وكان يفكر لاهيا : « مطهِّر . يا جاك الصغير العجيب ... متخلٍّ عن بورجوازيته ، وهذا صحيح ... الروح المطهّرة من « العادات » ، نعم ! .. باستثناء العادة الأكثر عمقا بين جميع العادات ! .. عادة وضع الروح نفسها في اساس كل شيء » .

وتابع جاك :

– كنت ادهش في اغلب الاحيان من اهمية الاحترام اللاشعوري الذي لا يزال البعض يكنّونه للمتلكات المادية .

فقاطعه ميتورغ مصدوما :

– من السهل توجيه اللوم إلى النزعة المادية عند رجـــل فقير يموت جوعا ويتمرد قبل كل شيء لأنه يريد أن يأكل .

فقال مينستريل مقاطعا :

– لا شك في ذلك ! ..

وقال جاك مسلّما :

– لا شيء اكثر شرعية من هذا التمرد يا ميتورغ .. فقط هناك كثيرون بيننا يبدون معتقدين ان الثورة تكون قد صُنعت يوم نصفّي املاك الرأسمالية وتحتل البروليتاريا مكانها ... أن ادخال نفعيين آخرين مكان الذين طردوا لن يكون فيه خراب الرأسمالية ، بل يكون فقط تغيير الطبقة . والثورة يجب ان تكون شيئا آخر سوى انتصار طبقة ، ولو كانت الاكثر عدداً ، ولو كانت الاكثر اغتصابا . اريد انتصار نظام عام .. نظام انساني بشكل واسع ، يكون الجميـع فيه ، بدون تميز ....

فقال مينستريل :

– لا شك في ذلك !

ودمدم ميتورغ :

– الشر ، هو الانتفاع .. المحرك الوحيد لكل الفعالية البشرية ! وما دمنا لم نستأصل هذا الشيء من العالم ! ..

وتابـع جاك :

– إلى هنا كنت أريد ان أصل . الاستئصال .. اتعتقد أن هذا سيكون سهلاً ؟ .. عندما نتأكد اننا ، نحن انفسنا ، لم نتوصل إلى اقتلاع هذا الشيء من نفوسنا ؟ .. حتى نحن ، الثوريون !

لا شك في أن ميتورغ كان يفكر بالشيء نفسه . الا انه لم يكن حسن النية

في الاعتراف بذلك : لم يكن يستطيع أن يقاوم طويلاً ميله إلى جرح صديقه. فعدّل السؤال ضاحكاً :

— نحن الثوريين ؟ .. ولكنك لم تكن ثورياً ابداً ، انت !

فارتبك جاك من هذه المهاجمة الشخصية ، والتفت آليـاً نحو مينستريل . ولكن الربان اكتفى بالابتسام ؛ ولم يكن في هذه الابتسامة التعزية التي يبحث عنها . وتمتم :

— اية ذبابة تلدغك ؟

وتابع ميتورغ بجفاء بذل كثيراً من الجهد لإخفائه :

— الثوري هو مؤمن ! وأنت، أنت واحد يعتقد اليوم بكذا وغداً بكذا.. أنت واحد ذو آراء ، ولست واحداً ذا إيمان ! والإيمان نعمـة ! وهو ليس لك أيها « الرفيق » ! ليس معك ، ولن تنـــاله أبداً .. كلا ، كلا .. اني اعرفك جيداً ! وما يرضيك ، انت ، هو التأرجح مرةً من ناحية ، ومرةً من ناحيـة اخرى .. كبورجوازي على اريكته ، مع غليونه ، يلعب مطمئناً مع « المع » ومع « الضد » ! وهو مسرور جداً من دهائه ، ويتأرجح على الأريكة ! انت شبيه جداً به أيها « الرفيق » ! انت تبحث ، وترتاب ، وتعقلن ، وتميل بأنفك يميناً وشمالاً ، على المتناقضات التي تصفها ، من شروق الشمس إلى مغيبها ! وأنت مسرور من دهائك ! — وصاح : — لا يوجد ايمان ! — وكان قـــد اقترب من مينستريل : — اليس كذلك أيها الربان ؟ إذن ، يجب الا يقول : « نحن الثوريين ! » .

فابتسم مينستريل ابتسامة جديدة مقتضبة لا يسبر غورها . وجازف جاك وقد ازدادت دهشته :

— ماذا ؟ .. على ماذا تلومني يا ميتورغ ؟ الأنني غير متشيع؟ كلا ، (وكان قلقه قد أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى الغضب ، وهذا الانزلاق لم يكن يحدث دون أن يسبب له شعوراً بالسرور) .

وأضاف بنشوفة :

- آسف . لقد أوضحت الأمر للربان هناك ، منذ قليل . وأعترف لك بأن ليس لدي أي ميلٍ لإعادة ذلك .

وتابع ميتورغ بقوة (وكما هو الأمر دائماً حين تجره العاطفة ، فإن فيضاناً من اللعاب في غير حينه يدندن بسرعة) .

- انت هاوٍ أيها « الرفيق ».هاوٍ عقلاني!وأعتقد:بروتستانتي !بروتستانتي ! تماماً ! العقل الحر للفحص ، والحكم الحر للضمير ، الخ .. أنت معنا بدافع التعاطف ، نعم : ولكنك لست معنا مفكراً في نفس الهدف ! وأعتقد ان الحزب مسمم كثيراً بأناس من أمثالك ! وَرِجلِين يترددون دائماً ، ويريدون أن يكونوا قضاة المذهب !لقد تركوك تسير معنا . وربما كانوا على خطأ !وطريقتك في مناقشة جميع الأمور عقلانيـــاً تعدي كالمرض . وستبدأ الشكوك تساور الجميع ، فيتأرجحون يميناً وشمالاً بدلاً من أن يسيروا رأساً إلى الثورة ! ربما كنت جديراً لمرة واحدة ، بالقيام بعمل بطولي، بشكل فردي . ولكن ما هو العمل الفردي ؟ .. لا شيء ! فالثوري الحقيقي يجب أن يقبل بانه ليس بطلاً . يجب أن يقبل بأن لا يكون شيئاً ! يجب أن ينتظر ، صابراً ، الإشارة المعطاة للجميع ؛ وعندئذ فقط ينهض ليمشي معنا .. وأنت ، الفيلسوف ، تستطيع أن تجد هذه الطاعة محتقرة بنظر دماغ كدماغك . ولكني أقول : لأجلِ هذه الطاعة يجب أن تكون هناك نفس أكثر قوة . نعم ، أكثر اخلاصاً ، أكثر سمواً من أن تكون هاوياً عقلانياً ! وهذه القوة ، فإن الايمان وحده هو الذي يمنحها . والثوري الحقيقي لديه هـــذه القوة لأن لديه الايمان ، لأنه كله ايمان بكامله ، بدون مناقشة .. نعم يا « رفيقي » .. بامكانك النظر إلى الربان . لم يقل شيئاً ، ولكني أعرف أنه يفكر معي ..

في هذه اللحظة مر باترسون كالسهم بين ميتورغ وجاك :

- اسمعوا اذن ؟ ما هذا الصراخ ؟

وقال مينستريل ملتفتاً نحو الفريدا :

- ما الأمر ؟ ..

وكانوا قد اجتازوا المنتزه ودخلوا في شارع كاندول . وجاء نحوهم ثلاثة من باعة الصحف كانوا يسيرون بخط منحرف من رصيف إلى آخر ، صارخين بملء حناجرهم : – آخر طبعة ! اغتيال سياسي في النمسا .

فارتجف ميتورغ :

– في النمسا ؟

وكان باترسون قد اندفع نحو أقرب الصارخين . ولكنه دار نصف دورة وعاد ، ويداه في جيوبه باهمال . وقال بشكل يستدر الشفقة :

– ليس معي النقود « الكافية ... »

وابتسم لهذه التورية .

وكان ميتورغ اثناء ذلك قد اشترى الصحيفة وأجال عينيه فيها . واحتشد الجميع حوله . وتمتم منذهلاً :

– أمر لا يصدق .. (١) .

وناول الصحيفة للربان .

وأخذها مينستريل ، وقرأ العنوان أولاً بصوته السريع الذي لا يشي بأي تأثر .

– « هذا الصباح ، في ساراجيفو عاصمة البوسنه ، وهي مقاطعة ضمتها النمسا حديثاً ، فإن الارشيدوق فرانسوا – فرديناند وريث عرش النمسا وهنغاريا ، والارشيدوقة زوجته ، قتلا معاً برصاص مسدس أثناء احتفال رسمي ، بواسطة ثائر شاب من البوسنه ... »

وكرر ميتورغ :

– أمر لا يُصدّق ! ..

١٠

بعد خمسة عشر يوماً عاد جاك من فيينا بقطار النهار السريع مصحوباً

---

١ – بالالمانية في الاصل .

بنمساوي يدعى بوهم .

فهناك أخبار خطيرة مقلقة أسرّ بها هوسمر البارحة جعلته يقرر قطع تحقيقه والعودة بسرعة إلى سويسرا لينذر مينستريل .

نهار الأحد في ١٢ تموز فإن ميتورغ ، وقد أبرق اليه جاك الذي كان يتهيب التصدي لمشاكل أصدقائه ، دخل إلى « المكان » حوالي الساعة السادسة مساءً . وتسلق الدرج بسرعة ، وأجاب بابتسامة سريعة على تحيات أصدقائه ، واندس بين الجماعات التي كانت تزحم الغرفتين الأوليين ، وسار رأساً إلى الغرفة الثالثة حيث كان يعلم أنه سيجد الربان .

وبالفعل ، فان مينستريل كان يتكلم جالساً في مكانه المعتاد تجاه الفريدا ، وأمام دزينة من المستمعين المنتبهين . وكان يبدو أنه يوجه الكلام على الخصوص إلى بريزل الواقف في الصف الأول ، وكان يقول : ضد الاكليركية؟ إنها مناورة تستحق الرثاء ! انظر إلى بسمارك ونظريته الشهيرة « كفاح الثقافة » . ان اضطهاداته لم تخدم سوى تقوية النزعة الاكليركية الالمانية .

وكان ميتورغ متجهم الأسارير ، يتتبع نظر الفريدا بإلحاح . واستطاع اخيراً ان يشير اليها ، وانفصل عن الجمهور وتقهقر حتى النافذة .

وكان بريزل قد قدم اعتراضاً لم يسمعه ميتورغ. وانهالت عدة اعتراضات ومناقشات خاصة احدثت انتقالات بين الجمهور . فاغتنمت الفريدا الفرصة لتنهض وتلحق بالنمساوي .

وارتفع صوت مينستريل الجاف من جديد :

ـ أعتقد انها ليست تلك النزعة البلهاء المعادية للاكليركية ، العزيزة على البورجوازية المفكرة الحرة في القرن التاسع عشر ، هي التي ستحرر جماهير الشعب من نير الأديان . هنا أيضاً ، فإن المشكلة هي اجتماعية . ومداميك الأديان هي اجتماعية . وفي كل وقت ، فإن الاديان استنفدت قواها الرئيسية في عذاب الانسان المستعبد . وكانت الاديان تستفيد دائماً من البؤس . واليوم الذي تعوزها فيه نقطة الارتكاز هذه فانها ستفقد حيويتها . وليس

للاديان الحالية أية سلطة على انسانية أكثر سعادة ..
وتمتمت الفريدا : ما الخبر يا ميتورغ ؟
– لقد عاد تيبو .. ويريد أن يرى الربان .
– لماذا لم يأتِ إلى هنا ؟
فقال ميتورغ دون أن يجيب :
– يبدو أن أموراً سيئة تحدث هناك .
– أموراً سيئة ؟ ..
ودققت النظر في وجه النمساوي . وكانت تفكر بمهمة جاك في فيينا .

وباعد ميتورغ بين ذراعيه ليشير إلى أنه لا يعرف شيئاً معيناً ؛ وظل بضع ثوان ، مستقيم الحاجبين ، والعينان مستديرتان وراء نظارتيه ، مؤرجحاً نصفه الأعلى كدبٍ صغير .

– تيبو مع بوهم ، أحد مواطنيّ الذي سيذهب غداً إلى باريس. ويجب حتماً أن يستقبلها الربان هذا المساء .

وفكرت الفريدا :
– هذا المساء ؟ حسناً ، تعالوا إلى البيت ؛ فهذا أفضل .
– حسناً . إدعي ريشاردلي إلى الاجتماع .
فقالت بسرعة :
– وبات أيضاً .

لم يكن ميتورغ يحب الانكليزي ، وكاد يقول : « ولماذا بات ؟ .. » إلا انه أعلن رضاه بحركة من جفونه .

– الساعة التاسعة ؟ ..
– الساعة التاسعة .
وعادت المرأة الشابة إلى كرسيها صامتة .
وكان مينستريل قد قطع كلام بريزل بعبارة « لا شك في ذلك ! » دون

جواب . وأضاف :

ـ لن يحدث التبديل في يوم،ولا في جيل . ولكن حاجات الإنسان الجديد الدينية سوف تجد محوّلاً اجتماعيـــاً . وستستبدل صوفية الاديان الاحترافية بصوفية اجتماعية . والمشكلة هي ذات نظام اجتماعي .

وتوارى ميتورغ بعد أن التقى نظره بنظر الفريدا من جديد .

بعد ثلاث ساعات نزل جاك من تراموي كاروج مصحوبـاً ببوهم وميتورغ وبلغ بيت مينستريل .

وكان الوقت ليلاً تقريباً ، والدرج الصغير كان مظلماً .

وجاءت الفريدا تفتح .

وكان شبح مينستريل مؤطـّراً بباب الغرفـــة المنارة كخيال الظل . وقد اقترب بسرعة من جاك وسأل بصوت منخفض : هل من جديد ؟ ..

ـ نعم .

ـ هل الاتهامات مستندة إلى أساس ؟

فتمتم جاك :

ـ انها جدّية ، خصوصاً فيما يتعلق بتوبلر . وسأوضح لك هذا . أمـا الآن فالمقصود شيء آخر . نحن على عتبة حوادث خطيرة ـ ثم التفت نحو النمساوي الذي جاء به وقال مجرياً التعارف : ـ الرفيق بوهم .

فمد مينستريل يده وقال بشيء من الارتياب في الصوت :

ـ إذن ، رفيق . هذا صحيح ، هل تحمل الينا شيئاً جديداً ؟

فنظر اليه بوهم بوقار :

ـ نعم .

كان من بلاد التيرول ، جبلياً ذا قامة قصيرة ، ووجه نشيط . ثلاثون سنة . يعتمر قبعة ويرتدي رغم الحر معطفاً قديمـاً لا ينفذ اليه الماء ، أصفر ، موضوعاً على كتفين ضخمين .

ـ ادخلوا .

قال مينستريل ذلك وهو يدخل القادمين إلى الغرفة التي كان ينتظر في داخلها باترسون وريشاردلي .

وقدم مينستريل الرجلين إلى بوهم . وفطن هذا إلى انه احتفظ بقبعته ! فاضطرب لحظة ونزعها . كان ينتعل حذاء عالياً ذا مسامير يتزحلق على الأرض المشمّعة .

وكانت الفريدا قد ذهبت لتأتي بالكراسي من المطبخ يساعدها باترسون ؛ ورتبت المقاعد بشكل دائرة حول السرير الذي جلست عليه ، ودفترها الصغير وقلمها الرصاصي موضوعان في تجويف تنورتها .

وجلس باترسون إلى جانبها . وانحنى نحو المرأة الشابة وهو نصف متمدد، ومرفقه على الوسادة :

ـ اتعرفين ما سيقال ؟

فأتت الفريدا بحركة مراوغة . كانت تحذر عن تجربة ، هذه الظواهر التي تشبه ظواهر متآمر ، والتي تدل على رغبة ملحة ، عند رجال الأعمال اولئك المحكومين بالبطالة ، والذين اخفقوا مئة مرة ، في أن يظهروا مقدرتهم أخيراً .

وقال ريشاردلي بدالـّة وقد جاء يجلس بجانب المرأة الشابة :

ـ اوسعي قليلاً .

كان يلمع في نظره على الدوام وميض فرح شبه عسكري ؛ ولكن في هذا التأكيد كان يوجد شيء اصطناعي كإرادةٍ تقصد أن تكون قوية ، أن تكون راضية ، رغم كل شيء ، بدافع المبدأ ، بدافع حفظ الصحة .

وكان جاك قد سحب من جيبه غلافين مختومين ، كبير وصغير ، قدمهما إلى مينستريل :

ـ هذا يحتوي على نسخ من المستندات . وهذا ، رسالة من هوسمر .

واقترب الربان من المصباح الوحيد الموضوع على الطاولة ، والذي كان ينير الغرفة بشكل ضعيف.وفض ختم الرسالة ، وقرأها ، وبحث آلياً عن الفريدا

بعينيه ؛ ثم حدج جاك بنظره الحاد ، المستفهم ، ووضع الغلافين على الطاولة . وجلس ليقتدوا به .

وحين أصبح السبعة جالسين كلهم التفت مينستريل نحو جاك :

ـ إذن ؟ ..

فنظر جاك إلى بوهم ، ورفع ذؤابته بحركة عنيفة وتوجه بالكلام إلى الربان:

ـ لقد قرأت رسالة هوسمر .. ساراجيفو .. مقتل الارشيدوق .. وهذا يعود تاريخه إلى خمسة عشر يوماً .. أجل ، منذ خمسة عشر يوماً حدث في اوروبا ، وفي النمسا على الخصوص ، سلسلة حوادث خفية .. ذات أهمية بحيث رأى هوسمر أن من الضروري انذار جميع المراكز الاشتراكية الأوروبية . فأبرق إلى الرفاق في بطرسبورج ، وفي روما .. وذهب بوهلمان إلى برلين .. وذهب موريللي ليرى بليكانوف.. ولينين أيضاً. فتمتم ريشاردلي :

ـ لينين مخالف .

وتابع جاك دون أن يجيب .

ـ سيكون بوهم غداً في باريس . ونهار الاربعاء سيكون في بروكسل ، والجمعة في لندن . أما انا ، فإني مكلف باطلاعكم على ذلك .. فالصحيح ، تبدو الأمور انها تسير بسرعة .. وحين تركني هوسمر قال لي حرفيا : « اوضح لهم جيداً أن الأمور إذا تركت في سيرها فربما خاضت اوروبا حرباعامة قبل شهرين أو ثلاثة .. »

فقال ريشاردلي أيضا :

ـ لأجل مقتل ارشيدوق ؟

فقال جاك ملتفتاً نحوه :

ـ ارشيدوق قتله الصربيون .. قتله السلاف .. كنت مثلك : على بعد مئة ميل عن الشك .. ولكن هناك .. فهمت .. لمحت المسألة على الأقل .. انها ذات تعقيد جهنمي .

وصمت مجيلا نظره حوله ، وأوقفه على مينستريل وسأل بتردد :

ـ هل يجب أن اعيد كل شيء منذ البدء كما عرضه لي هوسمر ؟
ــ بدون شك ٠
فبدأ جاك حالاً :
ــ انتم تعرفون الجهود النمسوية لانشاء عصبة بلقانية جديدة ... ماذا ؟..
قال ذلك وقد رأى بوهم يتململ على مقعده .
وقال بوهم :
ــ اعتقد ان الاسلوب الصالح ، لتوضيح الوقائع بواسطة الاسباب ، يتقي بالبحث عن الاسباب قبل ذلك بكثير ...
عند كلمة «اسلوب» ابتسم جاك. واستشار الربان بنظرة ، فصرح مينستريل:
ــ لدينا الليل كله .
وابتسم ابتسامة مقتضبة ومد ساقه المتجمد امامه .
وتابع جاك موجهاً الكلام الى بوهم :
ــ حسناً ، إبدأ انت. من المؤكد انك ستقوم بذلك العرض التاريخي افضل مني .
فقال بوهم جاداً :
ــ نعم . (الامر الذي اومض شعاعاً من الخبث في عيني الفريدا) .
وترك المعطف الذي لا ينفذ اليه المطر ، والذي احتفظ به على كتفيـــه ، ينزلق ، ووضعه على الارض باعتناء بجانب قبعته ، وتقــدم حتى حافة كرسيه حيث ابقى نصفه الاعلى متصلباً ، والركبتين مضمومتين . وشعره المحلوق جعل له رأسه مستديراً . وقال :
ــ عفواً فيما يتعلق بالبداية ، فاني اريد ان اتناول وجهة النظر الايديولوجية الامبريالية..وذلك لأوضح جيداً ما يوجد تحت سياستنا النمساوية ... ــ وتابع بعد بضع ثوان مع الاستعداد الداخلي: ــ بالدرجة الاولى يجب معرفة ماذا يريد سلافيو الجنوب ...
فقاطعه ميتورغ :

ـ سلافيّو الجنوب ، يعني : صربيا ، والجبل الاسود، والبوسنه والهرسك، وسلافيّو هنغاريا ايضاً .

وكان مينستريل يتابع بانتباه عظيم ، وأتى باشارة رضى .

وقال بوهم :

ـ سلافيّو الجنوب هؤلاء يحاولون منذ نصف قرن خلق تكتل ضدنا . والنواة الرئيسية هي الصرب . يريدون التجمع حول صربيا ليؤلفوا دولة يوغوسلافية مستقلة استقلالاً ادارياً. ولأجل ذلك حصلوا على مساعدة روسيا . ومنذ عام ١٨٧٨ ، منذ مؤتمر برلين كان هناك صراع حتى الموت بين الجامعة السلافية الروسية والنمسا ـ هنغاريا . والجامعة السلافية قوية جداً عند قادة روسيا . ولكن حول مقاصد روسيا السرية ، وحول مسؤوليتها في التعقيدات التي حدثت فيما بعد ، فاني لا اعرف كفاية ، ولا اجرؤ على القول . اني اريد فقط ان اتكلم عن بلادي. فيما يتعلق بالنمسا ـ وهنا اتناول وجهة نظر الحكومة الامبراطورية ـ يصح القول ان تحالف السلاف الجنوبيين هو في الواقع مشكلة حياة كبرى . فاذا انشئت امة يوغوسلافية بالقرب من حدودنا ، فان النمسا تفقد السيطرة على السلافيين الكثيري العدد الذين يؤلفون الآن قسماً من الامبراطورية.

فتمتم مينستريل آلياً :

ـ لا شك في ذلك .

وبدا انه اسف لهذه المقاطعة اللاإرادية فسعل . وتابع بوهم :

ـ حتى عام ١٩٠٣ كانت صربيا تحت السيطرة النمساوية . ولكن في عام ١٩٠٣ قامت صربيا بثورة قومية ؛ واقامت آل كاراجورجيفتش على عرشها ونالت استقلالها . واصبحت النمسا تنتظر فرصة الانتقام . وفي عام ١٩٠٨ اغتنمنا فرصة ضرب اليابان لروسيا وضممنا بالقوة البوسنه والهرسك التي كانت مقاطعة موكلة الى ادارتنا. ووافقت المانيا وايطاليا على ذلك . وغضبت صربيا ولكن اوروبا لم تجرؤ على ارادة المشاكل . ونجحت النمسا بواسطة الجرأة ...

وارادت ان تعيد الجرأة ايام الحرب البلقانية الاولى عام ١٩١٢ . ونجحت

ايضاً بالجرأة ، فقـــد منعت صربيا من امتلاك مرفأ بحري على الادرياتيك . ووضعت بين صربيا والبحر ارضاً مستقلة استقلالاً ادارياً: ألبانيا ، وذلك لتسد على صربيا الممر الى الادرياتيك . وازداد غضب صربيا من ذلــك ... وعندئذ جاءت الحرب البلقانية الثانية . وفي السنة الماضية،اتذكرون ؟.. ربحت صربيا بلاداً جديدة في مقدونيا . وارادت النمسا ان تقول كلا . لقد نجحت مرتين بالجرأة ولكن المانيا وايطاليا لم تكونا موافقتين هذه المرة ، واستطاعت صربيا ان تجابه ، واحتفظت بما اخذته ... الا ان النمسا ظلت تشعر باهانة كبيرة من جراء ذلك . وكانت تريد فرصة للانتقام . فالكبرياء القومية قوية جداً عندنا . واخذت قيادتنا العسكرية تشتغل لأجل هذا الانتقام ، ودبلوماسيتنا تشتغـل ايضاً ... وقد تكلم تيبو عن العصبة البلقانية الجديدة . وكان هذا هو المخطط النمساوي السياسي الكبير لتلك السنة . واليكم جلية الامر : حلف يقـــام بين النمسا وبلغاريا ورومانيا لاجل إنشاء عصبة بلقانيةجديدة تقوم«ضد السلاف». ليس فقط ضد السلاف في الجنوب : بل جميع السلاف ... اتفهمون ؟ .. وهذا يعني ايضاً ضد روسيا !

واستجمع افكاره بضع لحظات باحثاً عما اذا كان قد اهمل شيئاً جوهرياً . ثم انحنى نحو جاك مستفهما .

وخفضت الفريدا المستندة الى كتف باترسون رأسها لتخنق تثاؤباً . كانت تجد النمساوي منقاداً لضميره وهذا الدرس في التاريخ تافهاً .

واضاف جاك :

– من الطبيعي ، عند التفكير بالنمسا،الا تغيب عن النظر الكتلة النمساوية الالمانية ... المـانيا « ومستقبلها على البحار » الذي يعارض انكلترا . المانيـا المطوّقة تجارياً والتي تبحث عن امتدادات جـــديدة . المانيا « الزحف نحو الشرق [1] ».. المانيا وانظارها على تركيا ... قطع المضائق على الروس ...

---

١ ـ بالالمانية في الاصل.

خط سكة حديد بغداد، الخليج الفارسي، البترول الانكليزي، طريق الهند، الخ..
كل هـذا مرتبط .. ففي المخطط الخلفي ، المشتمل على كل شيء ، يجب أن نرى دائماً جماعتين كبيرتين من القوة الرأسمالية تتجابهان ..

فقال مينستريل :

ـ لا شك في ذلك .

واستصوب بوهم برأسه . وساد صمت .

والتفت النمساوي نحو الربان وسأل بجد :

ـ هل هذا حسن ؟

فصرح مينستريل بصوت واضح :

ـ واضح جداً .

كانت إطراءات الربان نادرة · وقد دهش الجميع ، باستثناء بوهم ، وغيرت الفريدا رأيها فجأة وشملت النمساوي بكثير من الانتباه ·

وقال مينستريل متطلعاً إلى جاك ومنقلباً قليلاً إلى الوراء :

ـ والآن ، لنر ما يقول هوسمر وما هي الوقائع الجديدة ·

فبدأ جاك :

ـ وقائع جديدة ؟ .. كلا والحق يقال ·· بعد ·· دلائل ··

وعدل نصفه الأعلى بحركة سريعة اخفت جبهته في الظلام؛ وكان الألق الأصفر من المصباح ينير أسفل الوجه ، والفك الناتىء ، والفم الكبير ذا الثنيات القلقة :

ـ دلائل خطيرة تتيح استشفاف وقائع جديدة في ميعاد قصير تقريباً .. وها انا أُلخّص : من ناحيـة الصرب ، سخط شعبي عميق على أثر تلك التدابير المتكررة ضد المطامع الوطنية .. ومن الناحية الروسية ، ميل ظاهر لمساندة مطالب السلاف . وهذا صحيح ، فمنذ مقتل الارشيدوق والحكومة الروسية الواقعة كلياً تحت نفوذ هيئة اركان الحرب والطوائف القومية ، أخذت تصرح على لسان سفرائها أنها عازمة على حماية الصرب . وقد عرف هوسمر ذلك بواسطة معلومات آتية من لندن .. ومن الناحيـة النمساوية ، خزي مؤلم في أوساط

الحكومة على أثر الاخفاق الاخير ،وقلق عظيم على المستقبل . وكما يقول هوسمر ، فبهذا الحمل المنفجر بالبغض والحقد والشهوات ننزلق الآن في المجهول ..والمجهول يبدأ بالضربة المسرحية في ٢٨ حزيران : كمين ساراجيفو .. ساراجيفو مدينة بوسنية .. ساراجيفو ، حيث ظل الشعب مخلصاً لصربيا بعد ست سنوات من الإلحاق بالنمسا .. وهوسمر نفسه ليس بعيداً عن الظن ان بعض القادة الرسميين في صربيا قد ساعدوا على تهيئة هذا الاغتيال بشكل مباشر يكثر أو يقل .. ولكن هذا صعب الإثبات .. وبالنسبة إلى الحكومة النمساوية ، فإن هذا الاغتيال الذي أثار اشمئزاز الرأي العام الأوروبي ، ظهر حالاً كفرصة غير مأمولة . وضع المسؤولية على صربيا ! وتصفية حسابها دفعة واحدة ! ورفع نفوذ النمسا ، وفي الوقت نفسه ، ودون تأخير ، شبك تلك العصبة البلقانية الجديدة التي يجب أن تؤمّن السيطرة النمساوية في اوروبا الوسطى . ويجب الاعتراف ان هذا أمر شائق جداً لرجال الدولة ! .. وفي فيينا أيضاً فإن القادة لن يترددوا . أنهم يبتدهون حالاً منهاج عمل .

والنقطة الأولى هي إقرار اشتراك صربيا بالاغتيال . فتأمر فيينا حالاً باجراء تحقيق رسمي في بلغراد وفي كل المملكة الصربية · ويجب ايجاد اثبات مهما كان الثمن · إلا أن هذه النقطة الأولى من المنهاج بدت حتى الآن مخفقة تماماً · ولم يستطيعوا إلا بالجهد ايجاد اسماء بعض ضباط صربيين مشتركين في الحركة المعادية للنمسا في البوسنه.ورغم الأوامر الملحّة التي تلقاها المحققون فانهم لم يستطيعوا أن يستنتجوا اشتراك الحكومة الصربية بالذنب. ومن الطبيعي أن تختفي تقاريرهم . وقد اخفوها باعتناء عن الصحفيين · واستطاع هوسمر أن يحصل على النتائج ، وهي هنا .

أضاف ذلك واضعاً يده على الغلاف الضخم الباقي على المنضدة ، والذي كان المصباح ينير أختامه الحمراء .

واستقر نظر مينستريل المفكر لحظة على الغلاف ، وعاد إلى جاك الذي تابع :

ـ ماذا فعلت الحكومة النمساوية ؟ لقد صرفت النظر . وهذا دليل كاف على أنها تسعى وراء هدف سري . فقد أدخلت في الأذهـــان ، ونشرت أن اشتراك صربيا في الذنب أمر مفروغ منه . ولم تنقطع الصحافة الرسمية عن تسميم الرأي . إلا أن عملية الاغتيال كان استغلالهـا سهلاً . ويستطيع ميتورغ وبوهم أن يقولا لـكم ذلك : فشخص وريث العرش مقدس هناك بنظر الشعب. وفي الساعة الحالية فما من نمساوي ، وما من هنغاري لم يكن مقتنعاً ان جناية ساراجيفو هي نتيجة مؤامرة شجعتها الحكومة الصربية ، وربما الحكومـــة الروسية أيضاً ، احتجاجاً على ضم البوسنه ؛ وما من أحد إلا وشعر بالإهانة وتمنى الثأر . وهذا ما يريدونه فوق . فمنذ غد الاغتيال عملوا كل شيء لإثارة حفيظة الانانية القومية !

فسأل مينستريل : من هم ؟ ..

ـ رجال السلطة . وبصورة رئيسية وزير الخارجية برختولد .

فقاطع بوهم بكشرة ذات معنى :

ـ برختولد ! .. لفهم ذلك يجب أن يكون لديكم معلومات مثلنا عن هذا السيد الطمّاع ! فكروا : بسحق صربيا يصبح بسمارك « الأوستريخ » . لقـد اعتقد مرتين قبلاً أنه نجح : ومرتان افلتت الفرصة من يديه . وهذه المرة يشعر أن الحظوظ مؤاتية ويجب الا يدعها تفلت .

فاعترض ريشاردلي :

ـ ولكن برختولد ليس النمسا .

ومد نحو بوهم انفه المروس وابتسم . لقد كان أقل لحن في صوته يشي بذلك الاطمئنان الداخلي ، الكلّي ، الذي يمنحه للكائنات الشابة اعتناق مذهب متلاحم ، يقين .

وأجاب بوهم :

ـ النمسا كلها في كيسه ! وأولها هيئة أركان الحرب ، والامبراطور أيضاً ..

فهز ريشاردلي رأسه :

ـ فرنسوا ـ جوزيف ؟ يستصعب تصديق ذلك ٠٠ كم عمره ؟

فقال بوهم :

ـ أنه في الرابعة والثمانين .

ـ رجل ساذج في الثمانين ونيف ! يحمل على ظهره حربين بائستين ؟ ٠٠ ويقبل ، وهو مرح القلب ، في نهاية ملكه ٠٠٠

فهتف ميتورغ :

ـ ولكنه يشعر جيداً ان المملكة مهددة بشكل مميت ! والامبراطور ، رغم السن ، ، ليس متأكداً من بقاء تاجه على رأسه إلى أن يوافيه أجله .

فنهض جاك :

ـ ان النمسا يا ريشاردلي تتخبط في صعوبات داخلية فاحشة .. فلا تنس ذلك .. انها امة مؤلفة من ثمان أو تسع قوميات متنوعة ، متخاصمة . والسلطة المركزية تضعف من يوم إلى يوم . والتفكك حتمي تقريباً . وكل تلك الرزم الموضوعة بجانب بعضها البعض ، أولئك الصربيون ، والرومانيون ، والايطاليون المدمجون بالقوة في الامبراطورية ، هم في حالة غليان ولا ينتظرون سوى ساعة ملائمة لهز النير ! .. اني عائد من هناك . ففي الأوساط السياسية ، في اليمين كما في اليسار ، يعلمون بسهولة أنه لا يوجد سوى حل واحد لتجنب التفكك : الحرب ! .. وهذا رأي برختولد وجماعته . ومن الطبيعي أنه رأي الجنرالات !

فقال بوهم :

ـ منذ ثماني سنوات والجنرال كونراد فون هوتزندورف عندنا كرئيس لأركان الجيش .. شيطان الحزب العسكري . عدو السلاف الأكثر شراسة .. منذ ثماني سنوات وهو يدفع جهرة إلى الحرب !

لم يبد ريشاردلي أنه مقتنع . ذراعاه متصالبان ، والعين لامعة ـ لامعة كثيراً ـ كان ينتظر بالتتابع إلى اولئك الذين يتكلمون ، بنفس الهيئة الساברة وعدم التصديق الكافي

وكف جاك عن توجيه الكلام اليه ، والتفت نحو مينستريل ، وعـاد إلى الجلوس ، وتابـع :

ـ اذن، في رأي القادة هناك فإن حرباً وقائية تنقذ الامبراطورية . وتنتهي قسمة الأحزاب ! .. وتنتهي احتجاجات القوميين المخالفين ! إن الحرب ستعيد إلى النمسا ازدهارها الاقتصادي ؛ وستؤمّن لها كل السوق البلقانية التي يحاول السلافيون احتكارها.. وبما انهم أقوياء يستطيعون ان يجبروا الصرب حربياً على الخضوع في مدى اسبوعين أو ثلاثة ، فأي خطرٍ يتعرضون له ؟

فقاطع مينستريل :

ـ هذا موضع نظر !

والتفتت كل العيون نحوه . وباحتفالية ذاهلة نظر إلى نقطة غامضة باتجـاه الفريدا . وقال جاك :

ـ انتظروا .

فقاطع ريشاردلي :

ـ هناك روسيا ! ثم هناك المانيا ! لنفترض لحظة أن النمسا تهاجم الصرب ؟ ولنفترض ـ وهذا ليس أكيداً ولكنه ممكن ـ إن روسيا تدخلت . فالتعبئة الروسيا تتبعها التعبئة الألمانية على الأثر ، وتتبعها آليـاً التعبئة الفرنسية . كل نظام حلفهم الجميل سوف يلعب من تلقاء نفسه .. وهذا يعود بنا إلى القول ان حرباً نمساوية ـ صربية سيكون من حظها أن تثير نزاعاً عامـا . ـ ونظر إلى جاك وابتسم ـ ولكن هذا يا صديقي تعرفه المانيا أكثر منا . إذن ، إذا تركت المانيا للحكومة النمساوية الحبل على الغارب فانها بذلك تتعرض لخطر حرب اوروبية؟ .. كلا،فكروا .. فالخطر هو في ان تقوم المانيا بمنع النمسا عن العمل .

فانبسطت اسارير جاك وقال :

ـ انتظروا ! .. هذا ما يبرر صرخة الانذار التي أطلقها هوسمر . هناك قرائن قوية تنظن بان المانيا قـد منحت النمسا مساندتها قبلاً .

فارتعش مينستريل . ولم يرفع عينيه عن جاك . وتابع هذا :

– اليكم كيف ستجري الأمور وفقاً لرأي هوسمر .. يبدو اولاً ، في فيينا ، في الجلسات الأولى التي تلت الاغتيال ، ان برختولد سوف يـــلاقي مقاومتين : تيسزا Tisza ،وزير هنغاريا ، وهو رجل حكيم معـــادٍ لطريقة القوة – والامبراطور . نعم ؛ يبدو ان فرنسوا جوزف متردد في موافقته : كان يريد أولا ان يعرف بماذا يفكر غليوم الثاني . والقيصر الالماني ذاهب في جولة بحرية. ويجب الوصول اليه بدون إضاعة وقت . ويبدو من المحتمل أيضاً أن برختولد قد وجد وسيلة بين الرابع والسابع من تموز لمشاورة القيصر الالماني ومستشاره، و « الحصول على موافقة المانيا » .

فقال ريشاردلي مخصصاً :

– افتراضات ..

فتابع جاك :

– هذا طبيعي . ولكن ما يعطي وزنا لهذه الافتراضات هو ما حدث في فيينا منذ الأيام الخمسة الاخيرة . فكـِّروا .. في الاسبوع الماضي كانت الحاشية المحيطة ببرختولد لا تزال مترددة ؛ ولا يخفون إن الامـــبراطور – وبرختولد نفسه – يخافان معارضة صريحة من المانيا . وفجأة ، في السابع من الشهر تغير كل شيء . في ذلك النهـــار (وكان نهار الثلاثاء الماضي) فإن مجلساً حكوميا كبيراً ، مجلس حرب حقيقياً قد اجتمع بسرعة . كما لو أن الأيدي تفلتت من قيودها فجأة .. وقد احتُفظ بالصمت ٤٨ ساعة حول ما قيل في هذا المجلس . ولكن شيئاً من السر قد أُفشي منذ أول البارحة : كثير من الناس وضُعوا في السجن على أثر معلومات كثيرة اعطيت عند الخروج من المجلس . ومع ذلك فقد انشأ هوسمر في فيينا مصلحة مدهشة للاستخبارات : فهوسمر ينتهي دائماً إلى معرفة كل شيء ! .. لقد اتخذ برختولد في ذلك المجلس موقفاً جديداً تماماً كما لو أنه يحمل في جيبه التعهد القطعي بان المانيا تساند إلى النهاية غزوة تأديبية ضد الصرب . وبكل برود عرض على زملائه « خطة حرب » حاربها تيسزا وحده . والدليل على أن خطة برختولد هي خطة حرب هو أن تيسزا كان

يريد أن يوصل زملاءه إلى الاكتفاء بإذلال صربيا : كان يعتقد أن نيل هـــذا النصر الدبلوماسي الباهر شيء حسن . إلا أن المجلس كان ضده ؛ وفي النهاية خضع : لقد انضم إلى الرأي العام .. لا بأس : يؤكد هوسمر إن الوزراة في ذلك الصباح نظروا بكل وقاحة إذا كان هناك مجال لإقرار التعبئة حالا . ولم يفعلوا ذلك ، لأنهم رأوا مـــن المهارة ألا يكشفوا عن نواياهم إلا في اللحظة الأخيرة . أما ما هو أكيد فهو أن خطة برختولد ورئاسة الأركان قد اختيرت.. وتفاصيل هذه الخطة ؟ .. بالتأكيد ليست معرفتها كثيرة السهولة .. إلا أن هناك أموراً قد عرفت : مثلاً ، لقد اعطيت أوامر لبدء الاستعدادات العسكرية التي يمكن عملهـــا دون استلفات الانتباه ؛ وأن جيوش التغطية على الحدود النمسوية الصربية وضعت في حـــالة التأهب : ببضع ساعات تحتل بلغراد لدى أول عذر ! – وأمرّ يده بسرعة على شعره – وللانتهاء ، اليكم حديثاً قاله أحد مساعدي رئيس هيئة الأركان ، هو تزندورف الشهير ؛ وربمـــا لم يكن سوى تبجح رجل يرتدي سروالا قديماً من الجلد ، ولكنه يعبر جيداً عن الحالة العقلية عند القادة النمساويين . فقد صرح في حلقة من الأصدقاء الخلّص : « ستستيقظ اوروبا ذات صباح أمام عمل ٍ قد تم » .

١١

وصمت جاك ؛ واتجهت الانظار حالا إلى الربان .

كان جامداً ، متصالب الذراعين ، وحدقتاه لامعتان ثابتتان .

وظل الجميع صامتين طوال دقيقة · وكان نفس الاضطراب ، نفس التشوش يقلبان قسماتهم .

واخيراً قطع ميتورغ الصمت بحدة وقال :

– امر لا يُصدَّق !

وكانت وقفة جديدة . ثم تمتم ريشاردلي :

– اذا كانت المانيا حقيقةً وراء ....

فلفت الربان عينه النافذة نحوه ؛ ولكنه لم يبد انه يرى . وتقلصت شفتاه وأخرجتا صوتاً مبهماً . والفريدا التي لم تتركه بنظرها فهمت وحدها :

— قبل الاوان !

وارتعشت ، واستندت بالغريزة الى كتف باترسون .

وشمل الانكليزي المرأة الشابة بنظرة سريعة . ولكنها خفضت رأسها . وتملصت من كل استجواب .

ولو سألها باترسون ان تفسر هذا الارتعاش لاضطربت جداً . ومن المؤكد انها المرة الاولى هذا المساء حيث لم تعد الحرب بالنسبة اليها تجريداً ، وقد فرضت نفسها على مخيلتها بشكل بارز في واقعها الدامي . ولكن ليست الامور التي كشف عنها جاك هي التي جعلتها ترتعش : بل هي عبارة « قبل الاوان » التي قالها مينستريل . لماذا ؟ لم تفاجئها الفكرة ، فقد كانت تعرف اعتقاد الربان : « لا يمكن للثورة ان تخرج الا من ازمة عنيفة ؛ والحرب ، في حالة اوروبا الحاضرة ، هي الفرصة الاكثر ملائمة لهذه الأزمة ؛ ولكن عند الاقتضاء فان البروليتاريا التي لم تُعَدّ إعداداً كافياً، غير قادرة على تحويل حرب امبريالية إلى ثورة ». فهل كان هذا بالضبط ما قلب كيانها : الفكرة القائلة انه اذا كانت الاشتراكية غير مستعدة حقيقةً فان الحرب لن تكون شيئاً آخر سوى مجزرة عقيمة ؟ .. ام انها نبرة عبارة « قبل الاوان » تلك ؟... (قالت له ذات يوم مندهشة ، رغماً عنها : « انت حيال الحرب كالمسيحيين امام الموت : العيون محدقة بما سيأتي « بعد » بنوع انهم ينسون جميع اهوال الاحتضار »... وقد ضحك وقال: « ان آلام الولادة بالنسبة للطبيب ، ايتها الفتاة الصغيرة ، هي في نظام الاشياء. »). وكانت تسير — مع انها تتألم احياناً من ذلك — حتى الاعجاب بذلك التجرد الارادي ؛ الناتج عن الجهد القاسي الدائم لكائن كانت تعرف بعض نواحي ضعفه الانسانية جداً اكثر من اي شخص ؛ لقد كان ذلك كزيادة في التفوق . وكانت دائمة التأثر للتفكير بان تلك «التعرية من الانسانية » المضادة للطبيعة كان لها باعث انساني ، بشكل متفوق ، لأخذ كل شيء؛ خدمة الانسانية

بشكل افضل ؛ العمل بشكلٍ افضل لهدم المجتمع الحالي ، ومجيء عالم افضل .. لماذا اذن ارتعشت ؟.. لم تكن تعرف ان تقول ... ورفعت اهدابها الطويلة ، وانسلّ نظرها من فوق باترسون واستقر على مينستريل بتعبير ثقة ، وقالت لنفسها : « صبراً انه لم يقل شيئاً بعد . سيتكلم ، ومن جديد ، سيتضح كل شيء وسيكون كل شيء مضبوطاً وجيداً » ...

وتابع ميتورغ هازاً رأسه المنبوش الشعر :

– أن تريد النزعة العسكرية النمساوية والالمانية الحرب ، فهذا اصدّقه . وان يكون مع النزعة العسكرية كثير من القادة الجرمانيين، والصناعة الكبرى، وآل كروب ، وجميع اصدقاء «الزحف نحو الشرق»، نعم ، فهذا اصدقه ايضاً. اما مجموع طبقات الملاكين ، كلا ! انهم يخافون ! ولهم تأثير كبير . ولا يتركون هذا الامر يحدث . وسوف يقولون للحكومات : « قفوا ! هذا جنون ! اذا اشعلتم هذه المتفجرة فستُنْسَفون كلكم معها !»

فقال له جاك :

– ولكن يا ميتورغ ، اذا كان هناك اشتراك حقيقي بالذنب بين القادة واحزابهم العسكرية ، فماذا تستطيع ان تفعل معارضة طبقات الملاكين؟..ومع ذلك ، فان معلومات هوسمر حول هذا الاشتراك بالذنب ....

فقاطع ريشاردلي :

– ما من احد يضع هذه المعلومات موضع شك . ولكن الشيء الوحيد الممكن قوله الآن ، هو ان هناك « تهديداً » بالحرب ليس اكثر... اجل ،وماذا يوجد في الواقع تحت هذا التهديد!..ارادة حاسمه للحرب؟..ام بعض المساومات الجديدة للمستشاريات الجرمانية ؟..

فصرح باترسون بفتور :

– لا أعتقد ان الحرب ممكنة . وانتم لم تفكروا بانكلترا الهرمة ! انها لا تريد ان تترك الحلف الثلاثي يفرض سيطرته على اوروبا... – وابتسم : – انها تقف مطمئنة ، انكلترتي الهرمة .عندئذ ينسونها.ولكنها ترى وتسمع وتراقب !

واذا لم يلائمها الامر فانها تقف فجأة ! لا يزال لديها عضلات قوية كما تعلمون !انها تستحم كل صباح ، تلك العزيزة الهرمة .

فتململ جاك فارغ الصبر :

– الامر هنا ! اذا كانت هناك ارادة حرب او رغبة في التهويل . واوروبا ستجد نفسها غداً امام تهديد مخيف ! اجل، ونحن، ماذا يجب ان نفعل ؟..اني اعتقد كهوسمر ، يجب ان نتخذ موقفاً امام هذا الهجوم. يجب ان نُعِدّ الهجوم المعاكس بأسرع وقت ممكن .

فصرخ ميتورغ :

– نعم ، نعم .. اني استصوب ذلك .

والتفت جاك نحو مينستريل ؛ ولكنه لم يستطع ان يلتقي بنظرته ، فسأل بعينيه ريشاردلي الذي اتى باشارة موافقة :

– موافق !..

كان ريشاردلي يأبى الاعتقاد ان هنــاك خطر حرب . الا انه لا ينكر ان اوروبا سوف تضطرب اضطراباً عميقاً لهذا التهديد العنيف؛ ورأى حالاً الفائدة التي تستطيع الاممية ان تستخرجها من هذا الاضطراب لتوحيد قوى المعارضة وتقدم الفكرة الثورية .

وتابع جاك :

– اني اردد اقوال هوسمر: ان التهديــد بنزاع اوروبي يضع امامنــا هدفاً جديداً معيّناً. ومهمتنا اذن ان نستعيد المنهاج المرسوم منذ سنتين بصدد الحرب البلقانية ، وان نقوّيه ... النظر اولاً اذا كانت هناك وسيلة لتقديم اجل مؤتمر فيينا .. وبعد ذلك ، ومنذ الآن ، إثارة معركة مفتوحة ، رسمية ، داوية في كل مكان دفعة واحدة ! مداخلات في الريخستاغ ، ومجلس النواب، والدوما [1].. ضغوط في وقت واحد على جميع وزراء الخارجية !.. اعمال صحافة ! نــداء

---

١ ـ الجمعية الوطنية الروسية ، وقد اقرها القيصر نقولا الثاني عام ١٩٠٥ .

للشعوب ... دروس لجماهير الشعب !

فقال ريشاردلي :

– واقامة شبح الاضراب امام الحكومات .

وقال ميتورغ :

– مع عرقلة وتخريب في المصانع الحربية . ونسف القاطرات وقطع مسامير الخطوط الحديدية ، كما في ايطاليا .

وحدث تبادل نظرات متكهربة . فهل اتت اخيراً ساعة العمل ؟

والتفت جاك من جديد نحو الربان . وكانت هناك ابتسامة هاربة متألقة وباردة ، اعتبرها جاك قبولاً ، مرت وتلاشت كشعاع نور كاشف ، على قسمات مينستريل . وتحمس وتابع بحرارة :

– الاضراب ، نعم .. ان يكون عاماً وفي وقت واحد ! سلاحنا الافضل ! ويخشى هوسمر ان تظل المسألة في مؤتمر فيينا على الصعيد العقائدي . ويجب ان تؤخذ جدياً ، وبشكل جديد .. الخروج من النظرية ! توضيح الموقف الذي يجب ان يتخذه كل بلد وفقاً للحالة المعطاة ! عدم العودة الى ما جرى في مدينة بال ! الوصول اخيراً الى تصاميم حسية ، عملية . اليس كذلك ايها الربان ؟ .. ويود هوسمر ايضاً ان يدفع الرؤساء الى تنظيم اجتماعات تمهيدية قبل المؤتمر ، تمهيداً للأمر ، ولنثبت للحكومات منذ الآن ان البروليتاريا عازمة تماماً هذه المرة على الانتفاض دفعة واحدة ضد سياستها الاعتدائية .

فضحك ميتورغ :

– رؤساؤك ! ماذا تريد من الرؤساء ؟.. منذ كم من السنوات وهم يتكلمون عن الاضراب ؟.. او تعتقد ان رأيهم سيستقر على شيء في فيينا ، وببضعة ايام ؟ ..

فقال جاك :

– عمل جديد ، تهديد باشتعال اوروبي عام !

– كلا ، ليس رؤساؤك .. ليس خطبك ! عمل جماهير الشعب ، نعم . عمل

جماهير الشعب ايها « الرفيق » .

فهتف جاك :

ـ ولكن طبعاً ، عمل جماهير الشعب ! ولهذا العمل ، اليس من الضرورة الاولى ان يفصح الرؤساء عن مقاصدهم اولاً ، وبوضوح وتأكيد مطلق؟.. فكـّر يا ميتورغ : اي تشجيع لجماهير الشعب ! آه ! ايها الربان ، لو كان لدينا فقط صحيفتنا الاممية الوحيدة .

فصاح ميتورغ :

ـ احلام !.. اما انا فأقول : دع رؤساءك واشتغل لجماهير الشعب ! اتعتقد ان الرؤساء الالمان مثلاً ، سيقبلون بالاضراب ؟.. كلا .. سيقولون نفس ما قالوه في بال : « مستحيل ، بسبب روسيا ».

فلاحظ ريشاردلي :

ـ سيكون هذا خطيراً، خطيراً جداً ... في الاساس ، كل شيء يستند الى المانيا ، الى الاشتراكيين الديموقراطيين .

فقال جاك :

ـ على كل حال فقد برهنوا بوضوح منذ سنتين انهم يعرفون ، اذا لزم الامر ، ان يقوموا ضد الحرب ! ولولاهم لأشعل تاريخ البلقان الحرب في اوروبا !

فزمجر ميتورغ :

ـ ليس « لولاهم ». لولا جماهير الشعب... وهم ، ماذا فعلوا ؟.. يتبعون جماهير الشعب فقط .

فأجاب جاك :

ـ ولكن من نظـّم اذن دروس جماهير الشعب ؟.. الرؤساء !

فهز بوهم رأسه :

ـ ما دام لديك في روسيا ما لا يبلغ المليونين من البروليتاريين ، وملايين ، ملايين من الفلاحين ، فان البروليتاريا الروسية قوية كفاية ضد حكومتها ؛ والنزعة العسكرية القيصرية هي خطر حقيقي على المانيا ؛ والاشتراكية الديموقراطية

لا تستطيع ان تعِد بالاضراب !.. وميتورغ على حق : ففي مؤتمر فيينا سنقوم فقط بالقبول النظري ، كما في مؤتمر بال .

فصاح ميتورغ بهياج :

ـ اذن دعوا مؤتمراتكم ! اما انا فأقول:هذه المرة ، انه عمل جماهير الشعب ايضاً هو الذي يستطيع كل شيء ! والرؤساء سيتبعون ... يجب ان يعلن البروليتاريون العصيان في النمسا ، في المانيا ، في فرنسا ، في كل مكان ، دون ان ينتظروا الرؤساء ليصدروا الاوامر ! يجب تجميع الرؤوس الصالحة معاً في كل زاوية لتقوم الحوادث في كل مكان ، في الخطوط الحديدية ، في مصانع الاسلحة ، في مخازن الاسلحة ، في كل مكان !.. وبهذا نرغم الرؤساء ، والنقابات ! ويجب في الوقت نفسه إثارة جميع المنظمات الثورية في اوروبا!... انا واثق ان الربان من رأيي ! . إحداث الاضطراب في كل مكان .. في النمسا وهي اسهل شيء . أليس صحيحاً يا بوهم ؟.. واكثر من ذلك ... تحريض كل جماعات المتآمرين القوميين ، من بولونيين وتشيك وهنغاريين ورومانيين ! والشيء نفسه في كل مكان ... وبالمستطاع اشعال الاضرابات الايطالية ! ومن الممكن الروسية ايضاً..فاذا اعلنت جماهير الشعب العصيان في كل مكان فعندئذ يمشي الرؤساء..

والتفت نحو مينستريل وقال :

ـ أليس صحيحاً ايها الربان ؟

ومينستريل الذي وُجِّه السؤال اليه رفع رأسه ، وراحت النظرة الحادة التي وجهها الى ميتورغ ، ثم الى جاك ، تضيع باتجاه السرير الذي ظلت الفريدا جالسة عليه بين ريشاردلي وباترسون .

وهتف جاك :

ـ آه ! ايها الربان ! لو نجحنا هذه المرة لزادت قوة الاممية بشكل لا يُصدَّق .

فقال مينستريل :

ـ لا شك في ذلك .

وارتسم على زاوية شفتيه بريق سخرية عابر التقطته عينا الفريدا رغم اختفائه بسرعة .

أمام ما كشف عنه هوسمر ، وأمام القرائن التي تسمح بالافتراض أن المانيا تسند المطامع النمساوية ، فإنه كان يقول لنفسه : « هذه هي حربهم ! لها من الحظ سبعون على مئة .. ونحن لسنا مستعدين .. يستحيل أن نأمل بالاستيلاء على السلطة في أي بلد أوروبي . اذن ؟ .. » وحزم أمره حالاً : « ليس هناك أقل شك في الخطة الواجب اتباعها : اللعب على نزعة السلام الشعبية . أنها في الوقت الحاضر أفضل وسيلة لنا للتأثير على جماهير الشعب . حرب على الحرب ! وإذا انفجرت فيجب ان يذهب اليها أكبر عدد ممكن من الجنود مقتنعين اقتناعاً راسخاً إن الحرب قد تفلتت من عقالها بواسطة رأس المال ، ضد إرادة ، وضد مصالح البروليتاريين ؛ وليقذفوهم رغماً عنهم في صراع يقتل الأخ فيه أخاه في سبيل نهايات مجرمة . وهذا البذار لن يضيع مهما حصل .. حيلة ممتازة لنُدخل في النزعة الاستعمارية البذرة التي تقضي عليها ! وفرصة ممتازة أيضاً لنبقي رجالنا الرسميين أمام أنظارنا وتشويه سمعتهم في نظر السلطات بارغامهم على التورط حتى النهاية .. إذن ، هيا بنا يا صغاري ! انفخوا في جميع أبواق نزعة السلام ! ولا تطلبوا غير ذلك . وليس عليهم إلا أن يدعوكم تركضون .. »

وابتسم داخلياً : كان يتخيل مسبقاً العناقات السمحة بين دعاة السلام ودعاة الاشتراكية من جميع الأجناس ؛ وكان يعتقد أنه يسمع ترديد الأصوات الجهيرة على المنابر الرسمية .. وقال لنفسه : « أما نحن .. أما انا .. » ولم يكمل فكرته واحتفظ بالعودة اليها . وتمتم بصوت منخفض :

— هذا موضع نظر .

والتقى بنظر الفريدا الملحّ ، وأدرك ان الجميع قد سكتوا والتفتوا نحوه ، منتظرين أن يتكلم أخيراً . فردد بصورة آلية ، وبصوت مرتفع :

— هذا موضع نظر .

وأرجع ساقه بعصبيته إلى تحت كرسيه وسعل :

– ليس لدي ما أقوله أكثر من ذلك.. اني افكر كهوسمر .. أفكر كتيبو، كميتورغ، مثلكم جميعاً.

وأمرّ يده على جبهته الرطبة، وبحركة غير منتظرة، وقف.

في تلك الغرفة المنخفضة، المزدحمة بالمقاعد، كان يبدو أكثر كبراً، وخطا بضع خطوات حسب الصدف، ودار في الحيز الضيق الحر بين الطاولة والسرير، وسيقان الحضور. وبدت نظرته التي لامس فيها كل فرد من الذين كانوا هناك أنها لم توجّه شخصياً إلى أي واحد منهم.

وبعد دقيقة من الرواح والمجيء، والصمت، توقف. وبدا ان تفكيره قد عاد من مكان بعيد جداً. وكان الجميع مقتنعين أنه سيجلس ويشرح مخطط عمل، ويندفع باحدى تلك الاقتراحات الالزامية، التنبؤية نوعاً، والتي كان معتاداً عليها. ولكنه اكتفى بأن تمتم مرة اخرى أيضاً:

– هذا موضع نظر ..

وابتسم، وعيناه إلى الأرض قبل أن يضيف بسرعة:

– ومع ذلك فكل هذا يقرّب من الهدف.

ثم دخل وراء الطاولة وبلغ النافذة، ودفع المصراعين اللذين ينفتحان على الليل. عندئذ حنى رأسه قليلا، وبدّل النبرة وقال من فوق كتفه:

– لو أعطيتنا شيئاً رطباً نشربه ايتها الفتاة الصغيرة ..

فاختفت الفريدا طائعةً في المطبخ.

وكان باترسون وريشاردلي الباقيان على السرير يتحدثان بصوت منخفض. وفي منتصف الغرفة تحت قنديل السقف، كان النمساويان واقفين يتناقشان بلغتهما. وكان بوهم قد سحب من جيبه نصف سيكارة وأولعه؛ وشفته السفلى، البارزة، الملونة، الرطبة كانت تكسب وجهه المسطح تعبير الطيبة، وأيضاً شهوانية مبتذلة قليلاً تجعله يختلف كثيراً عن الآخرين.

وكان مينستريل الواقف، المستند بكلتا يديه إلى الطاولة، يعيد قراءة رسالة هوسمر الموضوعة أمامه تحت القنديل. والنور المنبعث من أعلى عاكس

النور كان ينيره بقوة : كانت لحيته القصيرة تظهر أكثر سواداً ، وصبغته أكثر بياضاً ؛ وكانت الجبهة متغضنة ؛ والجفون تغطي الحدقتين تغطية كاملة تقريباً .

ولمس جاك مرفقه .

- اخيراً ها هو « الاستيلاء على الأمور » أيها الربان وبأسرع مما كنت تفكر .

فهز مينستريل رأسه . وبدون أن ينظر إلى جاك ، وبدون أن يظهر عليه شيء من التأثر ، وافق بنبرة صمّاء خالية من أي تنوع :

- لا شك في ذلك .

ثم صمت ، وتابع قراءته .

واجتازت فكرة مؤلمة عقل جاك : فقد بدا له أن شيئاً تغير هذا المساء ليس فقط في عقل الربان ، بل في موقفه .

وكان بوهم هو الذي أعطى اشارة الرحيل ، فقد كان عليه أن يأخذ القطار غداً في ساعة مبكرة .

وتبعه الجميع ، متعزين بشكل مشوش .

ونزل مينستريل معهم ليفتح باب الشارع .

١٢

كانت الفريدا المنحنية على الدرابزين تنتظر لتصبح الأصوات غير متميزة . وعندئذ عادت إلى الشقة ، وأرادت ان تبدأ باعادة شيء من الترتيب ، ولكن قلبها كان مثقلا . فالتجأت إلى المطبخ الذي كان مظلماً ، وجاءت تتكىء بمرفقها على النافذة ، وظلت جامدة ، والعينان مفتوحتان بشكل مفرط في الظلام .

- اتحلمين يا صغيرة ؟ ..

وداعبت كتفها يد مينستريل الحارة الخشنة ، فارتعشت ؛ وبنفخة ، وبصوت ولد ، سألت فجأة :

- اتعتقد حقيقة انها الحرب ؟ ..

فضحك ، وشعرت بآمالها تترنح .
– ولكن نحن ..
- نحن ؟ .. نحن لسنا مستعدين !
– لسنا مستعدين ؟ ..
قالت عن سهو ، لأنها لم تكن تفكر هذا المساء إلا بالنضال ضد الحرب :
– اتعتقد حقيقة أنت أن ليس هناك وسيلة لمنعها ؟
فقطع قائلاً :
– كلا ، لا شك في ذلك .
إن فكرة استطاعة البروليتاريا الحالية الوقوف حاجزاً أمام قوى الحرب بدت له مستحيلة .
وأدركت في الظلام ، الابتسامة ، وبريق العينين ؛ وهزتها رعشة جديدة . وظلا صامتين الواحد مقابل الآخر بضع ثوان . وقالت :
– ولكن ، ربما كان باترسون على حق ، فإذا لم نستطع نحن شيئاً ، فإن انكلترا ..
– كل ما تستطيعه انكلترا هو أن تؤخر الساعة .. وبعد ؟ ..
هل رأى الربان عندها مقاومة غير معتادة ؟ .. لقد شدد التعبير عن قساوته :
– مع ذلك فالقضية ليست هنا . المهم ليس في منع الحرب !
فنهضت نصف نهضة :
– إذن لماذا لم تقل لهم ؟
– لأن هذا لا يعني أحداً في الوقت الحاضر أيتها الفتاة الصغيرة ، ولأننا اليوم يجب أن نفعل هكذا من الناحية العملية .
فصمتت . لقد شعرت أنها جُرحت هذا المساء، جُرحت كما لم تُجرح منه من قبل ، في اعماقها ! ومتمردة ضده دون أن تعلم لماذا . وتذكرت ذات يوم ، في بدء علاقتها ، حيث صرح بسرعة ، وبهزة كتف : « الحب ؟ .. ليس له أي

أهمية بالنسبة الينا ! .. »وتساءلت : « ما الذي له أهمية بالنسبة اليه ؟ لا شيء، لا شيء – ما عدا الثورة ! » وللمرة الأولى فكرت : « الثورة ، **فكرته الثابتة** .. وكل ما بقي ، يجود به، بي ! بحياتي كامرأة ! لا شيء له أهمية عنده، حتى ولا أن يكون ما هو : شيء آخر غير انسان ! » وكانت هـــذه هي المرة الأولى التي تفكر فيها : « شيء آخر غير إنسان » بدلاً من : « أكثر وأفضل من إنسان » .

وتابع مينستريل بنبرة ساخرة :

– حرب على الحرب أيتها الفتاة الصغيرة ! لندعهم يفعلون ! مظاهرات ، انتفاضات ، اضرابات ، كل ما يريدون ! إلى الأمـــام ، النفير ، إلى الامام ، الأبواق ! ليهزوا أسوار أريحا إذا استطاعوا .

وابتعد عنها ودار على عقبيه ، وقال بين أسنانه :

– ولكن ليست أبواقهم هي التي تلقي الأسوار أرضاً أيتها الفتاة الصغيرة: قنابلنا .

وحين بلغ غرفتها وهو يعرج، شعرت بتلك الضحكة الصغيرة المخنوقة التي كانت تجمد قلبها .

وظلت وقتاً طويلاً مستندة بمرفقها ، دون حركة ، غامسة نظرها في الليل. وعلى طول الرصيف المقفر كان الآرف l'Arve يهدر بشكل خفيف على الصخور. وانطفأت الأنوار الاخيرة واحداً واحداً في بيوت الضفة .

لم تكن تتحرك . بمـــاذا كانت تفكر ؟ .. لقد أجابت : « بلا شيء » وهناك دمعتان تشكلتا على حافة الجفون ظلتا معلقتين بين الأهداب .

١٣

كان السائق قد اجتاز ساحة الانفاليد ، وسار في شارع الجامعة . والسيارة تسير دون ضجة . ولكن في هذه الفترة من بعـــد ظهر يوم الأحد الشديدة الحرارة ، فإن ذلك الحي كان مقفراً، خامداً بتثاقل ، بحيث أن الصرير الحريري

للدواليب على الأسفلت الجاف ، ونفخة البوق الخجولة عند تقاطع الشوارع ، كانا يتصفان بعدم الرصانة ، وعدم اللياقة .

وما أن اجتازت العربة شارع باك حتى جذبت آن دي باتنكور اليها الكلب الصغير الأشقر الذي كان ينام مكوّماً كالكرة على المقعد، وانحنت ولمست بطرف مظلتها ظهر الخلاسي الثابت على مقعد القيادة بمعطفه الواقي من الغبار :

– قف هنا يا جو سأذهب على قدمي .

ووقفت السيارة على حافة الرصيف ، وفتح جو الباب . وتحت رفرف القبعة كانت حدقتاه اللامعتان كالجلد المدهون تنزلقان يميناً وشمالاً كعيني دمية ذات مفاصل .

وترددت آن . هل كانت واثقة انها ستجد سيارة اجرة بعد قليل في هذا الحي الميت ؟ .. كم كان انطوان مخطئاً بعدم اتباع نصيحتها لأنه لم يأت للسكن في بوا بعد موت ابيه ! .. وأخذت الكلب تحت إبطها وقفزت إلى الأرض بخفة ، وقد استولت عليها الرغبة في أن تكون حرة .

– لست بحاجة اليك هذا المساء يا جو .. عد إلى البيت ..

كانت الأرض تبعث الحرارة في النعل حتى في الظل . ما من نسمة هواء . وفوق السطوح بخار جامد يخفي السماء . وسارت آن وعيناها متغضنتان من انعكاس الحرارة على محاذاة الواجهات العادمة الحياة وأبواب السجن الكبيرة . وفيلو – الكلب – يخب بكسل على أعقابها . ما من كائن حي ؛ حتى ولا واحدة من تلك الفتيات ذوات الضفائر، ذوات السيقان الهزيلة ، اللواتي يظهرن أيام الآحاد الجميلة وهن يقفزن وحيدات على رصيف السجن ، وحيث شعرت آن فجأة برغبة في اختيار ثلاثة أسابيع تأخذهن فيها إلى دوفيل وتلقمهن الحلوى والهواء النقي . ما من أحد . وحراس البيوت أنفسهم ، كلاب حراسة نائمة في أكواخها ، يؤخرون حتى الغسق اللحظة التي يأتون فيها لتذوق شيء من الطراوة وهم منفرجو السيقان أمام أبوابهم . وهذا الأحد في ١٩ تموز ، فان شعب باريس الذي أصابه التعب بعد أسبوع من الاحتفالات الديموقراطية ، كان

يبدو أنه ترك عاصمته بالجملة .

وكانت بناية آل تيبو تبدو من بعيد. وهناك صقالات لا تزال تتوج السطح. والواجهة القديمة ، التي تخططها أماكن الاتصال والاسبيداج ، لم تكن تنتظر لإعادة شبابها سوى شيء من الطلاء . وهناك تصوينات مبرقشة بالاعلانات كانت تخفي الطابق الأرضي ، وتضيّق الرصيف في ذلك المكان .

وآن التي رفعت أذيال ثوبها الحريري وضمتها اليها ، دخلت يتبعها كلبها بين الأكياس ، والألواح الخشبية ، وأكوام الأنقاض التي تزحم المدخل . وتسيطر تحت القنطرة رائحة قبو ورطوبة جص طري تمسك بالعنق ، كملامسة اسفنجة مثلوجة . ورفع فيلو رأسه الصغير الأسود ، وتوقف ليتنشق تلك الروائح غير العادية . وابتسمت آن ، ورفعت بيدها كرة الحرير الصغيرة الرطبة وابقتها على صدرها .

عند اجتياز باب الدهليز الزجاجي تبدو الاشغال الداخلية منتهية . وطريق مفروش بطنفسة حمراء لم تكن قد وضعت منذ زيارة آن الاخيرة ، يوصل حتى المصعد .

وعلى سطح درج الطابق الثاني توقفت وسرحت شعرها قليلاً ، بدافع العادة ، قبل أن تدق الجرس ، مع انها تعلم ان انطوان غائب .

وفتح الباب ، كأنه فتح قسراً : فقد تردد ليون في الظهور بملابس الخدمة ، في صدرته المخططة . ووجهه مستطيل اجرد ، متوج بزغب فرخ طائر ، بتلك الهيئة اللاشخصية ، البلهاء الماكرة معاً – حاجبان متقوسان ، شفة ضخمة مسترخية ، جفون منخفضة وأنف ساقط – والتي أصبحت لديه انعكاس دفاع. والقى على آن ، على قبعتها ذات الزهور ، على زينتها البنفسجية الزاهية ، نظرة منحرفة سريعة ، شاملة كالقاء شبكة ؛ ثم انتحى جانباً ليدعها تدخل . وقال:

– الدكتور ليس هنا .

فقالت وهي تضع الكلب على الأرض :

– اعلم ذلك .

- يجب أن يكون في أسفل مع اولئك السادة ..

فمضت آن على شفتها . فأنطوان حين سار بها إلى المحطة ، نهار الثلاثاء يوم كانت ذاهبة إلى بيرك ، قال لها أنه سوف يغيب كل فترة ما بعد ظهر الأحد ، بسبب معاينة خارج باريس . منذ الشهور الستة التي دامتها علاقتها كانت تكتشف هكذا ، بين وقت وآخر ، أسراراً صغيراً مكتومة تخلق حول انطوان منطقة حماية لا يمكن اجتيازها .

وقالت وهي تناوله مظلتها :

- لا تزعج نفسك . فقد أتيت لأكتب كلمة تعطيها للدكتور .

عند مرورها أمام الخادم اندفعت على طنفسة بلون الصوف غير المصبوغ ، متناسقة وناعمة تفرش الآن شقة السيد تيبو القديمة . وكان الكلب قد وقف أمام مكتب انطوان بدون تردد . ودخلت آن وأدخلت الكلب ، وأقفلت الباب وراءها .

كانت الستائر مسدلة ؛ والنوافذمقفلة . بحيث يُشتمّ رائحة الطنفسة الجديدة والطلاء الحديث مع أريج دهان قديم ودائم . واقتربت بسرعة من المكتب ووضعت يديها على مسند الكنبة ، وظلت واقفة ، وعينها قاسية ، ومنخراها المستروحان تشوّها فجأة ، وأجالت في الغرفة نظراً جشعاً مرتاباً ، مستعداً لالتقاط كل اثر يمكن أن يزودها بشيء من المعلومات عن تلك الحياة التي لا تعرفها والتي يحياها انطوان بعيداً عنها .

ولكن ما من شيء كان لا شخصياً أكثر من هذه الغرفة المضجرة العارية . ولم يكن انطوان يعمل فيها أبداً . ولم يكن يستعملها إلا في أيام الزيارة . كانت الجدران مخفاة إلى نصف ارتفاعها بمكتبات تظهر رفوفها الفارغة وراء الزجاج المغطى بالحرير الصيني . وفي الوسط يقوم مكتب فخم حيث صفت على سطح لوح زجاجي قاحل ، دون قصدير ، زينة مؤلفة من محفظة جلدية ، وقرطاس يوضع تحت اليد ، وورق نشاف ، وكلها مميزة بأحرف تدل على اسم . وليس هناك أي ملف ، ولا رسالة ، ولا كتاب سوى « دليل الهاتف » . وهناك ساعة

ابنوسية قائمة كالزينة بقرب المحبرة البلورية الفارغة من الحبر تدل وحدها على مهنة المالك ؛ ويبدو أيضاً أن هذه الآلة لم يضعها انطوان لأجل الاستعمال الطبي ، ولكن وضعتها يد مجهولة لمزين يهتم بفن التصوير .

وكان فيلو قد تمدد على بطنه عند الباب ، متباعد اليدين ، وشعره الأشقر يمتزج بالطنفسة . وداعبته آن بنظرة لاهية ، ثم جلست كأمازونية على ذراع الكنبة الدائرة حيث كان انطوان يجلس ثلاثة أيام بالاسبوع ليكتب جواباته . وتخيلت لحظة أنها هو : فشعرت من ذلك بمتعة لطيفة : فقد كان ذلك انتقاماً من المركز غير اللائق الذي وضعها فيه في حياته .

وأخرجت من المحفظة الدفتر الممنون الذي يكتب عليه انطوان وصفاته الطبية ، وأخذت قلمها من محفظتها :

« يا توني المحبوب ، خمسة ايام بدونك ، هذا كل ما أستطيعه . هذا الصباح قفزت إلى أول قطار عند الساعة الرابعة . أنا ذاهبة إلى بيتنا بانتظار أن تنهي نهارك . تعال ولاقني يا حبيبي توني ، تعال بسرعة .

« آن »

« سأحمل معي عشاءً خفيفاً حتى لا نخرج » .

وأخذت غلافاً ورنت الجرس .

وظهر ليون . وقد ارتدى ثيابه الرسمية ، وداعب الكلب واقترب من آن ..

كانت مرتكزة على ذراع الكنبة تؤرجح ساقها ، وتلحس صمغ الغلاف . كان فمها مشقوقاً ولسانها كثيفاً ، ولكنه رقيق . وكان العطر المشبعة به ملابسها يتضوّع في الغرفة . وفاجأت وميضاً في نظر الخادم وابتسمت بصمت ، وقالت وهي تلقي رسالتها على المكتب بحركة جعلت حلقات معصمها ترن :

— خذ . أعطه هذا إذا شئت ، عندما يصعد .

كانت احياناً تخاطبه بصيغة المفرد في غياب انطوان ؛ ومن الطبيعي ألا يدهش ليون ذلك ، فقد كانت تربطهما اشتراكات في الذنب سرية ومخفية .

وحين كانت تأتي لتأخـــذ انطوان إلى العشاء ، وكان هذا يجعلها تنتظر، فانها كانت تثرثر مع ليون من تلقاء نفسها ، وتتنشق بقربه هواء مسقط رأسها . إلا أنه لم يكن يفترّ بهذه الدالة ؛ وعندما يكونان لوحدهما فانه يعتذر عن مخاطبتها بصيغة الغائب ؛ وحين تعطيه إكراميته فقد كان يعرف كيف يستطيع شكرها بطرفة عين بسيطة . لقد كان قلبه طاهراً من الحقد الطبقي .

ومدت ساقها ، وأدخلت يدها تحت تنورتها لتشد حرير جوربها ، ووثبت عن الكنبة :

– سأذهب يا ليون . أين وضعت مظلتي ؟

كانت أوثق طريقة لإيجاد سيارة اجرة هي الصعود من شارع سان – بير حتى البولفار . كان الشارع شبه مقفر . وقد التقت بشاب وتطلعا إلى بعضهما البعض بنظرة لامبالية ، بدون أن يرتابا انهما التقيا في يوم جدير بالذكر . ولكن كيف يعرفان بعضهما البعض ؟ .. لقد تغير جاك كثيراً في مدى أربع سنوات: هذا الرجل الربعة ، ذو الوجه المهموم لم تكن له مشية ولا وجه ذاك اليافع الذي سافر في السابق إلى التورين ليحضر زواج آن وسيمون دي باتنكور . ومع أنه لاحظ الزوجة بفضول اثناء ذلك الاحتفال الغريب ، فكيف يعرف في هذا الوجه المخضب لباريسية – الذي خبأت نصفه المظـــلة – قسمات تلك الأرملة القلقة التي تزوجها صديقه سيمون ؟ ..

قالت آن للسائق :

– شارع واغرام .

كان شارع واغرام هو « بيتنا » : طابق أرضي يحتوي على اثاث مسكن لعازب « غارسونيير » ، قد استأجره انطوان عنـــد بدء علاقتهما ، في زاوية الشارع وطريق غير نافذ يفتح عليه مدخل خاص ، الأمر الذي يتيح التفلت من مراقبة حارسة البيت .

لم يرض انطوان ابداً ان يُستقبل في الفندق الذي تسكنه آن بقرب بوا ، شارع سبونتيني . مع انها تعيش وحيدة وحيدة وحرة منذ عدة أشهر . (حين

وجب وضع هيغيت بالجبس بناء على نصيحة انطوان ، وأخذها إلى البحر ، فان آن استأجرت بيتاً في بيرك ، وكانت قد عزمت على السكن هناك مع زوجها حتى شفاء الصغيرة . وهو تصميم بطولي لم تستطع آن ان تخضع له وقتاً طويلاً . وبالفعل ، فإن سيمون الذي لم يحب باريس ابداً كان هو الوحيد الذي استقر هناك نهائياً ، بالقرب من ابنة زوجته والمربية الانكليزية . وقد صنع هناك كثيراً من الصور الشمسية وقليلاً من الرسم ، وقليلا من الموسيقى أيضاً ؛ وخلال الامسيات الطويلة ، وقد تذكر دراسته اللاهوتية ، فكان يقرأ كتباً عن البروتستانتية . وكانت آن تجد دائماً عذراً لتكون في باريس ، وكان سكنها في بيرك محدوداً بزيارة من خمسة أو ستة أيام كل شهر . ولم تكن عاطفة الأمومة نامية جيداً عندها . والوجود اليومي لهذه البنت الكبيرة ، ابنة الثالثة عشرة ، كان يثيرها كالقيد . وقد امتزجت اليوم عاطفة إزدراء بهذا البغض الخفي أمام عربة الكسيحة التي تنزهها مس ماري في الشمس على رمال تلال الشاطىء . وكانت آن تحلم احياناً بتبني فتيات مصابات باليرقان . ولكنها كانت تجد عدم اعتنائها بابنتها أمراً طبيعياً . وفي باريس على الأقل كانت تنسى هيغيت وسيمون) .

كانت السيارة قد هبطت جادة واغرام حين فكرت آن « بالعشاء الخفيف » . كانت الدكاكين مقفلة . وكانت تعرف في تيرن مخزناً للاطعمة يظل مفتوحاً نهار الأحد ، فسير بها إلى هناك . وسرحت سيارة الاجرة .

وعملية الشراء مسلية . فقد اختارت أولاً الأشياء التي يحبها انطوان : خبز جاودار ، زبدة مملحة ، صدر اوزة ساخن وسلة فريز . واشترت لفيلو كما اشترت لانطوان ، وأضافت إلى ذلك طاسة قشدة مزدوجة .

– ثم شريحة من هذا !

قالت ذلك بشراهة ، مشيرة بسبابتها من داخل القفاز نحو برنية فيها معجون مؤلف من خبز وفتيت لحم كبد . و « هذا » كان لها : ومعجون الكبد كان جنونها ! ومن الطبيعي ألا تأكل منه إلا في رحلة ، أو في مقصف محطة ، أو في

فندق ريفي . معجون بدراهم قليلة ، وردي ، وشحيم ودسم ، محاط بالدهن ، متبّل جيداً بالقرنفل وجوز الطيب ، منشور على كسرة خبز طازجة . هذا كل ماضيها ، كعاملة خياطة صغيرة ، يعود إلى فمها .. وفطورهـــا البارد ، وهي وحيدة على مقعد في التويلري ، وسط الحمائم وعصافير الدوري ، عندما كانت بائعة في جادة الاوبرا . بدون مشروبات ؛ ولكن لتطفىء حرارة البهارات كانت تشتري قبضة من الكرز الاحمر من على حافة الرصيف . ولتنتهي عنـد اقتراب ساعة العودة الى العلبة ، فان قدحـــاً صغيراً اسود ، محلّى بالسكر ، ساخناً . يشتمّ منه رائحة التنك والتشميـع ، كانت تلتهمـه واقفة ، وحيدة ، امام زنك مقهى – بار في شارع سان روك .

كانت تنظر لاهيةً الى المستخدم وهو يحزم المشتريات ويجمع الحساب .

وحدها ... حتى في ذلك العصر ، أنزرتها غريزة موثوق بها انه اذا كان لها بعض الحظ في الوصول فأن ذلك يكون ببقائها بعيدة منطوية على سرها ، بدون صداقات ، بدون عادات ، مهيأة بصورة دائمة لتبديل مستعجل. آه ! اذا كانت العرّافة التي كانت تتنزه آنذاك في التويلري بقفتها ومصفقاتها Claquette ، تبيع المسرّات وجوز الهند ، قد تنبأت لها بانها ستصبح مدام غوبيو ، زوجـة المعلم الكبير ... فإن ذلك قد حدث . وهـذا يبدو بسيطاً تقريباً ، وقد نُظر اليه من بعيد .

ومد المستخدم الرزمة مربوطة بخيط :

– هذه هي يا سيدتي .

وشعرت آن بنظرة البائع على عنقها. كان حبها يزداد لملامسة رغبات الرجال لها . وهذا لم يكن سوى غلام ، بخد أزغب ، وشفة مفلعـة ، وفم كبير سيء التكوين وسليم ، وأدخلت آن اصبعها تحت الخيط، ورفعت جبهتها وثنت العنق بشكل خفيف الى الوراء . وعوضاً عن الشكر وجهت الى الولد نظرة متملقة من حدقتيها الرمادتين .

لم تكن الرزمة كثيرة الثقل . وكان الوقت متسعاً لديها : فالساعة لم تكن

سوى الخامسة. فوضعت الكلب على الارض وسارت على قدميها نحو شارع واغرام.
– هيا يا فيلو ، شيء من الشجاعة ..

كانت تتقدم بخطى طويلة ، جسمها الاعلى مرن ، وشيء من الخيلاء في هيئة الرأس ، لانها لا تستطيع ان تحتفظ بنزوة كبرياء حين تتذكر حياتها : كانت تعي ان ارادتها ما انفكت تؤثر على مصيرها ، وان نجاحها هو من صنعها .

كانت تدهش كأن الامر حدث مع واحدة اخرى ، وتعجب على البعد من ذلك الجهد المتواصل الذي بذلته منذ الطفولة لتتخلص من الوهدات ؛ نوع من الغريزة شبيهة بغريزة السابح المشرف على الغرق ، والذي يقوم بكل حركاته الانعكاسية ليعود الى سطح الماء . ولكي تصعد بشكل افضل فقد احتفظت بنفسها عفيفة ، بدافع الغيرة ، اثناء سنوات المراهقة الطويلة ، بين اخيها البكر وابيها الارمل . ونهار الاحد ، حين كان والدها ، وهو عامل رصاص ، يلعب بالكرات ، كانت تذهب وأخاها الى غابة فانسين مع اصدقاء . وذات مساء ، عند العودة من نزهة ، اراد كهربائي شاب ، رفيق لأخيها ، ان يقبلها . وكانت في السابعة عشرة آنذاك . وكان يعجبها ، ولكنها صفعته وهربت وحدها الى البيت ؛ ولم تعد تقبل بالخروج مع اخيها ابداً . وكانت نهار الاحد تبقى في البيت تخيط. وكان لديها ذوق الملابس والزينة، وهناك امرأة من الجوار تبيع أشياء نسائية ، كانت تعرف امها ، فأخذتها كعاملة في المخزن ؛ ولكنها كانت كئيبة ، تلك الدكان في الحي ، حيث لا يدخل سوى الزبائن الفقراء ... ومن حسن الحظ انها وجدت وظيفة بائعة في الفرع الذي فتحته « اسواق القرن العشرين » في فانسين ، في ساحة الكنيسة . لمس قطع مخملية ، وتفتا (نسيج حريري رقيق) ! ويلمسها اولئك الآتون والذاهبون ، وتعيش محط انظار المستخدمين ورؤساء الفروع ، دون ان تمنحهم شيئاً سوى ابتسامة رقيقة؛ وتعود في المساء بحكمة لتهيىء عشاء العائلة : هكذا كانت حياتها طوال سنتين ؛ والخلاصة انها كانت تحفظ من ذلك ذكريات طيبة . ولكن منذ موت والدها هربت من الضاحية وحصلت على مركز ممتاز في قلب باريس ، شارع الاوبرا ،

في المتجر – الأم الذي كان غوبيو الهرم لا يزال يديره بنفسه . ولزم عندئذ ان تلعب بفطنة وحذر حتى الزواج ... « اللعب بفطنة وحذر ». لقد كان هذا شعارها ... والآن ايضاً.. ألم تكن هي التي اختارت انطوان منذ لقائها الاول معه ، فتغلبت على مقاومته وعملت بصبر لاستيلائها عليه ؟.. ولم يكن يشك في ذلك ، لانها كانت تتعذب بشكل كاف لتداوي غطرسة الذكَر ، وتترك له وهم المبادهة. ومع ذلك فهي لاعبة جميلة لتفضل المتعة المزهوة بأن تباهي بقدرتها وتمارسها سراً ، مع جميع أسلحة الضعف الظاهر ...

وقادتها احلامها الى « الفارسونيير » ، وأحست بالحر من المشي . والصمت ورطوبة الشقة التي بقيت مقفلة ، بدت لها لذيذة. وكانت واقفة في وسط الغرفة فخلعت بسرعة كل ما على جسدها ، وركضت الى غرفة الزينة لتستحم .

وكانت مسرورة لشعورها بالعري بين هذه المرايا ، وهذا الزجاج غير المصقول ، حيث نور الكوكب الميت يكسب بشرتها كثيراً من البريق . وكانت منحنية على الصنابير التي يسيل منها الماء بجلبة، وتجيل كفها لاهيةً على خصريها الاسمرين الهزيلين ، وعلى صدرها المثقل ، ثم دون ان تنتظر امتلاء المغطس خطت فوق حافته ، والماء يكاد لا يكون فاتراً ، وانزلقت فيه بارتعاشة لذة .

وهناك معطف حمام ، ابيض ذو خطوط زرقاء كان معلقاً في الجدار جعلها تبتسم؛ كان انطوان يرتدي ملابسه بشكل مضحك في ذلك المكان وفي احدى الامسيات لبعد المشاء الخفيف . وفجأة تذكرت مشهداً صغيراً جرى بينهما في ذلك المساء بالضبط : فعلى سؤال ألقته على انطوان عن حياته كشاب ، وعن علاقته براشيل ، قال لها بين الجد واللعب : « اني اقص عليك كل شيء ولا اخفي عنك شيئاً من ماضيّ ».

وبالفعل ، كانت قليلاً ما تحدثه عن نفسها . في بدء علاقتهما كان انطوان ذات مساء منحنياً على عينيها وقال لها : « نظرتك نظرة امرأة مشؤومة »! فما من شيء سبب لها سروراً اكثر من ذلك . ولم تنس هذا ابداً . ولكي تبقي على الوهم فانها دأبت على إبقاء الغموض حول ماضيها. هل كان ذلك عدم مهارة؟..

من يدري اذا كان انطوان لا يسرّ بان يكتشف عاملة الخياطة تحت المرأة المشؤومة ؟ .. لقد نوت التفكير في ذلك . وكان الدواء سهلاً : فحياتها الماضية غنية بشكل كاف لتغترف منها دون ان تخترع او تكذب : تذكارات البائعة العاطفية الصغيرة التي كانتها في بعض ايام طفولتها .

وانطوان ... ما ان تفكر به حتى يكون ذلك برغبة. كانت تحبه كما كان، لرباطة جأشه ، ولقوته – ومع انه كان واعياً هذه القوة ... كانت تحبه لنزواته الغرامية ، الشرسة نوعاً ، المفتقرة الى شيء من الحنو ... ربما يكون هنا بعد ساعة .

ومدت ساقيها ، وقلبت رأسها وأغمضت عينيها . كان تعبها يذوب في الماء كالغبار . وكانت تخدرها راحة حيوانية. وفوقها كانت البناية الكبيرة المقفرة، صامتة . وليس هناك ضجة سوى شخير الكلب المتمرغ على البلاط الرطب ، وجرف بعيد لحذاء تزلج على اسفلت ساحة مجاورة، ونغم قطرة ماء كانت تسقط بين ثانية واخرى من الصنبور برنة بلورية .

١٤

وقف جاك في شارع الجامعة يتأمل البيت الذي ولد فيه . كان من الصعب معرفة البيت وقد توجت رأسه الصقالات. وفكّر :« هذا صحيح فأنطوان كان ينوي القيام بجميع انواع الشغل »...

لقد أقام مرتين في باريس منذ موت والده ، ولكن دون ان يأتي الى حيه القديم ، وحتى دون ان يخبر أخاه بمروره . وكان هذا قد كتب عدة مرات بكثير من المحبة اثناء الشتاء ، اما جاك فاقتصر على بطاقات بريدية مختصرة ودّية . حتى انه لم يشذّ مرة فيجيب على رسالة طويلة تتعلق بالميراث ؛ فقد أوضح بخمسة اسطر رفضه المطلق غير المعلّل لامتلاك حصته من الارث، راجياً من اخيه الا يحدثه عن « هذه المسائل ».

كان في فرنسا منذ الثلاثاء الماضي. (فقد قال له مينستريل غداة اجتماع بوهم:

« سر الى باريس . ربما كنت بحاجة الى وجودك هناك في هـــذه الايام . لا استطيع ان اوضح شيئاً في الوقت الحاضر . اغتنم الفرصة لتتنسم الاخبـــار ، وانظر عن قرب الى كل ما يحدث ؛ كيف تقاوم اوساط اليسار الفرنسي ؛ وعلى الخصوص جماعة جوريس ، اولئك السادة جماعة صحيفة « الانسانية » . فإذا لم تتلقّ مني شيئاً نهار الاحد والاثنين ، فبامكانك ان تعود .الا اذ ااعتقدت انك تكون مفيداً هناك »). وأثناء هذه الايام القليلة لم يتسع له الوقت – او لم تسعفه شجاعته – ليأتي ويرى انطوان . ولكن الحوادث كـــانت تبدو له انها تزداد خطورة من يوم الى يوم ، بحيث عزم على ان لا يرحل قبل ان يلتقي بأخيه .

كانت عيناه مرتفعتين نحو الطابق الثاني حيث تصطفُّ ستائر جـديدة ، يحاول ان يجد « نافذته » نافذة غرفته وهو ولد... وكان الوقت لا يزال متسعاً للعودة . فتردد . واخيراً اجتاز الشارع ودخل تحت القنطرة .

لم يتعرف الى شيء؛في الدرج جدران من الملاط – كلس ورخام – ودرابزين مبتكر ، وغطاء ، عريض من زجاج حل محل الطنافس القاتمة المزخرفة بزهور الزنابق ، وقوائم درابزين متقنة الصنع ، والزجاج من طراز العصور الوسطى . والمصعد فقط لم يكن متغيراً . انه دائماً نفس جهاز التحريـــك المختصر ، ثم احتكاك السلاسل وتلك الكركرة الزيتية التي تلي تحريك المصعد بحيث لم يكن جاك يسمعها لدى كل عودة دون ان ينقبض قلبه ، ودون ان يعيش فجأة احدى أعنف لحظات طفولته المهانة : عودته الى البيت الابوي بعد هربه ..وكان هنا ، فقط هنا ، في تلك الغرفة الضيقة حيث دفعه انطوان ، قد شعر الهـــارب انه معاد ومختطَف ، عاجز ... والده...الاصلاحية. .والآن جنيف ، والامية... وربما الحرب .

– صباح الخير يا ليون ، يا لها من تغييرات ! هل اخي هنا ؟

وليون ؛ بدلاً من ان يجيب اخذ يتصفح هذا العائد بدهشة . وقـال اخيراً وهو يرف بجفوته :

– الدكتور ؟ كلا ... يعني نعم .. للسيد جاك بالتأكيد .. ولكنه تحت ،

في المكاتب . يجب ان يهبط السيد جاك طابقاً .. الباب مفتوح ، وليس للسيد إلا ان يدخل .

على سطح درج الطابق الأول قرأ جاك على صفيحة نحاسية : « مختبرات أ . اوسكار – تيبو . »

ففكر : « البيت كله إذن ؟ .. وقد أُلحق حتى لقب « اوسكار » ! »

كان الباب ينفتح من الخارج بواسطة مقبض مطلي بالنيكل . ووجد جاك نفسه في دهليز تنفتح عليه ثلاثة أبواب متشابهة . ووراء أحدها فطن إلى أصوات . هل كان انطوان يستقبل زبائن بعد ظهر يوم الأحد ؟ .. وتقدم جاك بضع خطوات متحيراً :

– .. شهادات بيومترية [1] .. تحقيقات في الجماعات المدرسية .

لم يكن انطوان هو الذي يتكلم . ولكنه عرف صوت اخيه فجأة :

– نقطة أولى : جمع الاختبارات .. تصنيف الاختبارات .. قبل بضعة أشهر فان أي عالم بالاعصاب ، واي اختصاصي بعلم أمراض الأطفال ، وحتى أي مرب ، يجب ان يستطيع أن يجد عندنا ، هنا ، في احصائياتنا ..

نعم ، انه انطوان بالتأكيد ، وكلامه الحاسم وكأنه راضٍ ، والساخر قليلا في النهايات .. وقال جاك لنفسه . « فيما بعد سيكون له صوت ابيه تماماً » .

وظل جامداً لحظة دون أن يصغي ، والعينان منخفضتان نحو الطنفسة الجديدة التي تغطي الأرض . وساوره الميل إلى الرحيل من جديد . ولكن ليون رآه . . ومع ذلك ، فما دام قد اتى إلى هنا .. وعدل كتفيه ، وكرجل كبير لا يتردد في تشويش لعب أطفال ، جاء إلى الباب وطرقه طرقة قوية .

وقطع انطوان حديثه ، ونهض وفتح المصراع بسحنة متجهمة :

– ماذا ؟ .. كيف ؟ أنت ؟

هكذا هتف وقد تهلل فجأة .

---

١ – جزء من البيولوجيا يطبق على الكائنات الحية القواعد الاحصائية وحساب الاتفاق .

وابتسم جاك أيضاً ، واجتاحته أحدى موجات الحنو الاخوي التي كانت ترفعه رغم كل شيء ، في كل مرة يجد فيها انطوان ، لحماً وعظماً بوجهه النشيط وجبهته المربعة ، وفمه ..

وقال انطوان : ادخل إذن .

ولم يرفع عينيه عن اخيه . كان جاك هنـا ! جاك هنا ! واقفاً ، بخصلة شعره المغراء الفاتحة ، وبنظره المتحرك ، وبابتسامته النصفية التي تعيد وجهه الذي يشبه وجه الطفل .

ثلاثة رجال ببلوزات بيضاء مفكوكة العرى ، والوجه يرشح عرقاً ، بدون أطواق عنق ، كانوا جالسين أمام منضدة كبيرة عليها كؤوس ، وليمون ، وسطل جليد ، تجاور أوراقاً ومصورات منشورة .

– هذا اخي .

اعلن انطوان ضاحكاً من السرور ، دالاً جاك على الرجال الثلاثـة الذين نهضوا ، وقال يقدمهم :

– اسحق ستودلر .. رنيه جوسلان .. مانويل روا ..

فتمتم جاك : لقد ازعجتكم .

فقال انطوان : نعم !

ونظر بمرح إلى معاونيه :

– اليس كذلك ؟ .. يستحيل ان نخفي انـه ازعجنا ، الحيوان .. ولكن لعله خير ! قوة قاهرة .. اجلس .

وأخذ جاك ، بدون ان يجيب ، يتفحص الغرفة الفسيحة المجهزة بكاملهـا برفوف صفت عليها قطع كرتون مرقمة وجديدة .

وقال انطوان متسلياً بدهشة اخيه :

– تسأل نفسك اين انت ؟ .. انت في قاعة المحفوظات ، بكل بساطة ... أتريد ان تشرب شيئاً رطبـاً ؟ ويسكي ؟ .. كلا ؟ .. ان روا سيصنع لك شراب الليمون .

قرر ذلك موجهاً الكلام إلى أصغر الثلاثة سناً : وجه ذكي لطالب باريسي، تتألق فيه نظرة ملساء، نظرة تلميذ جيد .

حين عصروا الليمونة على جليد مسحوق، كان انطوان قد التفت نحو ستودلر .

– سنعود إلى الكلام في كل ذلك نهار الأحد القادم، ايها الهرم ..

كان ستودلر أكبر سناً من الآخرين بشكل محسوس، حتى انه يبدو كالأخ الاكبر لانطوان . واسم اسحق كان يلائم وجهه الجانبي تمام الملائمة، بلحيته كأمير، وعينيه المحمومتين كمجوسي شرقي. وأحس جاك انه التقى به في الماضي عندما كان الاخوان يسكنان معاً .

وتابع انطوان :

– ان جوسلان سيرتب الأوراق . وعلى كل حال فاننا لا نستطيع أن نبدأ بالمتابعة قبل أول آب، قبل عطلة المستشفى .

وكان جاك يصغي . آب .. العطلة .. ما من شك في ان شيئاً من الدهشة ظهر على قسماته، لأن انطوان الذي كان ينظر اليه ظن ان من واجبه ان يوضح :

– نعم، نحن متفقون، نحن الأربعة، على ألا نأخذ فرصة هذه السنة ... بالنظر للظروف ..

فاستصوب جاك، بهيئة وقار :

اني افهم .

– فكـّر بانه لم يمض ثلاثة أسابيع على الانتهاء من الاشغال في البيت : ما من شيء يقوم بعمله من مصالحنا الجديدة بعد . ومع ذلك، فمع المستشفى والزبائن لم يتسع لي الوقت لأبدأ في كل هذه الأمور . ولكن مع هذين الشهرين من الهدوء واللذين سنحصل عليهما، حتى العودة ..

كان جاك ينظر اليه مندهشاً . فالرجل الذي كان يتكلم هكذا لم يفطن بالتأكيد إلى شيء في نبض العالم يمكنه ان يزعزع سلامة شغله، وثقته في الغد .

وتابع انطوان :

– ايدهشك هذا ؟ ذلك لأن ليس لديك أية فكرة عن مشاريعنا . ان لنا مطامــــع ! اليس كذلك يا ستودلر ؟ سأقص عليك ذلك ستتعشّى معي ، مفهوم ؟ اشرب ليمونك باطمئنان . وبعد ذلك سأجعلك تقوم بدورة كصاحب ملك . وسترى كل مسكننا الجديد . وبعد ذلك نصعد إلى فوق لنثرثر .

وكان جاك يقول لنفسه : « انه باقٍ كما كان . ويجب دائماً ان ينظّم ويدير الحركة .. » وشرب ليمونه طائعاً ونهض . وكان انطوان قد وقف ، وقال :

– لننزل أولاً إلى المختبرات .

حتى موت السيد تيبو كان انطوان يعيش عيشة عادية كطبيب شاب ذي مستقبل . وقد اجتاز امتحاناته واحداً واحداً وقـُبـِل في المكتب المركزي ، واستمر على معالجة الزبائن ، بانتظار وظيفة ذات لقب في مصلحة المستشفيات.

وفجأة منحته التركة الأبوية قوة غير منتظرة : المال . ولم يكن هو الرجــل الذي يهمل هذا الحظ العظيم .

لم يكن عليه أي عبء ، أي نقيصة كثيرة النفقة . له ولع واحد : الشغل . ومطمع واحد : أن يصبــح استاذاً . ولم يكن المستشفى والزبائن بنظره سوى تمرين . أما ما يحسب حسابه فهو ابحاثه الشخصية في عــــلم أمراض الأطفال . ومنذ اليوم الذي شعر فيه انه غني ، فان حيويته التي كانت قوية وجدت نفسها فجأة قد ازدادت عشرة أضعاف . ولم يكن لديه سوى فكرة واحدة: تكريس ثروته لتزيد من سرعة صعوده المهني .

ومخططه أصبــح جاهزاً بسرعة . التثبت أولاً من التسهيلات ذات النظام المادي ، بواسطة تنظيم متقن : مختبرات، مكتبات ، فئة مختارة من المشاهدين. وبالمال يصبــح كل شيء ممكناً . حتى شراء ذكاء واخلاص بعض الأطباء الشبان الذين لا مورد لهم والذين يؤمّن لهم الراحة ويستفيد من كفاءاتهم ليتقــدم في ابحاثه ويشرع بابحاث جديدة .. وعلى أثر ذلك كان قد فكر بصديق الدكتور

هيكيه ، رفيقه القديم ستودلر الملقب بالخليفة ، والذي يعرف له منذ تاريخ طويل روح الأسلوب والنزاهة الفكرية وقوة الشغل . ثم اختار شابين : مانويل روا ، وهو دارس طب في مستشفى ، مضى عليه عدة سنوات في مصلحته ؛ ورنيه جوسلان ، كيميائي ، عُرف بدراساته الهامة حول الامصال .

وفي بضعة أشهر ، وتحت ادارة مهندس معماري همام ، أصبح البيت الوالدي متغيراً . فالطابق الارضي القديم المتصل الآن بالطابق الاول بواسطة درج داخلي ، قد جعل منه مختبرات مجهزة بجميع التنظيمات الحديثة ، ولم يهمل أي شيء . فما ان كانت تنبثق صعوبة في التنفيذ حتى كان انطوان يلمس جيبه آلياً حيث يوجد دفتر الشيكات : « اصنع لي التصميم مع النفقات اللازمة » . لم يكن الإنفاق يهمه أبداً . كان قليل الاهتمام جداً بالمال . ولكنه كثير الاهتمام جداً بنجاح مشاريعه . وكان الكاتب العدل الخاص به وصرّافه يصابان بالهلع لرؤيته وهو يبدد ، بكثير من السهولة ، هذه الثروة المكتسبة ببطء والمدارة بحكمة بواسطة جيلين من البورجوازيين الكبار . ولكنه لم يكن يبالي ، ويبيع رزم صكوكه ، ويضحك من الانذارات الخجولة التي يقوم بها رجال أعماله . إلا انه كان ذا مخططٍ مالي . فما بقي من ثروته ، بعد هذه الثلمات الواسعة ، كان في نيته توظيفه في اراض اجنبية وعلى الخصوص في مناجم روسية ، بناء على نصائح صديقه روميل ، الدبلوماسي . كان يفكر هكذا ، بأن يحصل على مداخيل ، حتى برأسمال ناقص جداً ، يجب أن لا تكون ، بعد حساباته ، أقل من المداخيل التي كان السيد تيبو ، المخلص للقيم « المأمونة » ولو كانت ذات دخل صغير جداً ، يستخرجها من الثروة التي لم تُمس .

ودام التفتيش المفصل للطابق الأرضي ما يقرب من نصف ساعة . ولم يتسامح انطوان بشيء مع الزائر .. حتى انه سار به إلى الأقبية القديمة التي تؤلف الآن طابقاً واسعاً تحت الأرض (سوسول) مطلياً بالكلس : فقد انشأ منه جوسلان في هذه الأيام الاخيرة مكاناً لتربية الحيوانات طيب الرائحة، حيث الجرذان والفئران والارانب الهندية كانت تجاور حوضاً للضفادع . كان انطوان

منتشياً . وكان يضحك تلك الضحكة الخارجة من حنجرته ، الفتية المتموجة التي كبحها وقتاً طويلاً ، وحررتها راشيل إلى الابد. وفكر جاك : « ولد صغير لغنيّ يُظهر جواهره » .

في الطابق الأول يوجد قاعة صغيرة للعمليات ، ومكاتب المعاونين الثلاثة ، والغرفة المخصصة للمحفوظات والمكتبة .

واوضح انطوان بنبرة وقورة راضية بينما كانا يصعدان إلى الطابق الثاني :

– بهذا يمكن البدء بالشغل . ثلاث وثلاثون سنة .. لقد حان الوقت لأنصرف إلى ذلك جدّياً ، إذا اردت ان اترك ورائي شيئاً باقياً ..

وتابع بعد ان وقف والتفت نحو جاك بذلك العنف المفرط نوعاً والذي كان يحب بوجهٍ خاص ان يظهره لأخيه :

– انت تعلم ، ان المرء يستطيع دائماً أكثر مما يظن ! حين « يريد » شيئاً ما – شيئاً يمكن تحقيقه – ومع ذلك فأنا لا اريد ابداً سوى اشياء ممكنة التحقيق .. اجل ، حين « يراد » لاجل الخير !

ولم يتم عبارته ، وابتسم ملاطفاً وواصل سيره .

وسأل جاك ليقول شيئاً :

– اين صرت في امتحاناتك ؟

– اجتزت امتحان المستشفيات في هذا الشتاء . وبقي لقب « أغريجه » لأن من اللازم ان يصبح باستطاعتي ان اكون استاذاً ذات يوم ! فقط ، كما ترى ، ان اكون طبيب أطفال كفيليب ، فهذا لا بأس به ، ولكنه لا يكفيني ابداً : ليس هذا ما يتيح لي ان اظهر مقدرتي .. فطبُّ عصرنا سيخطو خطواته الحاسمة على الصعيد النفسي .. اجل ، اريد ان اكون كذلك، افهمت؟ لا اريد ان تُخطى هذه الخطوة بدوني ! وليس من قبيل المصادفة انني اهتممت كثيراً اثناء استعدادي للامتحانات ، « بمتخلفي النطق » .. وعلم النفس المتعلق بالطفولة لا يزال في بداياته في نظري . انها اللحظة المناسبة .. وهكذا ، فاني أود في السنة القادمة ان اكمل مستنداتي حول العلاقات بين نظام التنفس عند

الاطفال وحياتهم المتعلقة بالدماغ !.

والتفت ، وبدا على وجهه فجأة قناع الرجل العظيم الذي تفصله المعرفة عن جهل البسطاء ، وقبل ان يضع مفتاحه في القفل ، القى على اخيه نظرة عميقة وقال ببطء : « كم من اشياء يمكن عملها في هذه الناحية ، وكم من اشياء يجب كشفها !»

وصمت جاك . فهذه الهيئة التي يتخذها انطوان لتدل على انه يلتذ بالحياة قد اسخطته بشدة . وامام هذه السنوات الثلاثين المجهزة جيداً والتي كانت واثقة من الانطلاق كان يشعر بنوع من القلق بعدم استقرار توازنه – ويضاف الى ذلك تهديد العاصفة التي تثقل على العالم .

في هذه الميول العدائية كانت زيارة الشقة مؤلمة له بشكل خاص . وكان انطوان يتنزه خلال هذا التجهيز السكني الفخم ، ممدود العرقوب كديك في حوش الطيور . وكان قد هدم معظم الحواجز بين الغرف وغيّر التوزيع تغييراً كاملاً . وكان الترتيب ناجحاً مع انه عارٍ من البساطة . وهناك حواجز مرتفعة مدهونة باللك[1]تقسم صالوني الانتظار الى مساحات صغيرة يُعزَل فيها الزبائن، وهذا التجديد من المهندس المعماري الذي بدا انطوان فخوراً به يكسب المجموع مظهر معرض تزييني . وكان يؤكد انه شخصياً لا يجعل قيمة لهذه الفخفخة الخارجية . وأوضح : « ولكن هذا يسمح باختيار الزبائن، اتفهم؟.. وإنقاصهم وربح الوقت لأجل الشغل ».

وكانت غرفة الزينة روعة في البراعة والرفاهية . وانطوان وهو يسحب بلوزته اخذ يحرك مصاريع الخزائن المصقولة ، وردد :

– كل شيء بمتناول اليد : وهذا يوفر الوقت .

وكان قد ارتدى سترة من الداخل . ولاحظ جاك كيف اصبحت ملابس اخيه معتنى بها اكثر من السابق . لم يكن هناك شيء يجتذب النظر ولكن السترة السوداء كانت من الحرير ؛ والقميص الرخو كان من الباتيستا الناعمة ، وهذه

---

١ ـ مادة ملونة تستعمل في الرسم .

الاناقة الرصينة كانت تلائم جيداً . وكان يبدو مجدداً شبابه ، واكثر مرونة ، دون ان يفقد شيئاً من قوته .

وفكر جاك :«كم يبدو مرتاحاً في فخامته . زهو الأب. زهو الارستوقراطي البورجوازي .. يا له من عرق ! ولعمري يبدو انهم لا يحسبون ثروتهم وحدها تفوقاً ، بل عادتهم في الحياة الرخية ، وذوقهم في الرفاهية ، في « النوعية » ! وهذا يصبح مزية شخصية بالنسبة اليهم ! مزية تخلق لهم حقوقاً اجتماعية. وذلك « الاعتبار » الذي يتمتعون به يجدونه مشروعاً ! وسلطتهم مشروعة وكذلك استعباد الآخرين . نعم ، يجدون « التملّك» طبيعياً جداً . ويجدون طبيعياً ان يكون ما يمتلكونه منيعاً تحميه القوانين ضد طمع اولئك الذين ليس عندهم شيء ! كرماء !اوه ! دون شك ، ما دام هذا الكرم زيادةً في الفخفخة : كرم يشكل جزءاً من النفقات الزائدة ....» واستحضر جاك في ذهنه حياة أصدقاءه السويسريين الرقيقة ،والذين حرموا من الكماليات فتقاسموا الضروري فيما بينهم ، وكان التعاون فيما بينهم خطراً دائماً في ان يعوزهم اقل شيء .

الا انه امام المغطس الذي كان واسعاً كمسبح صغير باهر بسبب انعكاس النور لم يستطع الامتناع عن لذعة حسد . لقد كان سكنه سيئاً في غرفة بثلاثة فرنكات ... لقد بدا الحمّام لذيذاً في هذا الحر .

وقال انطوان وهو يفتح باباً :

— هنا ، غرفتي .

فدخل جاك واقترب من النافذة .

— ولكنه الصالون القديم اليس كذلك ؟

فعلاً : انه الصالون القديم ،حيث كان السيد تيبو في مدى ثلاثين سنة متتابعة ، في ظل احتفالي ، يحتفظ بالجلسات العائلية بين ستائر ذات رفارف وابواب صغيرة كثيفة . - لقد نجح المهندس المعماري في تحويله الى غرفة عصرية ،مضاءة وعارية ، وقورة دون صرامة . يفيض فيها النور الآن من ثلاث نوافذ تخلصت من زجاجها القوطي .

ولم يجب انطوان . فقد شاهد على المكتب غلاف آن ، وفوجىء لأنه كان يعتقد ان آن في بيرك ، فأسرع بفتحه . وما ان اجال نظرة في البطاقة حتى عبس ، فقد ظهرت له آن في إطار « الفارسونيير » المألوف ، في مئزرها من الحرير الابيض المشقوق . . وألقى آلياً نظرة على المنبّه ووضع الورقة في جيبه . أمر في غير وقته ... لا بأس ! لمرة واحدة يستطيع ان يقضي سهرة مع اخيه .

وقال ، بدون ان يسمع :

– ماذا ؟.. انا لا اشتغل هنا ابداً ... انه لأجل المعاينة ... انا اكتفي دائماً بغرفتي القديمة .. تعال .

وكان ليون يتقدم امامهما داخل الرواق :

– هل وجد السيد الرسالة ؟

– نعم ... هات لنا ما نشربه ، اتريد ؟... الى مكتبي .

كان هذا المكتب احدى الزوايا الوحيدة في الشقة التي ينعكس فيها قليل من الحياة . والحق يقال ، ان المرء لا يشعر فيها بالشغل بقدر ما يشعر بحركة فعالية مضاعفة وغير منظمة . ولكن هذه الفوضى بدت جذابة لجاك . كدسة من الاوراق ، بطاقات ، دفاتر صغيرة ، مقالات مقطوعة ، كانت كلها تزحم الطاولة ولا تكاد تترك مكاناً للكتابة : الرفوف ملأى بالكتب المستعملة والمجلات المعلّمة بشرائط صغيرة ، وبصور شمسية بدون ترتيب ، وزجاجات وعينات ادوية .

وقال انطوان وهو يدفع جاك نحو كنبة مريحة من الجلد :

– هيا ، لنجلس الآن .

وتمدد على الأريكة بين الوسائد . (كان دائماً يحب ان يتمدد ليُحدث ، وكان يقول : « واقف ام نائم ، فوضعية الجلوس هي للموظفين . ») ورأى نظر جاك يدور في الغرفة ويتوقف لثانية واحدة على تمثال بوذا الذي يزين المدخنة .

– انه جميل اليس كذلك ؟.. قطعة من القرن الحادي عشر اتت من مجموعة رمسي .

وشمل اخاه بنظرة حبٍ اصبحت فجأة فاحصة :
— لنتكلم عنك الآن . اتريد سيكارة ؟.. ما الذي اتى بك الى فرنسا؟أؤكد انه ربورتاج حول دعوى كايو .
فلم يجب جاك . كان يتأمل تمثال بوذا بإصرار حيث كان الوجه يشع بطلاقة فريدة في داخل ورقة اللوتس الذهبية الكبيرة المعقوفة كنوع من الصدف ، ثم ألقى على اخيه نظره الثابت حيث كان هناك شيء من الذعر . واتخذت قسماته تعبيراً خطيراً بحيث شعر انطوان بقلق من جراء ذلك ، وافترض حالاً ان مأساة جديدة تجتاح حياة اخيه الصغير .
ودخل ليون مع طبقه الذي وضعه بجانب الأريكة . وتابع انطوان :
— لم تجبني.. ما الذي اتى بك الى باريس؟.. ألِوَقتٍ طويل ؟.. ماذا تريد ان تشرب ؟.. انا لا ازال وفياً لشايي البارد ..
ورفض جاك بحركة انزعاج ، وتمتم بعد لحظة :
— ولكن يا انطوان ، ايمكن الا يكون لديك اي ريبة بما يُهَيَّأ ؟..
وانطوان المنحني على حافة الأريكة كان يمسك بيديه القدح الزجاجي الذي ملأه ، وقبل ان يغمس فيه شفتيه ، جرع بشراهة اريج الشاي المعطر قليلاً بالليمون والروم ، ولم يكن جاك يرى سوى اعلى الوجه ، سوى النظر حيث يطفو تراخٍ ساهٍ ،(كان انطوان يفكر بآن التي تنتظره هناك ، على كل حال يجب إعلامها بالهاتف دون تأخير ...)
وكان جاك على وشك النهوض والذهاب دون إيضاح ، وتمتم انطوان دون ان يغير جلسته ، ثم التفت نحو اخيه بشكل مرغم :
— وماذا يُهَيَّأ ؟..
وتطلعا ببعضهما البعض لحظة صامتين ، وقال جاك بصوت أبح :
— الحرب .
ورن جرس الهاتف بعيداً في الدهليز ، وقال انطوان ، وعيناه متغضنتان من دخان سيكارته :

– نعم ؟.. دائماً اولئك البلقانيون ؟

كان كل صباح يحيل عينيه بصحيفة استعلامات ويعرف بطريقة مشوشة ان هناك الآن احد تلك « التوترات الدبلوماسية » التي لا تُفهم والتي كانت تشغل مستشاريات اوروبا الوسطى بشكل دوري . وابتسم :

– من الواجب اقرار حجر صحي حول الشعوب البلقانيــة وان يُتركوا ليذبحوا بعضهم البعض مرة واحدة حتى الابادة الكلّـية .

وفتح ليون الباب وأعلن بنبرة غامضة :

– هناك من يطلب السيد على الهاتف .

فقال انطوان لنفسه : « انها آن » . ومع انه كان يوجد جهــاز هاتف في الغرفة بمتناول يده ، فقد نهض ليذهب الى غرفة المعاينة .

ولاحظ جاك بعين ثابتة ، طوال دقيقة ، الباب الذي خرج منه اخوه . ثم ، فجأة ، كأنه اصدر حكماً دون استئناف ، قـال : « الحفرة التي بيني وبينه لا يمكن اجتيازها ».(كانت هناك فترات يتذوق فيها سروراً هائجاً عندمايتأكد ان الحفرة « لا يمكن اجتيازها ») .

انطوان في غرفته اخذ السمّاعة بسرعة .

– ألو ... اهذا انت ؟ ..

قال ذلك صوت نسائي غليظ ، حنون وحار ، زاد ارتعاشه رنين الميكرو.

وابتسم انطوان خلال الفراغ :

– لقد تكلمت في الوقت المنــاسب يا عزيزتي ... كنت سأكلمك ... انا آسف . فجاك قد اتى ... جاك اخي ... لقد اتى من جنيف ... ولكن نعم ، على حين غفلة ... هــذا المساء ، الآن ... اذن من الطبيعي ... من اين تتكلمين ؟ ..

وقال الصوت ناعماً :

– ولكن من « بيتنا » يا طوني .. اني انتظرك ...

- يجب ان تغفري يا عزيزتي ... تدركين تماماً اليس كذلـك ؟.. يجب ان أبقى معه ..

وبما ان الصوت لم يجاوب ، فانه نادى : آن . .

وظل الصوت ساكتاً ، فردد : آن !

كان واقفا امام المكتب الكبير الفخم ، والرأس منحنٍ على السمّاعـة ، يجيل نظراً غائباً وقلقاًعلى الطنفسة الهافانية وعلى اسفل المكتبات، وعلى ارجل المقاعد . وتمتم الصوت اخيراً :

- نعم .

وساد صمت جديد :

- هل ... هل سيبقى طويلاً ؟

فقال : لا اعتقد . لماذا ؟..

- ولكن يا طوني ، اتعتقد اني سأجد الشجاعة لأعود الى البيت هـذا المساء دون ان احصل عليك ... قليـلاً ؟.. لو كنت ترى كيف انتظرك ! كل شيء جاهز ... حتى العشاء الخفيف .

فضحك . واضطرت هي ايضاً الى الضحك .

- هل ترى العشاء الخفيف ؟.. الطاولة امام النـافذة .. وصحن السَّلَطة الاخضر مليء بالفريز الصغير ... لأجلك . - وتابعت بعد وقفة ، بنبرة سريعة من الحنجرة : - اسمع يا حبيبي طوني ، اهذا صحيح ؟.. الا تستطيع ان تأتي حالاً ، ليس إلا ساعة ؟..

- كلا يا عزيزتي ، كلا ... مستحيل قبل الساعة الحادية عشر او في منتصف الليل ... كوني عاقلة ..

- لا شيء سوى لحظة !

- الم تفهمي اذن ؟..

فقاطعته بسرعة وبحزن :

– بلى ، فهمت ... ليس هناك ما يمكن عمله ... خسارة ! – صمت ايضاً ثم سعلة خفيفة . – اذن اسمع ، لا بأس ... سأنتظرك . قالت ذلك بآهة مستسلمة شعر انطوان فيها بكل ما بذلته من جهد للقبول بالواقع .

– الى هذا المساء يا عزيزتي .

– نعم ... اسمع !

– ماذا ؟

– كلا ، لا شيء .

– إلى القريب .

– الى القريب يا طوني .

وظل انطوان بضع ثوان يستمع . وآن هناك لم تنو ان تقطع الحديث فظلت اذنها على السماعة . وعندئذ . وبعد نظرة خاطفة فيما حوله . وضع شفتيه على الجهاز وأحدث جلبة قبلة . ثم علّق السمّاعة مبتسماً .

١٥

حين عاد انطوان ، فان جاك الذي لم يتحرك من مقعده دهش لمشاهدته على وجه اخيه انعكاساً غير مألوف،وأثر تأثرٍ ادرك منه بشكل مشوش تلك الصفة الخاصة العاشقة . بالفعل ، لقد تغير انطوان .

– عفواً ... لا يمكن للمرء ان يظل براحة بال بوجود هذا الهاتف .

واقترب من الطاولة المنخفضة حيث ترك قدحه ، وشرب بضع جرعات ، ثم عاد يتمدد على الأريكة .

– بماذا كنا نتكلم ؟ آه ! نعم . كنت تقول لي: الحرب .

لم يكن لديه وقت للاهتمام بالسياسة ، ولا رغبة ايضاً . فالنظام العلمي عوّده على ان يفكر بان كل شيء هو مشكلة في العالم الاجتماعي كما في عالم الحياة العضوية ، ومشكلة صعبة ؛ وان البحث عن الحقيقة في جميع المجالات يتطلب الاجتهاد والدرس والطاقة . اذن ، فقد كان يعتبر السياسة كحقل فعالية غريبة عن

فعاليته . يضاف الى هذا التحفظ الفطن نفور طبيعي . فالفضائح الكبيرة من اول تاريخ الدول الى آخره أقنعته ان نوعاً من اللاأخلاقية تنبع بحكم الطبيعة من ممارسة السلطة؛ او على الاقل،فان شدةً في النزاهة كان معتاداً عليها كطبيب، كشيء اولي ، لم تكن قاعدةً على الصعيد السياسي وربما كانت غير ضرورية . وكذلك فقد كان يتابع بلامبالاة حذرة سير القضايا العامة ؛ ودون اهتمامٍ يزيد عن اهتمامه بعمل مصلحة البريد او الجسور والسدود . واذا حدث له اثناء حديث في قاعة التدخين - عند صديقه روميل مثلاً - كما يحدث لجميع الناس ، ان يجازف بحكمٍ على اعمال وزير ، فان ذلك يكون دائماً وجهة نظرٍ معينة ، مع شيء من التوسع بالفكرة ، ومبسّطة : على طريقة المسافر في الاوتوبيس الذي اذا اراد إطراء او نقد السائق يهتم فقط بطريقة تحريكه للمقود .

ولما كان جاك حريصاً على ذلك، فان انطوان لم يكن يطلب افضل من البدء بتبادل الحديث عن عموميات السياسة الاوروبية . وكان قد تابع بإرادة طيبةٍ صادقة ليقطع صمت جاك :

- اتعتقد حقيقةً ان حرباً جديدةً يتمخض عنها البلقان ؟

وحدّق جاك بأخيه وقال :

- هل من الممكن ان تكون في باريس ولا يكون لديك اقل معلومات عما يجري منذ ثلاثة اسابيع ؟.. جميع هذه الدلائل التي تتراكم ! الأمر لا يتعلق بحرب صغيرة في البلقان : ان اوروبا كلها هذه المرة تسير رأساً الى حرب !وانتم تستمرون بالعيش دون ان ترتابوا بشيء ؟..

فقال انطوان مرتاباً : تس .. تس ..

لماذا فكر فجأة بالدركي الذي جاء ذات صباح من هذا الشتاء في الساعة التي كان ذاهباً فيها الى المستشفى ، ليبدل نظام العمل في سجلـه؟ تذكر انه لم يكلف نفسه عناء النظرْ الى ماهية اختصاصه الجديد . وبعد رحيل الدركي القى السجل في احد الادراج — حتى انه لم يكن يعرف اين ...

- لا يبدو عليك انك تفهم يا انطوان . فقد وصلنا الى لحظة ، اذا فعـــل

الجميع فيها مثلك ، إذا ترك الجميع الامور تسير ، فان الكارثة لا يمكن تجنبها .. والآن ، في الساعة الحاضرة ، يكفي شيء تافه لتحريكها ، طلقة نار رعناء على الحدود النمسوية الصربية .

لم يقل انطوان شيئاً . فقد تلقى صدمة خفيفة . لفحة حرارة ألهبت وجهه . لقد لامست هذه الأقوال فيه فجأة نقطة خفية لم يسمح حتى الآن لأية حساسية خاصة ان تستقر فيها . وهو ايضاً ، ككثيرين غيره في ذلك الصيف عام ١٩١٤ ، كان يشعر بشكل غامض انه تحت رحمة حمّى جماعية معدية – ربما ذات نظام عالمي – تدور في الهواء . وتعرّض طوال بضع ثوان لقلق نفسي صادر عن شعور بحادث مستقبلي ، دون ان يستطيع الاحتراس منه . وتغلب حالا على هذا الاضطراب النفسي الأخرق ، مقاوماً حتى النهاية كما هو الامر دائماً ، وشاقه ان يعاكس اخاه ، ولكن بنبرة مصالحة :

– من الطبيعي ان اكون اقل معلومات منك عما يجري هناك .. ومهما كان الامر ، فاعترف معي ان احتمال وقوع صدام عام يستحيل تصوره تقريباً في في مدنية كمدنية اوروبا الغربية ! فقبل الوصول إلى ذلك يجب إحداث انقلاب في الرأي ! .. وهذا يتطلب وقتاً ، شهوراً ، وربما سنوات .. تنشأ اثناءها مشاكل اخرى تنتزع من مشاكل اليوم قوة سمّها ..

وابتسم ، وقد عادت اليه بشاشته بسبب حجته الخاصة :

– هذه التهديدات ، كما تعلم ، ليست جديدة . ففي روان في السابق ، منذ اثنتي عشرة سنة ، حين كنت اقوم بخدمتي العسكرية .. لم يكن أنبياء الشؤم ينقصوننا ليتنبأوا بحرب او بثورة .. والأغرب من ذلك هو ان الدلائل التي بنى عليها المتشائمون نبؤاتهم دائماً صحيحة . وبكلمة اصح ، مقلقة . الا انه لسبب لم يعره احد اهتماماً ، او لم تقدر قيمته حق قدره ، فان الوقائع تجري بغير ما هو متوّقع ، والامور تنتظم من تلقاء نفسها .. وتستمر الحياة بين بين .. والسلم ايضاً !

كان جاك يسمع بفارغ صبر ، ورأسه بين كتفيه ، وذؤابته تحجز جبهته :

– هذه المرة يا انطوان ، فالأمر في غاية الخطورة .

– ماذا ؟ .. تلك المماحكات بين النمسا والصرب ؟

– هذا هو الباعث ، الحادث المنتظر ، الذي يمكن ان يثار ، ولكن هناك كل ما يبعث على الهياج ، منذ سنوات ، في كواليس جيوش اوروبا . هـــذا المجتمع الرأسمالي الذي يبدو انك تعتقده راسخاً في السلم رسوخـاً متيناً ، هو متهور تمزقه المنازعات الخفية الضارية .

– الم يكن دائماً هكذا ؟

– كلا ، او بالاحرى بلى ، ربما .. ولكن ..

فقاطعه انطوان :

– اعلم جيد ان هناك تلك النزعة الحربية البروسية التي تدفع كل اوروبا إلى التسلح حتى الاسنان .

فهتف جاك :

– ليست البروسية فقط . ان لكل امة نزعتهـــا الحربية التي تبرر نفسها متوسلةً بالمصالح المعرّضة للخطر .

فهز انطوان رأسه وقال :

– مصالح ، نعم ، بالتأكيد . ولكن مزاحمـــة المصالح مهما كانت شديدة يمكن ان تستمر إلى ما لانهـاية له دون ان تقود الى الحرب . اني أؤمن بالسلم ، ومع ذلك فاني اؤمن ان الصراع هو شرط الحياة . ومن حسن الحظ ان هناك اليوم للشعوب اشكالاً اخرى من الصراع ، غير المجازر بواسطة السلاح . وهذه الطرق صالحة للبلقانيين ! وجميع الحكومات – اريد ان اقول حكومات الدول الكبرى – حتى في البلدان التي لديها اكبر ميزانية للتسلح فأنها متفقة بشكل ظاهر على اعتبار الحرب انها اسوأ الاحتمالات . وانا لا افعل هنا سوى ان اردد ما يقوله رجال الدولة المسؤولون في خطبهم .

– هذا طبيعي ! .. كلهم يطرون السلم بالكلام امـــام شعوبهم . ولكن معظمهم مقتنعون ايضاً ان الحرب هي ضرورة سياسية في اوقات معلومـة لا

يمكن تجنبها . والمقصود في الوقت الحاضر استخراج افضل النتائج منها - افضل « مغنم » . لانه هو السبب نفسه في كل مكان ، وفي اصـــل جميع الشرور : المغنم .

كان انطوان يفكر . وكان على اهبـــة القيام باعتراض جديد ، ولكن اخاه تابع :

– ترى انه يوجد حالياً على رأس اوروبا نصف دزينة من محبي الوطن الكبار المشؤومين الذين يتسابقون للسير ببلادهم إلى الحرب تحت تأثير هيئات اركان الحرب المشؤوم . واليك ما يجب ان تعرفـــه . ان البعض ، وهم الأكثر تكالباً ، يرون جيداً إلى اين يسيرون . انهم يرغبون الحرب . ويُعدّونها كما يعدون ضربة سيئة لأنهم مقتنعون ان الظروف سوف تكون ملائمة لهم في لحظة كهذه . هذه هي الحالة الواضحة جداً لواحد مثل برختولد في النمسا ، وواحد مثل إيسفولسكي وسازونوف في بطبرسبورج.. والآخرون لا اقول انهم يرغبون الحرب : كلهم تقريباً يتهيبونها . ولكنهم ينقادون لها لانهم يعتقدونها حتمية . وهذا أخطر يقين يمكن ان يتمكن في دماغ رجل دولة ، ان يعتقد ان الحرب لا يمكن تجنبها . فهؤلاء ، بدلا من ان يحركوا كل شيء لتجنب الحرب فانهم لا يفكرون الا بشيء واحد : زيادة حظوظهم بالنصر ، وفي كل فرصة ، وبأسرع ما يمكن . وكل الفعالية التي كان بامكانهم اظهارها للدفاع عن السلام يستعملونها كالسابقين للاستعداد للحرب . وهذه دون شك هي وضعية القيصر ووزرائه .. وربما هي أيضا حالة الحكومة الانكليزية .. وبالتأكيد هي حالة بوانكاريه في فرنسا .

فهزا انطوان كتفيه بخشونة :

– تقول : برختولد ، سازونوف .. لا استطيع ان اجيب لأني لا اكاد أعرف اسماءهم .. ولكن بوانكاريه ؟ .. مجنون .. ففي فرنسا ، باستثناء بعض

المختلّي العقل البسلاء من طراز ديروليد [1] ، من هو الذي لا يزال يحلم بالمجد العسكري او بالثأر ؟ .. ان فرنسا في جميع عروقها ، في كل طبقاتها الاجتماعية هي مسالمة بشكل جوهري ! وإذا فرضنا المستحيل وجُررنا إلى نزاع اوروبي ، فهناك في جميع الاحتمالات امر لا يعتوره اي شك : ما من احد يستطيع اتهام فرنسا بأنهـا فعلت شيئاً في سبيل ذلك ولا ان ينسب اليها اصغر قدر من المسؤولية !

فنهض جاك بوثبة :

– أهذا ممكن .. وانت هنا ؟ .. اهذا ممكن ؟ ..

فشمل انطوان اخاه بتلك النظرة الواثقة اللاصقة التي يشمل بهـا مرضاه (والتي كانت دائماً تكسبهم ثقة كبرى – كما لو ان حيوية النظرة هي علامة لا تخطىء في تشخيص المرض) .

وقاسه جاك بنظره وهو واقف :

– انت ذو نية سليمة مدهشة ! ان كل تاريخ الجمهورية هو الذي يجب استعادته ! اتعتقد انه يمكن الركون إلى ان سياسة فرنسا منذ اربعين سنة هي سياسة امة مسالمة؟.. وان لها الحق حقيقةً ان تعترض ضد تطرُّف الآخرين؟.. اتعتقد ان شرهنا الاستعماري ، وخصوصاً مطامعنا في افريقية لم يساهما بشكل كبير في تفتح شهية الآخرين ؟ لم يعطيا الآخرين امثلة مخزية للضم ؟

فقال انطوان :

- بهدوء ! ان تغلغلنا في مراكش ليس له صفة غير شرعية كما اعلم . واني اتذكر اجتماع الجزيراس [2] ، انه انتداب كلفتنا به جميع القوى الاوروبية ، نحن واسبانيا ، لإحلال السلام في المغرب .

---

١ – ديروليد : بول ديروليد، شاعر وسياسي فرنسي ولد في باريس (١٨٤٦ – ١٩١٤)، ئيس عصبة محبي الوطن ومؤلف « اناشيد الجندي » .

٢ – الجزيراس Algésiras : مدينة اسبانية في مقاطعة قادس وقد عقدفيها الاجتماع الدولي عام ١٩٠٦ حول موضوع المغرب . ويسميها العرب الجزيرة الخضراء .

– هذا الانتداب قـــد اغتصبناه بالقوة . والدول التي منحتنا اياه كانت تفكر انها تستفيد جيداً بدورها من هذه السابقة . وهذا ما فعلوه في غير مكان . اتظن مثلاً ان ايطاليا كانت تجرؤ على الانقضاض على طرابلس الغرب ، والنمسا على البوسنه ، لولا غزوتنا المغربية !

فكشر انطوان كشرة عدم تصديق ؛ ولكنه لم يكن يعرف القضية معرفة كافية ليعارض اخاه .

الا ان هذا كان قد اندفع :

– واحلافنا؟ هل عقدت فرنسا ميثاقاً عسكرياً مع روسيا لتبرهن عن ارادتها السلمية ؟ .. المعروف تماماً انه إذا كانت روسيا القياصرة قد عقدت تحالفاً مع فرنسا الثورة فذلك على امل ان تجرّنا عند مجيء الساعة ، في لعبتها ضد النمسا ، وضد جرمانيا ! .. اتعتقد ان واحداً مثل ديلكاسيه ، مساعـد الدبلوماسية الانكليزية قد قام بعمل سلامٍ بعمله على تطويق المانيا ؟ .. النتيجة : الهيجان ، التقدم ، ازدياد قوة تلك النزعة العسكرية البروسية التي تتكلم عنها .. والنتيجة : في كل اوروبا ، تلك الزيادة في الاستعدادات الحربيـــة ، تحصينات ، إنشاءات بحرية ، خطوط حديدية استراتيجية ، الخ .. في فرنسا عشرة مليارات لاعتمادات الحرب للسنوات الاربع الماضية ! في المانيا ثمانية مليارات فرنك ! في روسيا سماية مليون أُقرِضت لفرنسا لإنشاء خطوط حديدية تتيـح لهـا ان تقذف بجيوشها نحو الغرب الجرماني .

فتمتم انطوان :

– تتيـح لها ؟ ربما ذات يوم .. يوم لا يزال بعيداً .

– من طرف القارة إلى الطرف الآخر سباق تسلحٍ محموم يخرب جميـع البلدان ويضطرها إلى تخصيص المليارات ، التي يجب ان تستعمل في التحسين الاجتماعي ، الى ميزانية حرب .. ركض مجنون إلى الهـــاوية ! ولكننا نحن الفرنسيين مسؤولون جزئياً . ونحن مستمرون ! هل لتطمئن فرنسا العالم حول مقاصدها السلمية وضعت في قصر الإليزيه ذلك اللوريني المتعصب لوطنه ، والذي

جعله جميع باذري الاضطرابات [1] رمزاً عسكرياً ؟ والذي ايقظ انتخابه عندنا هوس المطالبين بأخذ الثأر ، وايقظ في انكلترا امل التجار الانكليز الذين يسرون جداً لرؤية سقوط المزاحمة الالمانية ، وايقظ في روسيا شهوات الاستعماريين الذين يحلمون دائماً بضم القسطنطينية ؟ ..

كان يبدو غير مسيطر على هياجه إلا قليلاً بحيث اخذ انطوان يضحك. لقد كان عازما على الا ينزلق في اللعب ، وان يحتفظ بمزاجه الرائق . ولم يكن يريد لهذا الحديث ان يكون سوى تمرين نظري (دق) في الداما بيادقه هي الافتراضات السياسية .

واشار باصبعه ساخراً إلى المقعد الذي تركه اخوه :

– عد إلى الجلوس .

فرشقه جاك بنظرة سيئة . ولكنه ادخل يديه في جيوبه وسقط في كنبته ، وتابع بعد صمت :

– في جنيف – اريد ان اقول : في الوسط الاممي حيث أعيش - فإن الفروق تزول ؛ وبنوع من التراجع ، تشاهد الخطوط العامة للسياسة الاوروبية . اجل ، من هناك فان تطور فرنسا نحو الحرب يفقأ العين ! وفي هذا التطور ، مهما استطعت ان تفكر به ، فان انتخاب بوانكاريه لرئاسة الجمهورية يشير إلى تاريخ حاسم .

واستمر انطوان في الابتسام وقال ساخراً :

– دائماً بوانكاريه ! من المؤكد انني لا اعرفه الا عن طريق السمع . ففي القصر ، حيث هم صعاب جداً ، هو محترم بالاجماع.. وفي وزارة الخارجية أيضاً ورومبل الذي شغل مركزاً في غرفته يتحدث عنه كرجل باسل ووزير كثير التدقيق ، مجتهد ، وسياسي فاضل ، وصديق للنظام ، وعدو كل مغامرة .

---

١ – ترجمة كلمة Ges trublions : وهي شخصية ابتكرها اناطول فرانس للدلالة على باذري الاضطراب في العالم .

وحقيقةً فالامر يبدو لي مستحيلاً ان رجلاً كهذا ..

فقاطعه جاك :

– انتظر ، انتظر .

واخرج يده من جيبه ، وبحركة محمومة أعاد عدة مرات خصلة الشعر التي كانت تسقط على جبهته . وكان يبذل جهداً ليسيطر على نفسه . وقد ظل بضع ثوان منخفض الجفون . ثم رفع عينيه ، وقال معترفاً :

– هناك كلام كثير يمكن قوله بحيث لا أعرف من اين ابدأ ..بوانكاريه .. يجب التمييز بين الرجل وسياسته . ولكن لفهم سياسته يجب فهم الرجل .. كل الرجل ! حتى دون ان ننسى انه يوجد ايضا في هذا المماحك الذي يميل إلى الحرب ضابط صغير في القناصة المشاة ، عصبي ضخم الجسم ، كان دائما يظهر تذوقا للشيء الحربي .. « صديق النظام .. رجل باسل » . اعتقد ان هذا صحيح . ولاء . اخلاص . اخلاص الرجال العنيدين . ويقال أيضا انه طيب . وهذا ممكن . يوقع معظم رسائله : « المخلص لك » وهذه ليست صيغة فقط : انه يحب حقيقةً القيام بخدمة ، وهو دائماً مستعد للقتال ضد الظلم ، وتقويم المخطئين .

فصرح انطوان :

– هيه ، كل هذا جذاب بشكل كاف .

فردد جاك بفراغ صبر :

– انتظر ! الحالة بوانكاريه ، اتيح لي ان ادرسها عن قرب لأجل مقال ظهر في صحيفة « فانال » .. قبل كل شيء هو رجل متكبر ، لا ينحني ولا يخضع ابداً .. ذكي بالتأكيد ، ذكاء عاقلٍ منطقي ، دون نظر واسع ، دون عبقرية .. متصلب بشكل لا يصدّق ! ذهن سريع ولكنه احسر قليلاً ؛ ذاكرة شاذة ولكنها ذاكرة تفاصيل ... كل هذا يجعل منه محامياً تاماً – وقد ظل كذلك : حاذق في تحريك الكلمات اكثر من الأفكار .

فاعترف انطوان :

– إذا لم يكن سوى ذلك فكيف تفسر نجاحاته السياسية ؟

– بقوته على العمل ، والتي هي اعجوبة . ثم بواسطة طاقاته المالية التي هي نادرة في البرلمان .

– وبواسطة نزاهته دون شك . في اوساط كهذه فان هذا يدهشني دائماً ويفرض الهيبة .

فتابع جاك :

– ولكن نجاحاته قد ادهشته هو نفسه وهيجت مطامعه شيئاً فشيئاً ، لأنه اصبح طماعاً . ونشعر جيداً ، وهناك الف دليل، انه لن يغضب اليوم إذا كان له دور تاريخي يلعبه . أو بالأحرى ، انه لن يكون غاضباً إذا كان هو الذي يدع فرنسا تلعب دوراً تاريخياً ، ولا يغضب باعطاء فرنسا نفوذاً جديداً يرتبط به اسمه .. واكثر ما يثير القلق هو مفهومه للشرف القومي : هذا الاتجاه الديني للنزعة الوطنية .. ويعود تفسير ذلك إلى أصله اللوريني ، وطفولته في ارضٍ قد اقتطعت .. انه من منطقةٍ ومن جيلٍ ظلا يأملان بالانتقام طوال سنوات ، واستعادة المقاطعات المفقودة ...

فقال انطوان مسلّما :

– اريد تماماً . ولكن من هنا نشأ الافتراض انه كان يتمنى السلطة ليحارب .

فقال جاك :

– انتظر اذن . دعني اكمل . بالتأكيد هناك سنتان ونصف ، منذ ان تسلم رئاسة مجلس الوزراء – او ايضا ، هناك ثمانية عشر شهراً مضت على حمله إلى قصر الإليزيه . لو كان احد قد جاء يقول له : « انت تريد السير بفرنسا إلى الحرب » لقفز من الاشمئزاز ، بكل حسن نية . ومع ذلك، تذكّر بأي شروط اصبح رئيساً للحكومة في كانون الثاني ١٩١٢ . ليحل محل من ؟ كايو .. لأن كايو جنّب فرنسا الحرب مع المانيا ، حتى انه وضع صوى تقارب فرنسي – الماني دائم . ولأنه قام بسياسة تقبل بالسلام فان القوميين قلبوه . وإذا كان بوانكاريه قد استطاع ان يأخذ مكانه فهذا ، ولن أقول : لأنه يريد اشعال

الحرب ، لأنه ينتظر منه ان يتخذ حيال المانيا موقفاً « قومياً » ، يعني معارضا بصراحة لموقف كايو المصالح . والبرهان ، ذلك انه احيا ديلكاسيه العجوز ، رجل « التطويق » الذي عين بعد سنة سفيراً في روسيا ! وحين اصبح رئيسا للجمهورية ، فالى اية أكثرية هو مدين بانتخابه ؟ إلى تلك البورجوازية الرأسمالية التي لا تزال تفكر مثل جوزيف دي ميستر بان الحرب ضرورة بيولوجية ، طبيعية تماما ، مدعاة للأسف ولكنها ضرورة في أوقات معلومة .. فهؤلاء الناس لا يرفعون الاصبع الصغير دون شك ليثيروا حربا انتقامية ، الا انه افتراض يسرهم وسوف يقبلون المخاطرة عند سنوح الفرصة . وقد كنا نراهم عن قرب ، هنا ، في الماضي ، على عشاء عند ابي . اولئك المتحجرون من البورجوازية الرجعية .. وبدون ان نحسب انه في جميع هذه الاحزاب الفرنسية اليمينية الهرمة ، المنضمة إلى الجمهورية بشكل يكثر او يقل ، تبقى تلك الفكرة الخلفية : من ان حربا سعيدة سوف تعطي الحكومة المنتصرة سلطة دكتاتورية تعرف كيف توقف الصعدة الاشتراكية وتنظف البلاد من ديماغوجيتها الجمهورية . انهم يداعبون حلماً تصبح بموجبه فرنسا عسكرية خاضعة للنظام ، فرنسا منتصرة ، متسلحة بشكل مفرط ، مستندة إلى امبراطورية استعمارية واسعة يخضع امامها العالم بأجمعه .. انه حلم جميل لمحبي الوطن ! ..

فجازف انطوان قائلاً :

– لم ينقطع بوانكاريه عن اعلان نواياه السلمية منذ ان تسلم السلطة .

فقال جاك :

– آه ! اريد ان اصدق انه صادق . مع ان بعض اهداف التوسع السلمي تصبح بسرعة أهداف حرب عندما لا تتوصل الدبلوماسية الى تحقيقها ، ولكن يجب التفكير في ذلك ، حيث لا يمكن ان نحسب النتائج : منذ سنوات والعالم كله يعرف ان بوانكاريه أعماه يقينان : الأول هو ان الصدام بين المانيا وانكلترا حتمي .

– يبدو انك انت نفسك قلته منذ لحظة .

– كلا . لم اقل : حتمي . بل قلت مهدّد .. واليقين الثاني هو ان المانيـا ، وعلى الخصوص منذ أغادير ، تريد مهاجمة فرنسا ، وانها تستعد لذلك دون انقطاع . هاتان هما فكرتاه الثابتتان ؛ ولا يتخطى ذلك قيد شعرة . وبما انه مقتنع ، من ناحية اخرى ، ان القوة وحدها ، اذا اصبحت مخيفة ، تستطيع تأمين السلام ، فانك تدرك المغزى الذي يستخرجه من كل ذلك: اذا كان لا يزال لفرنسا حظ بأن تنجو من الهجوم ، فان ذلك يكون بان تصبح مرهوبة اكثر فأكثر . اذن يجب التسلح فوق الحد . واذن يجب ان تبدو صعبة المراس ، هجومية ... وحين يصبح هذا مفهوماً فان كل شيء يصبح واضحاً : ان كل فعالية بوانكاريه منذ ١٩١٢ ، سواء أكان في الخارج ام في الداخل ، تبدو ذات منطق كامل !

وكان انطوان المتمدد بين الوسائد يدخن بهدوء . كان مندهشاً من انفعال اخيه ، ولكنه كان يصغي اليه بانتباه . الا ان صوت جاك كان يهدأ تدريجياً كموجة صاخبة تعود الى مهدها . وكان يشعر برباطة جأش على هذا الصعيد المألوف لديه ، والذي يعطيه تفوقاً « وقتياً » على اخيه . وقال محاولاً الابتسام :

– ابدو كأني القي عليك درساً . وهذا مضحك .

فرشقه انطوان بنظرة مودة : – ولكن كلا ، سر ...

– كنت اقول لك : في الخارج كما في الداخل . اجل ، لنبدأ بالسياسة الخارجية . انها اعتدائية مسبقاً ، عن عمد ! مثلاً : علاقاتنا مع روسيا . ان المانيا تظهر استياءها من الاتفاقات الفرنسية الروسية ، لا يهم ، ففي الحرب التي يخشاها بوانكاريه ، فان مساعدة روسيا لنا لا غنى عنها لمقاومة الغزوة الالمانية ؛ اذن فسيزيدون من قوة الحلف الفرنسي – الروسي بصورة مكشوفة دون مراعاة المشاعر الالمانية ! وهذا تعرُّض لخطر رهيب ، انه تحريك للجامعة السلافية التي ليست مقاصدها الحربية ضد النمسا والمانيا سراً على احد. وبوانكاريه لا يبالي ! فهو لا يزال يفضل التعرض لخطر جرّه الى مغامرة ، على خطر رؤية توتر الروابط بين فرنسا وحليفتها الوحيدة. ولأجل هذه السياسة وجد مساعدين

جاهزين : سازونوف ، وزير الخارجية الروسي ، وايسفولسكي سفير القيصر في باريس . وقد ارسل الى سفارة بطرسبوغ صديقه ديلكاسيه الذي استولت عليه نفس الافكار منذ زمن طويل . بمجوعة تعليمات : ابقاء استعدادات روسيا الحربية في حالة كدّ دائم ومشاركتها بشكل وثيق في سياسة القوة.ولم يُهمَل شيء . ان لنا في جنيف مصادر معلومات موثوقاً بها جداً . فبوانكاريه منذ رحلته الاولى الى بطرسبورغ منذ سنتين ، كرئيس لمجلس الوزراء ، لم يخمد همة روسيا في آمالها في الفتح . ورحلته الحالية ، هذه الرحلة التي تستطيع الحوادث ان تعطيها مرمى رهيبا،يجب دون شك ان يستعملها للتحقق ، في مكان العمل، بالقرب من المسؤولين الكبار ، فيما اذا كان كل شيء جاهزاً ، واذا كان الميثاق اهلاً للعمل عند اول اشارة !

واتكأ انطوان على مرفق :

– كل هذه ليست وقائع ، انها ليست سوى افتراضات !

– كلا .لدينا الكثير من التحقيقات الآتية من مصادر مختلفة...هل بوانكايه مخدوع بالروس ام انه شريكهم بالخداع ؟.. قليلاً ما يهم في الواقع . ان سياسة بوانكاريه الروسية مذهلة ، الا انها منطقية ! انها سياسة رجل يعتقد انه صلب كالحديد في الحرب في اللورين وهو بحاجة لأن يجتاح الجيش الروسي بروسيا الشرقية ... يجب معرفة الدور الذي يلعبه واحد مثل ايسفولسكي في باريس – سواء أكان بالتعاطف ام بالتشجيع ، وعلى الاقل بإذنٍ من بونكاريه – أتشكّ بالمبالغ التي تسكبها النفقات السرية الروسية على صحافتنا في سبيل الدعاية الحربية في فرنسا ؟.. أتشكّ بان هذه الملايين من الروبلات التي تستعمل لشراء الرأي العام الفرنسي تصرف ليس بموافقة الحكومة الفرنسية الوقحة فقط،بل بتواطؤها الحقيقي ، اليومي ؟..

فقال انطوان مرتاباً : ياه !

– اصغِ جيداً : اتدري بواسطة من توزع هذه المعونات النقدية الروسية بين الصحف الفرنسية الكبرى ؟.. بواسطة وزارتنا المالية نفسها ! وهذا لدينا

البرهان عليه نحن ، في جنيف . الا ان رجلاً مثل هوسمر – وهو نمساوي ذو معلومات عظيمة جديدة عن اوروبا – لم ينقطع عن الترديد ان صحافة البلدان الغربية ، منذ الحروب البلقانية الأخيرة ، تتناول كلها تقريباً اجرتها من الدول المهتمة بالحرب ! ولأجل ذلك فان الرأي العام في تلك البلاد قد أُبقي في حالة جهل بصدد المنازعات المجرمة التي جعلت الحرب قريبة الوقوع في اوروبا الوسطى وفي البلقان منذ سنتين . بنظر اولئك الذين يعرفون ان يروا ... ولكن لندع الصحافة ... فليس هــــذا كل شيء ... انتظر ... ان موضوع بوانكاريه لا ينضب ... لا استطيع ان اوضح لك هكذا كل شيء ... فلننتقل الى السياسة الداخلية . انها موازية للأخرى . وهذا منطقي . اولاً معاودة التسلح – لمصلحة اللجان المختصة باستخراج المعادن والتي لها قوة عظيمة جداً وراء الكواليس... خدمة ثلاث سنوات ... هل تابعت مناقشات مجلس النواب ؟ خطب جوريس؟ وبعد ذلك تأثير على العقول ، كنت تقول : « ما من شخص في فرنسا إلا ويحلم بالمجد الحربي ». اذن فأنت لا ترى ذلك الغليـــان الوطني الحربي الذي اجتاح المجتمع الفرنسي منذ بضعة اشهر والشبيبة بشكل خاص ؟.. وهنا ايضاً فاني لا ابالغ ابداً ... وهذا ايضاً هو عمل بوانكاريه الشخصي ! ان له خطته : فهو يعلم ان الحكومة ، ابان التعبئة العامة ، ستكون بحاجة الى الاستناد على رأي عام مهيّأ لا يستصوب عملها فقط ويتبعها ، بل يحملها ويدفعها الى الامام ... ان فرنسا عام ١٩٠٠ ، فرنسا بعد القضية كانت مسالمة . وكان الجيش قـــد زال نفوذه ؛ ولم يكونوا يبالون به . فقد اعتادوا على الطمأنينة . وكان يجب ايقاظ القلق الوطني . والشبيبة ، وخصوصاً الشبيبة البورجوازية ، هي ارض زرع لا مثيل لها للدعاية الوطنية المتطرفة . ولم تكن النتائج منتظرة .

فقاطعه انطوان الذي كان يفكر بمساعدة مانويل روا :

– قوميون شبان ، يوجد منهم ، ولا أقول العكس . ولكنهم أقلية صغيرة.

– انها أقلية تزداد كل يوم ! اقلية متحركة جـــداً لا تطلب الا ان تتجند ، وان تحمل الأشعرة ، وتهز الاعلام ، وتتبع رياضة عسكرية ! واليوم عند أقل

عذر ، يتظاهرون أمام تمثال جان دارك او تمثال ستراسبورغ ! مـا من شيء اكثر عدوى ! فرجل الجمهور - العامل الصغير والتاجر - ليس عديم الإحساس إلى النهاية بهذه المناظر ، بهذه التحريضات التعصبية .. والصحافة التي توجهها الحكومة كانت توجه الادمغة في نفس الاتجاه .. وهم يقنعون الشعب الفرنسي شيئاً فشيئاً انه مهدد ، وان سلامتـه تتوقف على قبضتيه ، وان عليه ان يظهر قوته ، ويقبل باستعداد عسكري شديد . وقد خلقوا في البلاد ، عن عـلم ، ما تسمونه انتم الاطباء مرضا نفسيا ، مرض الحرب النفسي . وعندما يوقظ في امة هذا القلق الجماعي ، هذه الحمى ، وهذا الخوف ، فان دفعها إلى اسوأ حالات الجنون لا يكون سوى لعب .

هذه هي الميزانية . انا لا اقول ان بوانكاريه سيعلن الحرب على المانيا ذات يوم .. كلا ، فبوانكاريه ليس برختولد . ولكن لوقاية السلام يجب ان تعتقده ممكناً .. وبوانكاريه - انطلاقا من هذه الفكرة بان الصدام لا يمكن تجنبه - قد كون ونفذ سياسة لم تفعل شيئا سوى زيادة خطر الحرب بدلاً من ان تزيل هذا الخطر ! وتسلحنا الموازي للاستعدادات الروسية قد هال برلين حقـا . فاغتنم الحزب العسكري الالماني الفرص ليسرع في استعداداته . وتماسك الحلف الفرنسي الروسي قد برر في المانيا الخوف الجنوني من « التطويق » . مع ان الجنرالات هناك يعرفون علنا انهم لن يستطيعوا الخروج من ذلك الا بحرب ، والبعض منهم يذهبون إلى القول انه سيكون من الضروري تحريكها احتياطيا ! وكل هذا ، في قسم كبير منه ، من عمل بوانكاريه . والنتيجة الاكثر وضوحا ، النتيجة الشيطانية لسياسة ايسفولسكي وبوانكاريه ، هي انها جرت المانيا إلى ان تصبح كما كان يتصورها بوانكاريه : اعتدائية ، امة فرائس .. اننا ندور في حلقة جهنمية . واذا وجدت فرنسا نفسها ، في مدى ثلاثة اشهر ، منخرطة في حرب اوروبية - حرب حضنتها روسيا بصبر ، حرب تركتها المـانيا تأتي ، بجنون ، لتغتنم فرصة مؤاتية - فان بوانكاريه سيستطيع ان يهتف منتصراً : « ها قد رأيتم كم كنا مهددين ! ورأيتم كم كنت على حق عندما اردت جيشاً

اكثر قوة وحلفاء اكثر وثوقاً »! دون ان يرتاب بانه سيكون احد المسؤولين عن هذه الحرب بواسطة اخطائه النفسية ، وصداقاته الروسية ، وسياسته كنبي متشائم ، رغم الظواهر !..

كان انطوان قد عزم على أن يترك أخاه يتكلم ، ولكنه من ناحية كان يرى هذه المذمات غير متلاحمة . وقد استخلص منها عدة متناقضات . وكان ذكاؤه المنطقي والواقعي يجمح أمام مبالغة تبدو له في المجموع ضعيفة ومرتبة بشكل سيء . ولم يكن بعيداً عن استنتاج عدم جدارة أخيه الصغير الذي كانت نظراته ، كما هو الأمر دائماً ، تبدو سطحية ، ان لم تكن صبيانية . شرف نفس وعدم جدارة . . . فإذا كان صحيحاً أن هناك تهديدات غامضة في الأفق فان بوانكاريه الذي يحتفظ بفعالية متفوقة حتى في الاليزيه ، سيعرف جيداً أن يبدد هذه الغيوم في الوقت المناسب . كان بالإمكان الوثوق به فقد برهن على سياسة عظيمة . وكان روميل يعجب به . والفكرة القائلة أن رجلاً ذا رأس بارد كبوانكاريه يمكن أن يتمنى حرباً ثأرية ، هي فكرة حمقاء ؛ وليست أقل حمقاً تلك الفكرة القائلة أنه ، بدون أن يتمناها ، وببساطة لأنه يعتقدها ممكنة أو حتمية ، يستطيع العمل بطريقة تجعل تجنبها غير ممكن . صبيانيات ! ان الحس السليم الأكثر بدائية يكفي لإفهامنا أن بوانكاريه ، بالعكس ، - ومعه كل رجال الدولة الفرنسيين – يجب أن يكونوا مصممين بعناد على تجنب بلادهم مغامرة مهما كان الثمن . وذلك لمئة سبب . وأولاً لأنه كان يعرف أفضل من أي شخص انه لا روسيا ولا فرنسا هي اليوم في وضعية تلعب فيها لعبة كهذه بنجاح . وكان روميل يقول ذلك منذ أيام . وجاك نفسه كان قد اعترف ضمناً بعدم كفاية وسائل النقل والخطوط الستراتيجية الروسية ، ما دامت روسيا قد عقدت قرضاً بستماية مليون لتتقي هذا العجز . بينما في فرنسا ، فإن قانون خدمة السنوات الثلاث الذي يعتبر لا غنى عنه لبلوغ مستوى الفعالية الالمانية ، لم يجر التصويت عليه إلا بالجهد وظل بدون مفعول ... إلا أن انطوان لم يكن لديه معطيات واضحة ليحوّل إلى العدم ،

كما كان يجب أن يفعل ، كل مزاعم اخيه . ومن الأفضل أن يظل صامتاً ، فالحوادث سوف تقوم بتخطئه جاك وجميع أولئك الغرباء في سويسرا ، وكل أولئك الأنبياء الكذبة الذين يتعرض لتأثيرهم .

وكان جاك قد صمت . وبدا تعباً فأخرج منديله ومسح وجهه وعنقه .

كان يشعر جيداً أن هذه المبادهات المهتاجة لم تقنع أخاه . وكان يعلم لماذا . فهو يعي أنه ألقى ببلاهة ، وبفوضى ، وبدون تدريج ، ببيناتٍ ذات نظام متنوع جداً ، سياسية ، سلامية ، ثورية – والتي لم تكن في معظمها سوى تذكارات مشوشة من محاضرات « لابارلوت » . في تلك الدقيقة شعر ، بإيلام شديد ، بهذا العجز الذي شكا منه انطوان بصمت .

منذ أسبوع ، أي مدة وجوده في باريس ، استعمل وقته في الاستعلام عن حالة نفس الاشتراكيين الفرنسيين بشكل خاص ، وكان أكثر اهتماماً بردة الفعل عندهم أمام التهديد بالحرب منه بمشكلة المسؤوليات الأوروبية .

كانت نظرات القلق تروح وتجيء في الغرفة دون أن تستقر في مكان . وأخيراً أوقفها على أخيه الذي لم يكن قد تحرك ، ويداه تحت رأسه وعيناه في السقف .

وتابع بصوت مترجرج :

– ومع ذلك ، فأنا لا أعرف لماذا ... بالتأكيد سوف يكون هناك أشياء أخرى تفيد عن كل هذا . والأفضل ألاّ أعرف أن أفعل ... لنقل انني غير عادل فيما يتعلق ببوانكاريه ... وانني أبالغ بنصيب المسؤولية الفرنسية ... فالمهم ليس هنا ! المهم هو أن الحرب تقترب ! ويجب إزالة الخطر بأي ثمن !

فابتسم انطوان ابتسامة قليلة التصديق أثارت سخطه فصاح :

– آه ! . انتم ... انكم تثقون بسلامتكم ثقة مجرمة . حين تصمم الطبقة البورجوازية أن ترى الأمور كما هي فإن الوقت سيكون متأخراً دون شك .. إن الحوادث تسرع . افتح صحيفة « الماتان » اليوم في ١٩ تموز . أنهم يتحدثون

فيها عن دعوى كابو ، ويتحدثون فيها عن العطلة ، وحمّامات البحر ، وجوائز الفصل . ولكنك ستقرأ أيضاً في الصفحة الأولى مقالاً لم يوضع هناك بطريق الصدفة ، ويبتدىء بهذه الكلمات المشحونة بالديناميت : « لو اندلعت الحرب » .... أنظر أين نحن ! الغرب كمخزن بارود ، فلو اندلعت شرارة في إحدى النواحي ! .. والناس مثلك يقولون : « الحرب ؟.. » بنبرتك منذ لحظة ... وسوف يقال أنه لا يوجد في عقولكم وكذلك على شفاهكم ، سوى كلمة ! .. تقولون : « حرب » وما من أحد منكم يفكر : « مجازر لم يسبق لها مثيل » ... « ملايين من الضحايا غير المسؤولة » .. آه ! لو كانت مخيلتكم تخرج من خمودها لمدة ثانية فقط لنهضتم كلكم ، وأنت أول الجميع ، لعمل أي شيء ! للكفاح ما دام هناك وقت .

فقال انطوان بوقار : كلا .

وظل بضع ثوان غير متأثر ، ثم قذف من جديد دون أن يلفت رأسه :

— كلا ! أنا ، كلا .

ومع انه كان مضطرباً رغم كل شيء من الاسئلة التي أثارها أخوه ، فإنه أبى أن يدع القلق يتسلل إلى نفسه ويقلب الحياة المتينة التي صنعها لنفسه والتي يستند توازنه عليها .

واعتدل قليلاً وصالب ذراعيه وتابع بابتسامة عنيدة .

— كلا ! كلا ! كلا ! أنا لست بالرجل الذي يقوم ليتدخل في حوادث العالم ! ، أنا ، لي عملي المحدد تماماً ، أنا ، انني رجل سيكون في مستشفاه غداً صباحاً في الساعة الثامنة . هناك التهاب موضعي حاد في الرقم ٤ ، والتهاب البريتون في الرقم ٩ ... وكل يوم أجد نفسي أمام عشرين طفلاً بائساً ، ويتعلق الأمر بالانتشال من خطوة سيئة ! إذن ، أقول : « كلا » لكل ما عدا ذلك ! . . فالرجل الذي لديه مهنة يمارسها يجب ألا يدع نفسه يلهو ليذهب ويظهر غيرة مفرطة في القضايا التي لا يفهم بها ... أنا ، لي مهنة . وعليّ أن أحل مشاكل معينة ، محدودة ، هي من دائرة اختصاصي ويتوقف عليها في

الغالب حياة بشرية – عائلة أحياناً . إذن ، أنت تدرك ! . . لدي شيء آخر أعمله غير جس نبض أوروبا .

كان في دخيلة نفسه يفكر أن أولئك الذين يحملون عبء الشيء العام هم ، بالتحديد ، خبراء معتادون على جميع الصعوبات الدولية . ويجب على عادمي الاختصاص مثله أن يفوضوا أمورهم إليهم على العمياء . وثقته بالحكام الفرنسيين تمتد إلى سادة البلدان الأخرى . لقد كان يحترم الاختصاصيين احتراماً عظيماً .

كان جاك يتأمله بانتباه جديد . وقد تساءل فجأة إذا كان هذا التوازن العظيم عند انطوان ، والذي كان يعجب به قبلاً كفتح للعقل ، كانتصار للروح على متناقضات العالم ، والذي كان دائماً يوحي إليه مزيجاً من التأثر والحسد ، لم يكن ببساطة هو دفاع أحد أولئك الكسالى العمليين الذين يتحركون – بشكل رياضي أحياناً – ليبرهنوا عن قيمتهم بشكل أفضل ! أو بشكل أكثر صحة ، إذا لم يكن توازن انطوان نتيجة سعيدة لحقل محدود – محصور بشكل كاف – كان قد خصصه لفعاليته .

وتابع انطوان :

– تقول : « مرض نفسي حربي ... » تا ، تا ، تا ! اني لا أعلق نفس الأهمية التي تعلقها أنت على هذه العوامل النفسية ... فالسياسة هي في الجوهر نطاق الأشياء الحسية ، نطاق ، حيث الاندفاعات الكريمة للنفوس الحساسة تعدّ أقل مما في غير مكان ! إذن ، حتى لو كانت الأخطار التي تعلن عنها حقيقية ، فاننا لا نستطيع شيئاً بشأنها . لا شيء مطلقاً . لا أنت ، ولا أنا ، ولا أي شخص .

فنهض جاك بحدة وصاح وهو فريسة اشمئزاز لم ينجح هذه المرة أن يكبحه :

– ليس هذا بصحيح ! كيف ! .. أمام تهديد كهذا ليس هناك ما يفعله المرء سوى أن يحني ظهره ويستمر في عمله الصغير بانتظار الكارثة ! هذا

فظيع ! من حسن حظ الشعوب ، ومن حسن حظكم أنتم ، أنه يوجد رجال يسهرون ، رجال لا يترددون غداً في المخاطرة بحياتهم إذا لزم الأمر لوقاية أوروبا من ..

فانحنى انطوان وقال قلقاً :

— رجال ؟ .. أي رجال ؟ .. أنت ؟ ..

فاقترب جاك من الأريكة وقد زال هياجه . وتطلع من فوق . وكانت عيناه تتألقان بالكبرياء والثقة ، وقال بصوت بطيء بينما تغطت جبهته بالعرق .

— أتعرف فقط أنه يوجد في العالم اثنا عشر مليوناً من العمال « المنظمين ؟ . » أتعلم أن الحركة الاشتراكية الدولية يوجد وراءها خمس عشرة سنة من المعارك والجهود والتعاضد والتقدم غير المنقطع ؟ وأنه يوجد اليوم جماعات اشتراكية هامة في جميع برلمانات أوروبا ؟ . . وأن هؤلاء الملايين الاثني عشر من الحزبين موزعون على أكثر من عشرين بلداً مختلفاً ؟ .. وأكثر من عشرين حزباً اشتراكياً يشكلون في العالم ، من طرف إلى آخر ، سلسلة فسيحة وكتلة أخوية واحدة ؟ وأن فكرتهم المسيطرة ، عقدة الميثاق ، هي كراهية النزعة الحربية ، والعزم الضاري على الكفاح ضد الحرب ، مهما كانت ، ومن أين أتت ؟ لأن الحرب هي دائماً مناورة رأسمالية ، بينما الشعب ...

فقال ليون وهو يفتح الباب :

— الطعام جاهز يا سيد .

وقوطع جاك فجفف جبهته وعاد إلى كنبته . وما أن اختفى الخادم حتى تمتم كخاتمة :

— والآن يا انطوان ، ربما تفهم بشكل أفضل ما جئت أفعله في فرنسا .

أثناء بضع ثوان أخذ انطوان يتأمل أخاه دون أن يجيب . وكان خط حاجبيه الملتوي يشكل فوق نظرته المغمضة حاجزاً ممدوداً يوضح حصر تفكيره . وقال اخيراً بنبرة لغزية :

– تمام الفهم .

وسادت لحظة صمت : كان انطوان قد نقل ساقيه وبقي جالساً على الاريكة مستنداً على كفيه ، وعيناه في الأرض . ثم حرك كتفيه حركة خفيفة ونهض ، وقال مبتسماً :

– مهما كان الأمر تعال نتناول العشاء .

فتبع جاك اخاه دون ان يقول كلمة .

كان سابحاً بالعرق . وفي منتصف الدهليز عادت اليه ذكرى المغطس . وكانت أكثر قوة من تردده . فقال فجأة وقد احمر كولد :

– اسمع . انها حماقة ولكني اشعر برغبه مجنونة في الاستحمام .. حالاً قبل العشاء .. فهل هذا ممكن ؟

فهتف انطوان لاهياً :

– بالتأكيد (وأحس بشعور احمق بشيء من الانتقام) حمّام ، دوش ، كل ما تريده !

اثناء تأخر جاك في الماء ، عاد انطوان إلى مكتبه وسحب من جيبه بطاقة آن . وأعاد قراءتها ، ومزقها . لم يكن يحتفظ بأية رسالة من امرأة . وكان يبتسم داخلياً ولكن قسماته لا تكاد تعكس شيئاً من هذه الابتسامة . وتمدد من جديد وأولع سيكارة وظل ساكنا بين الوسائد .

كان يفكر . ليس بالحرب ، ولا بجاك ، ولا حتى بآن : بنفسه . لقد فكر : « انا عبد لمهنتي بشكل رهيب ، هذه هي الحقيقة . ليس لدي وقت للتفكير .. التفكير ، انه ليس التفكير بمرضاي ، ولا بالطب ايضا ، التفكير ، هذا يجب ان يكون : التأمل في العالم .. ليس لدي وقت فراغ لذلك .. سوف اظن انني اسرق الوقت من عملي .. أأنا على حق ؟ .. هل وجودي المهني هو حقيقة كل الحياة ؟ .. هل هو كل « حياتي » ؟ .. لست متأكداً .. اشعر جيداً انه يوجد واحد آخر تحت الدكتور تيبو : أنا .. وهذا الواحد ، مكتوم .. منذ زمن طويل . منذ ان اجتزت أول امتحان لي تقريبا .. في ذلك النهار ، كراك !

أُقفِلت المصيدة ٠٠ والرجل الذي كنته ، الرجل الذي وُجد قبلا في الطبيب – الرجل الذي مازلته بعد كل شيء – انه كبذرة مدفونة لم تمُ منذ وقت طويل ٠٠ نعم ، منذ أول امتحان ٠٠ وجميع زملائي هم مثلي .. كل الرجال المشغولين هم مثلي تقريبا ٠٠ انهم الافضل ، تماما . لأن الافضل هم دائما الذين يضحون بأنفسهم ، ويرضون بالتشدد الضاري للشغل المهني .. اننا تقريبا كرجال احرار قد بيعوا ٠٠ »

كانت يده في داخل جيبه تلعب بالمفكرة الصغيرة التي يحملها معه دائما . وبحركة آلية اخرجها وجال نظره اللاهي في صفحة الغد ٢٠ تموز ، والتي كانت ملأى بالأسماء والاشارات . وقال لنفسه فجأة : بدون كذب ، غداً وعدت تيريفيه ان اذهب وأرى ابنته في سو ٠٠ ولدي عيادتي في الساعة الثانية .

وسحق سيكارته في المرمدة وتمطى ، وقال مبتسماً :

– ها هو الدكتور تيبو يظهر ثانية ، لا بأس ، العيش ، هو العمل قبل كل شيء ! وهذا ليس تفلسفاً .. التأمل في الحياة ؟ .. ما الفائدة ؟ الحياة ، معروفة ماهيتها جيداً : مزيج مضحك من اللحظات الرائعة والقذارات ! والسبب مفهوم : ليس العيش ان نضع دائما كل شيء موضع بحث .

ونهض بحركة عنيفة ووثب على قدميه وخطا بضع خطوات قادته إلى النافذة .

– العيش ، هو العمل . غداً انه نهار الاثنين : سنضحي بالارنب الهندي الصغير رقم ١٣ .. لنا الف حظٍ ليكون اللقاح ايجابياً ٠٠ عمل قذر . فقدان كلية في الخامسة عشرة ٠٠ ثم هناك ابنة تيريفيه تلك .. لا جَلد لي هذه السنة مع اولئك المصابين بذات الجنب .. يومان ايضاً ، وإذا لم ينفع فسننتزع الضلع .. ايه ماذا !

قال ذلك فجأة وهو يسدل ستار الزجاج . « أن يعمل المرء عمله بدقة ، اليس هذا شيئاً حسناً ؟ وليترك الحياة تسير ! » .

وعاد إلى منتصف الغرفة وأولع سيكارة اخرى . وقد ألهاه توافق النغم

فأخذ يدندن كلازمة :

- لندع الحياة تسير .. وجاك وكلامه الكثير .. لندع الحياة تسير ..

١٦

بدأت الوليمة بفنجان مرق دسم بارد شربـه الاخوان صامتين ، بينما ليون يرتدي سترة « البارمان » البيضاء ويقطع بوقار بطيخة صفراء على رخام طاولة الفضلات . واعلن انطوان :

يجب ان يكون لدينا سمك وبعض اللحم البارد وسلطة . أيلائمك هذا ؟

وحولها غرفة الطعام الجديدة بخشبياتها العارية ، ومراياهـــا ، والطاولة الطويلة التي تشغل الفسحة المقابلة للنوافذ تؤلف فسحة مقفرة ، محزنة ، مهيبة .

كان انطوان يبدو انه يتلاءم مع هذا الاطار الاحتفالي . وكان وجهـه في تلك اللحظة يعبر عن الارادة الطيبة الأكثر محبة . ومع سروره برؤية اخيـــه ثانية كان ينتظر بدون ملل استئناف الحديث .

ولكن جاك كان صامتاً ، مشلولاً لعدم إلفته لهذه الغرفة ، وبهذين الطقمين من لوازم المائدة اللذين يفصلهما بشكل مضحك عرض طاولة يستطيع ان يجلس اليها اثنا عشر مدعواً . وزاد وجود الخادم ايضاً من هذ الشعور بالضيق : في كل مرة يضطر ليون إلى ابدال صحن كان يضطر للذهاب والمجيء من الطاولة إلى بيت المؤونة ، وان يجتاز نصف الغرفة مرتين . وكان جاك يتابع رغماً عنه بزاوية عينه هذه الانزلاقات لشبح ابيض على الطنفسة . كان يأمل ان يختفي ليون بعد ان اتى بالبطيخة الصفراء . ولكن الخادم تأخر في مـلء الأقداح ، ولاحظ جاك : « عادة جديدة » . (في الماضي كان اخوه يحتمل بصعوبة عدم خدمته لنفسه على هواه) .

واوضح انطوان رافعاً قدحه ليتفحص شفافية النبيذ العنبرية :

– انه نبيذ مورسو عام ١٩٠٤ . وسيكون هذا جيداً مع السمك .. لقـد وجدت حوالي الخمسين زجاجة في اسفل.. ولكن ابي لم يكن لديه قبو تقريباً ..

وتأمل اخاه خلسةً بكثير من الانتباه ، وكاد يلقي عليه سؤالاً ولكنه اقلع .

وكان جاك ينظر إلى الخارج لاهياً . كانت النوافذ مفتوحة ، وللسماء فوق البيوت انعكاسات حمراء كمرق اللؤلؤ . كم مرة وهو طفل ، في امسيات كهذه ، قد تأمل هذه الواجهات ، هذه السطوح ، هذه النوافذ ذات المصاريع الخارجية المقفلة ، وهذه الستائر المسودّة ، واحصى النباتات الخضراء المصفوفة على الشرفات !

وقال انطوان على حين غفلة :

– قل لي يا جاك . اذن انت ؟ .. أيلائمك هذا ؟ . أأنت مسرور ؟

فارتجف جاك ونظر إلى اخيه مندهشاً . وتابع انطوان بمحبة :

– نعم ، هل انت سعيد ، على الأقل ؟ ..

وتاهت ابتسامة مرغمة بضع ثوان على شفتي جاك . وتمتم :

– اوه ! انت تعلم ان السعادة ليست قدحـــاً يحصل المرء عليه . انها على الخصوص قابلية كما اعتقد ، وربما لم احصل عليها ..

والتقى بنظرة اخيه : نظرة مهنية . فخفض عينيه على صحنه وصمت .

لم يكن يريد مواصلة الحديث المنقطع . ومع ذلك فكل افكاره كانت تعيده اليه .

الفضيات الابوية – الجاط البيضوي الشكل الذي قدم ليون السمكة عليه ، وإناء المرق الذي كانت اذنه المعقوفة تذكر بالمصابيح القديمة – جعلته يتذكر الآن عشاءات العائلة في السابق .

– وجيز ؟

سأل فجأة كأنه فكر بها حالاً بعد ان نسيها طوال اشهر .

فبادر انطوان إلى انتهاز الفرصة .

– جيز ؟ .. ولكنها لا تزال هناك .. انها تبدو سعيدة . وهي تكتب إلي من وقت إلى آخر . حتى انها اتت إلى هنا على عيد الفصح لمدة ثلاثة ايام .. وما

تركه لها والدنا يتيح لها الآن ان تعيش حياة مستقلة تقريباً .

بهذه الاشارة إلى هبات السيد تيبو كان يأمل ان يمهد للحديث عن التركة الأبوية . لم يحمل ابداً رفض اخيه على محمل الجد وبالاتفاق مع الكاتب العدل قام بقسمة الثروة قسمة عادلة ؛ وقد اوكل إلى صرافه امر الاعتناء بإدارة حصة جاك ، بانتظار ان يعود هذا عن عزمه الاحمق .

ولكن جاك كان على بعد مئة ميل عن التفكير بذلك . وسأل :

– الا تزال دائماً في ديرها ؟

– كلا . حتى انها ليست في لندن نفسها . فهي تسكن في الضواحي ، في كنفسبوري في ملحق للدير ، إذا كنت فهمت جيداً : نوع من البنسيون فيه فتيات عديدات مثلها .

وأسف جاك لانه طرق هذا الموضوع . فذكر جيز لم يكن يمر دون ان يسبب له بعض الاضطراب . وكان لديه كثير من الاسباب للظن انه المسؤول الوحيد عن منفى الفتاة ، عن ذلك الهرب بعيداً عن كل ما يذكرها بالماضي وبآمالها المخفقة .

وتابع انطوان بضحكة صغيرة متسامحة :

– انت تعلم كيف هي .. ما يلزمها هي الحياة .. نوع من الدير دون نظام مضبوط يتقسم الوقت فيه بين التقوى والرياضة – وقال بتردد يكاد لا يدرك :

– تبدو انها سعيدة .

واسرع جاك بإرسال اخيه وراء اثر آخر :

– والمدموازيل ؟

(في احدى رسائل انطوان في الشتاء كان قد أخبره عن دخول المدموازيل دي ويز العجوز إلى مأوى) .

– عن المدموازيل ، اعترف لك ان لدي اخباراً غير مباشرة : بواسطة ادريان وكلوتيلد .

– الا تزالان هنا ؟

ـ نعم . فقد احتفظت بهما لأنهما تتفاهمان جيداً مع ليون .. وتذهبان باخلاص لرؤية المدموازيل في أول أحد من كل شهر .

ـ اين ؟

ـ في بوان ـ دي ـ جور . الا تذكر « مأوى العمر الناضج » الذي افلس شاسل بسببه عندما وضع فيه امه العجوز المستبدة ؟ .. كلا ؟ .. الا تعرف هذه الحكاية ؟ .. احدى اجمل حكايات شاسل الفائقة الوصف .

فقال جاك ضاحكاً رغماً عنه :

ـ وهذا ، ماذا حلّ به ؟

ـ شاسل ؟ انه على خير حـــال ! يدير مخزنا لأشياء مبتكرة في شارع الأهرام .. ذاك ميل كان عنده منذ المهد كما يزعم .. ولعمري يبدو انه نال شيئا من النجاح .. إذا مررت من هناك فالأمر يستحق الزيارة . وهو مشترك مع رجل لا يقدر بثمن . والاثنان يشكلان زوجا يستهوي ديكنز .

ورنت ضحكاتهما طوال دقيقة معاً . واستعادا ، للحظة ، نطاقهما الاخوي الذي لا يزول . وتابع انطوان بعد دقيقة :

ـ اما المدموازيل ..

وبدا متضايقاً وراغباً على الخصوص في ان يشرح لجاك كيف جرت الامور ، فقال متخذاً تلك النبرة الساذجة التي كانت جديدة تماماً على اذن جاك :

ـ انت تدرك ، انه لم يكن يخطر ببالي ابداً ان تنهي المدموازيل ايامهـــا خارج البيت .. انت يا ليون ، ضع إناء السلطة على الطاولة وسنقوم بخدمة انفسنا ـ وقال لجاك منتظراً ان يصل الخادم إلى الباب : ـ سلطة الجرجير .. مع اللحم البارد أو بعده ؟ ..

ـ بعده .

وتابع انطوان منذ ان تحقق انهما اصبحا وحيدين :

ـ سأكلمك بصراحة . انني لم ارفع ابداً اصبعي الصغير لأجعلهـا تذهب ، العجوز المسكينة . ولكني اعترف ان عنادها في ارادة الذهاب قدم لي خدمـة

عظيمة . فوجودها هنا كان من شأنه ان يعقد تنظيمات حياتي الجديدة .. وحين ادركت ان جيز قد عزمت على العيش في انكلترا ، عند ذلك وضعت في رأسها فكرة الدخول إلى المأوى . وقد اقترحت جيز ان تأخذ عمتها إلى هناك وان تسكنها بجانبها .. ولكن كلا ، فقد كان لديها الفكرة الثابتة : المأوى .. وفي كل يوم بعد الفطور كانت تصالب على الطاولة يديها العظميتين وتبدأ طلبها وهي تهز جبهتها الصغيرة : « قلت لك قبلاً يا انطوان .. في الحالة التي انا فيها .. لا اريد ان اكون عبئاً .. في سن الثامنة والستين ، في الحالة التي انا فيها .. » . لقد رأيتها هنا ، أليس كذلك ؟ .. منطوية نصفين ، وذقنها على السماط ، بكفيها المتجعدين اللذين يكنسان فتات الخبز ، وصوتها المرتجف : « في الحالة التي انا فيها .. » وكنت اجيب : « نعم ، نعم . سنرى .. سنتكلم في ذلك .. » ثم ، لماذا لا اقول ذلك ؟ .. انه يبسط الامور .. وانتهيت بالخضوع .. الا تجد انني كنت مخطئاً ؟ .. قل ؟ .. الا انني حرصت على ان يجري كل شيء على أفضل ما يمكن .. اولاً ، دفعت الثمن الغالي ، تعرفة الإقامة الفخمة ، ليكون لديها كل ما يريحها ، واخترت لها بنفسي غرفتين متصلتين جددتهما ونقلت اليهما اثاث غرفتها القديمة لكي لا تشعر انها خرجت من محيطها . وفي هذه الشروط ، فانها ليست المجهولة التي وُضعت في مأوى ، الا ترى ذلك ؟ .. انها كصاحبة دخل صغير في بنسيون عائلي .

وألقى على اخيه نظرة ملحة . ولا شك في انه تعزى بنظرة جاك المستصوبة لأنه ابتسم على الاثر ، وأضاف بمرح :

– وهكذا . ولكن يجب الا يكون المرء مخدوعاً بنفسه .. وانا لا اخفي عنك انني في اليوم الذي ذهبت فيه وجدت نفسي قد تخلصت .

وصمت ، وعاد وأمسك بشوكته ، لأنه انقطع عن الأكل منذ بضع دقائق وهو يروي قصته . والآن ، وجبهته منحنية ، كان يقطع مفاصل فخذ ذكر البط برشاقة . وكان ذا هيئة منتبهة ؛ ولكن الظاهر هو ان هذا الانتباه متجه إلى شيء آخر غير عمل اصابعه .

١٧

وقال فجأة :

– اني افكر بملايينك الاثني عشر من الشغيلة . اذن ، مـــاذا ؟ .. أأنت الآن مسجل في الحزب الاشتراكي ؟ ..

وكان قد ابقى رأسه منخفضاً حتى انه لم يرفعه حين رفع حدقتيه ليتفحص اخاه .

وتجنب جاك هذا السؤال الواضح باشارة رأس يمكن ان تكون ايجابيــة . (وبالفعل ، فانه لم يحصل على بطاقته الحزبية إلا منذ بضعة ايام . وكان أمــام التهديدالاوروبي قد تخلى عن استقلاله وشعربضرورة مشايعة الاممية الاشتراكية ، الحركة الوحيدة العاملة والعديدة بشكل كاف، لتناضل بفعالية ضد الحرب) .

وقدم اليه انطوان السلطة ، وأشار باهمال :

– أأنت متأكد يا عزيزي ان حياتك الحاليةفي هذه الأوساط .. السياسية ، هي حقيقةً الحياة التي تتلاءم أفضل من غيرها مــــع احتياجات ذكائك ، واستعداداتك الادبية ، واخيراً طبيعتك الحقيقية ؟ ..

فوضع جاك وعاء السّلطة بخشونة على الطاولة . وفكر : « البائس ! انــه يتخذ شيئاً فشيئاً نبرة والدنا المبتذلة الملقاة كنصيحة سامية .. » .

وقد سعى انطوان بشكل ظاهر ليحتفظ بنبرة متجردة ، منصفة ؛ وتردد وانتهى بأن أوضح :

– في قرارة نفسك : اتعتقد حقيقةً انك خُلقت لتكون ثورياً ؟ ..

فنظر جاك إلى اخيه وابتسم بمرارة دون ان يجيب حالاً ، وقد تجهم وجهه تدريجياً ، وقال اخيراً وشفتاه ترتجفان :

– ان ما صنّع مني ثورياً هو انني وُلدت هنا في هذا البيت.. هو لأنني كنت ابناً لبورجوازي .. هو لأنني كنت أرى ، وانا صغير ، المشهد اليومي للمظـالم

التي يعيش فيها هذا العالم ذو الامتياز ..هو لأنه تكوّن لدي منذ الطفولة شعور بحالة الذنب .. الاشتراك بالذنب ! نعم : الشعور المؤلم بانني استفيد من هذا النظام للاشياء ، وانني اكرهه في الوقت نفسه .

وأوقف اعتراض انطوان بحركة :

ـ قبل ان أعرف ما هي الرأسمالية ، حتى قبل ان اعرف الكلمة ، في سن الثانية عشرة ، الثالثة عشرة ، تذكّر. كنت متمرداً على العالم الذي أعيش فيه ، عالم رفاقي ، وأساتذتي .. عالم أبي واعماله الخيرية ! ..

وأخذ انطوان يحرك السّلطة ويعيد تحريكها ذاهلاً .

ـ يا إلهي ، عالم ذو عيوب في بنائه ، وهذا ، فاني أول من يعترف به ـ اعترف بذلك مع ضحكة مجاملة صغيرة ـ ولكنه عالم يدور تقريباً ، بقوة العادة ورغم كل شيء على محور قد بلي حتى النهاية من الحك .. يجب الا يكون المرء صارماً إلى هذا الحد .. عالم له ايضاً فضائله ، وواجباته ، وعظمته ، ورفاهياته .

أضاف ذلك بتلك الهيئة لولد صالح والتي كانت تقلق اخاه اكثر مما يقلقه كلامه .

وقال جاك بصوت مرتعش :

ـ كلا ، كلا . لا يمكن الدفاع عن العالم الرأسمالي ! فقد أقرّ بين الناس علاقات خرقاء ، غير انسانية ! انه عالم زُيّفت فيه جميع القيم ، وليس لاحترام الشخص أي مكان ، والمصلحة هي المتحرك الوحيد، وحلم الجميع هو الثراء ! عالم تحتفظ فيه قوى المال بسلطة فاحشة وتخدع الرأي العام بواسطة صحافة تتناول أجرتها منها ، وتستعبد الدولة نفسها ! عالم تحول فيه الفرد ، الشغيل ، إلى صفر ! عالم ..

فقاطعه انطوان الذي استولى عليه الغضب ايضاً :

ـ إذن ، حسب رأيك ، فالشغيل لن يستفيد شيئاً من انتاج العالم المعاصر ؟

ـ بأية نسبة ضئيلة يستفيد ؟ .. كلا ! فالوحيدون الذين يستفيدون منه هم

أرباب العمل ومساهموهم ، هم أصحاب المصارف الكبار ، والصناعيون الكبار .

ـ .. الذين تتصورهم ، طبيعياً ، فارغي الأشغال ومنتفعين ، سمنوا من عرق الشعب ، ويتجرعون الشمبانيا مع بنات الهوى ؟

ولم يتنازل جاك حتى لهزّ كتفيه .

ـ كلا ! .. أتصورهم كما هم يا أنطوان .. على الأقل ، كما هم أفضل اناس فيهم . ليسوا بفارغي الأشغال ابداً . بالعكس . ولكنهم منتفعون . آه ! نعم . يحيون حياةً هي كادحة ومرفهة معاً ـ كادحة بمرح ومرفهة بسفاهة ! حياة مفعمة ، لأنها تجمع كل المتع الممكنة : جميع المسرات ، جميع التسليات التي يحصل عليها الشغل الذكي ، الصراع الرياضي ضد المنافسة ، والتكتل ، واللعب ، والنجاح ؛ جميع المسرات التي تستخرج من الربح ، ومن الاعتبار الاجتماعي ، ومن السيطرة على الناس وعلى المادة ! .. اخيراً ، حياة أصحاب امتياز .. وهذا ، هل تنكره ؟ ..

وصمت انطوان وقال بينه وبين نفسه : « فصاحة ! انه يلقي خطاباً . الأحمق ! انه يتفرغر بأما كن مشتركة ! » كان في كل مرة يشعر ان انزعاجه يمنعه من أن يكون منصفاً؛ وان المشاكل التي أثارها هذر أخيه لا يمكن التغاضي عنها . وكان يفكر : « مشاكل أكثر صعوبة مما يتخيل جاك والمستبسطون على شاكلته . مشاكل ذات تعقيد لانهاية له ، ويجب ان يهتم بها ، ليس خياليون انسانيون بل علماء من ذوي العقول الكبيرة ، بدون عاطفة .. علماء منقطعون للأساليب العلمية ».

وختم جاك بنظرة شرسة :

ـ الرأسمالية ؟ .. لا شك في انها كانت قبلاً اداة تقدم .. ولكن ، في أيامنا ، وبواسطة سير حتمي ، أصبحت تحدّياً للعقل الرشيد ، تحدياً للعدالة ، تحدياً للجدارة البشرية !

فقال انطوان :

ـ اويه ! .. أهذا كل شيء ؟ ..

وساد صمت . ودخل ليون وبدل الصحون . وقال انطوان :

– أعطنا الجبن والفاكهة وسنخدم انفسنا بأنفسنا – وسأل ملتفتا نحو اخيه : – سويسري أم هولندي ؟ ..

فاتخذ نبرةً متجردة عن قصد .

– لا هذا ولا ذاك : شكراً .

– إجاصة اذن ؟

– إجاصة .

– انتظر ، سأختارها لك .

وشدد عمداً على اللهجة المحبة ، وتابع بعد وقفة ، وبنبرة مصالحة خففت من جرح العبارة :

– والآن ، لنتكلم جديّاً. ما هي الرأسمالية؟ يجب ان اقول لك انني احترز من الكلمات التي تستعمل اينما كان . وخصوصاً الكلمات المنتهية باللاحقة « Isme » .

وبدا انه ازعج أخاه . ولكن جاك رفع جبهته بهدوء . وبدا ان هياجه قد خف . ولاح رسم ابتسامةٍ على شفتيه . واستقر نظره لحظة على النافذة المفتوحة . فقد بدأ النهار يميل إلى المغيب : وكانت السماء تفقد بريقها من دقيقة إلى اخرى فوق واجهات البيوت الرمادية .

وقال موضحاً :

– في نظري ، حين أقول : رأسمالية ، فاني اهدف بوضوح إلى هذا : نوع من توزيع الثروة في الكرة الأرضية ، ونوع من طريقة الاستثمار .

ففكر انطوان لحظة ، ووافق بحركة من رأسه وشعر الاثنان بتعزية متساوية لأن الحديث اتخذ إطاراً أقل شدة .

– هل هي ناضجة على الأقل ؟ قليل من السكر ؟

فتابع جاك دون ان يجيب :

– اتدري ما الذي يزيد من إثارتي في الرأسمالية ؟ .. ذلك لأنها جردت

العامل من كل ما يجعله انساناً ، بواسطة التجمع الصناعي. فقد انتُزع من قريته ، من عائلته ، من كل ما يُكسبه خاصةً انسانية في حياته . لقد اقتُلع من جذوره ، وحُرم من جميع المسرّات النبيلة التي تنيلها المهنة للصانع . لقد حُوِّل بحيث لم يعد سوى حيوان ينتج في ُعشّ الأرضة الذي هو المصنع ! أتتصور ما هو تنظيم الشغل في ذلك الجحيم ؟ الفصل اللاإنساني الذي يجري بين القسم اليدوي والآلي في الشغل و — كيف اقول ؟ .. — القسم العقلي ؟ أتصور ماذا أصبح الشكل اليومي لعامل المصنع ؟ . وأية عبودية منهكة ؟ .. في الماضي كان نفس الرجل صانعاً صناعياً يحب مشغله الصغير ويهتم بمهمته . أما اليوم فهو محكوم بألا يكون شيئاً بنفسه ، لا شيء سوى مجموعة دواليب ، واحدة من الوف قطع هذه الآلات الغامضة ، حيث لا يكون بحاجة حتى إلى فهم الغموض ليحسِّن عمله ! غموض هو وقف على أقلية ، هي نفسها دائماً — رب العمل ، المهندس ..

— ذلك لأن الرجال المتعلمين أصحاب الاختصاص هم دائماً الاقلية ، بالتأكيد .

— لقد خسر الانسان شخصيته يا انطوان .. هذه هي الجريمة الرأسمالية ! لقد جعلت من العامل آلة ! وأقلّ أيضا : عبداً للآلة .

فقاطعه انطوان :

— بهدوء ، بهدوء . اولاً ، ليست هذه هي الرأسمالية : انها المكننة؛ ويجب ألا نمزج بين الاثنتين. ثم ، دعني اخبرك انك اكسبت الواقع شكل مأساة بشكل غريب ! بالفعل ، انا لا اعتقد ابداً بوجود حواجز محكمة السد بين العامل والمهندس ، بل يوجد في أغلب الاحيان نوع من العلاقة ، الاتفاق ، التعاون بينهما ، والعامل الذي آلته « سر » بالنسبة اليه نادر جداً . ليس بامكانه اختراعها ولابناؤها ، ولكنه يفهم جيداً كيف تعمل . وفي الغالب هو نفسه يدخل عليها تحسينات فنية . ومهما كان الأمر فهو يحبها ، وهو فخور بها ، ويعتني بها ، ويحرص على ان تسير جيداً .. وستودلر الذي كان في اميركا ،

يتحدث بشكل عجيب عن تلك « الحماسة الصناعية » المستولية هناك على الطبقات العاملة ... وأفكر أيضاً بالمستشفى . أنه لا يختلف كثيراً عن المصنع . فهناك أيضاً يوجـد أرباب عمل وشغيلة ، قسم « فكري » وقسم « يدوي » . وأنا ، إني نوع من رب عمل . ولكني أؤكد لك أن من هو تحت إمرتي ، ولو كان آخر خدم القاعة ، ليس فيه شيء من « الخادم » بالمعنى الذي تستعمله لهذه الـكلمة . إننا نشتغل كلنا معاً لهدفٍ واحد : شفاء المرضى . كل واحدٍ حسب وسائله واستعداداته . لو كنت ترى كيف يفرحون جميعاً حين تنتصر جهودنا المترافقة على إحدى الحالات السيئة !..

فقال جاك لنفسه مهتاجاً : « يجب دائماً أن يكون على حق » .

إلا أنه شعر بأنه انخرط في المناقشة بشكل أحمق . وبدا أنه يبني نقده للرأسمالية ، بشكل رئيسي ، على التنظيم ، وتوزيـع العمل .

وبذل جهده ليكون هادئاً وتابع :

— ليست طبيعة الشغل في النظام الرأسمالي هي التي تثير الغضب ، بل هي « الشروط » الموضوعة للشغل . ولست ناقماً على المكننة بحد ذاتها ، وهذا أكيد ، بل على الطريقة التي تستثمرها فيها طبقة ذات امتياز لمصلحتها وحدها . وإذا أردنا إعطاء فكرة مبسطة عن الجهاز الاجتماعي ، فبالإمـكان القول : من ناحية ، نخبة صغيرة بورجوازية من الناس الأغنياء ، بعضهم اختصاصيون مجتهدون ، والآخرون فارغو الأشغال ومتطفلون ؛ نخبة تملك كل شيء ، وتتصرف بكل شيء ، وتحتل جميـع مراكز القيادة ، وتستأثر بالأرباح دون أن يستفيد عامة الناس منها . — ثم من الناحية الأخرى ، أولئك العامة ، المنتجون الحقيقيون ، المستثمرون : قطيع كبير من العبيد ..

فهز انطوان كتفيه بمرح :

— من العبيد ؟..

— نعم .

— كلا ليسوا بعبيد ... مواطنون ... مواطنون لهم أمام القانون نفس

الحقوق التي لرب العمل والمهندس، يصوتون مثلهما ؛ ولا يجبرهم شخص على شيء ؛ ويستطيعون أن يشتغلوا أولاً ، وفقاً للقابليات التي عليهم ارضاؤها : ويختارون مهنتهم ، ومصنعهم ، ويغيرونه على هواهم ... وإذا كانوا مرتبطين باتفاقات ، فإنها اتفاقات قبلوا بها بحرية ، بعد مناقشة ... فهل يمكن أن نسمي هؤلاء عبيداً ؟.. عبيد من ؟.. عبيد ماذا ؟..

– عبيد بؤسهم يا كبيري ... كل هذه الحريات ليست سوى مموهة . والواقع ، أن العامل الحالي لا يتمتع بأي استقلال لأنه مطارَد بإملاقه ! وليس له سوى أجرة الشغل لينجو من الجوع . إذن فهو مضطر إلى تقديم نفسه مكتوف اليدين والرجلين إلى الأقلية البورجوازية التي تحتفظ بالشغل وتحدد الأجرة . ولكن هذه الأجرة ليست سوى كسرٍ ضئيلٍ جداً من الربح الناتج عن شغل العامل . ورب العمل والمساهمون معه يختلسون الباقي .

– بحق ! هذا الباقي يمثل القسم العائد إليهم كنصيبهم في المساعدة !

– نعم . من الناحية النظرية فإن الباقي، فعلاً ، يجب أن يمثل ما يعود لرب العمل مقابل إدارته أو للمساهم مقابل قبوله بإعارة ماله . وسأعود إلى هذه النقطة ... ولكن لنقارن الأرقام أولاً ، لنقارن الأجور بالأرباح ... في الواقع ، أن هذا الباقي هو حصة الأسد ، وهو غير متناسب مع المساعدة المؤداة : هذا الباقي يستعمله البورجوازي لتوطيد وزيادة قدرته ! وذلك لأنه لا يستعمله لراحته ، لفخفخته ، فهو يؤسس منه « رؤوس أموال » يوظفها في أشغال أخرى وتكون ككرة الثلج . ومن هذه الثروة المرسملة على حساب العامل تشكلت قوة الطبقة البورجوازية منذ أجيال . قوة تستند إلى ظلم رهيب ... لأن أسوأ الظلم – وإلى هنا أريد أن أصل – ليس هو عدم التناسب بين ما يقبضه الرأسمالي كأجر على حصته كشريك ، وأجرة الرجل الذي لا يتعب . إن أفظع الظلم هو في هذا العمل : أن « يشتغل المال » لأجل من يملكه ! وأن يشتغل « وحده » دون أن يحرك مالكه حتى أصبعه الصغير

فقط ! أن المال يتكاثر إلى ما لانهاية له ... هل فكرت مرة بذلك يا انطوان ؟.. فبفضل ابتكار المصرف الشيطاني وجدت جمعية متقنة لابتياع العبيد وجعلهم يتعبون من أجلها ! عبيد لكل راحة ، مُغفَّلون ، بعيدون ، مجهولون ، بحيث يمكن التظاهر بجهل حياتهم كملعونين حرصاً على الاحتفاظ بحسن الطوية ... هذا هو الجور المسيطر : هذه العشور المأخوذة سلفاً من اللحم والعَرَق بواسطة المكائد الأكثر مداهنة ، والأكثر لاأخلاقية !

وأبعد انطوان كرسيه عن الطاولة ، وأولع سيكارته ؛ وصالب ذراعيه . وهبط الليل فجأة وبسرعة ، بحيث لم يكن جاك يميز بوضوح الفروق في تعابير وجه أخيه .

وسأله انطوان :

– وإذن ؟.. هل على ثورتك أن تغير كل ذلك بضربة عصا ؟

كانت اللهجة مستهزئة . ودفع جاك صحنه واتكأ على مرفقه بسهولة واقتحم أخاه بنظره في الضوء القليل :

– نعم ، لأن العامل ما دام ، حالياً ، معزولاً تحت رحمة الحاجة ، فإنه يظل دون دفاع . ولكن أول تأثير اجتماعي للثورة سيكون في منحه القوة السياسية . وعندئذ يستطيع تغيير القواعد . ويستطيع إقرار مؤسسات جديدة وقانون جديد ... فالشر الوحيد ، كما ترى ، هو ذلك الاستغلال للانسان بواسطة الانسان ... يجب بناء عالم لا يكون فيه هذا الاستغلال ممكناً ، عالم حيث الثروات التي تمسكها ، ضد الحق والقانون ، أجهزة طفيلية كصناعاتكم الكبرى ، ومصارفكم الكبرى ، توضع قيد التداول لتستفيد منها الجماعة البشرية كلها . واليوم ، فإن الفرد المسكين الذي ينتج ، يلاقي العناء في تأمين أقل شيء من الضروريات لمعاشه ، وأن ليس لديه الوقت ولا الشجاعة ، حتى ولا التذوق ليتعلم أن يفكر ، وينمي نفسه في إمكاناته البشرية . وحين يقال أن الثورة ستلغي الوضع البروليتاري فهذا هو ما يراد قوله . والثورة ، في تفكير الثوريين الحقيقيين ، لا يجب فقط أن توفر للمنتج حياة أكثر سعة ،

مؤمَّنة وأكثر سعادة : عليها قبل كل شيء ان تبدل أوضاع الانسان بالنسبة إلى العمل ؛ عليها ان تؤنسن العمل نفسه ، وتمنعه من ان يكون عبودية موحشة . يجب ان يحصل العامل على أوقات فراغ . ويجب ان يكفَّ عن ان لا يكون سوى اداةٍ، من الصباح إلى المساء . ويجب ان يكون لديه الوقت الكافي ليفكر بنفسه؛وان يتمكن من تنمية نوعيته كرجل إلى الحد الاقصى وفقاً لاستعداداته ؛ ويصبح في الحد الذي يستطيعه – وهذا الحد ليس محصوراً كما يُظن – شخصاً بشرياً حقيقياً .

وكان قد قال عبارة « وهـــذا الحد ليس محصوراً كما يُظن » بقوةٍ مقنعة لرجلٍ مقتنع ؛ ولكن بدرجة صوتٍ خفية ربما استطاع ملاحظ اكثر انتباهاً من اخيه أن يدرك رنة الشك فيها .

ولم ينتبه انطوان لذلك . وكان يفكر . وقال مسلِّماً :

– اريد بعد كل ذلك ان افترض ان ذلك أمر ممكن التحقيق . ولكن بأية وسائل ؟ ..

– لا وسيلة اخرى سوى الثورة .

– يعني ديكتاتورية البروليتاريا ؟

فقال جاك حالماً :

– ديكتاتورية ، نعم يجب البـــدء بذلك . ديكتاتورية منتجين إذا أردنا القول الأفضل .. لقد أُسيء كثيراً استعمال كلمة : بروليتاريا . حتى في الأوساط الثورية يحاولون الآن التخلص من مجموع الاصطلاحات القديمة الانسانية والليبرالية لعام ٤٨ ..

وقال لنفسه ، مفكراً بمفرداته الخاصــة وبثرثرات « لابارلوت » : « ليس هذا بصحيح . ولكن يجب أن نصل اليه .. »

وصمت انطوان . ولم يكن قد سمع جيداً عبارات اخيه الاخيرة ، وكان يفكر : « ديكتاتورية .. » وبناءعلى مبدأ عقلي لم تكن ديكتاتورية البروليتاريا تبدو له ممكنة الفهم في ذاتها . وكان يتخيل أيضاً ، بدون كثير مــن الجهد ،

ما يمكن ان تكونه في بعض البلدان : في المانيا مثلاً . ولكنها كانت تبدو له غير ممكنة التحقيق في فرنسا . وكان يفكر : « ديكتاتورية كهذه لا يمكن أن تتوطد بواسطة انقلاب بخاري بسيط : لتستطيع ان تكون مطمئنة لانتصارها يلزمها الوقت لتتوطد وتحصل على نتائج اقتصادية، ولتتغلغل جذورها في الاجيال الجديدة . انها على الاقل ثماني ، عشر ، خمس عشرة سنة من الطغيان العنيد ، والكفاح الدائم ، والقمع ، والاغتصاب ، والبؤس . وفرنسا – بلاد المواطنين الذين يعيبون كل شيء ، الفرديين ، الغيورين على حرياتهم ، بلاد اصحاب المداخيل الصغيرة حيث الثوري الوسط لا يزال يحتفظ ، دون ان يدري ، بعادات وأذواق ملاك صغير – فرنسا ، هل تحتمل عشر سنوات متتالية من هذا النظام الحديدي ؟ .. ان الامل في ذلك جنون محض .

وواصل جاك مطالعته :

– ان الاستعباد والاستغلال لكل الفعالية البشرية بواسطة النظام الرأسمالي لا ينتهيان إلا معه . وشهية التملك عند المستغلين لن يكون لها حدود أبداً . والتقدم الصناعي في الخمسين سنة الاخيرة لم يكن يُستعمل إلا لزيادة سلطتهم . وجميع ثروات العالم هي موضوع طمعهم ! وحاجتهم إلى الفتح والتوسع تجعل مختلف الفروع الرأسمالية العالمية تمزق بعضها بعضاً ، ضد مصالحها الصريحة ، كأبناء عائلة يتقاتلون على ميراث ، بدلاً من التفكير بالاتحاد في سبيل سيطرة دولية كبيرة .. والحرب التي تهدد ليس لها سبب عميق آخر . (كان يعود دائماً إلى وسواسه بالحرب) . ولكن هذه المرة من الممكن ان يصطدموا بقوى لم يكونوا يحسبون لها حساباً ! .. والبروليتاريا ليس لهـا قصور الماضي ، ولله الحمد ! انها لن تقبل ان تجرّها الطبقات المالكة ، بحرصها على المال وتقسيماتها ، إلى كارثة سوف تحسب نفقاتها مرة اخرى أيضا .. إن الثورة في الحالة الحاضرة تنتقل إلى المخطط الثاني . فقبل كل شيء ، ومهما كلف الأمر ، منع الحرب ! وبعد ذلك ..

– بعد ذلك ؟

– آه ! بعد ذلك ، لن تعوزنا الأهداف الواضحة ! أما الاكثر ضرورة فهو استفادة الأحزاب الشعبية ، دون شك ، من هذا النصر ، من انتفاضة الرأي العام ضد الامبريالية ، لمحاولة القيام بالضربة الكبرى والاستيلاء على السلطة .. عندئذٍ يصبح ممكناً ان نعرض على العالم تنظيماً عقلانياً للانتاج .. على العالم كله . اتفهم ؟ ..

كان انطوان يصغي بانتباه . وقد أتى باشارة تفيد انه يفهم جيداً ولكن ابتسامته النصفية كانت تدل أيضاً على انه يتحفظ بموافقته .

وتابع جاك : – هذا لن يحدث من تلقاء نفسه ،وأعرف ذلك جيداً. وللتوصل اليه يتحتم على الثوريين القيام بمبادهة عنيفة : تحريك« العمل العصياني » .

اضاف ذلك مستعيراً لغة مينستريل وكذلك صوته القاطع ، وتابع :

– ستكون العملية قاسية ولكن الساعة تكون قد حانت للقيام بها. وبدون ذلك فربما اصبحت البشرية التي تشتغل محكوماً عليها بالانتظار طوال نصف قرن لتحريرها ..

وساد صمت . وسأل انطوان :

– و .. هل لديكم الرجال اللازمون لتنفيذ كل هذا المنهاج الجميل ؟

كان يسعى لكي لا يجعل المناقشة حامية ، وليحتفظ لها بدور نظري .وكان يفكر ، بخلوص نية ،ليعطي أخاه البرهان على ارادته الطيبة وروحه المتحررة ، وعدم تحزبه . ولكن جاك لم يكن راضياً عن ذلك. بالعكس : هذه النبرة غير المغرضة كانت تثيره . ولم يكن مخدوعاً . فهناك نوع من الرنة الساخرة في الصوت ، ولهجة اطمئنان لم يكن انطوان يستطيع الكفّ عنها منذ ان بدأ يتناقش مع اخيه الصغير ، كانتا تذكران جاك دائماً بأن انطوان ينظر اليه بصفته الأخ الأكبر ، ومن أعلى تجربة وألمعية متفوقتين .

واجاب بتعالٍ :

– رجال ؟ .. نعم ، لدينا منهم . ولكن في اغلب الأحيان فان رجال العمل الكبار ، أصحاب العبقريات ، ليسوا هم الذين يُعتمد عليهم . فالحوادث

تولد رجالا جدداً .

وظل صامتاً بضع ثوان متابعاً حلمه الداخلي . وتابع بهدوء :

– ليس هذا وهمياً يا انطوان .. فالتطور نحو الاشتراكية واقع عام . وهذا بارز للعيان . والنصر النهائي سيكون صعباً ، وربما لن يتم ويالأسف ! بدون اضطرابات دامية . ولكنه أمر لا يمكن تجنبه لأولئك الذين يرضون بالنظر .. وعند حلول الاجل يمكن توقع إقامة نظام كوني ..

– العالم **بدون طبقات** .

فتابع جاك كأنه لم يسمع :

– نظام جديد بكامله سيثير بدون شك ما لانهاية له من المشاكل التي نستطيع توقعها ؛ ولكنه يكون على الأقل قد وجد حلاً لتلك التي تخنق بشرية اليوم المسكينة : المشاكل الاقتصادية . ليس هناك شيء وهمي في كل هذا . وأمام مشاهد كهذه يسمح للمرء أن يأمل بكل شيء !

وحماسة جاك ، المقتنعة هذه المرة ، والأكثر تأثيراً في النور الضعيف ، وطدت ارتيابية انطوان بدافع المعارضة .

وكان يفكر : « العمل العصياني ! .. شكراً جزيلاً ! التاريخ هنا ! .. إن هذه الجهود النبيلة لجعل الحياة اكثر انسجاماً تكلف غاليا جداً في الحقيقة .. ولا تقود أبداً إلى تحسن دائم . تُعد الضربة ، ويجري الاسراع بالتخريب والابدال ؛ وعند الاستعمال يظهر ان النظام الجديد خلق سوء استعمال جديد ، وإن في نهاية الحساب .. يصبح الأمر كما في الطب : يجري دائما وبسرعة اختيار العلاجات الجديدة .

وإذا كان أقل صرامة من أخيه فيما يتعلق بالعالم الحالي ، وإذا كان يقتنع به بشكل معتدل – بدافع الانتهازية الطبيعية كما هو بدافع اللامبالاة (وكذلك لأنه كان مضطراً إلى وضع ثقته بالاختصاصيين الذين يسيرونه) – فإنه كان بعيداً عن اعتباره كعالم تام . وكان يفكر . « أريد تماماً .. أريد تماماً .. كل شيء يمكن ، كل شيء يجب ان يكون متقناً بشكل دائم . هذا هو قانون

المدنية : نفس قانون الحياة .. ولكن على مراحل ! » وقال :

– وللوصول إلى ذلك ، أتعتقد ان الثورة ضرورة ؟ ..

فصرح جاك بنبرة اعتراف :

– الآن ، نعم .. الآن ، اعتقد ذلك . اني ارى جيداً ما تفكر به . وقد فكرت به ، انا نفسي ، طويلاً ، وظللت وقتاً طويلاً أريد ان اقنع نفسي بان بعض الاصلاحات يمكن ان تكفي ، اصلاحات ، في داخل النظام الحالي .. لا اعتقد ذلك .

– ولكن ألا تتحقق اشتراكيتك من تلقاء نفسها من سنة إلى سنة ؟ في كل مكان ؟ حتى في بلاد اوتوقراطية مثل المانيا ؟

– كلا . فالتجارب التي تشير اليها هي ذات دلالة ! وهذه الاصلاحات بإمكانها ان تخفف بعضاً من « تأثيرات » الشر : انها لا تهاجم « الأسباب » أبداً ! وهذا طبيعي : فالمصلحون ، مهما كانوا سليمي النية كما يُفترض ، هم ، بالفعل ، متضامنون مع هذه السياسة ومع هذا الاقتصاد بحيث يكون المقصود المحاربة والإبدال. وليس بالمستطاع الطلب من الرأسمالية ان تهدم نفسها بنفسها ، بأن تحفر تحت مداميكها الخاصة ! وحين تجد نفسها محصورة بالفوضى التي خلقتها ، فانها تستعيد من الأفكار الاشتراكية بعض الاصلاحات التي أصبحت لا غنى عنها .. ولكن هذا كل شيء .

وقال انطوان مقاوماً :

– تقضي الحكمة بقبول النسبي ! فهذه الاصلاحات الجزئية ، مهما كان الأمر ، هي أرباح للمثل الأعلى الاجتماعي الذي تدافع عنه .

– أرباح وهمية ؛ تسليمات عادمة المعنى ، مقبولة قسراً ، ولا تغير شيئاً في أساس الأمور . في تلك البلدان التي تتكلم عنها ، ماذا غيرّت الاصلاحات من الأشياء الهامة ؟ إن قوى المال لم تخسر شيئاً من سيطرتها : فهي تستمر في التصرف بالشغل وإبقاء عامة الشعب تحت مخالبها ؛ تستمر في إدارة الصحافة ، وإفساد أو إخافة السلطات العامة . لأنه يجب ، لبلوغ أساس الأمور ، حمل

المعول وتقويض اسس النظام نفسها ، وتطبيق المخطط الاشتراكي بكامله ! .. ولإلغاء الأكواخ يغرز مهندسو التنظيم كل شيء في الأرض ويعيدون البناء ..

– وأضاف متنهداً : – نعم . إن اقتناعي العميق الآن هو ان ثورة ، انقلاباً عاماً منبثقاً من الاعماق يضع كل شيء في نصابه ويستطيع شفاء العالم من سموم عفونة الرأسمالية .. وكان غوته – الشاعر الالماني – يعتقد بوجوب الاختيار بين الظلم والفوضى : وكان هو يفضل الظلم . أما انا فلا ! انا اعتقد بعدم وجود نظام حقيقي بدون العدالة . اعتقد ان كل شيء مفضل على الظلم ! كل شيء .

– وأكمل خافضاً صوته : – حتى الفوضى الثورية الرهيبة .

وكان يفكر : « لو كان ميتورغ يسمعني لسر من ذلك .. »

وظل حالماً بضع ثوان :

– الأمل الوحيد الذي لي هو انه ربما كان مما لا غنى عنه ان تقوم في كل مكان ، في جميع البلدان ، ثورات دامية .. لم يكن ضرورياً نصب مقصلة عام ٩٣ في جميع عواصم اوروبا لكي تتغلغل المبادىء الجمهورية عام ١٨٤٩ في كل مكان ، وتبدّل كل شيء : لقد فتحت فرنسا ثلمة تستطيع جميع الشعوب المرور منها .. ولا شك انه يكفي ان تدفع امة واحدة – ربما المانيا – من اللحم الحي لاجل استتباب النظام الجديد ولتستطيع بقية العالم ، التي ربحت بواسطة القدوة ، ان تتطور بهدوء ..

فقال انطوان ساخراً :

– لنتكلم عن الانقلاب ، إذا كان ذلك في المانيا ! – ثم أضاف بنبرة جدية : – ولكن هناك حيث انتظركم كلكم ، فان ذلك سيكون حين تبنون عالمكم الجديد ، لأنه سيلزمكم إعادة البناء بنفس عنصر القاعدة دائماً ، هذا العنصر الجوهري لن يتغير لأنه من الطبيعة البشرية .

كان جاك قد شحب لونه بغتة ، ولكي يخفي اضطرابه أدار وجهه . لقد لمس انطوان ، دون أن يعلم ، جرح اخيه الكبير ، الجرح الخاص الذي لا شفاء منه .. هذا الايمان برجل الغد الذي هو سبب كينونة الثورة ، والوسيلة الحقيقية

لكل الاندفاعة الثورية ، ذلك الايمـــان ، وياللأسف ! لم يكن جاك يملكه إلا في فترات مقتضبة ، بواسطة عدوى آنية ؛ ولم يكن يستطيـع أبداً ان يجعل منه ايمانه . كانت شفقته على الناس لانهاية لها ؛ فقـد نذر لهم كل مافي قلبه من حب ؛ ولكنه فعل حسناً ، وبذل جهده بدون فائدة تذكر ، وردد الصيـغ المذهبية بيقين حار ، وظل ارتيابيا حول امكانات الانسان الاخلاقية . وكان يوجد هذا الإنـكار المؤثر في سرّ كيانه : لم يكن يؤمن . لم يكن يستطيـع الايمان حقيقة بعصمة هذا الاعتقاد : تقدم البشرية الروحي . التصحيح ، إعادة التنظيم من جديد ، اتمام وضع الإنسان بواسطة تغيير كلي للمؤسسات ، بواسطة بناء نظام جديد ، نعم بالتأكيد ! أما الأمل في ان يجدد هذا النظام الاجتماعي الجديد « الانسان » بأن يخلق آلياً نموذجاً للانسانية افضل ، فهذا لن يتوصل اليه ، وفي كل مرة كان يعي هـــذا الشك الاساسي الراسخ فيه بشكل عميق ، فان ذلك يكون بشعور مؤثر بتوبيخ الضمير ، والعار ، واليأس .

وقال معترفا ، بصوت متغير قليلاً :

ــ انا لا ابالغ في الاغترار حول قابلية الاصلاح في الطبيعة البشرية . ولكني اؤكد ان الإنسان الحـــالي هو كائن فاسد ، متلف بسبب النظام الاجتماعي الذي ينوء تحت وطأته . فهذا النظام يذل الشغيل باضطهاده، ويفقره اخلاقياً ، ويسلمه إلى احط غرائزه ، ويخنق فيه استعدادات النهوض التي يمكن أن تكون لديه . انا لا انكر ان هذه الغرائز المنحطة لم تخلق مع الانسان.بل اعتقد فقط ــ وأريد ان اعتقد ــ ان هذه الغرائز ليست الوحيدة . اعتقد ان مدنيتنا الاقتصادية تمنع الغرائز الصالحة من النمو ، ومن ان تتقدم على الغرائز الاخرى . وان لنا الحق في ان نأمل ان الإنسان سيكون مختلفاً عندما يستطيع افضل شيء فيه الانفتاح على الحرية ..

وكان ليونٌ قد فتح الباب قليلاً . وانتظر لينهي جاك عبارته ليعلن بصوت لا رنة فيه :

ــ ان قهوة السيدين جاهزة في المكتب .

فالتفت انطوان :

– كلا . هاتها إلى هنا..واشعل لنا النور إذا أردت .. ضوء الافريز فقط..

وتألق السقف . وكان بياضه كافياً ليعيد إلى الغرفة ضوءاً منتشراً بشكل لطيف . وكان انطوان يقول لنفسه : « يجب الانتباه ، فقد لمسنا هنا نقطة مركزية .. ان عدم الكمال الإنساني بنظر هؤلاء السذج ليس سوى نتيجة لعيوب المجتمع ؛ ومن الطبيعي اذن أن يضعوا املهم بجنون في ثورة . ولو كانوا يرون الأمور كما هي ، لو كانوا يدركون ، ولو مرة ، إن الإنسان هو حيوان قذر ، وان ليس هناك ما يمكن عمله .. فان كل نظام اجتماعي محكوم بشكل حتمي ان يعكس كل ما هو سيء لا يمكن اصلاحه في الطبيعة البشرية .. إذن ، ما فائدة التعرض لمخاطر انقلاب ؟

وبدأ جاك بصوت منخفض :

– ان ورطات العالم الحديث التي لا حصر لها ليست ذات نظام مادي فقط ..

وقاطعه دخول ليون مع طبق القهوة .

وسأل انطوان :

– قطعتا سكر ؟ ..

– واحدة ، شكراً .

وسادت دقيقة صمت . وتمتم انطوان مبتسماً :

– كل هذا .. كل هذا .. أتريد أن اقول لك يا عزيزي : يوتوبيا[1] خيالية .

وتطلع اليه جاك وفكر : « لقد قال : يا عزيزي . كوالدي تماماً » . وشعر بالغضب يستولي عليه ، واستسلم اليه لأنه انقذه من اضطرابه النفسي ، وهتف :

– يوتوبيا خيالية . لا تبدو انك ترتاب بوجود آلاف العقول الجدّية التي

---

١ – يوتوبيا utopie : هي الجمهورية الفضلى كما تخيلها افلاطون والتي يعيش فيها البشر في سلم دائم وحب خالص . « المعرب »

تشكل هذه اليوتوبيا الخيالية بالنسبة اليها منهاج جرى التفكير فيه بعلم ، وضبط ، ولا ينتظر سوى فرصة ليجرب تطبيقه ! (لقد فكر بجنيف ، بمينستريل ، بالعقائديين الروس ، بجوريس) اننا سنعيش عجوزين ، كلانا ، لنشاهد ، في زاوية من الكرة الارضية ، تحقيق هذه اليوتوبيا الخيالية الذي لا يرحم ، ولنراها تخلق مجتمعاً جديداً .

فدمدم انطوان :

– الانسان سيكون دائماً هو الانسان . وسيكون دائماً أقوياء وضعفاء .. ولن يكونوا متشابهين ، هذا كل شيء . الأقوياء يؤسسون سلطتهم على مؤسسات اخرى ، على قانون آخر غير قانوننا .. وسيؤلفون طبقة جديدة من الأقوياء ، نموذجاً جديداً من المتنفعين .. انه القانون .. وفي غضون ذلك ماذا سيحل بما هو صالح في مدنيتنا ؟ ..

فقال جاك كأنه يكلم نفسه وبلهجة كئيبة أدهشت أخاه :

– نعم . لا يمكن إجابة أناس مثلك إلا بتجربة كبيرة رائعة .. ومن هنا فان وضعيتك سهلة ! .. إنها وضعية جميع اولئك الذين يشعرون انهم يعيشون جيداً في العالم الحالي ، الذين يريدون بأي ثمن ان يحفظوه كما هو .

ووضع انطوان فنجانه فجأة ، وهتف بحيوية لم يستطع جاك تسجيلها إلا بسرور :

– ولكني مستعد لقبول عالم آخر .

ففكر جاك : « انه أمر جدير بالاهتمام . ان ما يعتقد به لا يتوافق مع الحياة التي يحياها » .

وتابع انطوان :

– ليس لديك فكرة عن مقدار شعوري بانني مستقل ، على هامش جميع الاشكال الاجتماعية ! فأنا أكاد لا اكون مواطناً .. لدي مهنة أمارسها : انها الشيء الوحيد الذي اهتم به . أما الباقي ، فنظموا العالم كما يحلو لكم حول غرفتي ، غرفة المعاينة ! وإذا كنتم تعتقدون ان باستطاعتكم وضع مجتمع في حالة توازن

لن يكون فيه بؤس ، ولا تبذير ، ولا حماقة ، ولا قابلية منحطة ؛ مجتمع دون ظلم ، دون فساد ، دون امتياز ، لا تكون الشريعة فيه شريعة الغاب : ان لا يأكل الناس فيه بعضهم بعضاً بصورة عامة ـ فهيا ! .. اسرعوا ! انا لا أدافع أبداً عن الرأسمالية ! فهي موجودة ؛ وقد رأيتها قائمة عند ولادتي ؛ وأنا مبلل بها منذ ثلاثين سنة ؛ اذن فأنا معتاد عليها ، وارضى بها ؛ واستفيد منها كلما استطعت .. ولكن على استعداد لأنتظم مع شيء آخر ! وإذا كنتم حقيقة قد وجدتم أفضل منها ، فهلليلويا ! وبالنسبة إلي لا أطلب سوى أن اتمكن من فعل ما خُلقت لأجله ، سأقبل بكل ما تريدون ، باستثناء استقالتي من وظيفتي كانسان .. ـ وأضاف بمرح : ـ ولكن مهما كان نظامك الجديد متقناً ، حتى لو نجحتم في ان تجعلوا من الإخاء قانوناً عاماً ، فأني ارتاب في ان تفعلوا كذلك فيما يتعلق بالصحة .. سيبقى هناك مرضى ، وبالنتيجة ، أطباء : إذن ، بالنسبة إلي لن يتغير شيء من علاقاتي الاساسية مع الناس .. ـ وقال طارفاً بعينيه ـ بشرط ان تترك لي في مجتمعك الاشتراكي شيئاً ..

ورن جرس الدهليز بعنف فدهش انطوان وأرهف الاذن . إلا انه تابع :

ـ شيئاً مـــن الحرية .. آه ! نعم . شيئاً من الحرية المهنية .. وأعني حرية الفكر ، حرية الشغل .. مع جميع المخاطر وجميع المسؤوليات المتعلقة بذلك .

وصمت ليصغي . وسمع ليون يفتح الباب المطل على سطح الدرج ، ثم سمع صوتاً نسائياً . وكان انطوان يستعد للنهوض واضعاً قبضته على الطاولة وقد اكسب وجهه القناع المهني .

وظهر ليون بالباب .

ولم يتسع له الوقت ليلتقط كلمة ، فقد دخلت وراءه امرأة فتية بسرعة : وارتجف جاك ، وفجأة شحب وجهه : فقد عرف جني دي فونتانان .

١٨

ان جني لم تعرف جاك . وربما لم تنظر اليه ، وحتى لم تره . فقد تقدمت

نحو انطوان متوترة الاسارير :

– تعال بسرعة .. أبي جريح ..

فقال انطوان :

– جريح ؟ .. جرح خطر ؟ .. اين ؟

فرسمت إشارة بيدها باتجاه صدغها .

ان وجهها القاسي ، وحركتها ، والقليل الذي كان انطوان يعرفه عن حياة جيروم دي فونتانان ، كل هذا جعله يفترض حالاً وقوع مأساة . محاولة قتل ؟ .. انتحار ؟ ..

– اين هو ؟ ..

– في فندق .. والعنوان معي .. وامي هناك . انها تنتظرك .. تعال ..

وصاح انطوان :

– ليون ! .. أخبر فكتور .. السيارة ، بسرعة .

والتفت نحو الفتاة :

– في فندق ؟ .. كيف هذا ؟ .. جريح منذ متى ؟

فلم تجب ، وألقت نظرها على الضيف الذي كان هناك .. جاك ! وكان قد خفض عينيه . وشعر بنظر جني كأنه حرق على وجهه .

لم يكونا قد رأيا بعضهما البعض منذ صيف ميزون ـ لافيت : أربع سنوات !

وقال انطوان مندفعاً نحو الباب :

– الوقت الذي آخذ فيه حقيبتي .

حين شعرت جني انها وحيدة أمام جاك اخذت ترتجف . كانت محدقة بالطنفسة ، وكانت زاويتا فمها ترتجفان بشكل يكاد لا يدرك . وأمسك جاك نَفَسه ، وهو فريسة اضطراب لم يكن يظنه ممكناً منذ دقيقة ، ورفعا عيونهما في نفس الوقت ، واصطدمت نظرتاهما؛نفس الذهول ، نفس الاضطراب

مدد أحداقهما . وكان يسيل من حدقتي جني وميض ذعر غطت عليه الجفون المسبلة .

وخطا جاك خطوة بحركة آلية ، وتمتم وهو يدني منها كرسياً .

– اجلسي على الأقل ..

فلم تتحرك . وظلت منتصبة في الضوء الساقط من السقف ، وظل الاهداب يختلج على خديها . كانت ترتدي بزة موحدة من جاكيت وتنورة جعلتها كبيرة رقيقة ، ترتدي المشدّ بشكل مضبوط .

وعاد انطوان فجأة . كان في سترة المدينة ، والقبعة على الرأس . وكان ليون يتبعه حاملاً حقيبتين من الادوية فتحهما انطوان على الطاولة ، مبعداً لوازم المائدة .

– هيا .. أوضحي قليلاً .. ستكون السيارة جاهزة في مدى دقيقة .. كيف هذا ، مجروح ؟ .. بماذا ؟ .. اسرع يا ليون وهات لي علبة ضمادات ..

وكان وهو يتكلم قد أخذ من إحدى الحقيبتين ملقطاً وزجاجتين وضعهما في الحقيبة الاخرى ، وكان يتعجل ولكن بحركات مقتصدة ومحدودة .

وتمتمت جني ، التي اقتربت من انطوان بحدة منذ ان عاد :

– لا نعلم شيئاً . رصاصة مسدس .

فقال انطوان دون ان يدير عينه : آه !

– لم نكن نعلم انه في باريس . كانت والدتي لا تزال تعتقده في فيينا .

كانت الرنة غير جهيرة ، لاهثة قليلاً ، لكنها متينة ، في غاية التشوش ولا تزال تعطي انطباعا بالعزم والشجاعة .

– لقد جاؤا يخبروننا من الفندق حيث هو .. منذ نصف ساعة .. وثبنا إلى عربة .. وأنزلتني امي هنا اثناء مرورنا . ولم تشأ ان تنتظر خوفاً من ..

ولم تكمل ، ودخل ليون مع علبة مطلية بالنيكل .

وقال انطوان :

– حسناً . لنسر الآن .. أهو بعيد ذلك الفندق ؟

– شارع فريدلاند ، ٢٧ مكرر .

وقال انطوان موجها الكلام إلى جاك :

– ستأتي معنا .

كانت النبرة آمرة أكثر منها استفهامية . وأضاف :

– تستطيع ان تكون مفيداً لنا هناك .

فتطلع جاك إلى جني دون ان يجيب . ولم تكن قد تحركت . ولكنه شعر انها رضيت بمجيئه . وقال انطوان :

– سيروا .

لم تكن السيارة قد خرجت بعد من المرآب . وكان الضوءان يرسلان نورهما الذي يعمي الأبصار على الساحة ؛ وبينما كان فكتور يعيد إقفال غطاء السيارة بسرعة كان انطوان قد أصعد جني .

وصرح جاك وهو يصعد إلى المقعد الامامي :

– انا سأجلس في المقدمة .

كانت المرحلة سريعة حتى الكونكورد . ولكن في شارع حقل الاليزيه فان حركة العربات أجبرت السائق على تخفيف سرعته .

وانطوان الجالس في الداخل إلى جانب جني احترم صمت الفتـــاة . كان يتذوق دون وسواس هذه اللحظة اللذيذة التي يعرفها جيداً . لحظة الانتظار والعزم المهيأ والتي تسبق ساعة المبادرة والمسؤولية . وكان يتطلع إلى الخارج لاهيـاً .

وجني ، المتراجعة إلى زاوية السيارة ،البعيدة بقدر الامكان عن كل احتكاك ، كانت تتشدد عبثاً ضد اضطرابهـــا : كانت ترتجف من القدمين إلى الرأس كالبلور المصدوم .

فمنذ اللحظة التي ادخلت فيها غلام الفندق ، المجهول ، بشيء من الحـذر ، والذي أعلن بصوت وقح « ان السيد نزيل الغرفة رقم ٩ قد اطلق رصاصة على صدغه » – حتى وصولها إلى شارع الجامعة بسيارة اجرة ، حيث امسكت

هي وامها بيدي بعضهما البعض بتشنج ، وبدون كلمـــة ولا دمعة – فان كل تفكيرها كان بالجريح . ولكنها نسيت والدها منذ ظهور جاك الصاعق .. انه امامها ، هذا الظهر الربعة ، الحي ، الذي كانت تتجنب النظر اليه – وجـود لا جدال فيه قد استقطب كل ما في كيانها من قوى .. فشدت على أسنانها ، وأسندت ذراعها الايسر اليها لتسحق خفقان قلبها ؛ وخفضت رأسها بعناد . كانت في تلك اللحظة غير قادرة على تحليل تلك البلبلة الداخلية . ولكنهـــا استسلمت اليها . وفي بضع دقائق استولت عليها بوحشية تلك المأساة من حياتها التي كادت تموت ، وكانت قد ظنت انها تخلصت منها إلى الابد .

ودعسة عنيفة على الفرامل جعلتها ترفع عينيها . فقد اضطرت السيارة إلى الوقوف عند مستديرة لتتيح المرور لجنود عائدين إلى ثكناتهم ، وقال انطوان متذمراً وهو يلتفت نحو جني :

– حين يكون المرء متعجلاً ! ..

انها كتيبة من الشبان ، في صفوفٍ متراصة ، يهزون المصابيح الصغيرة ، ويتبعون البوق بخطى رتيبة ، وينشدون بملء حناجرهم اللازمة الحربية للنشيد. وإلى اليمين والشمال جمهور كثيف أمسكه نظام جيد ، كان يهلل بصخب ويرفع القبعة عند مرور العلم .

وبعد ان تأكد السائق ان جاك لم يرفع قبعته ، احتفظ هو ايضاً بقبعته . وجازف قائلاً :

– هذا طبيعي .. فان كل شيء لهم في هذه الاحياء .

وجَرّأته هزة كتفي جاك فأردف :

– عندي ، في بلفيل ، اضطروا إلى الاقلاع عن ذلك ، في خماراتهم .. فقد كان الأمر ينتهي كل مرة بشغب .

من حسن الحظ ان الموكب المنحدر نحو الكونكورد دار إلى الشمال تاركاً شارع أنتان .

بعد بضع دقائق تسلقت السيارة بسرعـــة منحدر الضاحية ووصلت إلى

شارع فريدلاند .

وكان انطوان قد فتح الباب . وما ان وقفت السيارة حتى وثب منهـا . وبذلت جني جهداً لتتخلص من المقعد متجنبة اليد التي مدها اليها انطوان . ونزلت على الرصيف ووقفت لحظة ، مبهورة من النور المتألق الذي يلقيه باب الفندق حتى الأرض المرتفعة ، وظلت جامدة ، طائشة بحيث كادت تقع .

وقال انطوان لامساً كتفها بهدوء :

– اتبعيني . سأسير أمامك .

فتشددت ، واندفعت في خطها ، وفكرت : « اين هو ؟ .. » دون ان تدير رأسها . (حتى هنا ، حتى في هذه اللحظة ، لم تكن تفكر بوالدها) .

كان فندق وستمنستر عبارة عن بنسيون للاجانب ، كما يوجد منه الكثير في حي النجمة . كانت القاعدة الصغيرة منارة جداً ، وفي الداخل حاجز زجاجي يتيح رؤية رواق – صالون فيه اناس جالسون جمـــاعات ، يلعبون بالورق ، ويدخنون على انغام بيانو مخبأ بين نباتات خضراء .

لدى أول كلمات انطوان اشار البواب نحو سيدة بدينة ترتدي فستاناً مـن الساتان الأسود ، وقد نهضت حالاً من وراء الصندوق ، وبدون ان تقول كلمة قادتهم بسرعة ، وبهيئة خشنة ، حتى المصعد.وأغلق الحاجز الحديدي . عندئذ ادركت جني ، وقد شعرت بكثير من التعزية ، إن جاك لم يصعد معهما .

وقد وجدت نفسها على سطح درج أمام امها ، دون ان يتسع لهـا الوقت لتتمالك .

كانت قسمات مدام دي فونتانان منهوكة وهادئة معاً . ولاحظت جني قبل كل شيء ان قبعة امها كانت موضوعة بالعرض . وهذا الاختلال غير العادي جعلها تتأثر اكثر من تأثرها بالشقاء البارز من النظرة .

كانت مدام دي فونتانان تمسك بيدها غلافاً مفضوضاً . وامسكت بذراع انطوان قائلة :

– انه هناك .. تعال ..

وقادته مسرعة نحو الرواق .

ـ الشرطة ذهبت الآن .. انـــه يعيش .. يجب إنقاذه . ويقول طبيب الفندق ان نقله غير ممكن ..

والتفتت نحو جني · كانت تريد ان توفر عليها رؤية ابيها الجريح ·

ـ انتظري هنا يا عزيزتي ·

وناولتها الغلاف الذي كانت تمسكه بيدها · انها الرسالة التي التقطتها عـن الأرض ، بالقرب من المسدس ؛ حيث اتاح العنوان الاسراع إلى شارع الاوبسرفاتوار .

وظلت جني وحدها على سطح الدرج · وكانت تحاول فك رموز الورقـة التي كتبها والدها على ضوء قنديل السقف الضعيف . وقد قفز اسمها « جني » في السطور الاخيرة إلى عينها :

• • •

« لتغفر لي ابنتي جني . إني لم أعرف أبداً أن أريها حناني ... »

• • •

كانت يداها ترتجفان . وقد حاولت أن تقلص كل أعضائها على غير طائل لتتغلب على هذا الارتجاج في الإعصاب الذي كان يهزها حتى أطراف أصابعها . وبذلت جهدها لتقرأ كل شيء ، منذ البدء :

• • •

« تيريز . لا تفكري بي بجفاء . لو كنت تعلمين كم تعذبت قبل أن أصل إلى هنا ! اية شفقـــةٍ أستحقها منك . يا صديقتي ، كل الغم الذي سببته لك !.. أنت الكثيرة الوفاء ، الكثيرة الطيبة ، إني أخجل . لم أعرف إلاّ أن أبادلك الشر بالخير . إلا أني كنت أحبك يا صديقتي . لو كنت تعلمين . أحبك ولم أحب غيرك » .

• • •

كانت الكلمات ترقص أمام عينيها اللتين ظلتا جافتين ، محرقتين ، واللتين

كانت تتخليان في كل لحظة عن الورقة لتغمسا في قفص الدرج نظرة قلقة : لم تكن تستطيع التفكير إلا بمجاورة جاك • وكان خوفها كبيراً من أن تراه يعود إلى الظهور بحيث لم تتوصل إلى تركيز إنتباهها على هذه الأسطر القليلة المؤثرة ، المكتوبة بالقلم الرصاصي على عرض الصفحة ،وحيث ترك لها والدها في لحظة الموت ؛ وقبل أن يقوم بفعلته ، أثر تفكيره الأخير :

« لتغفر لي ابنتي جني ...... »

وبحثت بعينيها عن زاوية تختبىء فيها ، عن ملجأ . لا شيء ... مقعد صغير هناك في إحدى الزوايا ... فوصلت إليه مترنحة وجلست . لم تكن تحاول أن تفهم ما تشعر به . كانت متعبـــة جداً . وكانت تود لو تموت هنا ، في هذه اللحظة لتنتهي من ذلك ، لتتخلص من نفسها .

ولكنها لم تكن مسيطرة على دماغها . كان الماضي يفرض نفسه على ذاكرتها ، ويمر أمام عينيها كفيلم يُعرض بسرعة حلم ... وما لا يُفهم بالنسبة إليها قد بدأ في ميزون – لافيت منذ نهاية ذاك الصيف عام ١٩١٠ . فقد كانت ترى جاك يزداد شغفا كل يوم ، ويزداد إصراراً على استمالتها ؛ وكانت هي نفسها تصاب كل يوم بالهلع لشعورها بأنها أكثر اضطراباً وأكثر قبولاً؛ وفجأة، دون أن يعلمها بالأمر ، دون أن يكتب إليها ، دون أن يخفف من الإهانة اللاحقة بها من جراء هذا التغير ، انقطع عن المجيء ... ثم دعا انطوان دانيال بالهاتف ذات مساء : لقد اختفى جاك ... وبدأ العذاب بالنسبة إليها . لماذا هذا الهرب ؟ أو ربما الأسوأ : هذا الانتحار ؟.. أي سرٍ حمله هذا الغلام الوحشي معه ؟ ويوماً بعد يوم ، في شهر تشرين الأول ١٩١٠ ، دون أن يستطيع أي إنسان حولها ، حتى ولا أمها ، أن يرتاب بعذابها ، كانت تتابع بقلق بحوث انطوان ودانيال غير المثمرة لإيجاد أثر للهارب ... وقد طال الأمد أشهراً ... كانت تنتفض وحدها في الصمت والبلبلة ، حتى بدون أن يكون لها سند من حياة دينية حقيقية ، في ذلك الجو اللغزي الخانق . وقد أصرّت ليس على إخفاء يأسها فقط ، بل على إسكات شقائها الجسدي ، انحطاط قوى جهازها

العظمي على أثر صدمةٍ كهذه ... وأخيراً ، بعد أكثر من سنة من الصراع المنفرد ، والنقاهة التي تقطعها معاودة الانتكاس ، جاء الانحطاط المعنوي . وبقي الاعتناء بالجسد . فأرسلها الأطباء إلى الجبال طوال صيف كامل ؛ ومنذ أول ظهور البرد في الجنوب .. وكان ذلك في البروفانس ، في الخريف الماضي ، إذ علمت بواسطة رسالة من دانيال إلى أمه أن جاك قد وُجد ، وأنه كان يعيش في سويسرا ، وقد عاد إلى باريس بسبب مأتم السيد تيبو . وقضت عندئذ بضعة أسابيع في اضطراب عميق ؛ ولكنها هدأت من تلقاء نفسها ، بسرعة ، رغم كل شيء . وفي تلك اللحظة أدركت أنها شفيت حقيقةً : ليس بينها وبين جاك ، فهذا قد انتهى ولم يبق منه شيء ... لا شيء أبداً كما كانت تعتقد ! وفي هذا المساء ، في الساعة الأكثر مأساة في حياتها ، هاهو قد جاء ينبثق من جديد ، بحدقتيه المتحركتين ، ووجهه الرديء !

وظلت جالسة ، منحنية إلى الامام. وعيناها ملتفتتان بخوف نحو الدرج . وكان تفكيرها يسرع .. ماذا سيصير بها ؟ .. صدفة لقاء ، اصطدام نظرتين ، هل هذا كافٍ لتحريك رواسب الماضي، وليلاشي في ساعة هذا التوازن الجسدي والمعنوي الذي قضت سنوات لاكتسابه ؟ ..

كان جاك قد اطاع اشارة اخيه فظل في القاعة .

والسيدة ذات الساتان الأسود عادت إلى مكانهـــا على الصندوق ، وكانت تلقي عليه ، بين وقت وآخر ، من فوق نظارتها بريقاً عدائياً . والاوركسترا البعيدة ، المؤلفة من بيانو وكمانٍ خشن ، كانت تبذل جهدها في عزف تانغو لزوج وحيدٍ من الراقصين ، كان جاك يشاهده بين لحظة واخرى وراء الزجاج . وفي قاعة الطعام بعض المتريثين أنهوا عشاءهم . وكان يُسمع رنين الصحون في المطبخ وغلمان يروحون ويجيئون مع أطباق. وعند مرورهم من أمام امينة الصندوق كانوا يعلنون بصوت رصين : « واحدة إفيان للرقم ٣ » « جمع حساب الرقم ١٠ » ، « فنجانا قهوة للرقم ٢٧ » .

ونزلت إحدى الخادمات راكضة على الدرج . فدلتها المرأة المرتدية السواد،

بواسطة طرف مسكة ريشتها ، على جاك .

كانت تحمل كلمة من انطوان :

« تلفن للدكتور هيكيه ليأتي حالاً . باسي ٩ - ١٣ » .

ودُلّ جاك على غرفة الهاتف . وعرف على طرف الخط صوت نيكول ، ولكنه لم يذكر اسمه .

كان هيكيه في بيته ، وقد جاء إلى جهاز الهاتف :

ــ انا ذاهب . في مدى عشر دقائق سأكون هناك .

وكانت امينة الصندوق تنتظر على باب غرفة الهاتف . كل ما يتعلق بذلك « الأبله في الغرفة رقم ٢٩ » كان موضع شبهة بنظرها ؛ ان المريض في فندق يكون زبوناً غير مرغوب به ، فكيف بمنتحر ؟ ..

ــ هذه الأمور ، كما تعلم ، في بيت كبيتنا .. اننا لا نستطيع .. ابـــداً لا نستطيع .. يجب حالاً ..

وظهر انطوان على الدرج . كان وحده ، عاري الرأس . فأسرع جاك نحوه :

ــ وبعد ؟ ..

ــ انه في حالة خور شديد .. هل تلفنت ؟

ــ ان هيكيه آت .

وهجمت المرأة المرتدية السواد عليه بعزم :

ــ ربما كنت طبيب العائلة .

ــ نعم .

ــ نحن لا نستطيع إبقاءه هنا ، وانت تعلم .. في فندق كفندقنا .. يجب نقله إلى المستشفى .

فقاد انطوان اخاه إلى الطرف الآخر من القاعة دون أن يوليها كثيراً من الاهتمام ، وسأل جاك :

ــ ماذا جرى ؟ .. لماذا أراد قتل نفسه ؟

– لا أعرف شيئاً عن ذلك .

– أيسكن وحده هنا ؟

– اظن ذلك .

– هل ستصعد حالاً ؟

– كلا . اني انتظر هيكيه لأتحدث معه .. لنجلس .

ولكنه ما كاد يجلس حتى نهض :

– اين الهاتف ؟

فقد فكر فجأة بآن :

– راقب المدخل . سأعود .

كانت آن متمددة على الأريكة ، بدون نور ، والنوافذ مفتوحة والستائر مسدلة . وعند رنين الهاتف حدست ان انطوان لن يأتي . وقد سمعت ايضاحاته دون أن تتوصل إلى الإصغاء ، دون ان تفهم جيداً ما كان يقول .

وقال مندهشاً من سكوتها :

– افهمت ؟

لم تستطع ان تجيب . فقد أمسك بحنجرتها تقلص تشنجي وخنقها . وبذلت جهداً وتمتمت .

– .. ليس صحيحاً يا طوني .

كان صوتها كثير الانخفاض كثير التغير بحيث تمالك هنيهة قبل ان يستسلم للهياج .

– ماذا ، ليس صحيحاً ؟ .. مادمت قد قلت لك .. انه في حالة خَوَر شديد ! وانا انتظر الطبيب الجرّاح .

وشنجت أصابعها على السماعة بعامل الحزن المصحوب بالغضب ، ولم تجرؤ على الكلام خوفاً من ان تنفجر بالبكاء .

وكان ينتظر . فقالت اخيراً :

– اين انت اذن ؟ ..

– في فندق .. بالقرب من النجمة .

فرددت كصدى خفيف :

ـ النجمة ؟ ..

ثم بعد تردد لا ينتهي :

– ولكن هذا قريب منا .. انت قريب جداً مني ياطوني !

فابتسم :

– انه ليس ببعيد .

وأدركت الابتسامة من رنة الصوت واستعادت الأمل فجأة ؛ وقال وهو يبتسم دائماً :

– اني ادرك ما تفكرين به . ولكني اكرر لك انني سأحتجز هنا كل الليل .. والافضل ان تعودي إلى بيتك بتعقل .

فصرخت بسرعة وبصوت منخفض :

– كلا ! كلا ! لن أتحرك !

وهمست بعد تردد جديد :

– اني انتظرك .

وقلبت نصفها الاعلى ، وأبعدت السماعة وتنفست تنفساً عميقاً . ومن بعيدٍ جداً سمعت الجهاز يخنّ :

ـ .. اذا استطعت الهرب .. نعم .. ولكن لا تعتمدي كثيراً على ذلك .. أُسعدت مساء يا عزيزتي ..

فقربت جهاز الهاتف بجدة من وسادتها . وكان انطوان قد علق السماعة .

عندئذ عامت إلى التمدد على الاريكة ، وظلت ثابتة العينين ، مضمومة الساقين ، متمددة الجسد ، ضامّة سماعة الهاتف إلى خدها .

قال انطوان بعد ان عاد صامتاً وجلس بالقرب من جاك :

– مدام دي فونتانان امرأة تثير الاعجاب فعلاً .

وصمت . ثم قال بعد وقفة :

– الم تكن قد رأيت جني .. منذ ؟ ..

وتذكر فجأة اختفاء اخيه ، و « لاسوريللينا » وكل ما تنسّمه قبلاً عن هذه الحكاية المشوشة .

وتجهم جاك وهز رأسه سلباً .

ووقفت سيارة أمام الفندق . وظهر هيكيه على اسفل الدرج وكانت زوجته تتبعه . ولم تكون نيكول قد غفرت أبداً للعم جيروم : كانت تجعلهم مسؤولاً عن سوء سلوك والدتها ، وهذه النهاية الفاضحة بدت لها كعقاب من الله . ولكنها في ساعات القلق هذه لم تكن تريد ان تترك عمتها تيريز وجني وحدهما .

وتوقف هيكيه لحظة على العتبة ، ونظره الدقيق من وراء النظارات جال في القاعة ، وشاهد انطوان وقد اتى اليهما ، ولم يعرف جاك الذي ظل منتحياً جانباً من تلقاء نفسه .

لم يكن انطوان قد التقى بنيكول منذ تلك الامسية التي سبقت موت الابنة . (كان يعلم ان نيكول ، بعد ذلك بقليل ، اسقطت ولداً ميتاً ، في الظروف الصعبة التي تركتها مموهة إلى الأبد جسداً وروحاً) . لقد هزلت ؛ وذلك التعبير الدال على الشباب والثقة في وجهها قد اختفى كلياً . ومدت يدها اليه ، وتلاقت نظراتهما ، وتقلصت قسمات نيكول بشكل خفيف : كانت ذكرى انطوان مرتبطة باكثر ذكرياتها إيلاماً ، وها هي تجده مرة ثانية في هذا المساء ، في الجو الفاجع لهذه المأساة الجديدة .

وحين كان انطوان يتكلم في اذن الجراح كان يقودهما نحو المصعد . وقبل ان يختفوا في القفص الزجاجي رأى جاك من بعيد اخاه يضع اصبعه على نقطة معينة من صدغه ، عند منبت الشعر .

وكانت المرأة المرتدية السواد قد قفزت من وراء الصندوق :

ـ هل هذا أحد أهله ؟

ـ انه الطبيب الجراح .

ـ لن يجروا له العملية هنا كما اظن :

فأدار جاك ظهره لهما .

وكانت الموسيقى قد انقطعت . وفي غرفـة الطعام كانت الأنوار مطفأة . وجاءت عربة المحطة باثنين من الانكليز صامتين دون شك ، مـع امتعة جميلة جديدة .

وكان قد مضى عشر دقائق حين ظهرت الخادمة مع بطاقة اخرى من انطوان :

« تلفن إلى عيادة برتران ، نويي ٥٤ – ٣٠ من قبل هيكيه ، ليرسلوا حالاً عربة إسعاف لمريض نائم ، ولتجهيز غرفة العمليات » .

وتلفن حالاً .

وعند خروجه من غرفة الهاتف اصطدم بأمينة الصندوق واقفة أمام الباب . فابتسمت له بهيئة باشة ، لقد سُري عنها .

ورأى انطوان وهيكيه يجتازان القاعة . وصعد الجراح إلى العربة وحده . وعاد انطوان نحو جاك .

ـ سيحاول هيكيه استخراج الرصاصة هذه الليلة . انه الحظ الوحيد ..

واستجوبه جاك بنظره ، فمط انطوان شفتيه ، وقال وهو يسير نحو طاولة الرسائل الموجودة على مدخل الرواق .

ـ علبة الجمجمة مشقوقة بعمق . وستكون اعجوبـة إذا نجا من ذلك . والآن اسمع .. ان مدام دي فونتانان تريد إعلام دانيال في لونيفيل . ويجب ان تحمل برقية إلى مكتب يفتح ليلاً ؛ مكتب البورصة مثلاً .

فاعترض جاك :

ـ وهل يعطونه اجازة ؟

فقال انطوان دون ان يفهم :

– هذا طبيعي .. ولماذا لا ؟ ..

وكان قد جلس وبدأ يكتب البرقية . ولكنه أعاد النظر بها ودعك الورقة :

– كلا .. الأوفق ان توجه إلى الكولونيل .

وأخذ ورقة اخرى وتمتم وهو يكتب : « نرجوك .. حالا .. منح اجازة ضرورية .. للجاويش فونتانان في فرقة المشاة .. الذي والده .. » ثم نهض .

وأخذ جاك البرقية طائعاً .

– هل اجدك بعد ذلك في العيادة ؟ .. اين هي ؟

– .. إذا شئت ، ١٤ شارع بينو – ثم قال بعد تفكير : – ولكن ما الفائدة ؟ ان خير ما تفعله هو ان تذهب وتنام .. (وكان على وشك ان يضيف : « اين تسكن ؟ .. اتريد الإقامة في شارع الجامعة ؟ .. » ولكنه لم يقل شيئاً من ذلك) .

– كلمني هاتفياً غداً صباحاً إلى البيت ، قبل الساعة الثامنة ، وسأقول لك ما جرى .

وحين أخذ جاك يبتعد قال : يذكره :

– عليك ، رغم كل شيء ، ان تبرق إلى دانيال وتعطيه عنوان العيادة .

١٩

كانت الساعة تدق منتصف الليل حين خرج جاك من مكتب بريد البورصة .

كان يفكر بدانيال ، ويتخيل صديقه وهو يفض البرقية التي أرسلها ووقعها : « الدكتور تيبو » . وظل لحظة على حافة الرصيف ، حائراً ، متطلعاً ، دون ان يرى ، إلى الساحة المضاءة شبه الفارغة . وقد سببت له أعضاؤه بعض الألم ، كما في أول أدوار الحمى ، وكان رأسه يدور ، وفكر : « ما بي ؟ .. » وانتصب ، واجتاز الطريق ، كان الهواء أكثر رطوبة ، ولكن الليل ظل

حاراً ، ومشى أمامه دون هدف ، وتساءل من جديد : « ما بي ؟ جني ؟ » وانتصبت أمامه صورة الفتاة الشاحبة الرقيقة ، في بزتها الزرقاء ، كما ظهرت له فجأة بعد سنوات عدة ، لمدة ثانية واحدة فقط ، وطردهـا حالا بدون جهد تقريباً .

ووصل من شارع فيفيان إلى شارع بواسونيير ، وتوقف . الشوارع المقفرة تقريباً حتى الآن ، في هذا الاحد من فصل الصيف ، كانت تنبعث فيها الحياة لمدة ساعة ؛ قاعات المسارح تفرغ ؛ وسطيحات المقاهي مجهزة . وعربات أجرة مكشوفة كانت تنحدر كالزوبعة نحو الاوبرا . وعلى الأرصفة كان الجمهور يسير نحو الغرب . وفتيات مرحـات تحت قبعاتهن العريضة الزاهرة ، كن يصعدن ضد التيار نحو باب سان مارتان ، وهن يتفحصن الرجال فقط .

وجاك الذي أسند ظهره الى دكان في زاوية الشارع كان يرى سير هـذه البشرية اللاواعية . لقد كان عمى انطوان عاماً . وهل هناك بين هؤلاء المارّة الضاحكين واحد على علم بالأشراك التي علقت فيها اوروبا ؟.. لم يكن جاك قد عرف بشكل اكثر تأثيراً أن مصير ملايين الغافلين في أيدي بعض الرجـال المختارين بطريق الصدفة تقريباً ، والذين يستحيل أن توكل الشعوب اليهم أمر الاعتناء بسلامتها .

وهناك بائع صحف كان يجرّ حذاءه ويصيح دون اقتناع :

– الطبعة الثانية .. « الحرية » ، « الصحافة » ..

فاشترى جاك الصحيفتين وتفحصها بسرعـة على ألق مصباح : « دعوى كايو .. رحـلة بوانكاريه .. اجتياز باريس سباحة .. الولايات المتحدة والمكسيك .. مأساة الغيرة .. دورة فرنسا للدراجات .. جـائزة البالونات الكبرى في التويلري .. المجلة المالية .. » لا شيء .

ومن جديد عاد اليه التفكير بجني . وفجـأة ، عزم على تقـديم موعد رحيله يومين : « منذ الغد سأعود الى جنيف » وقد جاءه هذا العزم بخير غير منتظر . وقال لنفسه : « لو مررت على صحيفـة الانسانية » . ثم بلغ شارع

الهلال بنشاط تقريباً .

كان الحي الذي تصنع فيه في هذه الساعة معظم صحف الغد يعج بالحياة . وقد دخل جاك الى هـــذه المنملة . وكانت البارات والمقاهي المضاءة بشكل باهر ملأى ، وكانت ضوضاؤها تنتشر من فرجـــات الأبواب حتى منتصف الشارع .

كان أمام مركز صحيفة الانسانية « الاومانيته » حشد صغير يسدّ الباب . وقد شدّ جاك على بعض الأيدي . كانوا يعلـّقون على معلومات حملها لارغست Larguest الى المعلم : مستودع غير عادي لأربعة مليارات من الذهب (هذا ما يسمونه احتياطي الحرب) قد انشىء هذا الصباح في مصرف فرنسا .

وبعد ذلك انقسم الحشد . فاقترح بعضهم الذهاب لإنهاء السهرة في « مقهى التقدم » الذي كان على بعد بضع دقائق من شارع سانتيـــه ، حيث كان الاشتراكيون الباحثون عن الاخبار متأكدين دائماً من إلتقائهم ببعض محرري الصحيفة هناك . (اما الذين يترددون على « مقهى التقدم » فكانوا يذهبون الى « مقهى الهلال » في شارع مونمارتر ، او الى « لاشوب » في شارع فايدو) .

ودعي جاك لتناول قدح بيرة في « التقدم » وكان آنذاك قد بدأ دخوله الى اماكن الاجتماع تلك حيث يجد فيها دائمـــاً اصدقاء . وكانوا يعلمون انه آت من سويسرا بمهمة . ويعاملونه ببعض الاهتمام ، ويحاولون تسهيل مهمته وهم يحملون اليه المعلومات ؛ إلاّ ان كثيراً من المناضلين الخارجين من الطبقة العاملة كانوا ، رغم ثقتهم ورفقتهم ، يعتبرون جاك « كمفكر » ، « كهاوٍ » ولم يكن منهم في الأصل .

وفي « مقهى التقدم » كانوا قد اختاروا غرفة واسعة ، منخفضة السقف ، قائمة فوق الطابق الارضي ، حيث الوكيل المنضم الى الحزب لا يسمح بالصعود الا للاشخاص المعتادين . وفي هذا المساء كان عشرون شخصاً من جميع الاعمار مجتمعين هناك حول رخامات مزّفتة ، في دخان السكاير ورائحة البيرة المفعمة بالأسيد . وكانوا يناقشون مقال جوريس الذي صدر في الصباح عن دور الاممية

في حالة الحرب .

وكان هنـــاك كاديو ، ومارك لوفوار ، وستيفاني ، وبرتيه وراب . وكانوا يحيطون بعملاق ملتحٍ ، وردي اللون اشقر ، انـــه الاشتراكي الالماني تاتزلر الذي عرفه جاك في برلين . تاتزلر يؤكد ان هذا المقال سيُنقل وستعلق عليه الصحافة الجرمانية كلها . وحسب رأيـــه ، فان الخطاب الجديد الذي ألقاه جوريس في مجلس النواب ليبرر رفض الاشتراكيين الفرنسيين اعتمادات رحلة الرئيس الى روسيا – وقد صرح فيه جوريس ان فرنسا غير مهتمة بـأن « تلقى في مغامرات » – كان له دوي عميق فيما وراء الرين .

وقال راب ، وهو عامل طباعـــة قديم ، كانت جمجمته محدودبة بشكل غريب :

– وفي فرنسا ايضاً ، فان هذا هو الذي دعـــا اتحاد السين الى ان يقرر التصويت على ذلك الاقتراح حول الاضراب العام ، في حالة التهديد بالحرب .

وسأل كاديو :

– ايكون شغيلتكم الالمان مستعدين ، وهل هم متقيدون بالنظام ، للقيـام بالإضراب دون مناقشة ، اذا رضي حزبكم الاشتراكي الديموقراطي بالمبـــدأ ، وأصدر الأمر امام تهديد بالتعبئة ؟

فقال تاتزلر ضاحكاً بضحكته الطيبة الواثقة :

– اني ادير السؤال اليك . في يوم التعبئة ، أتكون طبقتكم العاملة في فرنسا خاضعة للنظام تماماً لكي ..

فلاحظ جاك :

– هذا يتوقف كثيراً كما اعتقد ، على موقف البروليتاريا الالمانية .

فقال كاديو مقاطعاً :

– اما أنا فأجيب : نعم ، دون أي شك .

وقال راب :

– غير اكيد . انا بالاحرى اجيب : كلا .

فهز كاديو كتفيه .

(كان كبيراً ، هزيلا ، مخلّعاً . يُلتقى بـه في كل مكان ، في الاقسام ، في اللجان ، في بورصة الشغل ، في المركز العام للشغيلة ، في غرف تحرير الصحف ، على ادراج الوزارات ، دائماً متعجل ، راكض ، لا يمكن إدراكه . ويُلتقى به بوجه عام بين بابين ، وما أن يبدأ البحث عنه حتى يختفي : نموذج مـن الناس يُعرف دائماً بعد فوات الاوان ، حين يكونون قد مروا) .

وقال تاتزلر ضاحكا مظهراً اسنانه :

ـ نعم ، لا .. أجل . الأمر عندنا نفس الشيء تماماً .. اتعرف مـاذا ؟

ـ قال فجأة وهو يدير عينيه الكبيرتين : ـ في المانيا يهتمون كثيراً ببوانكاريه الذي يزور القيصر !

فدمدم راب :

ـ صحيح ! .. بالحقيقة ليست هي اللحظة المناسبة . اننا نبدو بنظر العالم كله اننا نريد إعطاء الجامعة السلافية تشجيعاً رسميا .

ولاحظ جاك :

ـ وخصوصاً عندما تقرأ صحفنا : فالتعليقات التي قامت بهـا الصحافة الفرنسية على هذه الرحلة كانت ذات لهجة تحدٍ لا تحتمل.

وتابـع تاتزلر :

ـ اتعرف ماذا ؟ .. إن وجود فيفياني وزير الخارجية هو الذي دعا إلى التفكير بانهم سيتحدثون دبلوماسياً في بطرسبورج ضد النزعة الجرمانية. وعندنا يعلمون جيداً ان روسيا هي التي اجبرت فرنسا على إقرار قانون الثلاث سنوات خدمة عسكرية . لأي هدف ؟ .. الجامعة السلافية تهدد المانيا والنمسا اكثر فأكثر .

وقال ميلانوف الذي دخل وجلس بالقرب من جاك :

ـ ومع ذلك فالامر في روسيا سيء . والصحف هنا لا تذكر شيئاً تقريباً بصدد ذلك. ولكن برازنوفسكي وصل من عندنا وهو يحمل معلومات. لقد انطلق

الاضراب من معامل بوتيلوف وليمتد بسرعة . أول البارحة ، نهار الجمعة ، كان عدد المضربين في بطرسبورج وحدها خمسة وستين ألفاً ! وهناك حرب شوارع! وقد أطلق البوليس النار وقتل كثيرين ! حتى النساء والفتيات !

وظهر طيف جني ببزتها الزرقاء واختفى أمام عيني جاك . ولكي يتكلم، ولكي يطرد الصورة المشوشة قال سائلاً الروسي : هل برازنوفسكي هنا ؟

– لقد وصل هذا الصباح. وهو مختلٍ منذ ساعة مع المعلم .. وأنا انتظره.. أتريد ان تنتظره أيضاً ؟

فقال جاك : كلا .

وشعر أنه محموم ، وعاوده قلقه . وبقاؤه جامداً ، في هذه المحششة يكرر نفس الأسئلة دائماً بداله غير محتمل . « قد تأخر الوقت ويجب ان اذهب » .

ولكن الليل والوحدة في الخارج ظهرا له أكثر إيلاماً من الاختلاط بالرفاق. فأسرع الخطى وسار باتجـــاه فندقه . كان يسكن في زاوية شارع البرنارديين ورصيف التورنيل ، في الناحية الاخرى من السين ، بالقرب من ساحة موبير ، في بيت ذي غرف مفروشة يديره اشتراكي بلجيكي ، وهو صديق قديم لفانهيد . واجتاز جلبة القاعات الليلية دون نظرة انتباه ! ثم ساحة قصر البلدية الفسيحة الصامتة . وكانت الساعة تشير إلى الثانية والربع . انها ساعة الالتباس حيث الرجال والنساء المتأخرون ليلاً يتشامون كالكلاب والكلبات عندمـا تتلاقى دروبهم ..

كان يشعر بالحر والعطش . البارات كلها مقفلة . فمشى على طول الرصيف منخفض الرأس ثقيل القدمين مسرعاً نحو النوم والنسيان . وهناك كانت جني تسهر دون شك عند سرير والدها . وامتنع عن التفكير بها . وتمتم :

– غداً ، في مثل هذه الساعة سأكون بعيداً .

وصعد الدرج تحسساً في الظلام ، وانتهى إلى ان وجـــد غرفته ، وشرب جرعة كبيرة فاترة من إناء المـــاء . وخلع ملابسه دون ان يستعجل في اشعال شمعته ، والقى بنفسه على عرض السرير ، ونجح في النوم على الأثر .

٢٠

إن العملية التي جرت بحضور انطوان لم يكن من الممكن أن تكون كاملة . فقد وسع هيكيه الجرح ، وازال العظام المكسورة حيث انغرزت الشظايا بشكل عميق في المادة الدماغية . وكان قد عزم على محاولة ثقب القحف ، ولكن حالة المريض لم تكن تسمح باطالة التنقيبات . واضطر الطبيب إلى الكف عن محاولة إيجاد الرصاصة .

كانا متفقين على إخبار مدام دي فونتانان . وكانا يؤكدان – ولم يكن هذا غير صحيح – إن العملية أعطت المريض حظاً في الحياة ؛ وإذا تحسنت الشروط فسيصبح البحث عن الرصاصة واستخراجها ممكناً (أما ما لم يبوحا به فهو مقدار شكهما بهذا الحظ) .

كانت الساعة قد بلغت الثانية حين عزم هيكيه وزوجته على ترك العيادة . وكانت مدام دي فونتانان قد ألحت على نيكول أن تعود إلى بيتها مع زوجها . وكان جيروم قد نقل إلى غرفة في الطابق الثاني . وكانت ممرضة تسهر عليه .

ولكي لا يترك انطوان المرأتين وحدهما ، فقد عرض ان يقضي الليل هناك. وقد جنح الثلاثة إلى الصالون الصغير المجاور للغرفة . وكانت الأبواب والنوافذ مفتوحة ، ويسيطر حولهم ذلك الصمت الظلامي العكر لبيوت الألم . ويُدرك إن وراء كل حاجز جسداً متألماً يتحرك ويتأوه ، ويعد الساعات دون ان يجد راحة .

كانت جني جالسة ، منتحية جانباً ، على الكنبة التي تشغل داخل الغرفة. اليدان متصالبتان على تنورتها ، ونصفها الأعلى متشدد ، والرقبة مستندة . وقد اغمضت عينيها وبدت نائمة .

وأدنت مدام دي فونتانان مقعدها من مقعد انطوان . لم تكن قد رأته منذ أكثر من سنة . ومع ذلك فان تفكيرها الأول ، عندما علمت بالانتحار ، كان

في ان تلتجيء إلى الدكتور تيبو . وقد جاء . وكان هنـــاك لدى أول نداء ، كما هو دائماً ، نشيطاً ومخلصا .

وقالت فجأة :

– لم ألتق بك منذ وفاة والدك . لقد امضيت لحظات مؤلمة كما أعـــلم .. وفكرت بك كثيراً ، وصليت لأجل والدك .

وصمتت . وتذكرت زيارتها الوحيدة للسيد تيبو اثناء هرب الولدين . كم بدا قاسيا ظالما ! .. وتمتمت :

– ليرتح بسلام في دار الخلود ..

ولم يجب انطوان . وساد صمت .

والثريا التي كانت الحشرات تحوم حولها كانت تغمر بنور شديد فخامـة الاثاث المزيفة ، ونمش المقاعد الحلزوني المذهب ،والفرسة الخضراء الذابلة المحاطة بشريط والموجودة على منتصف الطاولة في إناء من الخزف الصيني الأزرق . وبين لحظة واخرى كـــان جرس مكبوت يهتز اهتزازاً خفيفا في نهاية الرواق ، فتسمع عندئذ خطوة ممرضة تنزلق على البلاط ، ثم باب يفتح ويغلق بهدوء ، واحيانا يُحس بأنةٍ بعيدة ، ورنين وعاء بورسلين ، ويصمت كل شيء من جديد .

وكانت مدام دي فونتانان المنحنية نحو انطوان تحجب بيدهـــا الصغيرة السمينة عينيها المتعبتين اللتين كان النور يحرقهما .

وأخذت تتحدث عن جيروم بصوت منخفض ، موضحة بعبارات مفككة ما كانت تعرفه من قضايا زوجها المعقدة . لم يكن لديها أي جهد تبذله لتفكر بصوت مرتفع : كانت تشعر دائما بثقة بالقرب من انطوان .

وكان هو أيضا منحنيا يصغي . ويرفع جبهته بين وقت وآخر . وعندئذ يتبادلان نظرةَ تفاهم ، ملأى بالوقار ، وكان يقول لنفسه : « كم هي عـلى خير حال ! » وكان مسروراً من هـــذا الهدوء ، من هذه الرصانة في الألم ، وأيضا من تلك الفتنة الطبيعية التي لم تنقطع عن الامتزاج بفضائله الرجولية .

وكان يفكر : « لم يكن ابي سوى بورجوازي . اما هي ، فمن النبلاء ».

الا ان كلمة واحدة من اقوالها لم تفته. وكان يعيد شيئاً فشيئاً إنشاء مراحل ذلك الطريق المغامر الذي قاد فونتانان الى الموت .

كان جيروم ، منذ ثمانية عشر شهراً تقريبـــاً ، في خدمة شركة انكليزية مركزها في لندن وتستثمر غـــابات في هنغاريا . وكانت الشركة ذات شأن . وحقيقة القول انها لم تكن تتبين جلياً ما هي اختصاصات جيروم . فـــالقسم الاكبر من وقته كان يمضي في النوم بين فيينا ولندن، مع توقف قصير في باريس، اذن كان يأتي لتمضية امسيةٍ في شارع الاوبسرفاتوار، حاملاً معه محفظة محشوة بالاوراق، بهيئة رزينة ولكنها تفيض بالرضى والبشاشة والتظرف ، غامراً اهل بيته بالمجاملات التي كانت تبقيهم تحت سحر فتنته . (اما ما لم تقـــله المرأة المسكينة فهو ان هناك دلائل متنوعة جعلتها تؤكد ان زوجها يتعهد علاقـات تكلف غالياً، واحدة في النمسا والاخرى في انكلترا). وعلى كل حال فقد بدا انه يربح معيشته بسهولة ، وجعلهم يفهمون ايضاً ان وضعيته سوف تتحسن ايضاً وانه سوف يستطيع المساعدة عن سعة في حاجات زوجته وابنته . لان مدام دي فونتانان وجني في هذه السنوات الاخيرة كانتا تعيشان على عاتق دانيـــال (عندما لفظت مدام دي فونتانان هذا الاعتراف كانت تكافح بشكل ظاهر بين الخجل من اتهام لامبالاة زوجها ، والكبرياء في الكشف عن تفاني ولدها).

ومن حسن الحظ ان هذا كان يتناول رواتب ملائمة مقابل مساعدته في مجلة لودفيغستون الفنية . وكادت الامور تفسد حين اضطر دانيال الى الذهـاب الى الجيش، ولكن لودفيغستون، وهو شهم متبصر بالامور، تعهد، ليؤمن عودة معاونه حين يسرّح من الخدمه العسكرية ، ان يدفع له اثناء غيابه رواتب شهرية مخفضة، ولكنها منتظمة، بنوع ان مدام دي فونتانان وجني لا يعوزهما الواجب الضروري رغم كل شيء . وكان جيروم لا يجهل شيئاً من كل ذلـك . حتى انه كان يتحدث فيه كثيراً . وبلامبالاته المعتادة كان يقبل بترك معيشة عائلته على عاتق ولده ، ولكنه كان يتطلب ، بكياسة سيدٍ كبير ، ان يُعطى الرقم المضبوط عن المبالغ

المدفوعة ! ولم تكن تفوته فرصة ليعبر عن اعترافه بجميل دانيال . الا انه كان يتظاهر باعتبار هذه المساعـــدة النقدية كسلفة له ، مقبولة من ولده ، وانه سيسددها حالما يستطيع . ولإبراء ذمته كان يفضل الانتظار ، كما كان يقول ، لتصبح هذه المبالغ « عدداً بدون كسر » ! وبكل دقة امسك حساباً يومياً لهذا الدّين فيقدم منه بين وقت وآخر لتيريز ودانيال كشفاً على نسختين ، مطبوعاً على الآلة الكاتبة ؛ وكانت الفوائد المركبة محسوبة بنسبة كريمـة . وبالطريقة البسيطة المجردة التي اعطت فيها مدام دي فونتانان هذه التفاصيل ، كان من المستحيل التمييز اذا كانت مخدوعة بسوء نية جيروم ام لا .

في تلك اللحظة رفع انطوان عينيه والتقى بنظرة جني محدقـة به . نظرة ملأى بالحياة الداخلية ، نظرة ثقيلة من التحفظ والوحـــدة ، بحيث لم يكن يصطدم بها دون شيء من القلق النفسي . ولم يكن قد نسي ابـداً ذلك اليوم البعيد الذي جاء يسأل فيه جني الطفلة عن هرب اخيهـا ، والتقى بهذه النظرة للمرة الاولى .

وفجأة نهضت الفتاة وقالت لأمها :

– اكاد اختنق .

وأمرّت على جبهتها المنديل الصغير الذي كانت تمسكه مكوّراً في تجويف يدها :

– انا ذاهبة الى الحديقة لأتنفس قليلاً .

ووافقت مدام دي فونتانان بحركة من رأسهـا ، وتبعتها بعينيها الى ان اختفت . ثم التفتت من جديد نحو انطوان . ولم تكن غاضبة لأن جني تركتها وحيدين . لا شيء في حكايتها حتى الآن يجعل محاولة الانتحار مشروعة . وكان عليها ان تتناول ايضاحات عسيرة واكثر ايلاماً .

في الشتاء الماضي ، فان جيروم الذي كان قد اقام علاقات في فيينا ، اعار اسمه « بدون تبصر » – ولقبه ، لأنه اصبح في النمسا يدعى الكونت جيروم دي فونتانان – لرئاسة مجلس ادارة اعمال نمساوي ، مصنع ورق مصبوغ أعلن

افلاساً غير مشرّف بعد بضعة اشهر من وجوده. وجرت تصفية الحسابات وعملت المحاكم النمساوية على تحديد المسؤوليات.

وفضلاً عن ذلك تعقدت القضية بدعوى اقامتها ادارة معرض تريستا، حيث كان مصنع الورق المصبوغ قد اشغل في هذا الربيع جناحاً عظيماً فيه لم يدفع بدل ايجاره. وكان جيروم بشكل خاص هو المهتم بهذا المعرض، حتى انه نال من شركته الانكليزية، في حزيران الماضي، اجازة شهر قضاها في تريستا مسروراً. وكان المصنع قد دفع له، في عدة مناسبات، مبالغ كبيرة جداً لم يتوصل كما يبدو ان يبرر استعمالها؛ والقاضي المكلف اتهم الكونت دي فونتانان باقامة المآدب في تريستا على حساب المصنع دون ان يدفع بدل ايجار الجناح. ومهما كان الامر فقد وجد جيروم نفسه عالقاً في القضية كرئيس مجلس ادارة عمل في حالة إفلاس. وقد قيل انه حامل مسؤولية اعمال ضخمة منحت له «عن طيبة خاطر» مقابل الحصول على رئاسته.

كيف عرفت مدام دي فونتانان كل هذه التفاصيل؟ حتى هذا الاسبوع الاخير لم تكن ترتاب بشيء. وكانت قد تلقت رسالة من جيروم، رسالة مشوشة مستعجلة، يرجوها فيها ان تستدين له قرضاً جديداً على دارة ميزون التي هي مالكتها الوحيدة. (والتي كانت مرهونة جزئياً بسببه). وقد استشارت الكاتب العدل فقام بتحقيق سريع في النمسا، وهكذا عرفت مدام دي فونتانان بالملاحقة القضائية المقامة ضد زوجها.

ماذا جرى في هذه الايام الاخيرة؟.. اي حوادث جديدة استطاعت ان تقود جيروم الى هذا العمل اليائس؟ لقد ضاعت مدام دي فونتانان بالتخمينات. وكانت تعلم ان بعض الدائنين في تريستا يهينون زوجها يومياً في صحيفة محلية. فهل ما يكشفون عنه يستند الى اساس؟.. وشعر جيروم ان مستقبله قد تلوث بشكل لا دواء له. وحتى لو توصل الى التفلت من المحاكم فانه لا يستطيع ان يأمل، بعد هذه الفضيحة، ان يحتفظ بمركزه في الشركة الانكليزية.. واعيته الحيل. ولوحق من جميع الجهات، فلم يجد دون شك مخرجاً آخر سوى

الاختفاء .

وكانت مدام دي فونتانان قد سكتت . والنظرة المستفهمة الغامضة التي ألقتها امامها كانت تبدو انها تلقي سؤالاً لا تستطيع صياغته : « هل فعلت لأجله كل ماعلي ان افعله؟هل كان وصل الى هنا لو شعر انني الى جانبه كالسابق؟» سؤال موجع معضل ...

وبذلت جهداً لتمتلك نفسها وقالت :

– وجني ؟.. اخاف ان تأخذ برداً .. وان تنام خارجاً .

فنهض انطوان قائلاً :

– لا تزعجي نفسك . انا ذاهب لأرى .

٢١

لم تكن جني تملك من الشجاعة ما يجعلها تهبط الى الحديقة . كانت تريد فقط ان تهرب من ذلك الصالون ، وتهرب من وجود انطوان .

وخطت بضع خطوات حسب الصدفة ، بمحاذاة الرواق ، مستندة بيدها الى بلاط الجدار الداخلي . ومع ان جميع النوافذ كانت مفتوحة في كل مكان فان الجو ظل خانقاً . ومن غرفة العمليات القائمة تحت كانت هبّات من الاثير ، تتقزز منها النفس ، تتصاعد من الدرج وتمتزج بمجرى الهواء الحار الذي يدور في البيت من اعلى الى اسفل .

كان باب غرفة والدها مفتوحاً قليلاً . وكانت الغرفة مظلمة ، مضاءة فقط بقنديل ليلي وراء ستار . والممرضة تطرز على الكرسي . ويبدو ، بشكل مشوش ، الجسد الساكن تحت الاغطية . والذراعان ممدودان على السرير ، والرأس يرتاح على الوسادة . وكانت الاربطة تغطي الجبهة . والفم نصف مفتوح ويشكل ثقباً اسود يتفلت منه نَفَس خفي ايقاعي .

ورأت جني من فتحة الباب ذلك الفم ، وسمعت تلك الحشرجة بجلاء هادىء ، شبه لامبالٍ ، أخافها هي نفسها . ان والدها على وشك الموت . وكانت

تعرف ذلك ، ورددته دون أن تتوصل الى فصل تلك الفكرة الرهيبة عن اعماق تفكيرها المشوشة : بنظرتها إلى ذلك كحادث واضح واقعي يتعلق بها كانت تشعر انها معقدة قاسية . ومع ذلك فقد كانت تعبد والدها ، رغم عيوبه . وكانت تتذكر زمناً آخر من شبابها حيث وجدت نفسها بجانب سرير والدها ، المريض جدّياً ، وحيث منظر وجهه المشوّه ، المتقلص من الألم كان يعصر قلبها : فكيف استطاعت اليوم ان تكون غير حسّاسة ؟ ... لقد ألزمت نفسها ان تبقى هناك ، واقفة ، متدلية الساقين ، ونظراتها مصوبة على السرير ، جامدة القلب مذنبة ، مصدومة بسبب نشوفتها ، مكافحة ضد رغبتها في تحويل بصرها ونسيان هذه المأساة ... كما لو ان هذا الاحتضار الجاري في غير حينه ، وفي هذا المساء بالضبط ، قد جعلها تفقد آخر حظ لها في ان تكون سعيدة .

واخيراً فصلت كتفها عن اطار النافذة ، باحثة عن شيء من الطراوة ، واقتربت من نافذة الرواق. وكان هناك كرسي فجلست . وصالبت ذراعيها على حاجز الاستناد ، ووضعت ثقل جبهتها على يديها المضمومتين .

كانت تكره جاك ! فقد كان كائناً خسيساً ذا نزوات ، ربما غير مسؤول ... مجنون ..

وتحتها ، في الظلام الحار ، كانت الحديقة تنام دون نأمة وكانت تميز كتل الظلال الدكناء ، والمنعطفات الشاحبة للممرات حول الارض الخضراء . وهناك غرسة إيلنطس Vernis bu Japon تسمم الهواء بعفونتها اللاصقة ، عفونة العقاقير الشرقية . وفيما وراء الاشجار كانت تلمع مصابيح الشارع الموضوعة على أبعاد متساوية ، حيث كانت تتتابع عربات البقول . وكان صفها الذي لا ينتهي يهتز على البلاط محدثاً صرير قهوة تطحن . ومن وقت لآخر يسيطر هدير سيارة على ضجة العربات ؛ نيزك ساطع كان يمر كالزوبعة خلال الاوراق واختفى في الليل .

وتمتم انطوان في اذنها بهدوء :

- لا تنامي هنا .

فارتجفت وكتمت صرخة ، كما لو أنه لمسها .

- اتريدين على الأقل ان آتيك بكنبة ؟ ..

فأتت باشارة سلبية ، ونهضت متشددة وتبعته نحو الصالون الصغير .

وأوضح بصوت منخفض وهو يمشي :

- الحالة لا تسوء . والنبض أفضل . وتدل بعض الظاهرات على أن الخمود أقل عمقاً .

في الصالون كانت مدام دي فونتانان واقفة . وقد جاءت إلى امامها وقالت موجهة الكلام إلى انطوان بحيوية :

- الآن فكرت فقط . كان علي أن اعلم جيمس ! .. القس غريغوري ، صديق ...

وبحنو ذاهل وضعت ذراعها ، وهي تتكلم ، حول كتفي جني ، وجذبت الفتاة نحوها . وتلامس وجهاهما المطبوعان بكآبة مختلفة .

واتى انطوان باشارة تفيد انه تذكر القس جيداً . وجاءته رغبة عنيفة بان يغتنم هذا العذر غير المأمول للهرب ! الخروج من هذه العيادة لمدة ساعة ... حتى انه ربما ركض نحو شارع واغرام .. وقد فرضت صورة آن نفسها عليه : آن النائمة على كرسيها الطويل ، في منزرها الابيض ..

واقترح ، وصوته الخارج من حنجرته كان يشي رغماً عنه بحيوية غير متوقعة .

- الأمر بسيط جداً ! أعطني العنوان ... انا ذاهب .

فاعترضت مدام دي فونتانان :

- ولكنه بعيد جداً ... محطة اوسترليتز ! ..

- سيارتي معي تحت ... وفي الليل نسير بسرعة . وأضاف بشكل طبيعي جداً : - سأغتنم الفرصة لأثب الى البيت وأرى اذا كان لم يطلبني أي مريض منذ مساء البارحة .. سأعود في مدى ساعة ...

وكان قد اصبح في نصف الطريق إلى الباب ، ولم يعد يسمع ارشادات مدام

دي فونتانان وشكرها المؤثر إلاّ بالجهد .

وعندما اختفى لم تستطع منع نفسها من القول :

– كم هو مخلص ! ويا له من حظٍ لنا بالحصول عليه ! .

فتمتمت جني بعد صمت :

– اني اكرهه .

فتطلعت إليها مدام دي فونتانان دون دهشة ، ولم تجب .

وتركت الفتاة في الصالون الصغير وذهبت إلى غرفة جيروم .

كانت الحشرجة قد انقطعت . والتنفس ، وهو يزداد ضعفاً من ساعة إلى ساعة ، يتفلت دون ضجة من الفم المفتوح قليلاً .

واشارت مدام دي فونتانان الى الممرضة بأن لا تتحرك ، وجاءت بصمت تجلس عند ارجل السرير .

كانت دون امل. ولم تكن عيناها تترك الرأس المسكين المعصوب ، وسالت دموع على خديها لم تشعر بها .

كانت تفكر دون أن تنقل بصرها :

– ما اجمله !

تحت تلك العمامة من القطن والقماش الابيض ، والتي تغطي خصلات الشعر الفضية وتشي بالرقة الشرقية في الوجه الجانبي ، فان تلك القسمات الجامدة ، الرجولية الأنيقة معاً ، تعيد إلى الاذهان قناع الموت لفرعون شاب ، لأن انتفاخاً في اللحم يكاد لا يرى قد محا الذبول والغضون ، وفي ظلام الغرفة النصفي كان الوجه يبدو كأنه جدد شبابه باعجوبة . والخدان الأملسان كانا يتقوسان تحت نتوء الوجنات ، حتى انحناء الذقن الثابت . كانت الاربطة تسحب جلد الجبهة قليلاً وتمدد خط الجفون المطبقة نحو الصدغين · والشفتان الساخنتان قليلاً بسبب البنج تشكلان انتفاخاً شهوانياً . كان جميلاً كما كان

في زمان شبابها ، حين كانت تستيقظ اولاً في الصباح وتنحني نحوه، وتنظر اليه وهو نائم .

وبدون ان تستطيع اشباع يأسها ولا حنوها ، كانت تتأمل من خلال الدموع ما بقي من جيروم : ما بقي من حب حياتها الكبير الوحيد .

جيروم في الثلاثين من سنه ... كان واقفاً امامها برشاقته التي تشبه رشاقة الهر ، وقامته المتقوسة ، وصبغته البرونزية الفاتحة ، وابتسامته ، ونظرته الرقيقة ... وكانت تقول آنذاك : « اميري الهندي ! » ، فخورة لأنها محبوبة ! كانت تسمع ضحكته،وهذه الاشارات الثلاث : « هه ! هه هه ! » التي كان يكررها قالباً عنقه ... ومرحه ، ومزاجه الرائق الدائم ...ومرحه الكذوب ! لأنه كان يعيش في الكذب ، كما في عنصر طبيعي : كذبة لاهية ، لامبالية ، لا يمكن اصلاحها .

جيروم .. كل ما عرفته حياتها من الحب كامرأة ، انه هنا ، على هذا السرير ... هي التي قالت منذ كثير من السنين ان حياتها الغرامية كانت تامة ! . وهي التي كانت تدرك انها لن تنقطع عن الامل ... ولكن الآن ، في هذه الليلة فقط ، سينتهي كل شيء إلى الأبد .

وخبأت وجهها بيديها .واستغاثت « بالروح » . على غير طائل . قلبها منتفخ بتأثرٍ انساني جداً . وشعرت بان الله تخلى عنها . وتُركتْ إلى حسرة دنسة ؛ ومما يدعو الى الخجل ان تفكيرها المغلوب يعمل على بعث آخر تذكار غرامي رغماً عنها ... في ميزون ... في تلك الدارة في ميزون ـ لافيت . حيث جاءت بجيروم من امستردام بعد موت نويمي . . . ذات ليلة اتى إلى عرفتها بخضوع طالباً الصفح ... كان بحاجة إلى شفقة ، إلى ملاطفة ، وقد تلبد بجانبها في الظلام ، وأخذته بين ذراعيها ، وضمته اليها ، كطفل ، في ليلة صيفٍ شبيهة بهذه .النافذة مفتوحة على الغاب...وبعدذلك، ظلت ساهرةعليه حتى الصباح دون ان تستطيع الإغفاء ، وقد احتفظت به في احضانها ، نائماً كطفل ... ليلة صيف حارة ، عذبة شبيهة بهذه .

ورفعت مدام دي فونتانان رأسها فجأة . وقرىء شيء من البحران في نظرتها .. غيرة نفورة ومجنونة : طرد هذه المرضة ، والتمدد هناك ، بجانبه ، وابقاؤه مرة اخيرة مضموماً اليها ، راكناً إلى حرارتها ؛ وما دام يجب ان ينام إلى الابد فلتنيمه هي نفسها للمرة الاخيرة .. « كطفل .. كطفلي .. »

على الغطاء أمامها كانت ترتاح اليد العصبية شبيهة بيد مصبوبة في قالب ، جميلة الخط حيث اليشب Sardoine العريض للبنصر يشكل بقعة داكنة . واليد اليمنى ، اليد التي تجرأت ، التي رفعت السلاح . وقالت لنفسها بائسة : « لماذا لم اكن بقربك ؟ » الا يمكن أن يكون ناداها في قلبه قبل ان يرفع تلك اليد نحو صدغه ؟ .. لم يكن ليقوم بهذه الحركة أبداً لو كانت في تلك الساعة من الضعف لا تزال إلى جانبه ، في ذلك المكان الذي عينه الله لحياتها الأرضية كلها ، ولم يكن لأية إهانة ان تسمح لها بتركه .

وأغمضت عينيها . ومضت بضع دقائق . واستعادت مناخ روحها بشكل لاشعوري . وحين طردت الذكريات فان توبيخ الضمير جاءها بالهدوء الديني . وشعرت من جديد بتوطيد ذلك الاتحاد مع القوى الكونية التي أصبحت بالنسبة اليها تعزية ثابتة لا غنى عنها . ونظرت بشكل مختلف ، إلى تلك التجربة التي أرادها الله . وراء المصيبة التي انصبت عليها وأبقتها منحنية تحت الصدمة ، كانت تحاول الآن معرفة **الضرورة** العليا السرّية ، قانون التصميم الالهي ؛ وشعرت انها اقتربت اخيراً من مناطق مشرقة .. من ذلك **السلام** في التنازل والتخلية الذي هو نهاية كل عذاب للمخلوقات المختارة .

وتمتمت وهي تضم يديها :

— لتكن مشيئتك .

٢٢

السيارة ، وزجاجها مسدل ، كانت تسير بسرعة خلال مدينة غير مأهولة ورنانة ، حيث استسلم فيها ليل الصيف القصير لهجمة من النهار .

وانطوان جالس في وسط المقعد ، متباعد الساقين والذراعين، والسيكارة في شفتيه ، وكان يفكر . وكما هو الأمر دائماً ، فان التعب الناتج عن الارق لم يكن ليصرعه ، بل ينمي فيه حمى مرحة .

وتمتم وهو يمر أمـــام ساعة ساحة بيرير : « الساعة الثالثة والنصف . وفي الساعة الرابعة أكون قد أيقظت قسّي المسوس وأرسلته إلى العيادة ، وأكون حراً .. **والآخر** ، من الممكن ان يموت اثناء غيابي .. ولكن هناك حظ ليبقى أربعاً وعشرين ساعة .. » كان ضميره مرتاحاً،وقد قال لنفسه متذكراً الادوار المتنوعة للعملية : « لقد حاولنا عمل كل ما هو ممكن » . ثم تذكر وصول جني وقد اجتذبته هذه العودة إلى الوراء ، والأمسية مع جاك ، بعد هذه الساعات القليلة من العمل المهني بدت له المناقشات مع اخيه كثيرة العبث .

« انا طبيب : عندي عمل أقوم به وقد قمت به . ماذا يريدون أكثر من ذلك ؟ » .

والضمير هنا يعود إلى جاك الذي لم يكن يفعل شيئاً ، لا يقوم بأي عمل . لا شيء سوى التململ، والكلام في الفراغ ، ووراء جاك تلك القبيلة من المحرضين الثوريين حيث خيل اليه البارحة انه يسمع جلبة الشغب .

« اللامساواة ، الظلم ؟ .. بالتأكيد ! إذن ماذا يعتقدون انهم اخترعوا ؟ ماذا يستطاع ؟ إن المدنية الحالية هي عطية ، واسم الرب ! **عطية** .. أجل ، لننطلق من هنا . لماذا يعاد النظر بكل شيء ؟ - وتابع بصوت منخفض : — ثورتهم عجينة جميلة يعدونها لنا ! كل شيء يقع على الأرض للبدء بكل شيء من جديد ، كما يفعل الأولاد الذين يلعبون بالمكعبات ! حمقى ! قوموا اذن بعملكم بكل بساطة ! .. بدلاً من ان تنتحبوا على عدم كمال المجتمع وتأبوا عليه مساعدتكم ، ، فمن الأفضل لكم ان تتعلقوا بما هو موجود ، بمحيطكم ، بزمنكم ، كما هم ، وان تعملوا بشجاعة مثلنا ! وبدلاً من ان تتآمروا على احداث انقلابات تظل حسنتها موضع ريبة ، ان تستعملوا حياتكم القصيرة كرجال ، للقيام ، نسبياً وبشكل مفيد ، بأفضل مهمة ممكنة في دائرتكم المتواضعة » .

كان راضياً عما قاله . وأضاف كأنه يعقد اتفاقا نهائيا : « هـذا هو الأمر أيها السادة ! » .

وتابع بغضب متزايد : « كقضية الإرث تلك . فالآن ان الحصول على ثروة يعني الحصول على حياة « ترتكز على استغلال الغير .. » الاحمق ! انا لا ادافع عن مبدأ انتقال الإرث .. كلا ، بالتأكيد ، لا ادافع عنه .. فانا أعلم أفضـل منك ما يمكن ان يقال عن ذلك .. ولكن ما دام الأمر الآن هكذا ! ومـا دامت هذه هي شروط الحياة التي صنعت لنا ! فماذا يستطاع ؟ .. »

وفكر ، مبتسماً من نفسه : « والآن ضد ماذا يجب ان اجادل ؟ .. ابدو انني اتمرد ضد ما أريد ان أدافع عنه .. »

ولكنه قفز على الأثر كما لو أنه يريد ان يقنع أحد المحدثين : « الا اني اصر على ان نتائج الإرث ممتازة في اغلب الاحيان .. وقد تأكدت مئـة مرة ان الثروة الموروثة هي التي تجعل تحقيق حياة جميلة ممكناً ، في تسع مرات من عشر .. أريد ان أقول : حياة نافعة ، مفيدة للجماعة البشرية » .

وقال وهو يصالب ذراعيه :

– هل عدم كون المرء فقيراً يعد جريمة الآن ؟ ..

وشعر شعوراً غامضاً انه يغش الآن . فالمسألة الواضحة التي كان ضميره يطرحها في هذه اللحظة هي هذه : « هل تعد جريمة أن يكون المرء غنياً دون أن يكسب تلك الثروة بتعبه ؟ .. » ولكنه لم يتوقف عند هذه الفروق ، وبرجفة كتفين هز تلك الفكرة الصغيرة الغادرة كمن يريد أن يلقيها أرضاً .

« حين كتب إلي في هذا الشتاء : « لا اريد الانتفاع بهـذا الميراث .. » الأبله ! .. « انتفاع ! » هل سيلومونني الآن لأنني « انتفعت » ، انا ؟ .. من اذن ، في نهاية الحساب ، « سينتفع » من اعادة تنظيم حياتي المهنية ، من أشغالنا؟ هل انا ؟ – قال مسلماً بأمانة : – نعم ، انا . ولكني اريد القول : هل سأكون وحدي « المنتفع » من ذلك .. وثم ، بعد فحص الأمر من كل وجوهه ، حين اكون كما انا ، الا اكون قد خدمت ايضاً مصلحتي الشخصية حين اشتغل للمصلحة

العامة بشكل أفضل ؟ .. »

واجتازت السيارة السين . النهر ، الارصفة ، منظر الجسور التي تسبح في بخار وردي . وألقى عقب سيكارته من النافذة ، وأشعل سيكارة اخرى، وتابع بضحكة صغيرة راضية :

« تبدو لي احمق اكثر مما تظن ، لقد ولدت بورجوازياً يا صغيري ، كما انك ولدت اشقر ! لقد اسمر شعرك ولكن الانعكاسات تظل شقراء ولن تستطيع شيئاً .. غرائزك الثورية ؟ .. لا أؤمن بها الا نصف ايمان .. وراثتك ، تربيتك حتى اذواقك العميقة ،تكبلك إلى موضع آخر .. انتظر قليلاً : في سن الاربعين ربما تصبح اكثر بورجوازية مني ! » .

وخففت السيارة سيرها . وكان فكتور يحني نصفه الأعلى ليحاول قراءة الأرقام . واخيراً وقفت السيارة أمام سياج حديدي .

وفكر انطوان وهو يفتح باب السيارة : « رغم كل شيء ، وحتى كما هو ، فاني احبه » .

وأخذ الآن يلوم نفسه لعدم اظهاره ، بصورة أفضل ، السرور الذي سببته زيارة اخيه له ، وذلك بطريقة استقباله .

٢٣

كان القس غريغوري يسكن منذ سنة في بنسيون حقير في حي جان دارك ، في داخل قسم من المدينة يسكنه فقط عمال أرمن كان يبشرهم بالانجيل .

وبذل انطوان جهداً لإيقاظ الحارس الليلي ، وهو شرقي مقمّـل ، كان ينام بملابسه على مقعد صغير في رواق البيت .

— نعم يا سيدي . القس غريغوري ، نعم . تعال معي يا سيدي ..

كانت الغرفة التي يشغلها رجل الدين في الطابق الرابع . وقد أثار تموز في هذا البيت غير المرتب ، المحتشد بالسكان، نتانة أوعية الأقذار ورشوحات الماء

التي تذكر بالعفونة الحادة للأزقة العربية [1] .

وعلى اثر الطرقة الخفيفة التي أحدثها الحارس على الباب وثب غريغوري من سريره .

وأكد انطوان : « نوم ذو خفة روحية محضة » .

وانزلق المزلاج من رزّاته وظهر القس حاملاً بيده سراجاً ينار بالبترول .

كان المنظر غير منتظر فقد كان غريغوري ينام مرتدياً قميصاً محتشماً يسقط حتى قدميه ، وبما انه لم يكن يتوصل إلى النوم إلا بعد ان يضغط على كبده ، فقد حزم خصره بعصابة من الفانيــــلا السمراء نفخت اسفل القميص كالتنورة . وهو عاري القدمين ، بصبغة كصبغة الطيف ، وهزاله ، وشعره المشعث ، ونظرته غير العادية ، كل هذا يبعث على التفكير بأحد سحرة الف ليلة وليلة .

ومن كلمات انطوان الأولى – الذي لم يعرفه أولاً – فهم كل شيء . وبدون ان يجيب ، بدون ان يضيع دقيقة واحدة ، بينما ظل انطوان واقفاً على العتبة يكمل إخباره بالحادث ، كان قد عقد طرف زناره بجديد سريره . ولكي يحل امتاره الأربعة من الفانيلا أخذ يدور على نفسه كالخذروف ، بسرعة أخذت تزداد .

وبذل انطوان جهداً ليحتفظ برصانته ، وكان يشرح تدخل الطبيب الجراح ، وصعوبة استخراج القذيفة .

واعترض الدرويش الدائر بصوت لاهث :

– هو ! هو ! أنس هذا المسدس ! ودع ، دع الرصاصة ! إن إرادة الحيـــاة هي التي يجب بعثها !

---

١ – قال شاعرنا فؤاد الخطيب رداً على احد شاتمي العرب من الاتراك :

الا ترى في الفتى التركي من شيم تركية محضـــة الا اذا شتما ؟

ويبدو ان لهذا التركي زملاء في فرنسا . « المعرب »

كان يكثر الحركات وهو يتكلم ، ويجيل نظرات مستاءة . واخيراً ، وقد تخلص من زناره ، ادنى من انطوان وجهه ذا الزوايا ، غير المتناسق ، حيث الحاجبان منجذبان دون انقطاع بواسطة التشنجات العضلية . ثم انفجر بضحكة صامتة ، داخلية ، وهتف بنبرة ذات رأفة :

– يا عزيزي الدكتور المسكين ، الملتحي في السابق ، تعتقد انك تشفي وأنتم الذين تخلقون المرض . أيها المجدّفون ، لأنكم تتنبأون ان المرض موجود.. كلا ! أقول لكم : **يجب ان تفسحوا المجال لادخال النور !** المسيح هو الطبيب الوحيد ! من الذي شفى أليعازر ؟ .. اتستطيع ان تشفي أليعازر أيها الدكتور المسكين الظلامي ؟ ..

كان انطوان يلهو ، ولكنه ظل غير متأثر . ومما لا شك فيه ان الآخر شاهد وميضاً لاإرادياً من المكر في نظرة الطبيب ، لأنه عبس وأدار له ظهره فجأة . نصفه الأعلى عار ، والقميص كالحلقة حول الخصر ، وكان يروح ويجيء من زاوية الى اخرى في الغرفة ، باحثاً عن ملابسه الداخلية التي يرتديها في النهار وعن ملابسه الخارجية .

وكان انطوان واقفاً ينتظر بصمت ، ودمدم غريغوري عند الحاجز ونصفه الأعلى منحن لينتعل جوربيه :

– الإنسان إلهي ! كان المسيح يعرف في قلبه انه إلهي ! وأنا نفس الشيء ! وهكذا كلنا ! الإنسان إلهي ! – وأدخل قدميه في حذاء ضخم أسود كان شريطه قد بقي مربوطاً ولكن ذلك الذي قال : « القانون يُقتل » فقد ُقتل بواسطة القانون ! المسيح قتل بواسطة القانون ، والانسان احتفظ فقط في ذهنه برسالة القانون . ما من كنيسة واحدة موجودة ، مؤسسة على المبدأ الحقيقي للمسيح . جميع الكنائس مؤسسة فقط على رمز المسيح .

ودون ان يقطع مناجاته كان يتحرك في جميع الجهات بخفة العصبيين الكبار المفرطة الخرقاء .

– الله هو الكل بالكل ! الله ! المبعث الأسمى للنور والحرارة .

وبحركة حقود فك بنطلونه المعلق بالمشجب ، وكان لكل حركة من حركاته فورة تفريغ كهربائي . وكرر هازاً صوته ، لأنه كان قد استدار نحو الجدار ليزرر مقدم بنطلونه :

– الله هو الكل !

وما ان انتهى حتى دار ليقذف انطوان بنظرة تحد متجهمة . وقال بجزم :

– الله هو الكل. ولا يوجد شر في الله ! وأقول يا عزيزي الدكتور المسكين، لا يوجد أية ذرة صغيرة واحدة من الشر ولا من المكر في **الكل** الكوني !

وارتدى سترته من الألباكه [1] L'alpaga السوداء ، واعتمر لبّادة صغيرة مضحكة ذات حافة مفتولة . وبنبرة غير متوقعة ، فرحة تقريباً ، كما لو أنه كان شديد السرور لشعوره بارتداء ثيابه ، قذف نحو السقف ، وهو يلمس قبعته بأدب ، قوله :

– الحمد لله ! [2]

ثم خفض نحو انطوان نظراً غائباً ، وتمتم فجأة :

– مسكينة ، مسكينة السيدة العزيزة تيريز .

وكانت دموع تلمع في عينيه . ويبدو فقط انه يعي مأساة العائلة التي جاءت بأنطوان اليه . وتأوه :

– العزيز جيروم المسكين . أيها القلب المسكين الكسول، اذن فقد غلبت ، اذن فقد استسلمت ؟ .. ألم تعرف كيف تبعد السلبي عنك ؟ .. اوه أيها المسيح اعطه القوة ليبعد أعمال الظلمات ويتقلد سلاح النور مـــن جديد ! .. أنا آت اليك ايها الخاطىء ! انا امشي نحوك .

وقال مقترباً من انطوان :

– تعال ، سر بي اليه .

---

١ – الالباكه : قماش صوفي مصنوع من وبر الالباغا ، وهو حيوان من نوع اللاما .
٢ – بالانكليزية في الاصل .

وقبل ان يطفىء مصباحه أولع فتيلاً سحبه من شق سترته . ثم فتح باب سطح الدرج : وقال : هيا !

وأطاع انطوان . ولكي ينير غريغوري الدرجات رفع الشعلة بطرف ذراعه الممتد .

– المسيح قال : « ارفعوا المصباح عالياً على العمود ليعطي الجميع النور ! » ان المسيح هو الذي ينير فينا المصباح ! المصباح المسكين الذي يشعل منخفضاً في أغلب الأحيان ، والذي يرتجف ، ويقذف دخاناً لاذعـــاً .. بائسة ، مادة بائسة ! مساكين نحن ! لنصلّ للمسيح ليظل اللهب ضيقاً وساطعاً ، لكي يطرد المادة في ظلمات الظلمات !

وبينما كان انطوان المتعلق بالدرابزين يهبط طوابق الدرج الضيق ، كان القس مستمراً في الهمهمة ، بنبرة تمزيم ، بصوت يتزايد إبهامه ، بعبارات فيها كلمات « مادة » و « ظلمات » كانت تعود بهيجان شرس .

وأوضح انطوان حين أصبحا في فناء البيت :

– سيارتي معي . ستذهب بك إلى العيادة – وأضاف : – أما انا فسألحق بك في مدى ساعة ..

فلم يعترض غريغوري بشيء . ولكن قبل ان يصعد إلى السيارة القى على رفيقه نظرة معينة ، نظرة ثابتة شعر انطوان منها بالاحمرار ، وقال لنفسه : « ومع ذلك لا يستطيع ان يعرف إلى اين انا ذاهب » .

وبراحة فائقة الوصف تبع بعينيه السيارة التي كانت تبتعد في شحوب الفجر .

كانت نسمة خفيفة ترتفع من ناحية الشارع ، ويجب ان تكون قد أمطرت في مكان آخر . وانطوان المسرور كتلميذ خرج من الحجز ، ركض حتى ساحة فالهوبير ، ووثب إلى سيارة اجرة : – شارع واغرام !

وأدرك فجأة ، وهو في العربة ، انه كان تعباً ، ولكن من ذلك التعب

الموهن الذي يسوط الرغبة .

وأوقف السائق على مسافة خمسين متراً من البيت، ووضع رجله على الأرض بنشاط ، وبلغ الزقاق المسدود وفتح الباب دون ضجة .

وتالقت أساريره منذ العتبة : عطر آن .. عطر مثير ، صمغي اكثر منه زهري ، ساكن وكثيف ، يتغلغل حتى الحنجرة ، انه أكثر من عطر : غذاء اريجي . كان يحبه . وقال لنفسه مفكراً بتشنج عنيف ، بعقد العنبر الذي كانت تحمله راشيل :

– انا مكرَّس للعطور المسكرة .

وباحتراس لص داخل إلى غرفة الحمام التي ملأها النهار الطالع بنور حليبي . وهناك خلع ملابسه بسرعة ، وغمر نفسه بالبرودة باسفنجة كبيرة عصرها على رقبته وهو واقف في المغطس . وكان الماء على جسده الداخن يتبخر كأنه على معدن محمي . وانساب كل تعبه منه بلذة . وانحنى وشرب من نفس الماء المثلوج، ثم دخل إلى الغرفة بخفة هر .

كانت الأرض تبعث تثاؤباً رخيما ، خفيفاً جداً ذكره بوجود فيلو . وشعر على كعبيه بمداعبة حلقوم رطب ذي اذن حريرية .

وكانت الستائر مسدلة ، ومصباح السرير ينشر في الغرفة نوراً كنور الفجر ، بذلك اللون الوردي الذي أحبه انطوان قبل ساعة وهو يجتاز الجسور . وفي السرير الكبير ، كانت آن تنام وقد دارت نحو الجدار ، ورأسها ملقى في تجويف ذراعها العاري . وكانت صحف ازياء متناثرة على الطنفسة . وعلى المنضدة الصغيرة مرمدة ملأى بسكاير أطفئت من نصفها .

وكان انطوان على حافة السرير يتأمل شعر الرقبة الكثيف ، والكتف وخط الساقين المغزليي الشكل ، الممدودين على الغطاء ، وفكر : «لأول مرة : بدون دفاع» . كان من النادر أن توقظ فيه آن ذلك التأثر الحنون المشفق : ففي أغلب الأحيان لم يكن يفعل شيئاً سوى أن يقبل ، بجذل رياضي ، العاطفة الوثابة التي لا تهدأ والتي تشعر بها نحوه . وأطال هذا الانتظار الشهواني مدة

دقيقة ، مؤخراً اللذة التي كان يشعر بها هنا ، وهو قريب ، والتي لا يستطيع أن يختلسها منه جاك ، ولا جيروم ، ولا أحد في العالم . ثم أن حاجته إلى غمس وجهه في هذا الشعر ، وجذب هذا الظهر اللدن الفاتر إليه ، وقولبة جسده على هذا الجسد ، أصبحت لا تقهر بحيث جمدت ابتسامته . فرفع حافة الغطاء بحذر ، وقد أمسك أنفاسه ، وبحركة متموجة وقوية انزلق ببطء على محاذاتها ، فخنقت صرخة مقتضبة ، صرخة بحّاء ، ودارت بسرعة ، وخرجت من إغفائها لتستيقظ بين ذراعيه .

٢٤

عندما استيقظ جاك في الصباح الباكر كان نشيطاً . وقد قال لنفسه وهو يثب من السرير : « إذا كنت سآخذ قطار الخامسة هذا المساء فليس لدي وقت أضيعه » .

ولكنه ما كاد يقف حتى أدرك أن عقله ليس حراً ، فحوادث السهرة كانت متسلطة عليه .

وارتدى ملابسه بسرعة ونزل ليكلم انطوان هاتفياً .

لم يكن فونتانان قد مات ؛ وربما تمتد حالة الخور الشديد أربعاً وعشرين ساعة أخرى . والحالة لا تسمح بأي أمل .

وأخبر جاك أخاه أنهما لن يريا بعضهما البعض لأنه سيعود إلى سويسرا في اليوم . ثم عاد ودفع أجرة غرفته وراح يضع حقيبته في مستودع حقائب محطة ليون

ظل طول النهار يسرع في إنجاز المساعي التي لا يزال عليه أن يقوم بها قبل رحيله : نصف دزينة من الزيارات ، « رجال تجب رؤيتهم » كان ريشاردلي قد أعطاه عناوينهم .

كانت هناك حركة كبيرة تُعَدُّ في جميع أوساط اليسار لقطع الطريق

على تهديدات الحرب . والاتحاد بين الأحزاب المتنوعة بدا أنه قد تم . وبهذا الصدد كانت الأخبار أكثر من مطمئنة .

إلا أن قلقه لم يفارقه ، فقد كان يستولي عليه منذ أن يصبح وحيداً . وكان يشعر بشعور انحطاط لا يعرف سببه ، وكان يركض خلال باريس محموماً سابحاً بالعرق ، مغيّراً الرأي والاتجاه دون انقطاع ، مقصراً أمد المحادثات ، مقلعاً في آخر لحظة عن زيارة قطع لأجلها مسافة نصف ساعة . الشوارع ، والبيوت ، والمارة ، ورفاقه أنفسهم – كل شيء كان يبدو مشوهاً ، عدائياً . وكان يبدو له أنه يصطدم بحواجز كحيوان سجين . وعدة مرات استولت عليه فجأة وعكة جسدية : يظل عدة ثوان طائشاً ، رطب اليدين ، والصدر مضغوط بكلاّبة . وكان عليه أن يكافح ضد شعور بالخوف فجائي وغير مفهوم ، يقطع نفسه .. وكان يتساءل : « ما بي إذن ؟ » .

في الساعة الرابعة كان قد انتهى من الأكثر ضرورة : أصبح يستطيع الرحيل . وكان فارغ الصبر ليصل إلى جنيف ، وفي الوقت نفسه كان يشعر بخوف مبهم من ترك باريس .

وقال لنفسه فجأة : « لو انتظر قطار الليل يكون لدي الوقت الكافي للمرور على جريدة الإنسانية « الأومانيتيه » و « الهلال » و « التقدم » والذهاب إلى شارع كليشي وجمع بعض المعلومات حول قصة خزائن السلاح تلك ...

(في الساعة السادسة ، مثلاً ، كان ينعقد في حانة في شارع كليشي ، اجتماع نظمه اتحاد النقابات البحرية ، وكان جاك يعلم أنه يلتقي فيه بالرؤساء الذين عليهم في الغد أن يذهبوا إلى بعض المرافىء في الغرب ، حيث تُعَدُّ اضرابات . ولم يكنْ جاك ليغضب إذا التقط بعض الإيضاحات حول هذا الموضوع) . »

هناك فكرة كانت تحزه منذ الصباح : وصول دانيال . من المؤكد أن باستطاعته الرحيل قبل أن يشد على يده . ولكن دانيال سوف يعلم دون

أي شك بوجود جاك في باريس . « لو كنت فقط أستطيع الالتقاء به دون الذهاب إلى العيادة » . وفجأة صمم على أمر : « سأنتظر قطار الليل السريع . وبذهابي إلى نويي Neuilly بعد العشاء فسأرى دانيال : وفي تلك الساعة فإن حظي قليل بالتقائي « بها » ... » .

في الساعة الثامنة والنصف ، وكان أميناً لمخططه ، خرج من مقهى « التقدم » ، وكان يأتي إليه عند كل حادث ، بعد اجتماع شارع كليشي ، فيتوفق بلقاء بورو هناك ، المحرر الذي كان يجمع لصحيفة الإنسانية جميع المعلومات المتعلقة بخزائن السلاح في الغرب .

بقي عليه القيام بتلك الزيارة إلى نويي . وقال ليؤكد عزمه : « غداً سأكون في جنيف » .

وكان يهبط الدرج الصغير الحلزوني الذي يوصل « الأنترسول » بقاعة المقهى ، حين سقطت يد على كتفه :

— إذن أنت في باريس أيها الغلام ؟

كان مورلان ُيعرف حتى في النور الضعيف من صوته المنخفض ولهجته التي هي لهجة أهل الضواحي . كأنه يشبه صورة مسيح هرم أسود ، شعره طويل ، ويرتدي ، في الشتاء كما في الصيف ، بلوزة عامل طباعة .

ومورلان ، في أيام القضية البطولية ، كان قد أسس مجلة معركة ، ُتسحب على آلة ناسخة ، وتنتقل كل أسبوع من يد إلى يد . وعلى أثر ذلك أصبحت مجلة « البيرق » جهازاً ثورياً صغيراً استمر مورلان في إدارتها بمساعدة بعض المعاونين المتساهلين . وكان جاك ، بين وقت وآخر ، يرسل إليه مقالاً نقدياً ، أو ترجمة لمقال أجنبي . وكانت روح المجلة ذات منطق متشدد لم يكن جاك يستقبحه . ومورلان ، باسم مذهب اشتراكي متشدد ، كان يهاجم رسميي الحزب وخصوصاً جماعة جوريس . « الاشتراكيون الانتهازيون » كما كان يدعوهم .

وقد عقد صداقة مع جاك . وكان يحب الشبان ، « الغلمان » ، لأجل حميتهم وصلابتهم . كان دون ثقافة كبيرة ، ولكنه موهوب بذكاء يخالف للرأي العام وثرثار ، حيث لهجته كعاملٍ باريسي قديم تشير إلى السخرية ، وكان يناضل منذ سنوات وحيداً ، وشبه وحيد ، ليجعل مجلته تعيش . وكانوا يخافونه : فقد كان متحصناً بقوة وراء صحة رأيه ، وقوياً بحياة مناضلٍ فقير مكرّسة بكاملها للقضية الثورية ، فيناوش سياسي الحزب دون رحمة ، مشهّراً بأقل خطوة خاطئة لهم ، ناشراً أعمالهم السيئة ، وسهامه تصيب دائماً . وكان الذين يهاجمهم يثأرون منه بأن يشيعوا عنه الإشاعات الأكثر إغضاباً . ففي أحد الأوقات كان يدير حانوتاً للأدب الاشتراكي في ضاحية سان انطوان ؛ وكان أعداؤه يتهمونه بأنه كان يبيع نشرات داعرة . ولم يكن الأمر مستحيلاً . فحياته الخاصة ظلّت مريبة . وفي المسكن الصغير في لاروكيت حيث تستقر مجلة « البيرق » الطاهرة كان يوجــد دائماً رواح ومجيء لفتيات مريبات َبدَوْنَ أنهن اتين كجارات ، من مواخير شارع لاب . وكنّ يحملن إليه حلويات يحبها . ويتحدثن بصوت مرتفع ، ويتشاجرن: ويتوصلن أحياناً إلى الضرب . عندئذ كان المسيح ينهض ، ويضع غليونه ، ويمسك كل واحدة من الهائجات بذراع ويلقيهن على الدرج ويعود إلى الحديث من النقطة التي قطعه فيها .

كان اليوم يبدو مهموماً . ورافق جاك حتى الرصيف . وقال موضحاً وهو يقلب جيبي صدرته السوداء .

— ولا فلس في الصندوق . إذا لم أجد بعض الأوراق النقدية التي تلزمني ، من الآن حتى نهار الخميس ، فان العدد القادم سيظل في الدرج .

فقال جاك :

— ومع ذلك فقد رأيتك تزيد عدد النسخ المطبوعة .

— المشتركون يكثرون أيها الغلام ! لكنهم لا يدفعون .. هل أُلغي إرسال المجلة إليهم ؟ لن أتردد لو كنت أدير مشروعاً تجارياً . ولكن إلى ماذا

أهدف ؟ إلى الدعاية . إذن ؟ ما العمـــل ؟ الخفف النفقات ؟ أنا نفسي فعلت كل شيء . في البدء كنت أمنح نفسي مئة فرنك بالشهر على الصندوق . ولم أجرؤ أن ألمسها سوى مرة واحدة ، قنابلي المئة .. إني أعيش على فتات الخبز كالمتشرد . وأنا مرهق بالديون . وقد دام ذلك ١٨ سنة ... ولكن لنتكلم جدّياً . ماذا يعتقدون في سويسرا بكل هذه الضجّات السيئة ؟ أما أنا فثعلب عتيق لا يدهشني شيء ... لقد رأيت كل شيء قبلاً . وهذا يذكرني بعام ٨٣ .. لم يكن عمري سوى ٢٠ سنة ولكني كنت اقرأ آنذاك صحيفة « العصيان »، الأولى ، تلك التي كانت تظهر في سويسرا . ألم تعرف أنت صحيفة العصيان ؟ ربما لا تعرف أيضاً أنه في عام ٨٣ فان انكلترا وألمانيـــا والنمسا ورومانيا ، هذه الداعرات الأربع ، أردن الاستفادة من عزلة فرنسا لإعلان حرب أوروبية على روسيـــا .. كانوا يتذرعون بأوهى الأسباب ... ولم يتغير شيء .. الحيل نفسها دائمـــاً .. كان يقال في السابق : وطن ، شرف قومي .. ولكن ماذا تحت ذلك ؟ خصومات صناعية ، حقوق التصدير ، تكتل رجال المال .. لم يتغير شيء باستثناء نقطة واحدة : ليس عندنا كروبوتكين [1] في عام ٨٣ كان كروبوتكين يتحرك كالشيطان .. كان يتناول مصانع الحرب الكبرى كلاً على حدة - أنزان ، كروب ، ارمستروتغ ، وكل هذه الجماعة من الأشقياء — والتي تستأجر صحافة أوروبا الكبرى لإنجاح ضربتها .. ماذا جرى لهم ؟ .. بحثت عن مقالاته .. لم يتغير شيء . سأنشر ثلاثة منها في عددي القادم كروبوتكين ! ستقرأ هذا أيها الغلام : بامكانكم كلكم ان تستفيدوا منه .

كان ذا عين لامعة ، وفتحة فم كمصارع . لم يكن يخطر بباله سوى انه بحاجة إلى ثلاثماية وثمانين فرنكاً ليطبع العدد القادم وليس لديه منها أول سنيتم. وهرب جاك . وقال لنفسه : « يجب ادخال (البيرق) في مخطط العمل

---

١ - بيير كروبوتكين : ثوري روسي ولد في موسكو (١٨٤٢ - ١٩٢١) . رسول الفوضوية . وقد التجأ الى فرنسا ، ثم الى انكلترا . « المعرب »

العام ضد الحرب » .

وعزم على التحدث عنها في جنيف والعمل ما أمكن لإرسال بعض العون المالي الى مورلان .

لم يتناول عشاءه . وقبل أن يذهب إلى البورصة ليأخذ المترو الذاهب إلى شامبيريه ، دخل يأكل « سندويش » في مقهى الهلال . وكان كثير من محرري صحيفة الإنسانية ، متبعين رئيسهم ، قد أختاروا هـذا المقهى – المطعم ، في زاوية شارع مونمارتر .

جوريس في زاويته العادية بقرب النافذة ، يتناول عشاءه مع ثلاثة أصدقاء . وجاك أثناء مروره اتى بحركة تحية . ولكن المعلم ، وهو منحن على صحنه ، لم يكن يرى شيئاً : انه متجهم ، والعنق غارز في كتفيه المستديرين حتى اللحية . كان يدع جيرانه يتكلمون ويأكل طعامه بشراهة ذاهـلة . ومحفظته ، المحفظة الكبيرة المحشوة بالملفات والتي يحملها في كل مكان ، كانت على طرف الطاولة بمتناول يده ؛ وعلى المحفظة تتراكم صحف ونشرات من القطع الوسط . وكان جاك يعلم ان جوريس قارىء لا يتعب . وتـذكرّ قصة رواها أمامـه ستيفاني أول البارحة ، وقد التقطها من ماريوس موتيه . وهذا كان في المدة الاخيرة في رحلة مع جوريس . وقد دهش لرؤيته غارقاً في قراءة .. كتاب في قواعد اللغة الروسية ! وقال له جوريس ، كأنه أمر طبيعي : « ولكن نعم ، يجب الإسراع في تعلم اللغة الروسية . فروسيا ربما كانت على وشك أن تلعب دوراً عظيما في اوروبا ! » .

وجاك الذي كان جالساً بعكس النور كان يلاحظه من بعيد . وقد تساءل: « هل يسمع فقط ما يقوله الآخرون ؟ » لقد كان هذا السؤال قـد ألقي عدة مرات بحضور جوريس . وسكوته كحيوان مجتر – اذا صـدف ان سكت – كان يبدو غير منتبهٍ الا الى توافق موسيقى داخلية . وفجأة رآه جاك يرفـع رأسه ، ويحدب قفص صدره ،ويضع بسرعة منشفته على شفتيه ويتناول الكلام .

والنظر المتلبد تحت الجبهة المنخفضة ، كان يروح ويجيء بحركة حادة . باللحية ، وتجويف الفم المفتوح ، ذي الزاوية المنخفضة ، يبعث على التفكير بصيوان ناقل صوت ؛ وايضاً بالثقب الاسود لأقنعة التراجيديا القديمة . ولم يكن يبدو انه يوجه كلامه الى هذا المدعو او ذاك ، ولكنه يفكر عالياً ، ويتكلم ضد احد الناس ، كرجلٍ عنده الجدل والتفكير متضامنان بقوة، ويرى ان المناقشة وحدها تعطي العقل اندفاعه . ولم تكن تُمَيِّز الكلمات ، لأن جوريس كان يتكلم بصوت منخفض - منخفض على الاقل بقدر ما يسمح له صدره كخطيب. رنان كالطبل – ولكن جاك كان يدرك تماماً ، من خلال ضوضاء القاعة ، الرنة الخاصة لهذا الصوت ! ذلك الطنين ، ذلك الاهتزاز بهدوء ، والشبيه برنين مغارة اوركسترا ، والذي كان يسند تطاير العبارات المغنّاة كأنه يرافقها . وهذا الرنين المعروف كان يوقظ فيه الف تذكار : حمّى الاجتماعات ، المجادلات الخطابية ، خواتيم الكلام المؤثرة ، وهتافات جمهور مجنون . وجوريس ، وقد دفعته بداهته ، دفع صحنه النصف ممتلىء من امامه ، وانحنى الى الامام ، وقدم جبهته كالجاموس الذي سيهجم . ولكي يميز إيقاع العبارات فان يديه المطبقتين الموضوعتين على حافة الطاولة ، كانتا ترتفعان وتسقطان دون عنف ، ولكن برتابة مطرقة عالقة . وحين ترك جاك الغرفة وقد ضايقه الوقت فان جوريس الذي يطرّق الرخام بقبضتيه كان لا يزال يتكلم .

هذه الرؤية المقوّية رفعت من شجاعته ، وشعر بالتأثير المقوّي ايضاً عند وصوله امام سياج شارع بيدنو .

« عيادة برتران ». انها هناك .

كان الوقت ليلاً . فاجتاز جاك الحديقة دون ان يخفف خطواته ، ولكن دون ان يجرؤ على رفع عينيه الى واجهة العمارة .

وقالت له حارسة البيت العجوز ، بصوت مرتجف ، ان السيد المسكين لا يزال يعيش ، وان ولده قد جاء في نهاية بعد الظهر . فرجاها جاك ان تذهب في طلب دانيال . ولكن العجوز التي كانت آنذاك وحدها في المسكن ، لم تكن

تستطيع التغيب . وقالت :

– ممرضة الطابق ستذهب وتنبئه . ليس عليك الا ان تصعد الى الطابق الثاني .

واضطر ان يحزم امره بعد تردد قصير .

لا يوجد احد على سطح درج الطابق الاول : رواق طويل ابيض ، مضاء هادىء ، صامت . وفي الطابق الثاني نفس الصمت. ونفس الرواق المليء بالنور ، لا ينتهي ومقفر . كان يجب ايجاد المرضة . فانتظر بضع دقائق ، ثم دخل البهو . وكان يشعر ليس بالقلق . بالعكس ، بنوع من الفضول الذي يدفعه بجرأة نحو المجازفة .

ولم يكن قد شاهد خيالاً جالساً ، مختفياً في زاوية نافذة ، وحين اقترب التفت الخيال ونهض بسرعة . انها جني .

هل كان ينتظر هذا اللقاء ؟ وقد قال لنفسه بدون دهشة : « ها نحن نلتقي ». ولاحظ على الاثر : « انها اليوم عارية الرأس ... كما في السابق ».

كانت اول حركة قامت بها الفتاة هي انها رفعت يدها الى شعرها الذي تعرف انه غير مرتب . وجبهتها المنعتقة ، المقدّمة بحرّية ، توقظ فكرة طهارة ، ان لم تكن عذوبة .

وظل واحدهما امام الآخر ثانيتين ، والقلب يخفق . واخيراً لفظ بصوت جعله التأثر عنيفاً :

– عفواً ... لقد قالت لي الحارسة ...

ودهش من شحوبها ، ومن شفتيها البيضاوين ، ومنخريها المقروصين. وأثبتت عليه نظرة مجهدة غير معبِّرة ، يُقرأ فيها فقط إرادتها في ان لا تضعف ، وان لا تغضّ من بصرها .

– أتيت مستخبراً .

فرسمت جني حركة تعني : « لا أمل ».

وأضاف : ... وأرى دانيال .

فبذلت جهداً كما لو انها تبتلع برشامة ، وتمتمت كلمتين او ثلاث غير مفهومة وسارت بسرعة نحو صالون الطابق . وقام جاك ببضع خطوات ليتبعها ووقف في منتصف البهو ، وفتحت الباب . وفكر بأنها ستدعو دانيـال . ولكنها تركت المصراع مفتوحاً ؛ ودارت نحوه نصف دورة وعيناهـا منخفضتان ، والقسمات قاسية . ولم تكن تتحرك :

وتمتم جاك مقترباً خطوة :

– ما كان بودي ... إزعاج ...

فلم تجب بشيء ، ولم ترفع جفونها . كان يبدو انها تنتظر بملل ٍ مكتوم ٍ ان يدخل . وما ان اجتاز العتبة حتى تركت الباب يسقط وراءه .

كانت مدام دي فونتانان جالسة على الكنبة في الداخل ، بجانب جندي شاب ، وعلى الارض قبعة وحزام جلدي وسيف .

– انت !

وكان دانيال قد نهض . وأنارت وجهه دهشة سرور . كان جامداً ، ينظر دون ان يعرف جيداً هذا « الجاك » ذا الكتفين المكتنلين ، والفـك البارز ، والذي قليلاً ما يشبه رفيقه في السابق . وجاك ايضاً جمد لحظة ، وكان يتأمل هذا الصف ضابط الكبير ذا الصبغة البرونزية والشعر المحلوق ، والذي عزم اخيراً على التقدم نحوه بشكل أخرق ، وبجلبة غير منتظرة من المهماز والجزمة .

وامسك دانيال صديقه من ذراعه وجاء به نحو والدته . ومدام دي فونتانان ، دون ان تعوزها الدهشة ولا المعاكسة ، رفعت الى جاك نظرها المتعب ، ومدت له يدها ، وبصوت هادىء لامبال ٍ كنظراتها ، قـالت كأنها التقت به امس :

– صباح الخير يا جاك .

وانحنى دانيال نحو مدام دي فونتانان بتلك الكياسة المـألوفة الاحتفالية قليلاً ، والتي أخذها عن أبيه :

– عفواً يا امي .. اريد ان انزل لحظة مع جاك ... أتريدين ؟

واهتز جاك . الآن تعرّف على دانيال بكامله،على صوته،على تلك الابتسامة النصفية ، القلقة قليلاً والتي ترفع الزاوية الشمالية من الفم ، وعلى تلك الطريقة الحنون ، الاحترامية ، التي تلازمه دائماً حين يلفظ كلمة « ماما » فاصلاً المقاطع ..

وغمرت مدام دي‌فونتانان الشابين بنظرة لطيفة ، وحنت رأسها بلطف :

– ولكن نعم يا كبيري . اذهب ... فلست بحاجة الى شيء ...

واقترح دانيال بينما لم تترك يده كتف جاك :

– لنذهب الى الحديقة .

واستعاد تلك الحركة من طفولته ، دون ان يفكر بها ، بحيث كان الفرق في القامة يبررها اكثر من الماضي : لأنه كان دائماً اكثر طولاً من جاك ، وبدت البزة العسكرية ايضاً انها تكبّره. ولدونة نصفه الاعلى المشدود بحزام في السترة الداكنة ذات الطوق الأبيض تتناقض مع سمنة الساقين الضائعين في طيّات البنطلون الاحمر والمثقلين « بالطماق » الجلدي . والنعلان المسمران يتزحلقان على بلاط الاروقة . ان خطوة الجندي تلك كانت تنتهك صمت البيت الذي كان نائماً . وقد وعى ذلك وصمت قلقاً مستنداً على صديقه لئلا يتزحلق .

وتساءل جاك : « وجني ؟.. » وشعر على صدره من جديد بذلك الانقباض الذي يشبه ضغط الخوف . وكان يمشي متصلب الرقبة ، ونظره في الارض . وحين وصلا الى الدرج التفت رغماً عنه ليجوس بعينيه في الرواق الفارغ؛ وخيبة املٍ متميزة بالحقد استحوذت عليه .

وكان دانيال قد توقف امام الدرجة الاولى :

– اذن انت في باريس ؟

كانت النبرة الفرحة تحرك كآبة الوجه . وفكر جاك : « لم تحدثه جني عني .» وقال بنشاط :

– كان عليّ ان ارحل ... آخذ القطار الذي سيسافر الآن .

وكانت خيبة امل دانيال ظاهرة بحيث أضاف على الأثر :

- لقد أخرت سفري لكي أراك . عليّ ان اكون في جنيف غداً .
وتفحصه دانيال بنظرة مفكرة خجولة مثقلة بالاستفهام . الى جنيف ؟ لقد ظلت حياة جاك بالنسبة اليه غامضة ومثيرة . ولم يجرؤ على ان يسأله . لقد كان تحفظ صديقه يخيفه . وبدون ان يلحّ ، سحب يده ، وامسك بالحاجز وبدأ الهبوط . لقد تلاشى سروره فجأة ... ما فائدة هذه الزيارة غير المتوقعة التي جاءت توقظ فيه عطشاً شديداً للتبديل اذا كان جاك سيذهب ثانية ، واذا كان يجب ان يفقده مرة اخرى ايضاً ؟

والحديقة التي سُقيت حديثاً كانت مقفرة ، ورطبة ، مضاءة هنا وهناك بمصابيح كهربائية منتشرة في الاشجار .

وقال دانيال :

- أتدخن ؟

وسحب من جيبه سيكارة وأولعها بشراهة . وأنارت اللهبة وجهه هنيهة . ان ما غيّره بشكل خاص هو انه فقد في هواء جبال الفوج تلك الصبغة الشاحبة الكامدة التي كانت في السابق تشكل تناقضاً خاصاً مع سواد الحدقتين، والشعر ، وخط الشارب الدقيق الممتد على الشفة .

وكانا يسيران بصمت جنباً الى جنب في ممشى دائر يوجد في طرفه مقاعد بيضاء مرتبة بشكل دائرة .

واقترح دانيال :

- اتريد هنا ؟

وبدون ان ينتظر الجواب جلس بتثاقل وقال .

- انا منهوك ... رحلة فظيعة .

وظل بضع ثوان تحت وطأة ذكرى ذلك اليوم في عربة قطار مهتزة ، مفرطة الحرارة ، حيث بقي فيها دون ان يبدل مكانه ، يدخن السيكارة تلو السيكارة ، وعيناه على المناظر الطبيعية المتحركة ، والمخيلة سجينة اربعة او خمسة افتراضات كلها تبعث على القلق ، بينما كانت الامور غير المتوقعة تتم في

البعيد . وردد : « فظيعة ... » ثم رفع نار سيكارته نحو النافذة حيث يحتضر والده ، وأضاف بتجهم : « كان يجب ان ينتهي الامر هكذا ذات يوم ».

كان الزبل المبلل في قطع الارض المغروسة بالازهار يتبخر في الليل برائحة سليمة . ونسيم هادىء كالتنفس كان يحمل اليهم بواسطة هبّات رائحة لاذعة ، سكرية الطعم بشكل مزيف ، رائحة شراب صيدلي لم تكن آتية من اماكن تركيب الاودية في العيادة ، بل من غرسة إيلنطس Vernis de Japon ضائعة بعيداً بين الاشجار .

وسأل جاك ، الذي كانت تهديدات الحرب تعمره اكثر من اي وقت امام هذه البزة العسكرية :

– هل نلت إجازتك بسهولة ؟

– بسهولة كبيرة . لماذا ؟

وبما ان جاك صمت فقد أضاف باطمئنان :

– اعطوني اربعة ايام مع تمديد ممكن . ولكن هذا لن يكون ضرورياً ... واخوك الذي كان هنا عند وصولي قال لي بصراحة انه لا يوجد اقل امل.

وصمت ، ثم تابع فجأة :

– هذا افضل . – ورفع يده من جديد نحو البيت : – هذا رهيب ؛ولكن إلى الدرجة التي وصلت إليها الأمور فما من احد يستطيع التمني ان يعيش . انا اعلم ان موته لا يصلح شيئاً – وتابع بقساوة : – على كل حال فالموت يقطع عملاً ... تكون توابعه مخيفة ... بالنسبة لوالدتي ... بالنسبة اليه ... بالنسبة الينا .

ولفت وجهه قليلاً نحو جاك وقال بنوع من النحيب الجاف الهجومي :

– كان والدي على وشك ان يجري توقيفه .

واغمض عينيه وقلب رقبته قليلاً . ومن خلال الاوراق ألـق نور مصباح كهربائي جبهته الجميلة لحظة وكان خطها الاعلى يشكل رُبعي دائرة مفصولين برأس خط الشعر العامودي .

كان بودّ جاك ان يقول شيئاً ، ولكن حياته المنعزلة ، والرفقات السياسية ازالت عنه عادة البوح بأسرار القلب . وأتى بحركة نحو دانيال ، ولمس ذراعه . وشعر تحت كفه بقماش البزة الرسمية الخشنة . وكانت عفونة غريبة تفوح من دانيال صادرة عن الصوف والجلد الحار المشبع بالدهن ، والتبغ والحصان ، وما ان يقوم بحركة حتى تمتزج بعطور الحديقة الليلية .

لم يكن جاك قد رأى صديقه منذ اربع سنوات . ورغم الرسائل المتبادلة بعد موت السيد تيبو ، ورغم دعوات دانيال المتكررة ، فانه لم ينو ابداً القيام برحلة الى لونيفيل . كان يتهيب المقابلة . والمراسلة الودية ، المتباعدة ، كانت تبدو له انهـــا المناخ الوحيد الملائم لما صارت اليه صداقتهما . وتلك الصداقة ، المتأصلة الجذور ، ظلت حية في اعماقه : لقد كان دانيال مع انطوان هما المودة الوحيدة التي يشعر بها جاك . ولكن ذلك قطعة من الماضي ذلك الماضي الذي انفصل عنه جاك بإرادته ولا يحتمل الرجوع اليه .

وسأل ليقطع الصمت :

– الا يتحدثون عن الحرب في لو نيفيل ؟

فلم يبد دانيال دهشة وقال :

– بلى ، بالتأكيد . الضباط يتحدثون عن الحرب في جميع الايام . هذا هو سبب وجودهم .. اولئك الناس ... خصوصاً في الشرق – وابتسم – اما انا فأحسب ٧٣ ... و٧٢ ايضاً ، ..وغـــداً ٧١ ايضاً وما عدا ذلك فلا يهمني . سأكون حراً في نهاية ايلول .

وداعب شعاع جديد من النور وجهه في تلك اللحظة . كلا ، ان دانيال لم يتغير . في هذا الوجه البيضوي النقي ، حيث انتظام القسمات يضفي نوعاً من الاحتفالية (خصوصاً حين يصاب بالغم من التعب والكآبة شأنه في هذا المساء) ، واحتفظت الابتسامة بتألقها كما في السابق : ابتسامة بطيئة ، آتية من بعيد ، ترفع الشفة العليا بانحراف الى ان تكشف صف الاسنان الابيض ... ابتسامة خجولة الا انها وقحة ... في السابق ، حين كان جاك ولداً ، لم يكن يستطيع

الامتناع عن ان يرصد بحب هذه الابتسامة المقلقـــة التي لا تقاوم ، على شفتي صديقه ؛ والآن ايضاً شعر بحرارة عذبة تجتاحه . وقال بمراوغة :

– يبدو انك تتألم من هذه الحياة في الثكنة .

– كلا ... ليس كثيراً .

والعبارات القليلة التي تبادلاها ، والتي كانت تسقط في الصمت ، تبعث على التفكير بتلك الحبال التي يتقاذفها البحّارة من زورق الى آخر ، والتي تسقط عشر مرات في الماء قبل ان تُلتقط ..

وكرر دانيال بعد وقفة طويلة :

– ليس كثيراً ... في اول الامر ، نعم : سخرة الزبل ،سخرة المراحيض، سخرة المتافل ... إما الآن فأنا صف ضابط ، والأمر حسن ... وعندي اصدقاء لا بأس بهم هناك : الخيول الرديئة ، الرفاق...والخلاصة ، فاني مسرور لقيامي بالخدمة العسكرية .

كان جاك يتأمله بنظرة غريبة ، محتقرة ، بحيث كاد دانيال يخضع لحركة غضب . فموقف جاك الحرون ، وصمته ، وحتى اسئلته ، كانت تدل على نوع من التعالي البعيد الذي كان يجرح دانيال بعمق . الا ان مودّته سيطرت . وما كان يفصله عن صديقه ليس ذاك السوء التفاهم السطحي الذي يكفي انقطاع الصداقة الطويل لايضاحه ؛ بل بالأحرى هو كل ما يجهله عن جاك ، كل مـــا ظل غير مفهوم في ماضي الهارب . .استعادة ثقته ... وانحنى فجأة ،وبصوت متغير ، بصوت رقيق ، مقنع كان يبدو انـه يحمل كل مـــا عنده من مودة ، تمتم :

– جاك . .

ما من شك في انه كان يأمل جواباً ، اندفاعة ، كلمة من القلب ، حركة تشجيع ... ولكن جاك ، بدافع الغريزة ، أرجع نصفه الاعلى الى الوراء كأنه يريد الابتعاد .

وجازف دانيال بالكل في سبيل الكل :

- اشرح لي اخيراً ! ماذا جرى منذ اربع سنوات ؟

- تعرف ذلك جيداً .

- كلا ! . لم افهم شيئاً . لماذا رحلت ؟ لماذا لم تخبرني ، انا ؟ . . كنت اسائل نفسي عن السر ... لماذا تركتني سنوات دون أخبار ؟

كان جاك قد ادخل رأسه في كتفيه . وتطلع نحو دانيال بهيئة منصدمة ورسم حركة سأم .

- ما فائدة العودة إلى كل هذا ؟

فوضع دانيال يده على معصمه :

- جاك !

- كلا .

- ماذا ؟ أحقيقة كلا ؟ أحقيقة اني لن اعرف ابداً ما دفعك . . . الى القيام بعمل كهذا ؟ .

فقال جاك مخلصاً ذراعه :

- آه ! دع عنك ذلك .

وصمت دانيال وانتصب ببطء .

- فيما بعد . فيما بعد .

هكذا دمدم جاك بجمود شعور لا يمكن التغلب عليه ، والذي جعل رنة صوته فجأة اكثر إدهاشاً حين اعاد بهياج : « **بعمل كهذا** ! . . الا يقال بأنني ارتكبت جريمة ! . . » ثم تابع دفعة واحدة :

- وبعد ، فهل هناك حاجة للايضاح ؟ وهل صحيح ان هذا يبدو لك غير مفهوم؟ . . ان يحرص رجل ، في يوم جميل ، على قطع صلته بكل شيء ؟ ويذهب دون شريك في الذنب سواه وحده ؟ . . الا تفهم هذا انت ؟ وان لا يرضى ان يظل مكموم الفم متمرداً الى ما لا نهاية له ؟ ليكن للمرء الشجاعة مرة واحدة في الحياة بأن يكون هو نفسه ، الشجاعة للغوص في اعماق نفسه ليكتشف فيها ، ما كان حتى الآن الاكثر غموضاً والاكثر احتقاراً ، وان يقول اخيراً : « هذا الذي

هو أنا في الأساس ! » الشجاعة ليصيح بجميع الآخرين « اني استغني عنكم ! » كلا ؟ أصحيح لا تستطيع أن تفهم هذا أنت ؟

فتمتم دانيال :

ـ بلى ، بلى . أفهم جيداً .

كان أولاً يصغي ، بدون أن يستطيع الاحتراس من لذة لطيفة ، إلى ذلك الصوت الشديد ، المؤلم ، المتجاوز الحد ، الذي وجد فيه جاكه الدائم. ولكنه ميز شيئاً مفتعلاً تحت هذا الكلام العنيف : ذلك الانفجار ، كان قبل كل شيء مخرجاً ... عندئذ فهم أن جاك لن يقرب معه من الايضاح الصريح الذي كان ينقذ الاثنين . يجب الاقلاع عما يريد معرفته . وفي الوقت نفسه يجب الاقلاع عن صداقتهما ، عن تلك الصداقة الوحيدة التي كان فخوراً بها. وقد حدس ذلك بوضوح وانقبض قلبه . ولكن كان لديه هذا المساء مواضيع كثيرة أخرى للكآبة .

وظل واحدهما مقابل الآخر بضع دقائق ، دون كلمة ، دون حركة ، دون ان يتبادلا النظر أيضاً . وأخيراً قرب دانيال ساقيه اللذين كان قد مدّهما امامه ووضع يده على جبهته ، وتمتم :

ـ على كل حال يجب ان اعود إلى فوق .

لقد فقد صوته رنته .

وقال جاك وهو ينهض ايضاً :

ـ نعم . انا ايضاً يجب ان أذهب .

ووقف دانيال بدوره :

ـ أشكرك لانك أتيت .

ـ ارجو المعذرة امام والدتك لأنني أبقيتك هذا الوقت الطويل ..

وكان الاثنان ينتظران ان يقوم احدهما بالخطوة الأولى .

ـ قطارك في اي ساعة ؟

ـ الساعة الثالثة والعشرون والدقيقة الخمسون

– قطار باريس – ليون – مرسيليا ؟
– نعم .
– أأنت ذاهب لإيجاد عربة ؟
– لا حاجة لذلك . القطار الكهربائي الذي يمر من هنا فانه ...
وصمتا ، مخجولين مما توصلا إلى قوله .. وقال دانيال وهو يسير في الممشى :
– سأرافقك حتى الباب .
واجتازا الحديقة كلها دون أن يتبادلا كلاماً آخر .
وحين بلغا الشارع وقفت عربة أمام السياج الحديدي ، ووثبت منها امرأة شابة ، عارية الرأس ، ثم سيد مسن ، وكان وجهاهما مضطربين . وقد مرّا مسرعين أمام الشابين اللذين تبعاهما بأنظارهما لحظة : بدافع اللهو لا بدافع الفضول .
وأسرع جاك بالانفصال فمد يده ، وشدّ عليها دانيال بصمت . وتطلعا ببعضهما البعض لحظة ، بينما يداهما متماسكتان . وابتسم دانيال ابتسامة حيية لم يكد جاك يجد القوة للاجابة عليها . وبسرعة ، اجتاز السياج والرصيف العريض المضاء . ولكنه التفت قبل أن يسير في الطريق . كان دانيال قد ظل في نفس المكان . ورآه جاك يرفع يده ، ويدور على نفسه ويختفي في ظلال الاشجار .
وفي البعيد كانت تميز من خلال الأوراق نوافذ البيت المضاءة ... جني ...
وعندئذ ، دون أن ينتظر جاك القطار الكهربائي ، اندفع نحو باريس ، نحو قطاره ، نحو جنيف – راكضاً تقريباً – كأن عليه أن ينقذ حياته .

٢٥

في الصالون الكبير وراء حجب مدهونة باللك Laque (كان انطوان قد منع ليون أن يدخل أياً كان إلى مكتبه الصغير) كانت مدام دي باتنكور جالسة تتثاءب .

كانت النوافذ مفتوحة ، وقد انتهى النهار دون نسمة هواء . وآن تهز نصفها الأعلى لتلقي على مسند الكنبة معطفها المسائي الخفيف . وقالت بصوت ضعيف:

ـ انه يجعلنا ننتظر يافيلو المسكين .

فارتجفت اذنا الكلب الساقط بكسل على الطنفسة ارتجافاً خفيفاً . وكانت آن قد اشترت كرة الحرير الشقراء هذه من معرض ١٩٠٠ وأصرَّت أن تأخذ معها إلى كل مكان هذه التحفة الفانية ذات الاسنان الفاسدة والطبع المتذمر .

وفجأة رفع فيلو رأسه ، واستقامت آن : فقد عرفا معاً خطوة انطوان السريعة وطريقته العنيفة في فتح وإغلاق الباب .

وكان هو فعلاً ، بوجهه المهموم ، وجه الطبيب .

والقبلة التي لامس بها شعر آن انزلقت حتى الرقبة وجعلتها ترتعش . فرفعت ذراعها وأجالت اصابعها ببطء على الجبهة الجميلة المربعة ، وعلى حلقة الحاجبين ، والصدغين ، والخد . ثم احتفظت لحظة بالفك في تجويف كفها ، فك آل تيبو القوي الذي كانت تحبه وتخشاه معاً.وأخيراً رفعت رأسها ، ونهضت وابتسمت.

ـ انظر الي اذن يا طوني !.. كلا ! عيناك علي ولكن نظرك في غير مكان . اني اكره حين يكون وجهك وجه رجل كبير !

فأمسكها بكتفيها وأبقاها أمامه ، ملامساً بيديه نتوء عظمي الكتف . وابتعد قليلاً دون أن يسحب يديه . وتأملها من أعلى إلى أسفل كصاحب ملك. ان ما يجعله أشد ارتباطاً بآن لا لأنها كانت لا تزال جميلة ، بل لأنها تبدو بشكل ظاهر انها بنيت للحب .

واستسلمت للفحص مثبتةً عليه عينيها المليئتين بالحياة والسرور . وقال وهو يجعلها تتراجع بلطف ويضطرها إلى الجلوس .

ـ الوقت الذي ابدل فيه ملابسي . انا لك .

كان في أغلب الاحيان يرتدي السموكن في المساء . ولم يكن يلزمه أكثر من خمس دقائق ليمر تحت الماء البارد (الدوش) ويحلق ، ويرتدي القميص المنشّى والصدرة البيضاء ، الملابس المعـدَّة ، سلفاً ، والتي كان ليون يناوله

اياها قطعة اثر قطعة ، وهو منخفض العينين ، بحركات محتفلٍ حمقاء . وقال بصوت منخفض :

ـ قبعة قش وقفاز للسيارة .

وقبل أن يترك الغرفة القى على المرآة نظرة خاطفة اجمالية ، وسحب كميه. وكان قد تعلم منذ وقت قريب الا يهمل هذه الزيادة في الرخاء والبشاشة التي تمنحه اياها ملابس داخلية ناعمة ، وطوق رقبة حسن ، وملابس ذات تفصيل جيد . فبعد المهمة اليومية اصبحت سهرة بدون عمل ، كثيرة النفقات تبدو له مشروعة ، وصحية ايضاً ، كان سعيداً باقتسام هذه الوسيلة للراحة مع آن ـ مع انه كان قادراً تماماً أن يتمتع وحده بأنانيته ، كما كان يحدث له عند سنوح الفرصة .

سألت ، بينما كان انطوان يساعدها عل ارتداء معطفها ويطبع قبلة سريعة على العنق العاري :

ـ إلى أين ستأخذني لتناول العشاء يا طوني ؟ ليس في باريس ... فالطقس حار جداً . لو نذهب إلى مارلي ، عند بارت ؟ أو أفضل : لو نذهب إلى « الديك » . فهذا أكثر بهجة .

ـ انه بعيد .

ـ وما يهم ؟ ثم ان الطريق بعد فرساي قد أُعيد تعبيدها .

كانت لها طريقة خاصة بها في تنغيم « لو فعلنا هذا ! » «لو ذهبنا إلى هناك». بنبرة منبهة ونظرة رقيقة ، تعبة قليلاً ؛ وكانت تقترح التهرب الأكثر صعوبة بكل بساطة ، دون أن تحسب حسابا للمسافة ، والساعة ، والتعب أو لأذواق انطوان ، ولا للنفقات التي تستلزمها تلك الأهواء .

وقال انطوان بمرح :

ـ لا بأس : لنسر إلى « الديك » . قف يا فيلو !

وانحنى وأخذ الكلب تحت ابطه ، وفتح الباب وانحنى جانباً لتمر آن . وكانت قد توقفت . فزرقة المعطف الليلية ، ولون الثوب الذي يشبه لون

الزبدة ، ودهان الستار الأسود ، كل هذا جعل بشرتها السمراء تتألق ببريق خفي . والتفتت نحـــوه وغمزته بنظرة دون تحفظ . وتمتمت : « يا حبيبي طوني ..» بصوت منخفض بحيث لم يبد أنها تـكلمه . وقال :

– هيا !

– هيا !

قالت ذلك متنهدة ، كما لو أن اختيار المطعم على مسافة خمسة وأربعين كيلو متراً من باريس لم يكن سوى خضوع آخر لنزوات مستبد . واجتازت العتبة بنشاط ودوائر فستانها (التفتا) تصدر حفيفـــاً ، والرأس مرتفع ، والخطوة مرنة .

وهمس انطوان في أذنها :

– حين تمشين تشبهين بارجة حربية تنزل إلى البحر .

ومع أن السيارة كانت قوية وقيادتها مسلية فإن انطوان لم يشعر بشيء من السرور في قيادتها ؛ ولكنه كان يعلم أن آن لا تحب شيئاً كهذه الجولات معه بدون سائق .

وكانت الشمس قد غابت . وظلت الأمسية حارة . ولاجتياز بوا فإن انطوان اختار طرقاً صغيرة مطروقة قليلاً ، تحت الأشجار . ومن النوافذ المفتوحة كان يدخل إلى السيارة هواء فاتر يحمل رائحة نباتات الغابة .

وكانت آن تثرثر . وبمناسبة رحلتها الجديدة إلى بيرك تحدثت عن زوجها ، ونادراً ما كانت تفعل ذلك .

– تصور أنه لم يكن يريد أن يدعني اذهب ! وقد رجاني ، وهددني ؛ لقد كان مقيتاً . ومع ذلك فقد قادني إلى المحطة . ولكن كانت هيئته هيئة شهيد . وساعة الرحيل ، على الرصيف ، كان له من رباطة الجأش أن يقول لي : « ألن تغيري رأيك «أبداً ؟ » عندئذ قذفته من أعلى عربة القطار بأحدى تلك الـ « كلا ».و« كلا » كانت تريد أن تقول أشياء رهيبة !. وهذا صحيح ، لن أغير رأيي : إني أمقته ؛ وليس هناك ما يمكن عمله .

وكان انطوان يبتسم . لم يكن يكره أن يراها غاضبة . وكان يقول لها أحياناً : « أحب جيداً ساعة تظهرين عين القرصان ! » وتذكر سيمون دي باتنكور ، صديق دانيال وجاك ، بأنفه الذي يشبه أنف الجدي ، وشعره بلون خيط القنب ، وهيئته الهادئة الحزينة قليلاً ، وبالإجمال فهو يثير النفور .

وتابعت آن :

– أقول أنني شعرت بعشق وقتي حقيقي لهذا الأبله . وربما بالضبط بسبب ذلك ..

– بسبب ماذا ؟

– بسبب بلاهته .. بسبب المغامرات القليلة جداً في حياته . هذا بدا لي منعشاً ؛ لقد غيرني . كان ذلك كفرصة لأبدأ حياتي من جديد . وهذا ما يمكن أن يجعلني بلهاء !

وتذكرت ما عزمت عليه من التحدث عن نفسها في أغلب الأحيان ، عن ماضيها ؛ هذه هي الفرصة المناسبة وإلا فلن تسنح مرة ثانية . وجلست بسهولة ، وأسندت رأسها إلى كتف انطوان ، وعيناها على الطريق ، واستسلمت للذكريات :

– كنت ألتقي به أحياناً في التورين ، في الصيد. وقد لاحظت جيداً أنه كان ينظر إلي ، ولكنه لم يوجه إلي الكلام . وذات مساء كنت عائدة إلى البيت فالتقيت به في الغابة . كان يسير على قدميه ولا أدري لماذا . وكنت وحدي ، فأوقفت السيارة وعرضت عليه أن أعيده إلى تور . فأصبح قرمزي اللون ، وصعد ولم يقل شيئاً . وهبط الليل . وفجأة ، قبل مكتب الجمرك بقليل ..

كان انطوان يصغي لاهياً ، وانتباهه موجه إلى الطريق وإلى إيقاع محرك السيارة .

وآن .. ستحب آخرين بعده ؛ أنها تتبع مصيرها . ولم يكن يوهم نفسه بدوام علاقتهما . كان يفكر : « عجيب هذا الميل الذي أشعر به دائماً نحو

هؤلاء المتفلتات ذوات الدم الحار » . وكان يتساءل أحياناً إذا لم تكن هذه الرفقة الغرامية التي يكتفي بها مع عشيقاته ليست شكلاً غير كامل للحب ، وربما الشكل الأكثر بؤساً . وقد قال له ستودلر في أحد الأيام : « أنت تخلط الحب بالميل إلى الملاذ الجنسية » . وهذا الشكل سواء أكان ناقصاً أم لا ، فهو شكله ويجد نفسه فيه على خير حال . وكان يترك له قوته سالمة كرجل 'مجـدّ' ، ويريد نفسه حراً ليكرس نفسه دون مساومة ، إلى ما يدعو إليه . وحديثه القريب العهد مع ستودلر عاد إلى ذهنه . فقد أورد له الخليفة كلمة كاتب شاب من معارفه يدعى بيغي Pèguy : « الحب ، هو أن تعطي الحق للكائن المحبوب المخطىء » . وهذه الصيغة صدمت انطوان بشدة . فالحب تحت هـذا الشكل المفترس العنيف ، الأحمق ، كان دائماً يوحي إليه الذهول ، والذعر ، ونوعاً من الاشمئزاز ..

وسارت السيارة على الجسر ، واجتازت السين ، وزحفت بانشراح نحو تلة سورسن . وقالت آن فجأة وهي تمد ذراعها :

– يوجد هنا مقهى صغير تؤكل فيه أطعمة مقلية .

(لقد كان ديلورم في السابق يأتي بها دائماً إلى هنا – وديلورم ، وهو طالب طب قديم ، أصبح صيدلياً في بولوني ، وقد ظل طوال عدة سنوات ، حتى هذا الشتاء ، إلى الوقت الذي تخلصت فيه آن من العقاقير أخيراً ، كان يدفع ثمن أفضال هذه العشيقة غير المأمولة وهو يدجّنها بواسطة المورفين) .

وخشيت سؤالاً من انطوان فأجبرت نفسها على الضحك :

– صاحبته تستاهل الانتقال ! امرأة مسنة كبيرة بدبابيس في شعرها وجوارب ملفوفة على الكعبين .. أما أنا ، فأفضل السير على الأقدام العارية على أن يكون لي جوارب ملفوفة ! وأنت ، ألست كذلك ؟

فاقترح انطوان :

– سنذهب إلى هناك في أحد أيام الآحاد .

– كلا ، ليس نهار الأحد . أنت تعلم جيداً أنني أصاب بالهلع من يوم الأحد .

جميع أولئك الناس الذين يزحمون الشوارع بحجة الراحة .

وقال انطوان ساخراً :

– وبالإجمال فإنه لحظ ٌ أن يشتغل الآخرون ستة أيام من سبعة .

فلم تشعر بالتوبيخ وأخذت تضحك .

– دبوس[1] ! أني أحب هذه الكلمة فلها وقع الصناجات في الفم . وحين أحصل على كلب آخر فسأدعوه دبوس .. – وتابعت بوقار : – ولكن لن يكون لي كلب آخر أبداً . حين يصبح فيلو هرماً فسأسقيه السم ، ولن استبدله .

فابتسم الشاب دون أن يلفت رأسه :

– ألديك الشجاعة لتسميم فيلو ؟

فقالت بنبرة واضحة :

– نعم . ولكن فقط حين يصبح هرماً وعاجزاً .

فألقى عليها نظرة قصيرة . وتذكر الإشاعات الغريبة التي سرت عند موت غوبيو . وكان يفكر بذلك من وقت لآخر . ليضحك منها في أغلب الأحيان . إلا أن آن كانت تخيفه أحياناً . وفكر : « أنها خليقة بكل شيء ، بكل شيء حتى بتسميم زوج أصبح **هرما وعاجزا** » . وسأل :

– وهل بالإمكان أن نعرف ؟ ستركنين ؟ سيانور ؟

– كلا ، منوّم .. أفضل الكل . أنه الديدیال . ولكنه مسجل في اللوحة ب ويحتاج إلى وصفة طبيب .. أننا سوف نكتفي بالديال Dial البسيط ! أليس كذلك يا فيلو ؟

فضحك انطوان ضحكة مغتصبة .

– ليس أسهل من ذلك إذا كانت الجرعات مضبوطة .. غرام أو غرامان أكثر أو أقل ويفسد كل شيء .

---

١ – Bigoudi في الأساس شريط معدني مغلف بجلد تلف المرأة شعرها عليه ليصبح مفتولاً وممكروفاً .

– غرام أو غرامان ؟ لـكلب لا يزن ثلاثة كيلو ؟ أنت لا تفهم من ذلك شيئاً يا دكتور .

وأجرت حساباً قصيراً وصرحت بتمهل :

– كلا . لأجل فيلو ، خمسة وعشرون سنتيغرام من الديال، ثمانية وعشرون على الأكثر ، ويسوّى حسابه .

وصمتت . وصمت هو أيضاً . هل كانا يفكران بنفس الشيء ؟ كلا ، لأنها تمتمت :

– أنني لن استبدل فيلو أبداً .. أبداً .. أيدهشك هذا ؟ – والتصقت به من جديد – ذلك لأنني خليقة بأن أكون مخلصة يا طوني ، وأنت تعلم .. مخلصة جداً .

وخف سير السيارة لتلفّ منعطفاً وتجتاز ممراً على ارتفاع متساوٍ . وكانت تبتسم لاهيةً وعيناها على الطريق .

– في الأساس يا طوني ، فأنني خلقت لأكون امرأة حبٍ كبير وحيد . وليس الخطأ مني إذا كنت أحيا هذه الحياة .. – وتابعت بقوة : – على كل حال فهناك شيء أستطيع قوله : أنني لم اخطّ أبداً ،، (كانت تتـكلم بإيمان ، فقد نسيت ديلورم) .

وختمت قائلة :

– أنني لا آسف على شيء .

وظلت صامتة طوال دقيقة أيضاً ، وصدغها مستند إلى كتف انطوان ، متطلعة إلى الأعشاب المظلمة النابتة تحت الأشجار ، والأسراب الراقصة من الذباب التي شقّتها السيارة ، وتابعت :

- هذا غريب ، فأنا كلما كنت سعيدة أشعر أنني على خير حال .. وهناك أيام أحب فيها كثيراً أن أستطيع نذر نفسي لشيء ما ، لشخصٍ ما .

ودهش من رنة الحنين في صوتها . وكان يعلم أنها صادقة . ففخفختها ومركزها الاجتماعي – هدف خمس عشرة سنة من الحسابات والمناورات –

لم يعطياها السكينة ولا السعادة ، وتنهدت .

- في الشتاء الآتي ، كما تعلم ، فأني عازمة على أن أحيا حياة أخرى .. حياة جدّية ... حياة نافعة ... ويجب مساعدتي يا طوني ، أتعد بذلك؟

لقد كان هذا مشروعاً يتردد كثيراً في أحاديثها ، ومع ذلك فإن انطوان لم يكن يحكم بأنها غير قادرة على تغيير حياتها . كانت ذات صفات عظيمة رغم انحرافاتها : تتحلى بذكاء عملي قوي ، وبصلابة تصمد لكل تجربة . ولكن لأجل النجاح والمثابرة كان يجب أن يكون بجانبها واحد يقودها ويجعل عيوبها غير ضارّة ؛ واحد مثله ، فقد استطاع في هذا الشتاء أن يقيس مدى نفوذه عليها حين وضع في رأسه أن يجعلها تقلع عن المورفين : وقد حصل منها على وعد بأن تخضع طوال ثمانية أسابيع لعلاج قاسٍ ضد التسمم في مستشفى سان جرمان حيث عادت من هناك منهوكة ، ولكنها شفيت جذرياً ؛ ومنذ ذلك الوقت لم تعد تحقن نفسها أبداً . وليس هناك أدنى شك أنه يستطيع ، إذا اهتم بذلك ، أن يوجه تلك الطاقة غير المستعملة ، نحو شواغل جدية . وبإشارة منه يمكن أن يتغير كل مستقبل آن .. إلا أنه كان مصمماً على ألا يقوم بهذه الإشارة ، فقد كان يتصور ما يستلزم منه هذا « الإنقاذ » من أعباء جديدة تستأثر به . فجميع المآثر تُلزِم ؛ وعلى الخصوص المآثر الكريمة .. فله حياته الخاصة يحياها ، وحريته ينقذها . وهو لم يكن يتساهل بذلك . ولكن كلما كان يفكر بهذا الأمر يفكر به بتأثر ، بكآبة : كما لو أنه يدير رأسه لئلا يرى يد غريق تمتد نحوه على سطح الماء .

على غير العادة ، كان « الديك الفضي » فارغاً تقريباً في هذا المساء .

ولدى وقوف السيارة ، فإن رئيس الخدم ، والنـدُل وخزنة المؤن اسرعوا إلى امام هذينْ الزبونين المتأخرين وقادوهما باحتفال ، من تحت أشجار إلى تحت أشجار أخرى ، وهناك أوركسترا وترية صغيرة مختفية في الخضرة ، وبدأت تعزف ، بصوت خفيف . كان كل شيء يبدو متناسباً مع إخراج مضبوط

لمشهد ، وانطوان نفسه ، السائر وراء آن ، كان يتقدم باطمئنان طبيعي لممثل يدخل إلى المسرح في دور ناجح يحفظه جيداً .

كانت المناضد منعزلة عن بعضها البعض بفطنة بواسطة مجموعة متلاصقة من النباتات أو اصص الزهور . وانتهت آن باختيار مكان ، وكانت عنايتها الأول ان اجلست كلبها على الوسادة التي وضعها مدير المكان بلطف على الحصى . (وسادة من نسيج الكتان الوردي : لأن كل شيء كان وردي اللون في « الديك » ، من حواشي نبات البغونيا ، حتى اغطية الموائد والمظلات ، والمصابيح الصغيرة المعلقة بالاغصان » .

ووقفت آن تتفحص لائحة المآكل بطريقة اسلوبية ، متظاهرة بالشره . وكان رئيس الخدم محاطاً بالندل ، واقفاً منتبها ، والقلم الرصاصي على شفتيه . وكان انطوان ينتظر ان تجلس . والتفتت آن نحوه ، واشارت بيدها العارية من القفاز إلى اطعمة مختلفة على اللائحة . كانت تتخيل ـ وليس هذا غير صحيح كليا ـ انه يغار منجميع ما تتمتع به من امتيازات ولا يحب ان تتوجه بالكلام مباشرة إلى القائمين بالخدمة .

وأبلغ انطوان الطلب بنبرة صلبة ومألوفة كان يستعملها في مثل هذه الحالات . وكان رئيس الخدم يكتب ، ويقوم باشارات احترام واستحسان . وينظر انطوان اليه وهو يقوم بذلك . فقد كان يستلطف المراعاة المفرطة التي يبديها القائمون بالخدمة ولم يكن بعيداً عن الاعتقاد بسذاجة انهم يحبونه ما دام الأمر يبدو له طبيعياً .

ـ آه ! يا للهر المعبود !

هتفت آن بذلك وهي تمد ذراعها نحو شيطان صغير أسود قفز على فضلات الطعام وطرده الخدم المستاؤون بضربات المناشف . لقد كان هراً ابن ستة أسابيع ، كله أسوّد ، هزال ناتج عن الجوع ، وبطن منتفخ ، وعينان غريبتان خضراوان مدمجان في رأس ضخم .

وأخذته آن بكلتا يديها ورفعته ضاحكة حتى خدها .

وكان انطوان يبتسم بشيء من الانزعاج :
- دعي اذن عش البراغيث هذا .. انه سيخدشك .
فاعترضت آن وهي تضم الحيوان الصغير القذر إلى صدرها مداعبة رأسه بطرف ذقنها .
- كلا ، انت لست عش براغيث .. كلا، انت حب . هذا البطن الذي له ! هـل هو « كخزانة من طراز لويس الخامس عشر » ؟ ورأسه الكبير ! يشبه بصلة في حالة الإنبات .. الم تلاحظ ياطوني كم ان للبصل النابت شكلاً عجيباً ؟
وضحك انطوان ضحكته الصغيرة : ضحكة مرغمة نوعاً . وهذا نادراً ما يحدث له . وهو نفسه قد تعجب مندهشاً ؛ وفجأة ، فطن إلى الصوت الخاص لهذه الضحكة ، وقال لنفسه بانقباض قلب غريب : « لقد ضحكت كوالدي تماماً .. » وانطوان في حياته لم يعر اهتماماً لضحكة السيد تيبو ؛ وهـا هو يكتشف هذه الضحكة فجأة هذا المساء ، ومن فمه .
وارادت آن ان تجبر الحيوان البشع على البقاء على ركبتها مع الخسارة الكبيرة اللاحقة بفستان التفتا الذي بلون الزبدة . وقالت منتشية : - اوه ! الخبيث هات مواءك يا سيد بعلزبول ! انظروا ، انه يفهم كل شيء - وقالت بجد : انا متأكدة ان له روحاً .يجب ان تشتريه لي ياطوني ..سيكون تميمة ًلنا ! وحين يصبح معنا أشعر انه لا يمكن لشيء ان يصيبنا بضرر .
فقال انطوان ساخراً :
- سآخذه لك . ولا تزالين تصرين على انك لا تعتقدين بالخرافات !
كان في السابق قد لج في هذا الموضوع . واعترفت له آن انها في أغلب الأحيان ، في المساء ، حين تدور في غرفتها وحيدة ، دون ان تنوي الصعود إلى السرير لاعتقادها بحدوث شر ، فقد كانت تأخذ من أحـد الادراج ، حيث تحتفظ بذخائرَ من ماضيها ، بمجموعة من ورق اللعب وتظل تسحب الأوراق إلى ان تروح في النوم .
وقالت فجأة :

– انت على حق نا بلهاء .»فأ

وتركت الهر يذهب ، فقفز قفزتين أو ثلاث مترنحاً واختفى بين الاشجار. ثم تأكدت من انهما وحيدين ، وغمست نظرها في عيني انطوان وهمست :

– وبخني، إني احب ذلك . سأصغي اليك ، وسترى .. سأصلح نفسي .. سأصبح كما تريد ..

وساورته فكرة انها تحبه أكثر مما كان يريد ، فابتسم ، وأشار اليها أن تأكل طعامها ؛ وهذا ما فعلته وهي منخفضة العينين كالطفلة .

ثم أخذت تتكلم عن شيء آخر : عن العطلة التي كانت تنوي أن تقضيها في باريس لئلا تبتعد عن انطوان ، ثم عن الدعوى النصف سياسية والنصف عاطفية التي كانت تفاصيلها تملأ اعمدة جميع الصحف منذ عدة أيام .

– يا لها من جرأة ! لكم احب أن افعل شيئاً كهذا ! في سبيلك ! اقتل أحداً يريد بك شراً .

وفي البعيد كانت الكمانات والفيولنسيل والألتو تعزف لحناً راقصاً . وبدت حالمة لبضع لحظات ، ولفظت بصوت ملاطف وقور :

– أقتل في سبيل الحب ..

فلاحظ انطوان مبتسماً :

– ان مظهرك يدل على ذلك .

وكادت تجيب ، ولكن رئيس الخدم قدم اليها ، قبل تقطيع فراخ الحمام ، وكمبخرة ، وعاء البقول الفضي الذي كانت تتصاعد منه رائحة لحوم طيور مختلفة .

ورأى انطوان ان هناك دموعاً تلمع على حافة أهدابها . فسألها بنظره . هل جرحها دون أن يريد ؟

فتأوهت دون ان تنظر اليه .وقالت بشكل غريب بحيث لم يستطع الامتناع مرة اخرى عن التفكير بغوبيو :

– ربما كان هذا صحيحاً أكثر مما تظن .

فقال بفضول :

– ما هو ، الصحيح ؟

ودهشت من النبرة فرفعت عينيها ورأت في عيني انطوان اضطراباً لم تفسره في بادىء الأمر . وفجأة فكرت بحديثها عن السموم ، وبأسئلة انطوان . ولم تكن تجهل شيئاً من الاتهامات التي اشيعت على حسابها بعد موت زوجها : حتى ان صحيفة في مقاطعة الواز سمحت لنفسها بتلميحات شفافة كرست نهائياً في البلاد اسطورة صاحب الملايين العجوز الذي حجزته في قصره صبية مغامرة تزوجت منذ أمد قريب ، والذي مات ذات ليلة في ظروف ظلت غامضة .

وثبت انطوان صوته بشكل أفضل وكرر :

– ما هو الصحيح ؟

– ان لي مظهر بطلة ماساة .

اجابت ببرود ، دون ان تجعله يرى انها فطنت له . وأخرجت مرآة صغيرة من محفظتها وتفحصت نفسها بشكل لاه ، وقالت :

– انظر .. هل رأسي رأس واحد سيموت في سريره بغباوة ؟ كلا : سأنتهي بطريقة مسرحية ، وسترى ! سيجدونني ذات صباح ، في عرض غرفتي ، مطعونة بخنجر .. على الطنفسة ، عارية تماماً .. ومطعونة بخنجر ! الا انني قد لاحظت : إن اولئك اللواتي يحملن اسم آن في الكتب كن ينتهين دائماً مطعونات بخنجر .. – وتابعت دون أن تفارق عيناها المرآة : – وانت تعلم انني أخاف خوفاً شديداً من ان أبدو قبيحة المنظر حين أموت . ان شفاه الموتى البيضاء شيء مرعب جداً .. أما انا فاريد بشكل قاطع ان يخضبوني . وبعد ، فقد اشرت إلى ذلك في وصيتي .

كانت تتكلم بسرعة ، بسرعة اكثر من المعتاد ، متلعثمة قليلا كما لو كانت خائفة . وبزاوية منديلها جففت ، بدقة ، الدموع الباقية بين الأهداب ؛ ثم مشطت شعرها قليلاً ، وأعادت وضع كل شيء في محفظتها وأطبقت القفل . وتابعت : (وبسبب هذا الإقرار اتخذ صوتها الجميل لهجة خشنة) :

– في دخيلة نفسي لا أكره اكثر من هذا ، ان يكون لي رأس بطلة مأساة .

وأدارت اخيراً وجهها نحوه ورأت انه لا يزال يراقبها . عندئذ ابتسمت ببطء وبدت أنها عزمت على أمر ، وقالت متأوهة :

– لقد سبب لي مظهري في السابق أموراً سيئة . وانت تعلم انني أصبحت بنظر الناس دامسة سم .

وتردد انطوان ربع ثانية . ورفت اجفانه ، وصرح :

– اعرف ذلك .

فوضعت مرفقها على الطاولة ، وعيناها في عيني عشيقها ، وقالت بصوت مؤثر :

– اتعتقدني خليقة بهذا ؟

كانت النبرة متغطرسة ، ولكن النظرة هربت وضاعت مـــن جديد في اللامحدود . وقال ، نصف مازح ونصف جاد :

– ولماذا لا ؟

فظلت صامتة بضع ثوان ، وعيناها على السماط . ومرت في خاطرها فكرة إن هذا الشك ربما أضاف شيئاًمن الحرارة إلى عاطفة انطوان نحوها، وساورتها الرغبة في ان تبقيه في حالة الارتياب . ولكن هذه الرغبة زالت حين نظرت اليه . وعندئذ قالت بشراسة :

– كلا ، فالواقع ليس روائياً بهذا الشكل :لقد شاءت الصدف ان اكون وحيدة مع غوبيو في الليلة التي مات فيها ؛ وهذا صحيح . ولكنه مات في ساعته دون أن يكون لي أي ضلع .

إن صمت انطوان ، والطريقة التي كان يصغي بها ، يشيران إلى انه ينتظر أوسع التفاصيل . فدفعت صحنها أمامها دون أن تلمسه ، وأخذت من محفظتها سيكارة تركها انطوان تولعها دون أن يقوم بحركة . كانت في أغلب الأحيان تدخن من سيكارات الشاي التي كانت تحصل عليها من نيويورك والتي تنشر عفونة أعشاب محروقة ، حريفة تسبب الدوار . وسحبت بضعة انفاس قذفتها أمامها

ثم تمتمت بإعياء :

– اتشوقك هذه القصص القديمة ؟

فقال بسرعة أكثر مما كان يريد : نعم .

فابتسمت ، وهزت كتفيها كأنها أمام نزوة لا نتائج لها .

كانت أفكار انطوان شاردة . ألم تقل له آن في أحد الأيام : « للدفاع عن نفسي في الحياة اتخذت عادة الكذب ، فأذا رأيت مرة اني اكذب عليك فيجب أن تقول لي حالاً ، ولا تحقد علي .. » وظل حائراً . وتذكر على حين غفلة الدالة الغريبة التي لاحظها في السابق بين آن ومس ماري ، مربية هيفيت الصغيرة . وكان متأكدا من انه ليس مخطئاً حول طبيعة هذه الدالة . ومع ذلك ، فحين ألقى فيما بعد ، وهو يبتسم ، بعض الأسئلة المعينة على عشيقته ، فأنها لم تتهرب فقط من كل اعتراف ، بل اعترضت على هذه الريبة باشمئزاز وبمظهر صدق محيرين .

– كلا ! لا لزوم للعظام . أتريد خنقه ؟

كان أحد الخدم قد جاء يضع طاسة ملأى بخليط خبز ولحم أمام وسادة فيلو ، ولكي يظهر الغيرة استعد لإضافة عظام فراخ الحمام فوقها . وركض رئيس الخدم :

– السيدة ترغب ؟ ..

فقال انطوان منزعجا : لا شيء ، لا شيء .

وكان الكلب قد انتصب على قوائمه وأخذ يتشمم الطاسة . وتمطى ، وهز اذنيه ، وتنشق الهواء بدفعات صغيرة والتفت بيأس نحو سيدته ، وقد تسطح انفه الصغير . وقالت آن :

– ما بك اذن ياصغيري فيلو ؟

وردد رئيس الخدم كالصدى :

– ما بك يا فيلو الصغير ؟

– ارني هذا .

قالت آن للخادم . ولمست الطاسة بقفا يدها :

ـ بالتاكيد ، خليطك بارد جداً ! وقد قلت لك : ساخن . وبدون شحم.
أضافت ذلك بصرامة مشيرة باصبعها نحو قطعة شحم .
ـ ارز ، جزر ، قليل من اللحم المفروم الناعم . ومـــع ذلك فهو ليس ساحراً .
فامر رئيس الخدم :
ـ احمل هذا .
فالتقط الخادم الطاسة وتأمل الخليط برهة ، ثم عاد مطيعا نحو المطبخ . ولكن قبل ان يبتعد رفع عينيه نحو الطاولة لحظة وألتقى نظر انطوان بنظره.
حين اصبحا وحدهما قال بلهجة لوم :
ــ الاتعتقدين يا عزيزتي ان السيد فيلو يبدو صعبا ؟
فقاطعته آن غاضبة :
ــ هذا الغلام أبله . أرأيته ؟ لقد ظل هنا مغروساً أمام هذه الطاسة !
فقال انطوان بلطف :
ــ ربما كان يفكر أن زوجته وأولاده في هذه اللحظة ، في طبقة مطبـخ في الضاحية ، ربما كان يجلسون إلى المائدة أمام ..
ووُضعت يد آن الساخنة المهتزة بسرعةٍ على يده :
ـ هذا صحيح يا طوني . أن ما قلته رهيب .. ومع ذلك فأنت لا تريد أن يمرض فيلو ــ وبدت فريسة حيرة حقيقية ــ لماذا تضحك الآن ؟. إسمع يا طوني : يجب إعطاء هذا الخادم إكرامية .. خصوصاً له .. إكرامية كبيرة .. من قبل فيلو.
وحلمت بضع ثوان وقالت فجأة :
ــ أخي أيضاً ، تصور ، قد بدأ خادماً في مطعم .. نعم . خادم في مطعم يقدم المرق في فانسين .
فقال انطوان :
ـ لم أكن أعلم أن لك أخاً (اللهجة ، وحركات السحنة كانت تبدو أنها

تضمر : « ومع ذلك فإني أعرف شيئاً قليلاً عنك »)..

– أوه ! أنه بعيد .. إذا كان لا يزال حيا .. لقد ذهب إلى الهند الصينية . وانخرط في جيش المستعمرات .. واضطر إلى العيش هناك . وليس لدي أخبار عنه أبداً .

وكانت قد خفضت نبرتها تدريجياً. ولم يكن صوتها مؤثراً إلا في النغمات المهمة. وقالت أيضاً : « انها حماقة ، كان بامكاني مساعدته ..» ثم صمتت .

وقال انطوان بعد أن ظل صامتاً بضع لحظات :

– اذن فقد مات دون أن تكوني موجودة ؟

فقالت وهي ترف بأهدابها : من ؟..

لقد أدهشها هذا الالحاح . كانت تشعر برضى في كل مرة تثير فيها انتباه انطوان . واخذت تضحك فجأة ، ضحكة غير منتظرة ، خفيفة ، منتقلة .

– والاكثر حمقاً ، تصور ، انهم اتهموني بما لم افعله ، بما ليس لدي الشجاعة على فعله : وليس هناك من عرف بما انا مذنبة على وجه التحقيق . سأقول لك : كنت حذرة من الوصية التي استطاع غوبيو ان يكتبها ؛ وعند ذاك ، اثناء السنتين اللتين كان مريضاً فيهما ، كنت مزودة بتوكيل اغتصبته منه بمساعدة كاتب العدل في بوفيه ، فاستوليت بكل برودة على قدم كبير من الثروة. وكان ذلك بدون فائدة : لأن الوصية كانت كلها لصالحي . ولم يترك لهيفيت سوى نصيبها الشرعي ... ولكن كنت اعتبره ، بعد هذه السنوات السبع من الجحيم ، ان لي ملء الحق بأن اقوم على شؤون نفسي !

وكفّت عن الضحك وأضافت بحنو :

– وانت يا عزيزي طوني اول من قصصت عليه ذلك .

وأصيبت بارتعاشة عنيفة ، فقال انطوان باحثاً بعينيه عن المعطف :

– برد ؟

وكان الليل قد اصبح رطباً ، والوقت متأخراً . فقالت وهي ترفع الكأس نحو سطل الشامبانيا .

- كلا ، عطشى .

وشربت الخمر الذي سكبه لها بشراهة ، وأشعلت احدى سكايرهـا الحريفة ونهضت لتلقي معطفها على كتفيها . وعادت الى الجلوس ، وأدنت مقعـدها لتكون قريبة من انطوان . وقالت :

- اتسمع ؟

كانت فراشات ليلية تحوم حول المصابيح الصغيرة وتمطر قماش المظـلة بالضربات . وكانت الاوركسترا قد صمتت . وفي النزل كانت معظم النوافذ مطفأة .

وتابعت بنظرة ملأى بالوعود :

- نحن على خير حال هنا ، ولكني اعرف مكانا نكون فيه افضل .

وبما انه لم يجب منذ امسكت بمعصمه ووضعت يده مقلوبة على السماط فظن انها تريد أن تقرأ طالعه ، فقال محاولاً أن يتخلص :كلا.

(لم يكن هناك ما يزعجه اكثر من النبؤات : وكانت أجملها تبدو له سيئة بجانب المستقبل الذي قدّره لنفسه) .

وقالت ضاحكة دون أن تترك المعصم :

- انت أحمق ! اليك ما اريد ...

وانحنت فجأة ، والصقت فمها بداخل يده وظلت هكذا دقيقة دون أن تتحرك . فكان يداعب بيده الحرة ، وبلطف ، الرقبة المطوية . وكان يقارن شغفها الخفي به بالعواطف المتزنة التي كان يشعر بها نحوها .

في تلك اللحظة رفعت آن رأسها قليلاً كأنها أُنذرت بواسطة حدس :

- لا أطلب منك ان تحبني كما احبك ؛ اطلب منك فقط أن تدعني احبك .

٢٦

كان فانهيد على وشك الخروج . وككل صباح كـان يصنع فنجانا من القهوة على موقده البترولي حين جاء جاك يطرق بابه دون ان يجد وقتا للذهاب

ووضع امتعته في غرفته . وقال فرحا ، تاركا حقيبته تسقط على البلاط :

– ماذا من جديد في جنيف ؟

كان الرجل الشاحب اللون داخل الغرفة يغضن عينيه باتجاه الزائر وقد عرفه من صوته :

– بولتي ! أعدت الآن ؟

وتقدم نحو جاك ، مادّاً نحوه يديه الصغيرتين اللتين تشبهان يدي ولد . وقال متفحصاً المسافر عن قرب :

– هيئة حسنة .

فاعترف جاك :

– نعم . الأمر على ما يرام .

وكان هذا صحيحا . بعكس ما كان ينتظر ، كانت ليلة السفر تلك أفضل من حسنة : محرّرة . وحده في المقصورة ، فاستطاع أن يتمدد وينام على الأثر . ولم يستيقظ الا في كولوز Culuz مرتاحا ، مليئاً بالنشاط ، سعيداً بشكل غير عادي . كأنه انقذ من شيء لا يعرفه . وعلى الباب ، وهو يتنشق هواء الصباح بجرعات كبيرة بينما انتهت طلائع الشمس من تبديد الضباب الذي تركه الليل ، من اعماق الاودية ، كان منحنياً على نفسه ، محاولاً تفسير هذا الفرح الداخلي الذي وجد نفسه مفعما به هذا الصباح . وكان قد قال لنفسه . « لقد انتهى التخبط في مجاهل الافكار والمذاهب ، وها هو هدف معين يبدو اخيراً : العمل المباشر ضد الحرب ! . » بالتأكيد كانت اللحظة خطيرة ، حاسمة دون شك . ولكنه حين يقوم بعمل ميزانية للانطباعات التي حملها من باريس ، وصلابة وضع الاشتراكية الفرنسية ، واتفاق القادة الذي تحقق حول جوريس والمستند إلى ميله إلى المناهضة المتفائلة ، والالتحام الذي بدا انه قد حدث بين فعالية النقابات وفعالية الحزب ، كل شيء يساهم في زيادة ثقته بقوة الاممية التي لا تُغلب .

وقال فانهيد ممهداً الأغطية على السرير الشاحب :

– إجلس هنا . (لم ينوِ أبداً أن يخاطبه بصيغة المفرد) سنقتسم القهوة .. وكل شيء على ما يرام ؟ احك ! ماذا يقال هناك ؟

– في باريس ؟ الأمر يتوقف .. بين جماهير الناس ليس من يعلم . ليس من يكترث ، وهذا مذهل : فالصحف لا تهتم إلا بدعوى كايو ، برحلة السيد بوانكاريه الانتصارية – وبالعطلات ! ومع ذلك يقال أن أمراً قد صدر إلى الصحافة الفرنسية بأن لا توجه الانتباه نحو القضايا البلقانية ، لكي لا تتعقد مهمة الدبلوماسيين .. ولكنهم في الحزب يبذلون جهدهم ! ولعمري ان كل شيء يدل على انهم يقومون بعمل حسن ! ومشكلة الاضراب العام قد وُضعت بوضوح في المقام الأول . وهذه ستكون نقطة الاستناد الفرنسية في مؤتمر فيينا . ومن الراهن ان علامة الاستفهام هي الموقف الذي ستتخذه الاشتراكيات الديموقراطية : انها متفقة مبدئياً على الرجوع إلى المسألة . ولكن ..

فسأل فانهيد واضعاً على طاولة الليل المزدحمة قدحاً مليئاً بالقهوة :

– هل من اخبار من النمسا ؟

– نعم . أخبار حسنة إذا كانت صحيحة . البارحة مساءً بدوا متأكدين في جريدة « الانسانية » ان المذكرة النمساوية إلى الصرب ليست ذات صفة هجومية .

فقال فانهيد :

– أنا مسرور يا بولتي ، يسرني أن اراك .

وابتسم ليعتذر عن مقاطعته . وتابع على الأثر :

– اما هنا ، فقد جاء بوهلمان . وروى حكايةً آتيةً من مكتب المستشارية في فيينا ؛ وهذا يثبت ، بالعكس ، ان مقاصد النمسا شيطانية .. متعمدة .

واختتم مختصراً :

– لقد فسد كل شيء .

فقال جاك :

– اشرح لي هذا ياصفيري فانهيد .

وسجلت النبرة من الفضول أقل مما سجلت من المزاج الرائق والمودة . وشعر فانهيد بذلك لأنه جاء مبتسماً وجلس بجانب جاك على السرير :

– الأمر، هو أن أطباء قد استُدعوا في هذا الشتاء لفحص فرنسوا جوزيف وشخصوا علـّة المجاري التنفسية .. مرض لا شفـــاء منه .. خطير جداً ، والامبراطور سيموت قبل نهاية السنة .

– أجل .. يموت .

هكذا تمتم جاك الذي لم يكن لديه في الوقت الحاضر اي استعداد ليحمل الأمور على محمل الجد . وكان قد لف منديله حول القدح لئلا يحرق اصابعه ، وشرب ، بجرعاتٍ صغيرة ، الشراب الموحل الذي صنعه فانهيد . ومن فوق القدح ، فان نظره المرتاب ، الودود ، كان مستقراً على الوجه الشاحب ذي الشعر المشعث .

وتابع فانهيد :

– انتظر . الأمر الآن هو ان الحكاية تستند إلى أساس .. وكانت نتيجة المعاينة قد نقلت على الأثر إلى المستشار .. وقد دعا برختولد مختلف رجـــال الدولة إلى اجتماعٍ سرّي في بيته ، إلى نوع من مجلس التاج .

فقال جاك لاهياً : هو ! هو !

– وهناك ، فإن أولئك السادة – وبينهم تيسزا وفورغاش ورئيس الأركان هوتزندورف– قد رأوا ما يلي : أن موت الإمبراطور ، : بالنظر إلى الحاضرة ، سيحرك في النمسا صعوبات داخلية مخيفة . وحتى لو ظل نظام السلطة المزدوجة قائماً فإن النمسا ستضعف لوقت طويل ؛ وستضطر النمسا ، ولوقت طويل أيضاً ، إلى الإقلاع عن إخضاع الصـــرب ؛ ويجب إخضاع الصرب لأجل مستقبل الامبّراطورية . فكيف العمل ؟

فقال جاك الذي كان يتابع بكثير من الانتباه :

– الإسراع بالغزوة ضد الصرب قبل موت العجوز ؟

– نعم .. ولكن البعض يذهبون إلى أبعد من ذلك ..

كان جاك ينظر إلى فانهيد وهو يتكلم . وأمام هذا الوجه الذي يشبه وجـــه ملاكٍ اعمى ، دهش مرة اخرى من التناقض الذي يقدمه هذا الغلاف الواهي والقوة العنيدة التي يشعر بها بين لحظة واخرى ، كنواة قاسية في وسط هذه العجينة التي لا لون لها . وكان يفكر مبتسماً : « هذا الصغير فانهيد » . وتذكر انه رأى عدة مرات هــذا الشاحب اللون ، نهار الاحد ، على شاطىء البحيرة ، وفي الفنادق ، وفي غمار مناقشة سياسية حــامية ، يترك الطاولة فجأة : – « كل شيء حقير ، كل شيء فاسد » ! – ليذهب وحده ، كطفل ، الى الارجوحة ليتأرجح .

وتابع فانهيد بصوته الزامر :

– يذهب البعض الى ابعد من ذلك ايضاً. يقولون ان الاغتيال في ساراجيفو قد نظمه محرضون لحساب برختولد وذلك لخلق الفرصة المنتظرة ! ويقولون ان برختولد ضرب عصفورين بحجر واحد : اولاً ، خلّص العرش من وريثٍ مقلق ، مسالم ، وفي الوقت نفسه جعل الحرب ضد الصرب ممكنة قبل موت الامبراطور .

وضحك جاك :

– ان ما تقصّه علي هي حكاية قطّاع طرق جميلة .

– ألا تصدقها ، انت يا بولتي ؟

فقال جاك جاداً :

– اوه ! اعتقد ان من الممكن توقع كل شي ، كل شيء تماماً ، من رجل طماع شوهته الحياة السياسية ، منذ اللحظة التي يشعر فيها هذا الرجـل بان السلطة المطلقة بين يديه ! والتاريخ ليس سوى مصوّر طويل لهذا... ولكن ما اعتقده ايضاً يا صغيري فانهيد هو ان المقاصد الأكثر مكيافيلية تتحطم بسرعة ضـــد ارادة الشعوب المسالمة !

فسأل فانهيد هازاً رأسه :

– اتعتقد ان هذا هو رأي الربان ايضاً ؟

فتأمله جاك مستفهماً ؛ وتابع البلجيكي متردداً :

– أريد أن أقول .. أن الربان لا يقول كلا .. ولكن يبدو دائماً أنه يؤمن حقيقة بهذه المقاومة ، بهذه الإرادة للشعوب ..

وتجهمت قسمات جاك . كان يعترف بماذا يختلف موقف مينستريل عن موقفه . ولكن هذه الفكرة كانت مؤلمة بالنسبة إليه ؛ وكان يبعدها غريزياً . وتابع بقوة :

– هذه الإرادة يا صغيري فانهيد موجودة ! إني عائد إلى باريس وانا متأكد . وحالياً ، ليس في فرنسا فقط ، ولكن في كل مكان في أوروبا ، بين الناس الممكن تعبئتهم ، يمكن القول أنه لا يوجد بينهم عشرة ، ولا خمسة بالمئة ، يقبلون بفكرة الحرب .

– ولكن الخمسة والتسعين هم كائنات منفعلة يا بولتي ، كائنات منقادة !

– اعرف ذلك جيداً . ومع هذا افترض أنه يوجد بين هؤلاء الخمسة والتسعين دزينة فقط ، نصف دزينة يدركون الخطر ويتمردون : أنه جيش حقيقي من العصاة سوف تجده الحكومة أمامها ! هذه النصف دزينة بالمئة هي التي يجب الوصول إليها وحشدها للمقاومة . وليس في هذا ما لا يمكن تحقيقه . ولهذا يشتغل ثائرو أوروبا في هذه اللحظة وفي كل مكان !

وكان قد نهض ، وتمتم ملقياً نظرة على معصمه .

– كم الساعة ؟ يجب أن أذهب الآن لرؤية مينستريل .

فقال فانهيد :

– ليس هذا الصباح . فقد ذهب الربان إلى لوزان بالسيارة مع ريشاردلي .

– .. أأنت متأكد ؟

– هناك موعد في الساعة التاسعة ، لأجل المؤتمر . ولن يعودا قبل الظهر .

فبدا جاك أنه قد عوكس :

– وليكن . سأنتظر وقت الظهر .. ماذا تفعل أنت في هذا الصباح ؟

- كنت ذاهباً إلى المكتبة ، ولكن .

- تعال معي إلى عند صافريو . وسنتحدث على الطريق . معي رسالة له . لقد رأيت نيغروتو في باريس . - وأخذ حقيبته وسار نحو الباب - عشر دقائق ، الوقت الذي أحلق فيه .. تعال خذني وأنت نازل .

كان صافريو يشتغل وحده ، في شارع لاباليسيري ، في حي الكاتدرائية ، منزلاً حقيراً صغيراً من طابقين ، وقد أقام دكانه في الطابق الأرضي منه .

ولم يكن يُعرف الشيء الكثير عن ماضي صافريو . وكانوا يحبونه لمزاجه الرائق ، ولأنه خدوم بشكل أسطوري . وهو مسجل في الحزب الإيطالي قبل أن يأتي إلى سويسرا ، وكان يمارس منذ سبع سنوات مهنته كبائع عقاقير في جنيف . وقد ترك إيطاليا بعد مصائب زوجية كان يشير إليها كثيراً ولكن بشكل غير واضح ، وقد كادت تدفعه إلى محاولة قتل ، حسب قول المتأكدين .

والمخزن الذي دخله جاك وفانهيد كان فارغاً . وعلى رنين جرس الباب ظهر صافريو على مدخل الدكان الخلفية ، وتألقت عيناه الجميلتان السوداوان بوميض حار .

- أسعدتم صباحاً .

وابتسم محركاً رأسه ، مدوراً كتفيه غير المتساويين ، مباعداً ذراعيه بكياسة كثيرة الملاطفة لصاحب فندق إيطالي .

وهمس في أذن جاك : عندي هنا اثنان من مواطنيّ . تعالوا .

كان دائماً على استعداد لتقديم ملجأ للخارجين على القانون الإيطاليين الذين أمرت الحكومة السويسرية بطردهم (ان شرطة جنيف المتساهلة جداً في الأوقات العادية ، كانت تستولي عليها دورياً حمية تطهير ، في غير وقتها ، وعابرة ، فتطرد من أراضي الدولة عدداً من الثوريين الأجانب الذين لا يسيرون معها حسب الأصول . وتدوم عملية الكناسة ثمانية أيام يكتفي خلالها العصاة ،

بوجه عام ، أن يتركوا بيوتهم ليعيشوا مختبئين في أكواخ بعض الرفاق . ثم يعود الهدوء كما في السابق . وكان صافريو اختصاصياً بهذا النوع من الضيافة) .

وتبعه جاك وفانهيد .

وراء الدكان تنفتح سقيفة مفصولة عن المخزن بمطبخ ضيق . وتلك الغرفة كانت تشبه السجن كثيراً : سقفها معقود ؛ وهناك كوة مشبكة بالحديد تطل على فناء دار مقفر ، تنيرها من أعلى إلى أسفل . ولكن قابلية الأمكنة تجعل منها مأوى سرياً ؛ وبما أن من الممكن أن يكونوا عديدين فيها فإن مينستريل كان يستعملها أحياناً لأجل اجتماعات صغيرة خاصة . وكانت ناحية بكاملها من الجدار مجهزة بألواح حيث تتكدس أوعية عقاقير قديمة ، وزجاجات ، وبواتق فارغة ، وهواوين لا تستعمل . وعلى الرف الأعلى صورة مطبوعة على الحجر لكارل ماركس ، زجاجها متصدع ورمادي اللون من الغبار .

وبالفعل فقد كان هناك إيطاليان . أحدهما شاب صغير السن ، رث الثياب كمتشرد ، كان يجلس وحده إلى المائدة أمام صحن من المكرونة الباردة بالبندورة ، كان يحفرها برأس سكين ويرش عليها الخبز . وقد رفع نحو الزائرين نظرة هادئة لحيوان جريح ؛ وعاد إلى الأكل .

والآخر أكبر سناً ، وملابسه أفضل . كان واقفاً وبين يديه أوراق . وقد جاء إلى أمام القادمين . إنه ريمو توتي الذي عرفه جاك في برلين ، مراسل الصحف الإيطالية . كان صغيراً ، متخنثاً قليلاً ، العين حية ، والنظرة ذكية .

وأشار صافريو بأصبعه إلى توتي .

– لقد وصل ريمو البارحة من ليفورنو .

فقال جاك لصافريو وهو يخرج غلافاً من محفظته :

– أما أنا فآتٍ من باريس . ولقد التقيت بواحد – احزرا .. – أعطاني هذه الرسالة إليك .

فهتف الإيطالي وهو يمسك الرسالة بفرح :
- نيفروتو .
وجلس جاك والتفت نحو توتي :
- قال لي نيفروتو أنهم في إيطاليا ، منذ خمسة عشر يوماً ، وبحجة القيام بمناورات كبرى ، قد استدعوا وسلحوا ثمانين ألفاً من الاحتياطي . فهل هذا صحيح ؟
- على كل حال . خمسة وخمسون أو ستون ألفاً .. نعم . ولكن ما لا يعرفه نيفروتو أن هناك اضطرابات خطيرة في الجيش . وخصوصاً في جيش الشمال . أعمال عديدة مخلة بالنظام ! والقيادة تجاوزت الحد وأقلعت تقريباً عن العقاب .
وارتفع في الصمت صوت فانهيد المغني :
- هكذا ، بالرفض ! بالهدوء ، ولن يبقى لعملية القتل مكان على الأرض .
وسرت ابتسامة عامة . وفانهيد وحده لم يبتسم . واحمرّ وجهه وصالب يديه الصغيرتين وصمت . وقال جاك :
- إذن ، في حالة التعبئة عندكم . ألا يتم الأمر بدون معارضة ؟
فقال توتي بقوة :
- كن مطمئناً .
ورفع صافريو أنفه عن الرسالة التي كان يقرأها :
- عندنا ، حين يجربون القيام بعمل سياسي يستند إلى الجيش ، فإن الشعب كله ، سواء أكان اشتراكياً أم لا ، فهو ضد ذلك .
وأوضح توتي الذي كان يتكلم فرنسية مضبوطة جداً :
- إن لنا عليكم ، أنتم الآخرين ، تفوقاً في التجربة . فغزوة طرابلس الغرب بالنسبة إلينا ، كانت البارحة . والشعب على علم : فهو يعرف ما يكلفه إسناد السلطة إلى عسكريين ! وأنا لا أتكلم فقط عن آلام التعساء الذين يقاتلون ؛

بل عن التعليم الفاسد الذي يخنق البلاد : تزوير الأخبار ، الدعاية القومية ، إلغاء الحريات ، غلاء المعيشة ، وجشع المنتفعين .. ان إيطاليا مرت في هذه الطريق . ولم تنس شيئاً . والحزب عندنا أمام تعبئة عامة يسهل عليه تنظيم « أسبوع أحمر » جديد .

وطوى صافريو الرسالة باعتنـــاء . ووضع الغلاف بين قميصه وصدره ، وطرف بعينه . وأمال نحو جاك وجهه الجميل الأسمر :

– شكراً .

في داخل الغرفة كان اليافع قد نهض وأخذ عن الطاولة زجاجة طويلة من الطين ذي المسام يحتفظ بالماء فيها مثلوجاً ، ورفعها بـكلتا يديه وشرب بجرعات كبيرة ، لبرهةٍ طويلة .

وقال صافريو ضاحكاً :

– كفى .

واقترب من الشاب وأمسك رقبته بمحبة :

– الآن ، تعال إلى فوق ! ستنام أيها الرفيق .

فتبعه الايطالي طائعاً نحو المطبـخ . وحيّا الآخرين برأسه تحية لبقة وهو يمر .

وقبل أن يخرج صافريو التفت نحو جاك :

– باستطاعتك التأكد أن إنذارات موسوليني في صحيفة « لافانتي » قد دمغت الآذان ! والملك والحكومة فهموا كلهم الآن جيداً ان الشعب لن يتبعهم أبداً في سياسة حربية .

وسمعوه يصعد الدرج الخشبي الصغير الموصل إلى الطابق .

وكان جاك يفكر . وقد رفع ذؤابته ونظر إلى توتي :

– هذا ما يجب إفهامه – ولا أقول للقادة الذين يعرفون هناك أكثر منا – ولـكن لبعض الأوساط القومية الألمانية والنمساوية التي لا تزال تعتمد على الحلف الثلاثي والتي تدفع حكوماتها نحو المغامرات .. – وسأل : – أتشتغل في

برلين دائماً ؟

ـ كلا .

قال توتي باختصار ، والنبرة ، والابتسامة الغامضة التي اجتازت نظرته كانتا تقولان بوضوح : « لا فائدة من السؤال .. شغل سري .. »

ودخل صافريو . وكان يهز رأسه ويضحك ؛ وقال لفانهيد :

ـ هؤلاء الصغار ، سريعو التصديق ! واحد جديد كاد يمسك به عميل محرّض .. من حسن حظه أن لديه ساقين جميلين للركض .. وعنوان الاب صافريو أيضاً !

والتفت بمرح نحو جاك :

ـ إذن يا تيبو ، هل جئت من باريس بشعور حسن بالثقة ؟

فابتسم جاك وقال بحرارة :

ـ أفضل من حسن !

وبدل فانهيد كرسيه وجاء يجلس بعكس الضوء ، بجانب جاك . كان يتألم كعصفور ليلي منذ أن يدير وجهه للضوء .

وتابع جاك :

ـ لم أقابل فرنسيين فقط ، بل رأيت أيضاً بلجيكيين ، وألمان وروس .. أن الأوساط الثورية أنذرت بالخطر في كل مكان . وقد فُهم إن التهديد خطير . وفي كل مكان تجمهر ، وبحث عن منهاج جامع . والمقاومة تَنَظَّم وتتجسم ، والإجماع على رأي ، واتساع الحركة – في أقل من أسبوع – يشددان القوى . ويُرى أي قوى تستطيع الاممية أن تحركها حين تريد ، وما حدث في هذه الأيام ، جزئياً ومنفصلاً ، في جميع العواصم ، لا يعد شيئاً إذا قورن بما يُنوى القيام به ! أن المكتب الاممي مدعو للاجتماع في بروكسل في الأسبوع القادم .

ـ نعم ، نعم ..

قال معاً توتي وصافريو اللذان لم تترك أنظارهما الحادة وجه جاك المليء

بالحيـــوية .

والشاحب اللون أيضاً طرف بعينيه ، وطوى نصفه الأعلى ليرى جاك الجالس إلى جانبه . وكان قد مد ذراعه على مسند جاك ، ووضع يده على كتف صديقه : كانت خفيفة جداً بحيث لم يشعر هذا بثقلها .

وتابع جاك :

– جوريس وجماعته يعلقون أكبر أهمية على هذا الاجتماع . مندوبو اثنين وعشرين بلداً مختلفاً ! وهؤلاء المندوبون يمثلون ، ليس فقط الاثني عشر مليوناً من العمال المسلحين ، بل بالفعل ، ملايين آخرين ، وجميع المتعاطفين ، وجميع المترددين ، وحتى بين خصومنا كل أولئك الذين يشعرون أمام خطر حرب. أن الأمميـــة وحدها تستطيع أن تجسد وتفرض إرادة سلام عامة الشعب ... سنعيش في بروكسل أسبوعاً سيكون تاريخياً . للمرة الأولى في التاريـخ سوف يستطيـع الصوت الشعبي ، صوت الأكثرية الحقيقية فرض الاستماع إليه ، وأن يطاع .

واهتز صافريو على كرسيه :

– برافو ! برافو !

وتابع جاك الذي استسلم للذة تأكيد ثقته الخاصة بأن يوضحها :

– ويجب النظر أيضا إلى أبعد من ذلك . فلو انتصرنا لن تكون فقط معركة كبرى ربحناها ضد الحرب . إن الأمر أكثر من ذلك . انه انتصار يمكن أن يعطي الأممية ..

في تلك اللحظة أدرك جاك أن فانهيد كان يتكىء على كتفه ، لأن اليد الصغيرة أخذت ترتجف فجـــأة . فالتفت نحو الشاحب اللـــون وضرب على ركبته :

– نعم ، يا صغيري فانهيد ! إن ما يُعَدُّ هناك هو تقريباً ، بكل بساطة ، ودون عنف غير مجدٍ ، نصر الاشتراكية في العالم ! – وأضاف وقد نهض بحدة : – هيا لنرى إذا كان الربان قد عاد .

كان متعجلاً قليلاً في امله ان يكون مينستريل قد عاد الى بيته . وقد اقترح جاك ، واضعاً ذراعه تحت ذراع الشاحب اللون :

– تعال معي لنجلس هنيهة في « لاتراي » .

ولكن فانهيد هز رأسه . فقد كان متكاسلاً .

منذ ان سكن جنيف ، لاحقاً بجاك ، ترك الطباعـــة على الآ لة الكاتبة وتخصص في الابحاث التاريخية . انه شغل اقل ثواباً ؛ ولكنه متمكن منه.ومنذ شهرين كان قد اتلف نظره في التهام نصوص لنشر « وثائق حول البروتستانية » كان قد شرع بها ناشر في ليبزيـغ .

ورافقه جاك حتى المكتبة. ثم، وقد بقي وحده، مر امام « مقهى لاندول » (الذي يتقاسم مع مقهى « غروتلي » نِعم الشبيبة الاشتراكية) ، ودخل .

وفوجيء بوجود باترسون هنـاك . كان الانـكليزي يرتدي بنطلون تنس ، وهو منهمك بتعليق قماشات لأجـل معرض سمح له به صاحب المقهى ليقيمه في مؤسسته .

وكان باترسون يبدو منهمكاً . وقد رفض عملاً بديعاً. فهناك اميركي ارمل، المستر ساكستون . ف . كليغ ، وقد فتنته رسومه عن الطبيعة الميتة ، فقدم له خمسين دولاراً ليرسم صورة بالحجم الطبيعي ، وفقـــاً لصورة فوتوغرافية غير ملونة ، بحجم بطاقة الزيارة ، للسيدة ساكستون . ف . كليغ التي لاقت حتفها في كارثة جبل بيليه . وقد بدا الأرمل الذي لا يتعزى ملحّاً على نقطة وحيدة : كان يريد ان تُبدل زينة السيدة ساكستون . ف . كليغ باحدث (موضـــة) باريسية . وكان باترسون يسهب بالكلام عن ذلك بسخرية .

وفكر جاك ، وهو ينظر الى الانـكليزي يضحك مظهراً اسنانه الجميـلة : « ان بات هو الوحيد بيننا الذي لديه المرح،المرح الحقيقي: التلقائي والداخلي».

وقال باترسون حين علم ان جاك ذاهب عند مينستريل :

– سارافقك الى آخر الطريق يا عزيزي . لقد تلقيت في هذه الايام رسائل غريبة وكثيرة من انـكلترا . ففي لندن يزعمون ان هالدان ينظم ، دون ضجة ،

جيشاً قويا للقيام بالمهام الحربيةويريد ان يكون مستعداً لكل شيء.والاسطول يظل في حالة تعبئة ... وبصدد الاسطول ، هل قرأت الصحف ؟ مجلة سبيتهيد Spithead ؟ جميع الملحقين بجيوش وبحريات اوروبا مدعوون بشكل احتفالي ليأتوا ويروا،طوال ست ساعات،مرور البواخر الحربية التي ترفع العلم البريطاني تحت انوفهم ، البعض وراء البعض الآخر ، متقاربين بقدر الامكان ، كموكب الاساريع في الربيع ، كما تعلم ... بالحقيقة، انه عرض جذاب ، اليس صحيحا؟

ثم قال محركا كتفيه : بلف ببلف !

كان يبدو تحت السخرية شيء من الكبرياء. وقد سخر جاك بينه وبين نفسه، وقال لنفسه : « لن يستطيع الانكليزي ، ولو كان اشتراكيا ، ان يظل غير متأثر امام مشهد بحري جميل » .

وسأل باترسون في اللحظة التي ترك فيها جاك :

– وصورتنا ؟ هناك مصير ملعون لهذه الصورة يا عزيزي. فترتا صباحٍ بعد، ليس اكثر . بشرفي ! فترتا صباح ... ولكن متى ؟..

كان جاك يعرف تصلب الانكليزي. والافضل ان يخضع للانتهاء باسرع ما يمكن .

– غداً اذا اردت . غداً الساعة الحادية عشرة ؟

– لا باس ، انت صديق حقيقي طيب يا جاك !

كانت الفريدا وحدها . بعباءتها ذات الزهور الكبيرة ، وبمخملها المصبوغ بالاسود ، وباهدابها ، تشبه كثيراً دمية من دمى الشرق الاقصى دون ان تريد ذلك . والذباب حولها يطن في أشعة الشمس التي تجتاز فجوات النافذة . وفي المطبخ قنّبيط يغلي ويملأ المنزل برائحته النتنة .

وبدت سعيدة جداً برؤية جاك .

– نعم ، لقد عاد الربان . ولكنه قال لي بواسطة مونيه ، ان هناك امراً جديداً ، وانه سيختلي في « المكان » مع ريشاردلي . وعلي ان ألحق به مع آلتي

الـكاتبة ...

وقالت مقترحة وقد أصبح وجهها جدّيا فجأة :

– تغدَّ معي وسنقطع الطريق معا .

كانت تنظر اليه بعينيها الجميلتين الوحشيتين،وقد شعر بشكل غامض جداً، انها جازفت بهذه الدعوة ليس بدافع اللطف المحض . هل كانت تريد ان تلقي عليه بعض الأسئلة ؟.. او تبوح له بسر ؟ لم يكن يهتم ابـــداً بالانفراد بالمرأة الشابة ؛ ثم انه كان متعجلاً لإيجاد مينستريل .

ورفض .

كان الربان يشتغل مع ريشاردلي في مكتبه الصغير في « لابارلوت » .

وكان الرجلان وحدهما . مينستريـــل واقف وراء ريشاردلي الجالس الى الطاولة ؛ والاثنان منحنيان على وثائق منشورة امامهما .

ولدى رؤية جاك فان وميض دهشة حبية تألق في اعماق عيني مينستريل . ثم تثبت نظره الحاد : لقد اجتازت عقـــله فكرة . فانحنى بهيئة مستفهمة نحو ريشاردلي ، واشار الى جاك بحركة من ذقنه :

– الى العمل ما دام قد عاد . ولماذا ليس هو ؟

فاستصوب ريشاردلي قائلاً : بالتأكيد .

وقال مينستريل :

– اجلس . لقد انتهينا . – ثم وجه الكلام الى ريشاردلي : – اكتب ... هذا للحزب السويسري .

وأملى بصوته الجاف الخالي من الرنة :

– المسألة عُرضت بشكل سيء ... والمشكلة ليست هنا . ماركس وانجلز في عصرهما كان بامكانهما التحيز الى هذه الامة او تلك . اما نحن فلا.فبين مختلف دول اوروبا ليس لدينا نحن ، اشتراكيي ١٩١٤ اي تمييز نقوم به . والحروب التي تهدد هي حرب استعمارية . ولن يكون لها هدف آخر سوى مصالح الرأسمالية

المالية . وجميع الامم ، مدرجة على نفس اللائحة . والهدف الوحيد للبروليتاريا يجب ان يكون دحر جميع الحكومات الامبريالية بدون تمييز . ورأيي هو : «حياد مطلق . . » ضع خطاً تحتها . وبواسطة هذه الحرب فان زمرتي القوتين الرأسماليتين ستلتهمان بعضهما البعض . وخطتنا ان نجعلهما تلتهمان بعضهما بعضاً وان نساعدهما على التهام بعضهما البعض . . . - كلا . امح هذه العبارة الأخيرة - واستخدم الحوادث . ان الدينامية في اليسار . وعلى الاقليات الثورية ان تشتغل لزيادة هذه الدينامية اثناء فترة الأزمة ، لتستطيع ، عندما تأتي اللحظة ، ان تفتح الثلمة التي ستمر الثورة منها .

وصمت . ومضت بضع لحظات . وقال بسرعة كبيرة :

- لماذا لم تأت فريدا ؟

واخذ دفتراً صغيراً كان على الطاولة ، وبدأ يكتب ملاحظات مقتضبة على قصاصات اوراق اعطاها لريشاردلي :

- هذه لأجل اللجنة . . . وهذه لبرن وبال . . . وهذه لزوريخ . . .

واخيراً نهض واقترب من جاك :

- اذن ، قد رجعت ؟

- لقد قلت لي : « اذا لم تتلق شيئاً مني الأحد او الاثنين . . »

- هذا صحيح . ان الأثر الذي كنت أراه لم يعط شيئا . ولكني كنت على وشك الكتابة اليك لتظل في باريس .

باريس . . . واستولى على جاك اضطراب غير متوقع وليس لديه وقت فراغ لتحليله . وبنوع من الاستسلام الجبان قليلا ، كما لو انه أقلع عن الكفاح ، وكما لو انه وضع على عاتق غيره ثقل المسؤولية ، فكر فجأة : « انهم هم الذين ارادوا ذلك ».

وتابع ميتستريل :

- سيكون مريحا في هذه الفترة ان يكون لنا واحد هناك . فالمعلومات التي ارسلتها لم تكن بلا فائدة . انها تكشف عن وسط لا أعرفه جيداً . لاحظ ما

يفعلونه في صحيفة الانسانية ، وفي المركز العام للشغيلة: فيما يتعلق بالمركز العام للشغيلة فلدينا مصادر اخرى .. علاقات جوريس مع الاشتراكية الديموقراطية مثلاً ؛ ومـع الانكليز . عمله في الكه دورسي في سبيل العلاقـات بين فرنسا وروسيا ··· وأخيراً كنتقد قلتُ لك كل هذا ··· هل وصلت هذا الصباح؟ ألست تعبا ؟

– كلا ·

– أقادر على العودة ؟

– حالاً ؟

– هذا المساء .

– اذا كان ضرورياً ! الى باريس ؟

فابتسم مينستريل :

– كلا . دورة صغيرة تقوم بها : بروكسل ، انفرس ... وسيوضح لـك ريشاردلي .. – وأضاف بصوت منخفض : – يجب ان تأتي حـالاً بعد طعامها !

وأطبق ريشاردلي الدليل الذي كان على وشك استشارته ، ورفع نحو جاك فمه المروّس :

– عندك قطار هذا المساء ، في الساعة ١٩ والدقيقة ١٥ ، يضعك في بـال نحو الساعة الثانية صباحا ، وفي بروكسل ، غداً عند الظهر . ومن هناك تذهب الى انفرس . يجب ان تكون فيها غدا ، الاربعاء ، قبل الساعة الثالثة مساء ... مهمة تتطلب بعض الاحتياطات لأن المقصود لقاء كنيابروفسكي ، وهو مراقَب أتعرفه ؟

– كنيابروفسكي ؟ نعم ، جيدا ·

قبل ان يلتقي جاك به سمع من يتكلم عنه في جميع الاوساط الثورية . اذن ففلاديمير كنيابروفسكي انتهى من تطهير آلامه في السجون الروسية . وما كاد ينال حريته حتى استعاد دوره كمهيّج . وقد رآه جـاك هذا الشتاء في جنيف ؛

وبمساعدة زيلافسكي ،ترجم لصحف سويسرية شذرات كتابٍ كان كينابروفسكي قد كتبه اثناء سجنه .

وقال ريشاردلي :

– احذر . إنه الآن حليق تماماً ، وهذا يغيّره كثيراً كما يبدو .

كان واقفاً ، متقوساً ، وابتسامته الدائمة على شفتيه الرقيقتين ، ويشمل جاك بنظره الذكي الثابت .

ومينستريل ، يداه وراء ظهره ، والسحنة قلقة ، كان يروح ويجيء خلال الغرفـة الضيقة ، ليعيد الدورة الدموية إلى ساقه المتيبسة . وفجـأة التفت نحو جاك :

– في باريس ، كان لديهم ثقة جنونية باعتدال النمسا ، اليس كذلك ؟

– نعم . البارحة في جريدة « الانسانية » اعلن ان المذكرة النمساوية لا تتوقع مهلة ...

وخطا مينستريل خطوة نحو النافذة ، ونظر إلى الساحة وعاد إلى جاك :

– هذا موضع نظر !

فتمتم جاك : آه !

واجتاحت اعضاءه ارتعاشة خفيفة ، ولامس جبهته شيء من العرق .

واكد ريشاردلي ببرود :

– أن هوسمر رأى بوضوح . فالحوادث تتسارع .

وكان صمت قصير . وعـاد الربان إلى رواحه ومجيئه . وكانت عصبيته ظـاهرة . وتساءل جاك : « هـل هي النمسا ؟ ام غياب الفريـدا ؟ » وقـال :

– ان فـايان وجوريس على صواب . يجب ان تترك الحكومات كل امل بحملها جماهير الشعب على القبول بسياستها الحربية . يجب اجبارهـا على التحكيم ! بالتهديد باضراب عام ! .. لقد رأيتم ان الاقتراح جرى التصويت عليه منذ ثمانية ايام بأكثرية كبيرة في المؤتمر الفرنسي . والناس كلهم متفقون

على المبدأ . ولكنهم في باريس يبحثون عن وسيلة لاقناع الالمان والحصول منهم على اظهار نواياهم بوضوح مثلنا .

فهز ريشارد لي رأسه :

– جهد ضائع... سوف يرفضون دائماً ... وحجتهم– حجة بليكانوف القديمة ، وحجة ليبكنخت – قوية جداً : بين شعبين غير متساويين اجتماعياً ، يضع الاضراب الامة الاكثر تطوراً من الناحية الاجتماعية تحت رحمة الامة الاقل تطوراً . وهذا هو الملموس .

– ان الالمان منومون مغناطيسياً بالخطر الروسي .

– هذا مفهوم ! آه ! منذ ان تصبح روسيا من الناحية الاجتماعية متطورة بشكل كاف ليصبح الاضراب في وقت واحد ممكناً في البلدين !

فلم يستسلم جاك وقال :

– اولاً ، ليس اكيداً ان الاضراب مستحيل في روسيا ؛ على الاقل ، اضرابات جزئية كاضرابات بوتيلوف والتي تستطيع ، وقد امتدت إلى مراكز اخرى ، ان تزعج الحزب العسكري بشكل مرموق .. ولكن لندع روسيا . يوجد حجة معينة لمعارضة النفوز القومي عند الاشتراكيين الديموقراطيين ، هي أن يقال لهم : « أن امر الاضراب العام المعلن عنه آلياً يوم التعبئة سوف يكون خطراً على ألمانيا . ليكن . ولكن الاضراب **الاحتياطي** ؟ ... ذلك الذي تحركه الاشتراكية اثناء فترة التوتر التمهيدية ، اثناء الازمة الدبلوماسية ، قبل ان تبدأ التعبئة ؟ أن تهديداً بالاضراب كهذا في الحياة الوطنية ، اذا كان جدّياً ، سوف يكفي لإجبار حكومتك على اللجوء إلى التحكيم ... » امام هذه الحجة ، فان الاعتراضات الالمانية يجب أن تسقط ، وهذه ، كما اعتقد ، هي نقطة الارتكاز التي سيتبنّاها الحزب الفرنسي في اجتماع المكتب في بروكسل .

ومينستربل ، الواقف امام طاولته ، منحني الرأس نحو اوراقه ، لم يظهر

مرة انه مهتم بالجدال . وقد انتصب وجاء يقف بين جاك وريشاردلي . ومرت على وجهه ابتسامة ماكرة :

— والآن يا اولادي . اذهبوا . لدي شغل . سنتكلم فيما بعـــد .. عودا كلا كما في الساعة الرابعة — . وألقى نحو النافذة المفتوحة نظرة شبه قلقة — لا افهم أن فريـــدا .... — ثم وجّه الكلام إلى ريشاردلي : — أولاً : اعطِ جـــاك جميع الايضاحات الضرورية لأجل اللقاء مع كنيابروفسكي . ثانياً : سوِّ معه مسألة المال ، لأنه سوف يبقى غائباً اسبوعين أو ثلاثة تقريباً .

وكان وهو يتكلم يدفعهما نحو الباب الذي أطبقه وراءهما .

٢٧

تحت الشمس المرهقة في فترة جميلة بعد الظهر ، كانت مدينة انفرس تتشنج كمدينة اسبانية .

وقبل ان يسير جاك في الطريق طارفا بجفونه في هذا الأتون ، القى نظرة على ساحة المحطة ؛ الساعة الثانية والدقيقة العاشرة . وقطـــار امستردام لن يصل الا في الساعة الثالثة والدقيقة الثالثة والعشرين ؛ والافضل أن يظهر اقل ما يمكن داخل المحطة .

وكان وهو يجتاز الشارع يتفحص بسرعة الناس الجالسين إلى موائد امامه على سطيحة حانة لشرب الجعة . واطمأن دون شك فاستهدف طاولة فارغة على حدة وطلب جعة . ورغم الساعة فان المكان كان مقفراً تقريبا . والمشاة ، لـكي لا يتركوا الرصيف الموجود في الظل ، كانوا يقومون كلهم بنفس الدورة كالنمل . وهناك قطارات كهربائية آتية من جميع نواحي المدينة ، جارةً تحتها ظلها الاسود ، كانت تتلاقى عند مفترق الطرق ، وعجلاتها المحرقة تصر على الخطوط الحديدية المنحنية .

في الساعة الثالثة والدقيقة العشرين نهض جاك وسار إلى الشمال ليدخل

المحطة من الواجهة الجانبية . قليل من الناس فيقاعة الانتظار . وعجوز بلجيكي، بملابس غير لائقة ، يعتمر قبعة من نوع Képi ، كان يرسم الرقم 8 على البلاط المليء بالغبار بواسطة مرشّة .

وفوق ، كان القطار قد وصل إلى الرصيف .

وجاء جاك ، وهو يقرأ صحيفته ، يقف في اسفل الدرج ، عند مكان خروج المسافرين ، وبدون ان يتصفح وجه أحد تطلع لاهيا إلى الناس الذين يسيرون امامه . ومر من هناك رجل في الخمسين من عمره يعتمر قبعة من نوع Casquette ؛ كان يرتدي قماشا رمادي اللون ويحمل تحت ذراعه رزمة صحف. ومضت الموجة بسرعة . وبعد قليل لم يبق سوى المتأخرين ؛ بعض العجائز من النساء يهبطن الدرجات بتعب .

وعندئذٍ وبما أن الشخص الذي ينتظره لم يأت ، فان جاك دار على عقبيه نصف دورة ، وخرج من المحطة بحركة متكاسلة . وشرطي حاذق على علم مسبق ، هو وحده يستطيع ملاحظة النظرة التي القاها من فوق كتفه ، قبل أن يغادر الرصيف .

وعاد إلى شارع كيزر حتى شارع فرنسا ، وبدا متردداً كسائح يبحث عن الريح ، ودار إلى اليمين ، ومر امام المسرح الغنائي حيث تفحص الاعلان لحظة ، ودخل دون عجلة في احدى تلك الحدائق الصغيرة الموجودة امام قصر العدل . وهناك عاين مقعداً فارغا ، فسقط عليه ومسح جبهته .

في المشى عصابة من الاولاد ، غير عابئين بالحرارة ، كانوا يلعبون بالكرة . واخرج جاك من جيبه صحفا مطوية وضعها على المقعد بجانبه . ثم اولع سيكارة. وبما أن الكرة كرجت حتى قدميه فانه صادرها ضاحكا . واحاط الاولاد به صارخين . فقذف الكرة واخذ يلعب معهم .

بعد بضع دقائق ، وعلى طرف المقعد ، جاء يجلس متنزه آخر . كان يمسك بيده عدة صحف مطوية بشكل سيء . انه غريب بالتأكيد ؛سلافي دون شك. القبعة غارقة فتغطي الجبهة . وقد رسمت الشمس بقعتين واضحتين على

الوجنتين ، والوجه الاجرد كان وجه رجل مسن : وجه مخدد ، اخرب . نشيط . والصبغة الشهباء ،بلون الخبز المحمص ، تشكل تناسقاً عجيباً مع العينين اللتين كان الظل يمنع تمييز لونها الصحيح ، ولكنهما كانتا جليتين ، زرقاوين أو شهباوين ، ساطعتين بشكل غريب .

وأخرج من جيبه سيكارة ، والتفت نحو جاك ، ولمس حافة قبعته بأدب . ولكي يولع سيكارته من سيكارة جاك اضطر إلى الانحناء والاستناد إلى المقعد باليد التي تمسك برزمة الصحف ، وتلاقت عيناهما . وانتصب الرجل ووضع الصحف على ركبتيه . وبرشاقة شديدة اخـذ صحف جاره وترك صحفه على المقعد بجانب جاك الذي وضع يده فوقها باهمال .

العينان في البعيد ، ودون أن يحرك الشفتين ، وبصوت لا يفهم الا بالجهد ـ هذا الصوت الخشبي ، الصوت الذي كأنه خارج من البطن والذي يتعلم المرء سره في السجون ـ تمتم الرجل :

ـ الغلاف في الصحف.. ويوجد أيضاً الاعداد الأخيرة من صحيفة البرافدا.

ولم يترك جاك . واستمر بشكل طبيعي جـداً يلهو مع الأولاد . وقذف الكرة إلى بعيد ، فاندفع الأولاد ؛ وكان عراك ، ونضال ومرح ؛ وعاد الرابح بالكرة منتصراً ، وعاد اللعب من جديد .

كان الرجل يضحك ويبدو ، هو أيضاً ، انه ينال نصيبه من السرور بهذه التسلية . وبعد ذلك اعطاه الأولاد الكرة ، له هو ، لأنه قذفها بقوة أكثر من جاك . وما ان اصبح الرجلان وحدهما حتى اغتنم كنيابروفسكي الفرصة ليتكلم ، دون أن يرخي أسنانه المشدودة ، بعبارات صغيرة مقطعة ، بسهولةٍ وسرعةٍ حادّة وخفية :

ـ في بطرسبورج.. نهار الاثنين،مائة وأربعون الفمضرب..مائةوأربعون الفاً .. حالة حصار في عدة أحياء .. التلفونات مقطوعة ، وكذلك القطارات الكهربائية.. خيالة الحرس.. استدعوا أربع فرق كاملة مع المدافع الرشاشة .. فرق من القوزاق ، ومفارز من ..

وكان الاولاد قد عادوا كالاعاصير وأحاطوا بالمقعد . فأخفى نهاية عبارة في نوبة سعال . وتابع بعد أن قذف الكرة حتى منتصف المرج الأخضر :

– ولكن الشرطة ، والجنرالات لا يستطيعون شيئاً .. فتن أثر فــتن .. كانت الحكومة قــد وزعت اعلاماً فرنسية لأجل بوانكاريه .. فصنعت النسوة منهــا اعلاماً حمراء . حملات على الخيل . اطلاق رصاص .. لقد رأيت معركة في حي فيبورغ .. رهيبة .. ومعركة أخرى في محطة فرصوفيا .. وأخرى في ضاحية ستاغارادبريفنيا .. وأخرى في الليل ، في ..

وصمت من جديد بسبب الأولاد . وفجأة أمسك بأصغرهم بنوع من الرأفة الشديدة – شاحب أشقر في الرابعة أو الخامسة من عمره – هدهده على ركبتيه ضاحكاً ، وقبله قبلة كبيرة على فمه ؛ ثم أراحه ، وهو شديد الحيرة ، وأخذ الكرة وقذفها .

– المضربون ليس معهم سلاح . بلاط ، زجاجات ، أوعية معدنية للبترول .. ولإيقاف الحمــلات اشعلوا النار في البيوت .. وقد رأيت جسر سمسونيفسكي يحترق .. الحريق قائم كل الليل ، وفي كل مكان .. مئات الموتى .. مئــات المئات من الموقوفين .. الناس كلهم موضع شبهة .. وصحفنا مُنعت من الصدور نهار الأحد .. ومحررو صحفنا في السجن .. انها الثورة .. وكان هناك متسع من الوقت . بدون الثورة فهي الحرب .. ان رئيسكم بوانكاريه سبّب الشر عندنا ، كثيراً من الشر ..

والوجه الملتفت نحو المرج الأخضر حيث كان الاولاد يتدافعون كان يبدو انه يضحك ، ولكن لم يكن يجري على شفتيه الا فتحة فم شرسة . وقال بقناعة :

– الآن ، انا ذاهب ! وداعاً .

فقال جاك هامساً : نعم .

ومع ان المكان كان مقفراً فقد كانت اطالة اللقاء بدون فائدة . وهمس متضايقاً :

– اعائد انت .. إلى هناك ؟

فلم يجب كنيابروفسكي حالاً . نصفه الاعلى منحنٍ ، والمرفقان على الفخذين ، والكتفان متعبان ، كان يتأمل رمـــل الممشى بين فردتي حذائه . وجسده المسترخي بدا مستسلماً للضعف . ولاحظ جاك غضون الاستسلام هذه — وبشكل اصح غضون الصبر — التي حفرتها الحياة ، على طول المدى ، في ناحيتي الفم . وقال رافعاً جبهته :

— نعم . إلى هناك .

وجال نظره في الفضاء ، والحديقة ، وواجهات البيوت البعيدة ، والسماء الزرقاء ، دون أن يستقر في مكان ، مع التعبير التائـــه العزوم لرجل دائم الاستعداد لجميـــع انواع الجنون .

— عن طريق البحر .. همبورغ .. لدي وسيلة مأمونة للعودة .. ولكن الأمر هناك ، كما تعلم ، بات صعباً بالنسبة الينا ..

ووقف دون عجلة : — صعب جداً .

وأخيراً أعاد نظره نحو جاك ، ولمس حافة قبعته بأدب كجار الصدفة الذي يستأذن بالرحيل . وتبادلت عيونهما تحيـــة وداعٍ قلقة ، أخوية . وتمتم قبل أن يبتعد :

— حظ سعيد .

ورافقه الأولاد بضحكهم وصراخهم إلى أن اجتاز السياج الحديدي . وتبعه جاك بنظره . وحين اختفى الروسي ، وضع في جيبه رزمة الصحف التي ظلت على المقعد ؟ ونهض بدوره وتابـــع نزهته بهدوء .

في المساء نفسه خاط في بطانة سترته الغلاف الذي أعطاه اياه كنيابروفسكي ، واخذ القطار مّن بروكسل إلى باريس .

وفي الغد ، الخميس ، منذ الساعة الأولى ، كانت الوثائق السرية قد أعطيت لشينافون الذي يجب أن يكون مساءً في جنيف .

٢٨

هذا الخميس ، في الثالث والعشرين ، ومنذ ساعة مبكرة ، لجأ جاك إلى « مقهى التقدم » ليقرأ فيه الصحف ؛ وجلس في القاعة السفلى ليتجنب « لابارلوت » الموجود في (الأنترسول) .

كان التعليق على دعوى مدام كايو يملأ كامل الصفحة الأولى من جميع الصحف اليومية تقريباً .

وفي الصفحة الثانية او الثالثة قصدت بعض الصحف ان تعلن باختصار ان مصانع أعلنت الاضراب في بطرسبورج ،ولكن الفتنة العمالية توقفت حالاًبسبب تدخل الشرطة الفعّال . وعوضاً عن ذلك خصصت اعمدة بكاملها للحفلات التي اقامها القيصر للسيد بوانكاريه .

أما « النزاع » النمساوي – الصربي فقد ظلت الصحف مراوغة بصدده . وهناك مذكرة رسمية دون شك ، معروضة في كل مكان ، أوضحت أنهم يعتقدون في دوائر الحكومة الروسية بوجه عام انه يجب ازالة التوتر بسرعة وبالطرق الدبلوماسية ؛ ومعظم الصحف كانت تؤكد ، بمجاملة ، ثقتها بألمانيا التي عرفت دائماً ، طوال مدة الأزمة البلغارية أن تنصح حليفتها النمسا بالاعتدال .

ولكن صحيفة العمل الفرنسي (لاكسيون فرانسيز) وحدها أبدت قلقها بشكل ظاهر . وكانت الفرصة مناسبة لتوجيه الاتهام بأكثر ما يمكن من العنف ، إلى الضعف النوعي للحكومة الجمهورية حول السياسة الخارجية ، واستهجان مناهضة احزاب اليسار للنزعة الوطنية . وكان الاشتراكيون هم المقصودون بوجه خاص . وشارل موراس[1] ، غير المسرور بان يردد أن جوريس خائن لحساب ألمانيا ، كما كان يفعل كل يوم ومنذ سنوات ، اثارت

---

١ ـ شارل موراس: كاتب فرنسي ولد في مونيخ١٨٦٨.مدير صحيفة العمل الفرنسي.دخل المجمع العلمي عام ١٩٣٨ وشطب اسمه عام ١٩٤٥ وحكم عليه بالسجن المؤبد .

سخطه النداءات المهتزة الداعية إلى السلام الدولي والتي كانت تضاعفها صحيفة « الانسانية » ، فبدا اليوم كأنه يشير إلى جوريس بخنجر شارلوت كورداي[1] المحرر ، وقد كتب بجرأة حكيمة : « نحن لا نريد أن نتهم شخصاً معيناً بالقتل السياسي . ولكن ليستولي الرعب على السيد جوريس . ان مقاله خليق بان يوحي لأحد المجانين الرغبة في ان يحل بالأسلوب الاختباري مسألة معرفة ما إذا كان لم يتغير شيء في الأمر الذي لا يقاوم في حالة تعرض السيد جان جوريس للمصير الذي تعرض له السيد كالميت Calmette » .

وكاديو الذي نزل ، مرّ كالعاصفة :

– ألا تصعد ؟ انهم يتناقشون بقوة فوق .. الأمر شائق : فهناك نمساوي بهمة ، الرفيق بوهم الذي وصل من فيينا .. ويقول ان المذكرة النمساوية ستسلم هذا المساء إلى بلغراد .. حالما يترك بوانكاريه بطرسبورج .

فقال جاك وهو ينهض حالاً :

– هل بوهم في باريس ؟

كان سعيداً جداً لفكرة رؤية النمساوي من جديد .

وصعد الدرج الصغير الحلزوني ، ودفع الباب وشاهد ، فعلاً ، الرفيق بوهم جالساً بهدوء أمـام قدح جعة ، ومعطفه الواقي الاصفر مطوي على ركبتيه . وحوالي خمسة عشر مناضلاً يحيطون بـه ويهاجمونه بالأسئلة ؛ وكان يجيبهم باسلوب ، ماضغاً عقب سيكاره الخالد .

واستقبل جاك برفة عين حبية كأنه تركه البارحة .

والأخبار التي كان يحملها حول الاستعدادات البلقانية في فيينا وحول هياج الرأي العام النمساوي – الهنغاري كانت تبدو انها اثارت اشمئزازاً وقلقاً

٥

١ - شارلوت كورداي : ولدت في شامبو ١٧٦٨ . قتلت الزعيم الارهابي مارا بخنجرها وهو في الحمام لتثأر للأذى الذي لحق بالجيروندديين كما قالت . وقد نفذ فيها حكم الاعدام في ١٧ تموز ١٧٩٣ . وهي من سلالة الشاعر الفرنسي الكبير كورناي .

عامّين . واحتمال انذار اعتدائي اخير ترسله النمسا الى الصرب كان يبدو في الظروف الحالية مجلبةً لتعقيدات اكثر خطورة من مذكرة إضافية ارسلت الى جميع مستشاريات اوروبا من قبل رئيس مجلس الوزراء الصربي باشيتش لينذر الدول بألا تعتمد كثيراً على جمود الصرب ، وان هذه عازمة على رد كل مطلب فيه تلويث لشرفها .

وبوم ، دون ان يريد تبرير سياسة بلاده المغامرة ، كان يحاول ان يوضح سخط النمسا من الصرب (ومن روسيا) على أثر منكّدات لا تنقطع أوقعها هذا الجار الصغير الطائش ، بدعم وبدافع من العملاق الروسي ، في حب النفس الوطني عند النمساويين . وقال :

– لقد جعلني هوسمر اقرأ مذكرة دبلوماسية ، سرية ، كتبها سازانوف وزير بطرسبورج ، منذ عدة سنوات ، الى سفيره الروسي في الصرب . وقد أشار سازانوف عمداً الى ان قطعةً من اراضي النمسا قد وعدت روسيا الصربيين بها .

– وأضاف : – وهذا مستند ذو أهمية بالغة لأنه البرهان على ان الصرب ، وروسيا من ورائها ، هي بالحقيقة التهديد الدائم ضد سلامة النمسا .

وهتف من طرف الطاولة عامل هرم يرتدي سترة زرقاء :

– دائماً مساوىء السياسة الرأسمالية . فجميع حكومات اوروبا ، ديموقراطية كانت ام لا ، بدبلوماسيتها الخفية ، ودون رقابة شعبية ، هي ادوات المالية الدولية ... واذا كانت اوروبا قد تجنبت الحرب منذ اربعين سنة فذلك ، ببساطة ، لأن رجال المال يفضلون تطويل أمد هذا السلم المسلّح الذي تزيد الدول أثناءه من ديونها .. ولكن اليوم الذي يصبح من مصلحة المصرف العالي ان تنفجر فيه الحرب ؟...

ووافق الجميع بضجة ، وقليلاً ما كان يهمّهم ان لا يكون لهذه المقاطعة للكلام سوى علاقة بعيدة مع الأسئلة المطروحة التي يعالجها بوم .

وهناك مراهق يعرفه جاك بالنظر ، كان قد لاحظ نظرته المنتبهة المحمومة ، ووجهه يشي بالسل التدرني ، خرج فجأة عن صمته ليلقي بصوت اجوف نصّاً

لجوريس حول اخطار الدبلوماسية السرية .

واستفاد جاك من الضجة التي تلت ، فاقترب من بوهم وأخذ منــه موعداً ليتناول معه طعام الغذاء ، وبعد ذلك أنصرف تاركاً النمساوي يعود الى عرضه بذلك الإصرار الصبور الذي يبذله في مضغ سيكاره .

الغذاء مع بوهم . عدة احاديث في مكاتب جريدة « الانســــانية » . بعض الخطوات الضرورية التي رجاه ريشاردلي ان يقوم بهـا منذ وصوله الى باريس ؛ ثم، في المساء، اجتماع اشتراكي في لوفالوا على شرف بوهم ـ حيث تسنح له الفرصة ليتكلم ويقول ما يعرفه عن اضطرابات بطرسبورج – كل هذا كان يشغـل تماماً ذهن جاك اثناء هذا اليوم الاول الذي لم يكن فيــه من الفراغ ما يجعله يفكر بآل فونتانان . الا ان الفكرة ساورته مرتين او ثلاث ليتكلم هاتفياً مع العيادة في شارع بينو ، ليسأل اذا كان جيروم لا يزال حياً . ولكن هل يخبرونه اذا لم يعط اسمه اولاً؟من الافضل ان يتفادى ذلك، كان يفضل الا يكشف عن وجوده في باريس ،الا انه،في المساء،وقد عاد الى غرفته الصغيرة على رصيف التورنيل ، اضطر الى الاعتراف قبل ان ينام ان الجهل الذي حكم به على نفسه ، والذي لا يمكن ان يترك له عقله حراً ، كان يضايقه اكثر ممـا تضايقه الايضاحات الجديدة .

وصباح الجمعة ، عندما نهض ، اجتاحه ميـل ليكلم انطوان بالهاتف ، وقال لنفسه وهو يستشير ساعته : « وما الفائدة ؟ ماذا يهمني ؟ الساعة السابعة والدقيقة العشرون . لو اردت الوصول اليه قبل مستشفاه فليس لدي سوى الوقت اللازم لذلك » .

وقفز من السرير دون ان يتردد زيادةً على ذلك .

وفوجيء انطوان تمام المفاجأة عند سماعه صوت اخيه. وقد اعلمه ان السيد دي فونتانان قد مات أخيراً في تلك الليلة نفسها ، بعد ثلاثة ايام من الاحتضار ، ودون ان يستعيد وعيه . وأضاف : « سيكون الدفن غدا ، السبت . أتكون

لا تزال في باريس ؟.. ان دانيال لا يترك العيادة ، تأكد من انك ستجده في اية لحظة ...»

لقد بدا انطوان انه لم يشكّ ابدا في رغبة اخيه في رؤية دانيال . واقترح :

ـ أتأتي لتناول الغذاء معي ؟

فابتعد جاك عن جهاز الهاتف بحركة ملل وعلّق السمّاعة .

أعلنت صحف الرابع والعشرين عن تسليم « مذكرة » نمساوية الى الصرب . ومعظم هذه الصحف ـ ويجب ان يكون هذا بناءً على امر ـ كانت تكتفي ببعض التعليقات المراوغة .

وكان جوريس قد خصص مقاله اليومي للإضطرابات الروسية . وكانت النبرة خطيرة بشكل خاص ، فقد كتب :

«يا له من تنبيه لدول اوروبا ! الثورة على وجه الارض في كل مكان. وسيكون القيصر غير حكيم اذا أطلق حرباً اوروبية من عقالها او تركها تنطلق ! وستكون غير حكيمة ايضاً مملكة اوستريا ـ هنغاريا اذا خضعت لفورات حزبها الاكليركي والعسكري العمياء وخلقت بينها وبين الصرب ما لا يمكن اصلاحه ! ان مجموعة ذكريات رحلة المسيو بوانكاريه قد اغتنت بصفحة مضطربة ، دمغتها دماء العمال الروس ، بتنبيه فاجع ! »

في مكاتب صحيفة « الانسانية » لم يبق اي شك حول نبرة المذكرة : لقد كان لها صفة الانذار الرسمي ، وكان يُخاف من أسوأ . وكان ينتظر عودة جوريس بنوع من العصبية : فقد عزم المعلم فجأة هذا الصباح على القيام بمسعى شخصي لدى الكه دورسي ، عند السيد بيانفيني ـ مارتان المكلف بالوكالة عن السيد فيفياني .

كان يسيطرّ على محرري الصحيفة نوع من التشويش . وكانوا يتساءلون بقلق ماذا ستكون ردود الفعل الاوروبية . وغالو ، وهو متشائم بحكم الطبيعة ، زعم ان الاخبار الآتية هذه الليلة من المانيا وايطاليا تبعث على الخوف من ان يكون

الرأي العام الوسط في هذين البلدين ، والصحافة ، حتى بعض احزاب اليسار يعطفون على الحركة النمساوية . ويعتقد ستيفاني مع جوريس ان اشمئزاز الاشتراكيين الديموقراطيين في برلين سوف يظهر باعمال نشيطة سيكون لهـا دوي ٌعظيم ، ليس في المانيا فقط ، بل خارج الحدود الالمانية .

وعند الظهر تفرغ المكاتب .وكان دور ستيفاني في القيام بتأمين الاستمرار، واقترح جاك أن يرافقه ، ليستطيع إلقاء نظرة على الملف المتعلق باجتماع المكتب الاممي الذي يجب أن ينعقد في بروكسل في الاسبوع التالي . وكان الجميع يبنون آمالاً كبيرة على هذا الاجتماع غير المعتاد . وكان ستيفاني يعلم أن فايان و كير- هاردي ، وعدة رؤساء آخرين من الحزب قـد اقترحوا أن يضعوا على جدول الاعمال مناسبة الاضراب العام في حالة الحرب . فأي استقبال كان يحتفظ به الاشتراكيون الاجانب ، وخصوصاً الانكليز والالمان ، لهـذه المسألة الاساسية ؟

في الساعة الواحدة لم يكن جوريس قد ظهر ؛ ونزل جاك ليتناول شيئاً في « مقهى الهلال » ايمكن أن يكون المعلم يتناول طعامه هناك ؟ .

انه لم يكن هناك .

كان جاك يبحث عن زاوية حرة حين حيّاه الماني شاب ، هو كيرشانبلات ، الذي كان قد التقاه في برلين ورآه عدة مرات في جنيف . وكان كيرشانبلات يتغذّى مع رفيق ، وألحّ ليجلس جاك على مائدتهما . وكان الرفيق المانياً ايضاً يدعى واك Wachs ؛ ولم يكن يعرفه .

كان الرجلان يختلفان بشكل غريب . وفكر جاك ؛ « إنهما يرمزان إلى نموذجين مميزين من المانيا الشرقية : « الزعيم و... الآخر ! » .

كان واك عامل تعدين قديم . وقد بلغ الاربعين ؛ قسماته ثقيلة ، سلافية بشكل مشوش ، ووجنتان عريضتان ، وفم مناسب ، وعينان جليتان مليئتان بالمثابرة والاحتفالية . وكان يبقي يديه الكبيرتين مفتوحتين ، كآلتين جاهزتين

للعمل . وكان يصغي ، ويستصوب بإشارة ، ولكنه يتكلم قليلاً . وكل شي، فيه يكشف عن نفس دون اضطراب ، وشجاعة هادئة ، وجَلَد ، وتذوق النظام ، وغريزة الاخلاص .

وكان كيرشانبلات اصغر منه سناً بكثير . وهيكل عظام رأسه الصغير ، المستدير ، القائم على عنقٍ رقيق يبعث على التفكير بجمجمة عصفور ، ووجنتاه بعكس وجنتي واك ، لم تكونا تنتشران بالعرض ، بل تشكّلان تحت العينين نتوئين شبه مروّسين،والسحنة بوجه عام رصينة ومنتبهة ، تنعشها احياناً ابتسامة مقلقة ؛ ابتسامة تمتد فجأة من زوايا الشفتين ، كابحةً الجفون ، مغضنة الصدغين ، شامرةً الشفتين عن الاسنان ؟ وشعاع من الشهوانية قاس قليلاً كان يتألق في النظرة . بعض كلاب من فصيلة (الشيان ـ لو) تكشف اسنانها حين تلعب . كان يرجع بأصله إلى بروسيا الشرقية ، ابن استاذ ؛ انه واحد من اولئك الالمان المثقفين ، من اتباع نيتشه ، الذين اقترب جاك منهم كثيراً في الاوساط السياسية المتقدمة في المانيا . ان القانون بنظرهم لا وجود له . وشعور خاص بالشرف ، ورومانتيكية فروسية ، وتذوق حياة منمتقة وخطرة كانت توحدهم في نوع من الطائفة ذات الامتياز ، واعيةً لأرستقراطيتها جداً . وكيرشانبلات المتمرد على النظام الاجتماعي المدين له بتكوينه الفكري ، كان يعيش على حاشية الاحزاب الثورية الدولية ، كثير الفوضوية بمزاجه ليتعصب دون تحفظ للاشتراكية ، ومتكدر بالغريزة من النظريات الديموقراطية والمساواة بقدر ما هو متكدر من الامتيازات الاقطاعية التي لا تزال تعيش في المانيا الامبراطورية .

والحديث ـ بالالمانية لأن واك يفهم الفرنسية بصعوبة ـ اتجه دفعة واحدة نحو موقف برلين حيال السياسة النمساوية . وكان كيرشانبلات يبدو أن معلوماته جيدة حول الحالة النفسية لموظفي الامبراطورية الكبار . وقد علم ان شقيق القيصر [1] ، الامير هنري ، كان قد اسرع إلى لنـــدن بمهمة خاصة لدى ملك

١ ـ القيصر Keiser : يدل على امبراطور المانيا. اما القيصر Tsar فيدل على امبراطور روسيا.

انكلترا ؛ مسعى غير رسمي كان يبدو في تلك الفترة انه يدل عند غليوم الثاني على همٍ شخصي بان يتقاسم مع جورج الخامس وجهـــات نظره حول النزاع النمساوي الصربي .

وقال جاك :

– اية وجهات نظر ؟ هذا السؤال كله ... ما هي نسبة (الشانتاج) في موقف الحكومة الامبراطورية ؟ . ان تروتنباخ الذي رأيته في جنيف يزعم انه استقى من مصادر حسنة الاطلاع ، أن القيصر (الالماني) شخصياً ، يأبىالنظر في احتمال وقوع حرب . ومع ذلك ، يبدو مستحيلاً ان تتحرك النمسا بمثل هذه الجسارة دون أن تكون واثقة من مساندة المانيا .

فقال كيرشانبلات :

– نعم من المحتمل في نظري أن القيصر (الالماني) قد قبل ووافق على مبدأ المطالب النمساوية . وانه يدفع فيينا إلىالعمل بأكبر سرعة ممكنة ليضع اوروبا امام عملٍ قد تمّ ... الامر الذي هو بالاجمالنزعةسلام ممتازة – وابتسم بخبث – ولكن نعم ! ما دامت هذه هي افضل وسيلة لتجنب رد فعلٍ روسي ! الاسراع في حرب نمساوية صربية لانقاذ السلام الأوروبي ! – ثم عاد جديـــاً فجأة : – ولكن من الراهن ايضاً أن القيصر – وقد أشير عليه بأن يكون كذلك – قد راز الخطر : خطر الفيتو الروسي ، خطر حرب عامة . الا أنه قيم هـــذا الخطر بلا شيء تقريباً . فهل هو على صواب ؟ الأمر كله هنا . – وتشنجت قسمات وجهه من جديد بابتسامة شيطانية : – اني في هذه اللحظة اتخيل القيصر كمقامر في يده أوراق جيدة ، وأمامه مقامرون خائفون . ومن المؤكد ان الفكرة ساورته بانـــه يستطيـــع أن يخسر بضربة من سوء الحظ . الخسارة ممكنة دائماً ... ولكن الأوراق جيدة : فكيف يمكن أن يخاف سوء الحظ إلى درجة الكف عن المجازفة بهذه الأوراق الجيدة ؟

وكان يُشعر من الصوت اللاذع ، وجسارة الابتسامة ان كيرشانبلات كان

يعرف عن تجربة ما هو ان يكون لدى المقامر ورق جيد وان يركض وراء حظه بإقدام.

٢٩

لقد تم وضع جيروم في النعش عند مطلع النهار ، كما هي العادة في العيادة ، وعلى أثر ذلك حمل التابوت إلى داخل الحديقة ، إلى الكوخ الذي سمحت الادارة فيه للمرضى الاموات ان ينتظروا المأتم بعيدين بقدر الامكان عن المرضى الأحيـاء .

ومدام دي فونتانان ، الـتي لم تترك الغرفة تقريباً طوال مدة الاحتضار الطويل لزوجها، دخلت إلى الغرفة الضيقة في الطابق تحت الأرض حيث وضعت الجثة هناك . كانت هناك وحدها ، وجني قد خرجت : فقد كلفتها امها ان تذهب إلى شارع الاوبسرفاتوار وتأتي بالملابس السوداء التي تحتاجانها في احتفال الغد ؛ ودانيال الذي رافق شقيقته حتى السياج الحديدي ، تأخر ليدخن سيكارة في الحديقة .

كانت جالسة بعكس النور على كرسي من قش تحت نافذة كانت تنير القبو ، مستعدة لقضاء هـذا اليوم الأخير هناك . كانت عيناها ثابتتين على النعش الذي يستند عارياً على قائمتين سوداوين ، في منتصف الغرفة . ولم يكن لشخصية الميت من علامة خارجية سوى الإطار النحاسي المحفور ، بحيث يستطيع المرء ان يقرأ فيه :

جيروم — ايلي دي فونتانان

١١ ايار ١٨٥٧ — ٢٣ تموز ١٩١٤

كانت تشعر انها مطمئنة وهادئة : تحت حراسة الله . وأزمة المساء الأول. تلك اللحظة من الضعف التي تبررها مفاجأة المأساة ، كانت قد مرت . ولم يبق فيها سوى حزن رزين غير لاذع . كانت معتادة على أن تعيش باتصال واثق بالقوة التي تضبط الحياة الكونية ، بذلك **الكل** الذي يجب على كلٍ منا أن

يذوّبَ فيه ذات يوم شكله الزائل . ولم تكن تشعر أمام الموت بأي خوف . وحتى وهي فتاة ، أمام جثة أبيها ، لم تكن تعرف أي شعور بالرعب ؛ لم تشكّ لحظة واحدة ان الوجود الروحي لذلك الدليل الذي تجلّه ، سوف تحتفظ به بعد التلف العضوي ؛ وبالفعل فإن هذا السند لم ينقصها ابداً؛ولم ينقطع الراعي - وكان لديها برهان هذا الأسبوع - عن أن يمتزج بقوة بحياتها ، بكفاحها ، وان يشرف على مناقشاتها ، ويوحي بمقاصدها .

ونظير ذلك فانها اليوم لا تستطيع ان تفهم موت جيروم كأنه نهاية . ما من شيء يموت : كل شيء يتحول ، كل شيء يتجدد ؛ الفصول تتبع الفصول. وأمام هذا النعش،المختوم إلى الأبد على المادة القابلة للفناء ، كانت تشعر بهوس صوفي، شبيه بالشعور الذي كان يستولي عليها كل خريف ، حين كانت ترى ، في حديقتها في ميزون ، الأوراق التي رأتها تتبلج في الربيع ، تنفصل واحدة إثر واحدة ، في ساعتها دون ان يفسد انفصالها في شيء تلك القوة الخفية للجذع حيث يكمن النسغ ، وحيث تستمر **الحالة الحيوية** . لقد ظل الموت بالنسبة إليها ظاهرة حياة ، والتأمل دون رعب بهذه العودة المحتومة إلى الإنباتات الأبدية هو مشاركة متواضعة بقوة الله .

كانت برودة المكان الضريحية تمتزج بالرائحة العذبة ، المنفرّة قليلاً ، للورد الذي وضعته جني على التابوت. وبحركة آلية حكّت مدام دي فونتانان أظافر يدها اليمنى في كف اليد اليسرى . (كان من عادتها كل صباح ، عندما تنهي زينتها ، أن تجلس بضع دقائق امام نافذتها . وتقوم وهي تصقل اظافرها ، وعلى عتبة يوم جديد ، بتأمل قصير كانت تدعوه صلاتها الصباحية ؛ وقد خلقت العادة فيها علاقة انعكاسية بين صقل أظافرها والابتهال إلى الروح) .

حين كان جيروم عائشاً ، حتى وهو بعيد عنها ، احتفظت سراً بأمل أن يجد هذا الحب الكبير ، المبتلي ، مكافأته الانسانية ذات يوم ؛ وان جيروم سيعود إليها ذات يوم ، تائباً ، متعقلاً ؛ وربما مُنح لهما أن ينهيا حياتهما الواحد بجانب الآخر ، في نسيان الماضي . انتظار على غير طائل قد وعته في نفس

اللحظة التي كان يلزمها فيها ان تقلع عنه إلى الأبد . ان ذكر الآلام التي قاستها ظلت حية لتشعر ببعض العزاء لانهـــا تخلصت من هذه المحن . لقد جاء الموت ينضب ينبوع الغم الوحيد الذي كان يسمم حياتها منذ سنوات كثيرة . لقد كان ذلك كنهضة لاارادية بعد عبودية طويلة . إلا أنه إنساني وشرعي كانت تتذوق حلاوته دون ان تحدس به . كانت مضطربة منه . ولكن ايمانها الأعمى كان يمنعها أن تلقي على اعماق ضميرها نظرة جلية حقيقية . كانت تعزو إلى النعمة الروحية ما كان ناتجاً عن الانانية الأكثر غريزية ؛ وتشكر الله لأنـــه منحها الاستسلام وسلام القلب ؛ وهكذا كانت تستطيـــع أن تستسلم لهـــذا التخفيف دون توبيخ ضمير .

وقد استسلمت اليوم لذلك بكثير من الحرية ، بحيث أن هـــذا اليوم من السهر المأتمي لم يكن بالنسبة إليها سوى راحـــة احتياطية قبل ايام التعب والكفاح ؛غداً السبت ،الدفن، والعودة إلى بيتها ، وذهاب دانيال . ثم ، منذ نهار الاحد سوف تبدأ بالنسبة إليها المهمة الضرورية ، العسيرة ؛ إنقـــاذ اسم اولادها من العار : الذهاب إلى مكان العمل ، إلى تريستا وفيينا ، وتوضيـــح اعمال زوجها . ولم تكن قد أبلغت جني ولا دانيال . متوقعة معارضة ولدها ، فـكانت تفضل تأخير ساعة نقاش غير مجدٍ ؛ لأنها اتخذت قرارها . ومخطط عملها أوحته الروح إليها . لم تكن تستطيـــع ان ترتاب بشيء الا بانها شعرت في نفسها ، امام هذا المشروع الجريء ، بتشجيـــع نفساني كانت تعرفه جيداً ، نوع من النشاط الفائق الطبيعة ، الذي لا يقهر ، كان يؤكد الارادة الالهية ... نهار الاحد اذا امكن . الاثنين على ابعد تقدير ، سوف تذهب إلى النمسا : ستبقى هناك خمسة عشر يوماً ، ثلاثة أسابيـــع ، شهر آب كله إذا لزم الأمر ؛ وسوف تناقش، على مهل ، القيمين على المشروع المفلس .. لم تكن تشك بالنجاح: بشرط الذهاب إلى هناك ، وتعمل بحضورها ، بتأثيرها المباشر . (وبهذا فان غريزتها لم تكن تخدعها : كثير من المرات في السابق ، وفي ظروف صعبة ، استطاعت أن تؤكد قدرتها . ولكن من الطبيعي أن الفكرة لم تكن تخطر لها

ان تعزو هذه القدرة إلى إغواءٍ شخصي ؛ لم تكن ترى فيها شيئاً آخر سوى عملٍ رائعٍ لله : إشعاع مقصد العناية الالهية من خلالها).

وفي فيينا عليها ان تقوم بسعي دقيق : كانت تريد ان تعرف تلك المرأة ولهلمين التي وجدت منها في حقائب جيروم بعض الرسائل الصبيانية الرقيقة التي جعلتها تتأثر ...

ولم ترض بعمل جردة لأمتعة جيروم إلا بعد ان اطبقت له عينيه . وقد عزمت على ذلك في الليلة السابقة ، مختارة الساعة التي كانت واثقة فيها من انها وحيدة ، لتتهرب حتى النهاية من مراقبة الولدين لأسرار والدهما . وكان اطول شيء هو جمع الاوراق : كانت مبعثرة حسب الصدف ، بين الامتعة ، وطوال ساعة ، كانت تلمس بيديها هذه الاشياء الخاصة ، الفخمة والحقيرة ، التي تركها جيروم وراءه كبقايا غريق . هذه الملابس الداخلية الحريرية المحكوكة ، وهذه الملابس ذات التفصيل الممتاز ، البالية حتى الخيوط ، والتي لا يزال يتصاعد منها عطر مزّ ومنعش - خزامى ، ونجيل الهند ، وليمون - كان جيروم أميناً له منذ ثلاثين سنة ، وكان بالنسبة اليها مبعث اضطراب كالمداعبة ... فواتير غير مدفوعة كانت ملقاة حتى في خزانة الاحذية ، حتى في محفظة الزينة : بيانات قديمة بحسابات اصحاب مصارف ، وبائعي حلوى ، وبائعي جزمات ، وبائعي زهور ، وصاغة ، وأطباء ؛ وبيانات غير متوقعة : بيان بحساب طبيب صيني للأرجل في شارع نيو - بوند ؛ وبيان بحساب دبّاغ في شارع السلام ، بسبب علبة صغيرة حمراء مذهبة لم يسدد حسابها بعد . ووصل من محل للرهونات في تريستا يشهد على الابداع ، بثمن مضحك للؤلؤة رباط عنق ورداء مبطن بالفرو طوق عنقه من فراء كلب الماء . وفي حافظة نقود محفور عليها تاج كونت ، صور مدام دي فونتانان ، ودانيال ، وجني تتجاور مع صور لمغنية من فيينا عليها عبارات إهداء . وأخيراً ، بين النشرات الالمانية المزينة بصور داعرة دهشت مدام دي فونتانان لاكتشافها كتاب توراة للجيب ، على ورق غير جيد ، ومستعملة كثيراً ... لم تكن تريد ان تذكر سوى هذه التوراة الصغيرة...

كم مرة ، اثناء تلك « الايضاحات » المؤثرة ، حيث كان جيروم يبدع طالباً الصفح عن سوء سلوكه ، كان يهتف : « انت تقاضينني بصرامة يا صديقي ، لست رديئاً بالقدر الذي تعتقدين !» وكان هذا صحيحاً ، ان الروح وحدها هي التي تعرف سر كل كائن . الروح وحدها تعرف خلال اي منعطفات ، ولأجل اية نهايات ضرورية ، تسير الخلائق نحو كمالها ...

ونظرة مدام دي فونتانان المغشاة بالدموع ظلت محدقة بالنعش حيث نُثرت الورود قبلا . وقالت من اعماق قلبها : « كلا ، لم تكن في دخيلة نفسك مستسلماً للشر ... »

وأيقظها من تأملاتها دخول نيكول هيكيه مصحوبة بدانيال .

كانت نيكول رائعة ؛ وثوبها الاسود زاد من نضارة بشرتها. وبريق عينيها ، وحاجباها المرفوعان ، ووجهها الممدود الى الامام بشكل طبيعي ، كل هذا كان يعطيها دائماً هيئة الاسراع وحمل شبابها كتقدمة . وانحنت لتقبّل عمتها ؛ وكانت مدام دي فونتانان شاكرة لها عدم تشويش الصمت بأقوال اصطلاحية . ثم اقتربت نيكول من التابوت . وظلت بضع دقائق منتصبة ، ممدودة الذراعين ، مضمومة الاصابع . ولاحظتها مدام دي فونتانان . هل كانت تصلّي ؟ هل كانت تستحضر ذكريات ماضيها ، ماضي الطفلة المعيب ، الذي شغل فيه العم جيروم مكاناً كبيراً ؟ واخيراً ، بعد بضع لحظات من هذا الجمود اللغزي ، عادت المرأة الشابة نحو عمتها وقبلتها من جديد على جبهتها وخرجت من الغرفة يتبعها دانيال الذي كان كل هذا الوقت قد ظل واقفاً وراء امه .

وحين اصبحا في الرواق وقفت نيكول لتسأل :

— غداً في اية ساعة ؟

— سنسير من هنا في الساعة الحادية عشرة . وسيسير الموكب رأساً الى المقبرة .

كانا وحدهما على مدخل الكوخ ، في ظل الدهليز ، وتمتد امامهما حديقة شاسعة ، مأهولة بالناقهين المرتدين مآزر فاتحة ومنتشرين على حاشية المرج .

كانت فترة ما بعد الظهر حارّة ، وكأن الصيف حلّ الى الأبد .
وأوضح دانيال :
– القس غريفوري سيقوم بصلاة قصيرة على القبر ، وأمي لم تشأ اية خدمة .
وكانت نيكول تصغي وهي حالمة ، وتمتمت :
– ما احسن العمة تيريز ! انها كثيرة الشجاعة ، كثيرة الهدوء ... كاملة كما هي دائماً .
فشكرها بابتسامة ودية . لم تكن عيناها عيني طفلة ؛ ولكن حدقتيها الزرقاوين احتفظتا بصفائها غير العادي ، وبذلك التعبير عن العذوبة المتراخية التي كانت تقلب كيانه في الماضي . وقال :
– لم اركِ منذ وقت طويل . فهل انت سعيدة على الاقل يا نيكول ؟
ان نظر المرأة الشابة المنصبّ بعيداً على الخضرة كان امامه رحلة طويلة يقوم بها ليعود الى دانيال ؛ وقد اتخذت قسماتها تعبير ألم ، وظن ان دموعها ستنهمر . فتمتم :
– انا اعلم ... انت ايضاً يا نيكول المسكينة لديك نصيبك من الحزن .
عندئذ فقط لاحظ كم تغيرت . كان اسفل وجهها قد اصبح سميكاً. وتحت الخضاب الرزين ، تحت لون الخد الوردي المصطنع ، كان يتراءى وجه ذابل قليلا ، منهوك .
– ومع ذلك يا نيكول ، فأنت فتية ، ولديك الحياة امامك ! يجب ان تكوني سعيدة !
– سعيدة ؟
هكذا رددت مع حركة حائرة من كتفيها .
وتطلع اليها مندهشاً :
– ولكن نعم ، سعيدة . ولماذا لا ؟
وضاع نظر المرأة الشابة من جديد في نور الحديقة. وقالت بعد صمت قصير ،

دون أن تلفت عينها .

– الحياة غريبة .. ألا تجدها كذلك ؟ أشعر انني عجوز وأنا في الخامسة والعشرين . – وقالت مترددة : – وحيدة .

– وحيدة ؟

– فقالت ونظرها دائماً في البعيد :

– نعم . امي ، الماضي ، شبابي . كل هـذا بعيد ، بعيد .. ليس لي ولد .. ولن يكون لي .. فقد انتهى الأمر : أبداً لن أستطيع أن يكون لي ولد .

كانت اللهجة هادئة دون يأس . وجازف دانيال :

– لك زوجك ..

– زوجي ، نعم .. اننا نحب بعضنا البعض حباً عميقاً متيناً .. انه ذكي ، وهو طيب .. يفعل كل ما يستطيع ليجعل حياتي حسنة .

وصمت دانيال .

وخطت خطوة لتبلغ السور وتستند إليه ، وتابعت دون أن ترفع نبرتها ، باستقامة خفيفة من الرقبة كما لو أنها عزمت على قول كل شيء ببساطة دون أن تخشى الكلمات :

– ولكن ماذا ؟ رغم كل شيء فليس بيننا أي أمر كبير مشترك ، فليكس وأنا .. أنه يكبرني بثلاث عشرة سنة ؛ ولا يعاملني أبداً كمثيلة له .. إلا أنه يشعر حيال جميع النساء بتلك العاطفة الأبوية ، المتنازلة قليلاً ، والتي يشعر بها نحو مرضاه ..

وانتصبت ذكرى هيكيه أمام دانيال : هيكيه بصدغيه الأشيبين المخططين بخطوط صغيرة ، ونظره الدقيق الأحسر ، وأساليبه الرصينة ، الواضحة ، الصلبة . لماذا تزوج نيكول ؟ كما يقطف المرء ثمرة لذيذة وهو مار ؟ أو بالأحرى ليضع في حياته المجتهدة نوعاً شيئاً من ذلك الشباب ، وتلك الكياسة الطبيعية التي كان دائماً محروماً منها دون شك ؟

وتابعت نيكول :

– ثم ان له حياته كجرّاح . وأنت تعلم ما هذا : انه ملك للآخرين ، من الصباح حتى المساء .. معظم الوقت لا يتناول طعامه في نفس الساعة التي أتناول فيها طعامي .. ومع ذلك فربما كان هذا أفضل : حين نكون معاً فليس لدينا شيء ذو أهمية نقوله ، ولا شيء نتقاسمه ، ولا ذوق نشترك فيه . ولا تذكار من الماضي ، لا شيء ... اوه ! ليس هناك اية مناقشة ، ولا اقـــل سوء تفاهم . – وضحكت – في بادىء الامر ، حين يكشف عن رغبة ، مهما كانت ، كنت اقول : نعم ... اريد مسبقاً كل ما يريد . – ولم تكن تضحك ، ولفظت ببطء غريب : – سيان عندي .

وانفصلت عن الحائط بشكل لاشعوري وأخذت تمشي . وهبطت الدرجة المسطحة الصغيرة وهي ساهية ، وتبعها دانيال دون ان يقول شيئـاً . والتفتت نحوه تلقائياً وابتسمت ، وقالت :

– ماذا اقص عليك ! لقد صنع هذا الشتاء مكتبات جديدة للصالون الصغير وعزم على بيع خزانة من الأكاجو لم يكن يعرف اين يضعها . انها قطعة اثاث اتتني من والدتي . ولكن لم يكن يهمني : ليس لي شيء ، ولا اتمسك بشيء . الا ان هذه الخزانة يجب تفريغها . كانت ملأى بأوراق لم انظر فيها ابداً: مراسلات من اهلي ، دفاتر حسابات قديمة ، رسائل قديمة من جدتي لوالدتي ، اوراق نعي ، رسائل اصدقاء ... كل الماضي ، شارع رين ، روايات ، بياريتز ... كدسة من الاشياء القديمة حكايات قديمة منسية من اناس عجائز قد غيبهم الموت... قرأت كل شيء سطراً سطراً قبل ان اشعل فيها النار ... بكيت عليهـــا خمسة عشر يوماً ... – وضحكت من جديد – خمسة عشر يومـاً .. لذيذة ! ولم يشك فليكس بشيء . لم يفهم . انه يجهل كل شيء عني ، عن طفولتي ، عن ذكرياتي...

وكانا يتقدّمان دون سرعة خلال الحديقة . وخفضت صوتهـا وهي تمر امام المرضى :

– الحاضر لا يزال حسناً ... ولكن المستقبـل هو الذي يخيفني احياناً ...

واليوم ، كما تعلم ، فان لكل منا شواغله : هو له مستشفاه ، ومواعيده ، وزبائنه ؛ وانا لدي دائماً جولات ،زيارات اقوم بها،ثم اني استعدت كاني وأعزف شيئاً من الموسيقى مع صديقات؛ وفي المساء نتناول عشاءنا في المدينة عدة مرات بالاسبوع : في وضعية فليكس يوجد دائماً حياة دنيوية يجب تعهدها ... ولكن فيما بعد ؟ حين ينقطع عن ممارسة عمله ؟ حين لا نعود نخرج مساءً ؟ هذا ما يخيفني... ماذا يصير بنا حين نصبح زوجين عجوزين، ونضطر الى البقاء الواحد منّا في وجه الآخر ، امسيات بكاملها ، في زاوية النار ؟

فتمتم دانيال :

– ما تقولينه رهيب يا نيكول المسكينة.

فانفجرت بضحكة حادة كانت كيقظة لشبابها غير منتظرة ، وقالت:

– انت احمق ! اني لا أشكو . انها الحياة : هذا كل شيء . انها ليست افضل بالنسبة للآخرين ، بالعكس انا أُعَدّ بين النساء الاكثر سعادة . فقط ، حين تكون المرأة صغيرة فانها تتخيل اشياء ... وتعتقد انها ستعيش احدى حكايات الجن .

واقتربا من السياج الحديدي فقالت :

– سررت برؤيتك . انت رائع في بزتك العسكرية...متى تنتهي خدمتك ؟

– في تشرين الاول .

– هكذا ؟

فضحك :

– يبدو الوقت قصيراً لك .

وكانت قد توقفت.وهناك بقع من الشمس ترتعش على بشرتها فتؤلق اسنانها، وتكسب شعرها في بعض الاماكن شفافية حراشف شقراء .

وقالت وهي تمد يدها بشكل اخوي :

– الى اللقاء . قل لجني انني حزينة لعدم رؤيتها ... ثم في الشتاء القادم ، حين تعود الى السكن في باريس يجب ان تأتي لزيارتي بين وقت وآخر.. زيارة

احسان .. سنثرثر ، وسنلعب كأصدقاء قدماء ، ونحرك الذكريات .. عجيب كم اتعلق بالماضي كله حين اشيخ .. هل ستأتي ؟ اتعد بذلك ؟

وغمس نظره لحظة في العينين الجميلتين ،الكبيرتين نوعاً ، المستديرتين قليلاً ، ولكن ماءهما نقي .

وقال برصانة تقريباً :

ـ أعدك بذلك ..

٣٠

انها المرة الأولى التي تضع جني رجلها فيها خارج العيادة ، منذ يوم الأحد . وما تكاد تخرج كل يوم هي ودانيال بنزهة قصيرة في الحديقة . لقد عاشت هذه الايام الأربعة التي لا تنتهي ، في ذلك الجوار للموت ، الجديد عليها ، كخيال بين أحياء : كل ما يجري حولها يبدو لها غير متلاحم الأجزاء ، غريباً . ومنذ أن وضعها شقيقها في السيارة ، منذ رأت نفسها وحيدة في الشارع المشمس لم تستطع أن تنفي شعوراً بالخلاص . ولكن هذا الشعور لم يدم سوى هنيهة . فقبل أن تبلغ السيارة باب شامبيريه ، شعرت بعودة هذا الاضطراب العميق المبهم الذي كان يعذبها منذ أربعة أيام . حتى لقد بدا لها ان هذا الاضطراب المنعتق من المضايقة التي كان يفرضها عليه في العيادة وجود الغير ، قد اتخذ في هذه الوحدة المفاجئة شدّة رهيبة .

كانت الساعة هي الواحدة حين وضعتها سيارة الاجرة امام بابها .

لقد أصغت بقدر ما تستطيع الى أسئلة وتعازي حارسة البيت ، وصعدت بسرعة إلى الشقة .

كان كل شيء في الشقة بدون ترتيب. الأبواب مفتوحة كما تكون على أثر هرب. وفي غرفة مدام دي فونتانان ، كانت الملابس على السرير ، والحذاء على الأرض ، والأدراج مفتوحة توحي بالنهب . وعلى الطاولة ، حيث المرأتان المحرومتان منذ سنتين من أية خادمة ، كانتا تتناولان طعامهما السريع ، لا تزال تنبسط

بقايا العشاء المقطوع ، وكان يجب ترتيب كل ذلك ؛ كان يجب في الغـــد ، عند العودة من المقبرة،انلا تحزن امهـا عندما تجد في هذه الفوضى الشنيعة تذكاراً واضحاً للدقائق الفظيعة التي عاشتها مساء الأحد .

وبلغت جني غرفتها ، متضايقة ، غير عارفة بماذا تبدأ . ولا شك انهـــا نسيت عند ذهابها أن تقفل النافذة ، لأن وابلاً من المطر بلل البارحة أرض الغرفة ؛ وبعثرت هبة ريح الرسائل عن المكتب الصغير ، وقلبت إناءً ،وانتزعت أوراق الزهور .

كانت واقفة تتأمل هذه الورطة ، وتسحب قفازيها ببطء . وكانت تحاول امتلاك نفسها . فوالدتها اعطتها تعليمات مفصلة ، وعليها أن تأخذ مفتاحاً من خزانة صغيرة وتفتح غرفة النفايات في داخل الشقة ، وتبحث في غرفة تعليق الملابس ، وتحرك صناديق ، وحقائب . وتجد علبة كرتون خضراء تحتوي على شالين اسودين وبرقعين من (الكريب) وبحركة آلية انزلت البلوزة التي كانت تستعملها في الصباح ، عند القيام بأعمال البيت ، وأصبحت في ملابس الشغل . ولكن قواها خانتها ، واضطرت إلى الجلوس على حافة السرير . وكان صمت الشقة يثقل على كتفيها .

وتساءلت بمداجاة : « ما بي حتى أصبحت منهوكة هكذا ؟ » .

في الاسبوع السابق كانت تروح وتجيء خلال هـذه الغرف نفسها . تحملها الحياة بشكل خفيف . اسبوع – حتى ليس أسبوعاً : أربعة ايام – هل كانت تكفي لتهدم توازناً اكتُسب بثمن غالٍ ؟

وظلت جالسة ، مكوَّمة ، وعلى رقبتها ثقل . كان البكاء يخفف عنها . ولكن دواء الضعفاء هذا كان ممنوعاً عليها . حتى عندما كانت لا تزال طفلة ، فان أحزانها كانت بدون دموع ، داخلية ، مجدبة .. ونظرتها الجافة ، بعد أن تاهت على الأوراق المبعثرة ،والأثاث ، والأشياء الصغيرة الموجودة على المدخنة، استقرت على المرآة ، مجتذَبة ،يمتصها الانعكاس الباهر لنور النهار الخارجي . وفجأة انبثقت للحظة صورة جاك في لمعان المرآة . فنهضت بسرعة وأغلقت

المصاريع الخارجيـة ، والنافذة ، والتقطت الرسائل والزهور وخرجت إلى الرواق .

كان جو غرفة النفايات خانقاً . وكانت الحرارة تكشف الرائحة المحمّاة المنبعثة من الملابس الصوفية ، والغبار ، والـكافور ، والصحف القديمـة التي شوتها الشمس . وبذلت الجهد لتصعد على موطىء لتفتح النافذة . وغمر الغرفة ، مع الهواء الآتي من الخارج ، نور جارح ، مكدّساً الكآبة وقبح الاشياء المكومة هناك : حقائب فارغـة ، ادوات أسرّة لا فائدة منها ، مصابيح بترولية ، كتب مدرسية ، كرتون مغطى بزجـاجات رمادية وذباب ميت . ولـكي تنظف الزاوية حيث تتراكم الصناديق اضطرت ان تمسك تمثالاً من وسطه محشواً ، يزين رأس عاكس نور قديم ، حيث ذراعاه المحشوان بالقش تشمرهما باقات من البنفسج القماشي ؛ ورق قلبها لحظة لهذا الصنيـع الذي رأته طوال مـدة طفولتها يتبوأ مكانـه على البيانو الموجود في الصالون . ثم بدأت العمل بشجاعـة ، فاتحـةً الخزائن ، نابشة الرفوف ، معيدةً باعتناء وضع اكياس النفتالين التي كانت رائحتها تحرق المنخرين وتسبب خفقان القلب . كانت سابحةً بالعرق ، بدون قوة ، مـكافحة ذلك الفتور الذي كان يخزيهـا ، فقامت ، بإرادة عنيدة ، بتلك المهمة التي كانت تنقذهـا من أفكارها على الأقل .

ولكن على حين غفلة ، كسهم من النور يخترق الضباب ، فان فكرة معينة تحت صيغتها المشوشة أصابتها في النقطة الاكثر حساسية ، واوقفتها . « ليس هناك شيء يضيـع إلى الابد ! . كل شيء دائماً ممكن ... » نعم رغم كل شيء ، كانت صبية ولديها حياة طويلة مجهولة امامهـا : حياة ! ينبوع لا ينضب من الامكانات !

ان ما أكتشفته تحت هذه الاشياء التافهة كان كثير الجد ، كثير الخطر ، بحيث ظلت متحذرة منه . فقد فهمت فجأة انهـا اذا كانت استطاعت ، بعد ترك جاك ، ان تشفى وتستعيد السيطرة على نفسها ، فقد كان ذلك فقط لأنه

أصابها حظ في ذلك الوقت فاستطاعت ان تبعد حتى اكثر الآمال تفلتاً .

« هل ابدأ الأمل من جديد ؟ »

كان الجواب ايجابياً بحيث أخذت ترتجف ، واضطرت أن تسند كتفها إلى ركيزة غرفة الثياب . وظلت جامدة عدة دقائق ، منخفضة الجفون ، في حالة من ذهول النوم جعلها غير حساسة تقريباً . وانتابت دماغها رؤى حلم : جاك ، في ميزون ، بعد لعبة التنس ، جالس بقربها على المقعد ؛ كانت ترى بوضوح قطرات العرق الدقيقة التي كانت تبلل الصدغين ... جاك وحده معها على طريق الغاب ، بالقرب من المرأب حيث شاهدا سحق الكلب الهرم ؛ كانت تسمع صوته القلق : « اتفكرين غالباً بالموت ؟ » جاك على باب الحديقة الصغير ، حين لامس بشفتيه خيال جني على الجدار السابح بنور القمر ؛ وكانت تسمع خطوته هاربةً على العشب ، في الليل ...

وظلت واقفة ، مسندة ظهرها ، مرتعشة ، رغم الحر . لقد حدث في داخلها صمت يتعذر تصديقه . وكان ضجيج المدينة ، من النافذة المرتفعة ، يصل من بعيد ، من عالم آخر . كيف تطفىء الآن هذا العطش المجنون لأن تكون سعيدة والذي اشعله من جديد لقاء جاك منذ اربعة ايام ؟ لقد كان ذلك مرضاً جديداً قد بدأ ، وسيدوم ويدوم . انها تشعر به جيداً ...لن تتوصل هذه المرة إلى الشفاء لانها لم تكن ترغب في الشفاء ..

وألاكثر قساوة من كل ذلك هو كونها وحيدة ، دائماً وحيدة .دانيال ؟ لقد كان كثير الانتباه إليها أثناء تلك الأيام من الحياة المشتركة في نويي . وهذا الصباح ايضاً ، أثناء وجبة الطعام التي تناولاها معاً على مائدة ضيوف العيادة ، وقد ادهشته هيئة جني الغائبة ، فأخذ يدها ، وقال بصوت منخفض ، دون أن يبتسم : « ماذا اذن ايتها الاخت الصغيرة ؟ » فهزت رأسها مراوغة ، وسحبت يدها ... آه ! لقد كان ذلك عذاباً دائماً ، أن تحب كثيراً هذا الأخ الكبير ، وأن لا تجد شيئاً تقوله له ، شيئاً يمكنه أن يسقط دفعةً واحدة تلك الحواجز التي اقامتها بينهما الحياة ، وطبيعتهما ، وربما اخوتهما ! .. كلا . لم يكن

لها أي شخص تركن إليه . ولا شخص ابداً يستطيع فهمها .. لا شخص ؟ ربما هو ... ذات يوم ؟. وتمتم في اعماقها صوت حنون خفي : « يا جاكي...» واحمرت جبهتها .

وشعرت انها خائرة القوى ، متيبسة . وشيء من الماء البارد يفيدها ... وبخطى أعمى حذرة بلغت المطبخ ، مستندة باحدى يديها على الجدران . وقد بدا لها ماء بالوعة المطبخ مثلوجاً . فغمست فيه يديها ، ووضعت على جبهتها وعينيها فعادت إليها قواها . شيء من الصبر ايضاً ... وفتحت النافذة ، ووضعت مرفقيها على المتكأ . كان يرقص على السطوح بخار مائي يقع عليه نور الشمس ويبدو أنه تكوّن من اهتزاز الذرات . وفي محطة لوكسمبورج قاطرة تصفر بشدة . كم مرة في هذه الأسابيع الأخيرة ، وفي فترات مشابهة من بعد الظهر حين كان ماء الشاي يسخن ، استندت بمرفقيها هنا ، شبه مرحة ، وعلى شفتيها لازمة اغنية ! وشعرت عندئذ نحو جني الربيع الأخير ، نحو تلك الشقيقة الناقهة ، باندفاعة حنين . وتساءلت بصوت منخفض : « من اين استقي الشجاعة على العيش غداً ، بعد غد ، كل الأيام الآتية ؟ .. » ولكن هذه الكلمات التي خطرت ببالها لم تكن تفسر سوى فكرة اصطلاحية ، ولا تعبر عن حقيقة قلبها الخفية . لقد رضيت أن تتغذب منذ أن استعادت الأمل . . . وفجأة ، شعرت هي التي لم تكن تبتسم ابداً ، ورأت بوضوح أنها لو كانت امام مرآة لرأت ابتسامة حائرة ترتسم على شفتيها .

٣١

لقد تساءل جاك في عدة مناسبات أثناء فترة الصباح ، وحتى اثناء غدائه مع الألمانيين : « هل اذهب لرؤية دانيال ؟ » وكان يجيب نفسه في كل مرة : « ولكن كلا ، لماذا أذهب ؟ » .

إلا أنه خرج من المطعم حوالي الساعة الثالثة مع كيرشانبلات ، واجتاز

ساحة البورصة ، وفكر فجأة وهو يمر أمام المترو : لن يكون اجتماع فوجيرار الا في الساعة الخامسة .. لو كنت اريد الذهاب إلى نويي ، فهذه هي اللحظة التي يجب أن أذهب فيها .. » وتوقف متردداً : « على الأقل ، حين يحدث هذا فلن أفكر به .. » وترك الالماني بدون تردد ليبتلعه الدرج الموصل إلى تحت الارض .

في شارع بينو ، وعلى مدخل العيادة ، عرف فكتور سائق سيارة أخيه ، وكان يولع سيكارة أمام السيارة على حافة الرصيف . وقال لنفسه حين فكر ان انطوان سيحضر الحديث ! « اني افضّل هذا » ..

ولكنه حين دخل إلى الحديقة رأى أخاه يأتي نحوه :

لو كنت جئت باكراً لأخذتك معي إلى باريس . ولكني مستعجل .. أتريد أن تتعشى معي هذا المساء ؟ كلا ؟ متى ؟

— كيف يجب أن افعل لأرى دانيال ؟ لأراه .. وحده .

— الامر سهل جداً . فمدام دي فونتانان لا تترك القبو ، وجني غائبة .

— غائبة ؟

— أترى ذلك السطح الرمادي وراء الاشجار ؟ هذا هو الكوخ الذي توضع فيه الموتى . ودانيال هناك . وسيذهب الحارس لإعلامه .

— وجني ، أليست في العيادة ؟

— كلا . فقد أرسلتها والدتها لتأتي ببعض الأشياء من شارع الاوبسرفاتوار .. أأنت في باريس لوقت طويل ؟ اذن ستكلمني هاتفياً ؟

وتابـع جاك طريقه نحو الكوخ . وفجأة تباطأت خطواته . فقد نبت في دماغه مشروع جنوني .. فدار على نفسه وعاد إلى السياج الحديدي ، ونادى سيارة أجرة ، وقال بصوت أبح :

— بسرعة ، شارع الابسرفاتوار .

كان ينظر باصرار إلى الأشجار ، والمارة والعربات التي تلتقي سيارته بها . وامتنع عن التفكير . كان يشعر انه لو أتاح لنفسه دقيقة تفكير فلن يرتكب

هذا العمل الجنوني الذي امرته بالقيام به ، دون إمهال ، قوة خفية .. ماذا ذهب يفعل هناك ؟ لم يكن يعرف شيئاً . ليبرر نفسه ! لينقطع عن أن يكون الرجل الحائز على جميع العيوب ! يجب أن ينتهي من ذلك ، ينتهي من ذلك دفعة واحدة ، بواسطة التوضيح .

ووقف عند سياج للوكسمبورغ، وأكمل المسافة على قدميه ، شبه راكض ، ملزماً نفسه بعدم رفع عينيه نحو تلك الشرفة ، نحو هذه النوافذ التي كان يأتي في الماضي مرات عديدة ليتأملها من بعيد . ودخل إلى البيت بوثبة ، ومر كالسهم أمام المنزل خوفاً من الاصطدام ببعض الأوامر المعطاة من جني .

لم يكن قد تغير شيء . الدرج الذي غالباً ما تسلقه مثرثراً مع دانيال ... دانيال ببنطلون قصير وكتبه تحت ابطه .. سطح الدرج حيث ظهرت له مدام دي فونتانان لأول مرة ، مساء العودة من مرسيليا ، حين انحنت من فوق نحو الهاربين دون أي لوم سوى ابتسامتها الرصينة .. لم يتغير شيء، لا شيء ، حتى رنـّة الشقة التي يتردد رجعها في أعماق ذاكرته .

انها تكاد تظهر فماذا يقول لها ؟

كان يصغي ، متشنج القبضة على الدرابزين ، وجسمه الأعلى منحن .. ما من ضجة وراء الباب ، ما من خطوة .. ماذا تفعل ؟

وصبر بضع دقائق . ورن الجرس من جديد بشكل اكثر خجلا .

نفس الصمت .

عندئذ هبط بسرعة نحو المنزل :

ــ الآنسة جني في بيتها ، اليس كذلك ؟

ــ كلا .. السيد يعلم ان السيد دي فونتانان المسكين ..

ــ نعم . واعلم ايضاً ان الآنسة جني هنا فوق . لدي كلمة ضرورية لها ..

ــ الآنسة أتت فعلاً بعد الغداء ، ولكنها ذهبت منذ ربع ساعة على الأقل.

فقال : آه ! ذهبت ؟

وكان يحدق بالمرأة العجوز بغباء . لم يتوصل إلى تحديد ما يشعر به ؟ تعزية

عظيمة ؟ خيبة أمل مؤلمة ؟

اجتماع فوجيرار لن يكون إلا في الساعـــة الخامسة . أيذهب ، فقط ؟ لم يكن لديه اية رغبـــة . وللمرة الأولى فان شيئاً ما – شيئاً شخصياً – تدخل بشكل غامض بينه وبين حياته كمناضل .

وفجأة اتخذ قراره . سوف يعود إلى نويي . وبسبب الجولات القليلة الـتي تقوم بها جني فانه سيصل قبلها ، وسوف ينتظر أمام السياج ، و .. مشروع مستحيل ،مليء بالمخاطر .. ولكن كل شيء افضل من بقائه تحت هذاالانكسار.

لقد حسب ، ولكنه لم يعمل حساباً للصدفة . فما ان نزل من القطار الكهربائي امام العيادة ، حائراً حول ما يجب أن يفعل ، حتى صاح واحد من ورائه :

– جاك !

ان دانيال الذي كان ينتظر القطار الكهربائي على الرصيف الآخر شاهده ، واجتاز الطريق منذهلاً :

– انت ؟ الا تزال في باريس ؟

فتمتم جاك :

– عدت البارحة . لقد اعلمني انطوان بالنبأ .

فقال دانيال باقتضاب :

– لقد مات دون ان يستعيد وعيه .

كان يبدو انه اكثر انزعاجاً من جاك ؛ وانه معاكس ايضاً . وتمتم :

– لدي موعد لا أستطيع ارجاءه أبداً . لقد عرض علي لودفيكسون ان ابيعه بعض اللوحات لأننا بحاجة إلى نقود ، ويجب أن ياتي اليوم إلى مشغلي .. لو كنت استطعت الشك انك ستأتي لرؤيتي .. ما العمل ؟ الا ترافقني ؟ سنكون في مشغلي براحة ونتحدث بانتظار لودفيكسون .

فقال جاك ، مقلعاً دفعة واحدة عن كل ما شرع به :

– اذا اردت .

وابتسم دانيال ابتسامة عرفان بالجميل .

– نستطيع السير على الاقدام قسماً من الطريق . وسنأخذ سيارة اجرة عند التحصينات .

كان الشارع يفتح امامهما منظره الواسع الساطع بالنور . والرصيف الظليل يصلح للسير . وكان دانيال بديعاً ومضحكاً بتلك الخوذة اللامعة ، وتلك اللبدة المسترسلة ؛ وسيفه يضرب ساقيه ويصطدم بالمهازين ، ويوقع خطواته بصليلٍ عسكري . وجاك ، وقـــد عمرته فكرة الحرب . كان يصغي لاهياً إلى ايضاحات صديقه : وكاد يقاطعه ويمسك ذراعه ويصيح فيه : « ولكن ايها البائس ، الا ترى اذن ما يُعَدُّ لك ؟ » واجتازت ذهنه فكرة فظيعة وأوقفته : لو فرضنا المستحيل ولم تتوصل المقاومة الأمميه إلى انقاذ السلم ، فان هذا الجندي الفارس الجميل ، الموجود في الطليعة على حدود اللورين : سوف يُقتل منذ اليوم الاول .. وانقبض قلبه ، وظلت الكلمات التي أراد قولها في حنجرته .

وتابع دانيال :

– لقد قال لي لودفيكسون : « حوالي الساعة الخامسة .. » ولكني بحاجة للقيام بعملية اختيار قبل وصوله .. انت تعلم ، يجب أن اتخلص من الورطة ، فوالدي لم يترك لنا سوى ديون .

وضحك بشكل غريب. هذه الضحكة ، وثرثرته ، وذلك الصوت المرتجف العنيف - كل شيء فيه كان يشهد على حالة عصبية لم تكن عادية عنده ، وكانت اسبابها عديدة هــذا المساء : الدهشة من رؤية جاك مرة ثانية . الذكرى المؤلمة للقائهما الأول . الحاجة إلى ايجاد اللهجة التي كانا يتحدثان بها في السابق . وان ينعش بواسطة هذه المسارات الحرة ثقة رفيقه الصموت ؛ وايضاً السرور لكونه في الخارج ، ونشوة هــذا النهار الجميل ، هذه النزهة يقوم بها اثنان بعد تلك الايام الاربعة من الحبس بانتظار الموت .

كان جاك قليلاً ما يعي انه يملك باسمه ثروةً دون استعمالٍ في ناحيةٍ ما ، ولم تخطر له الفكرة ثانية واحدة ان باستطاعته مساعدة صديقه ، والآخر ، لم يكن يفكر بها اكثر منه ، ولولا ذلك لما فاه بكلمة عن مصاعبه .

وتابع دانيال باقتضاب :

– ديون .. واسم مشوّه السمعة . لقد سمم حياتنا حتى النهاية! وقد فتحت هذا الصباح رسالة من انكلترا ، تحمل عنوانه ، الرسالة من امرأة كان قد وعدها بمال . وكان يروح ويجيء عدة مرات بين لندن وفيينا ، ويعيل بيتين على طرفي الخط كغلام عازب – وأضاف بحدة : – اوه ؟ ان جنونياته لا تهمني ! اما الباقي فهو قبيح .

وهز جاك رأسه مجاملاً . وتابع دانيال :

– أيدهشك أن أقول هذا ؟ اني احقد على أبي بشكل رهيب ، ولكن لا لأجل قصصه مع النساء . كلا ! وأقول تقريباً : بالعكس .. هذا غريب أليس كذلك ؟ لقد مات دون أن يكون بيننا أقل عدم تكلّف ، أقل تبادل. ولكن لو كان هناك شيء ممكن من التآلف بيننا لكانت على هذا الصعيد الوحيد : النساء، الحب .. وربما كان ذلك لأنني أشبهه – وتابع بصوت خفي : – اشبهه بكل شيء : لا أقدر على مقاومة الفتنة ، لا أقدر حتى ان اندم على ذلك – وتردد قبل ان يضيف : – الست هكذا ، أنت ؟

وجاك ايضاً كان قد خضع منذ أربع سنوات لتلك الافتتانات بشكل يقل أو يكثر : ولكن بدون توبيخ ضمير . لقد كان يبقى، ربما دون أن يدري ، في زاوية مهوّاة بشكل سيء في ضميره ، شيء من ذلك التمييز الطفولي بين « الطاهر » و « غير الطاهر » ، والذي كان يقوم به في السابق ، وفي أغلب الأحيان ، اثناء مناقشاته مع دانيال . وقال :

– كلا ، لم تكن لدي هذه الشجاعة ابداً .. شجاعة قبول نفسي كما أنا .

– هل هذه شجاعة ؟ ربما هي ضعف .. او اختيال .. أو كل ما تريد .. واعتقد ان الركض من رغبة إلى رغبة ، لأجل بعض الطبائع كطبيعتي ، هو حقيقة النظام الطبيعي ، الضروري ، انه ايقاع الحياة الخاص بهذه الطبائع .

ثم قال بنبرة حادة ، كما لو انه كان يردد قسَماً داخلياً :

– ان لا يعفّ المرء عن شيء .

وقال جاك لنفسه ، مداعباً بنظره الوجه الجانبي الرجولي ، العنيد (المقوَّر) تحت رفرف القبعة : « من حظه انه جميل . ولكي يتكلم عن الرغبة بهذا التأكيد يجب أن يكون « لا يقاوَم » . ويجب أن يكون لديه عادة ايقاظ الرغبة بنفسه .. وربما ايضاً يجب ان يكون لديه تجارب أخرى غير تجاربي..» وفكر بأنه تلقى أول دروسه الغرامية بين ذراعي الشقراء ليزبيت الالزاسية الصغيرة العاطفية ، ابنة اخ الام فرولان . ودانيال ، وهو أصغر منه ،تكشفت له اللذة في سرير تلك الابنة الخبيرة التي التقطته ليلاً في مرسيليا . وهذان الدرسان الاوليان المختلفان جداً ربما وسماهما إلى الأبد . وتساءل : «هل مغامرة المرء الأولى توجهه ؟ ام ان هذه المغامرة الأولى ، بالعكس ،تأمرها قوانين سرية تظل خاضعة لها طول الحياة ؟».

وهتف دانيال كأنه ادرك ما يدور في فكر جاك :

– ان لنا ميلاً محزناً لمدح هذه المسائل .. الحب ؟ قضية صحة يا صديقي : صحة جسدية ومعنوية . أما انا فأقبل دون تحفظ تعريف ياغو . اتذكر ؟ « غليان في الدم مع قبول من الارادة .. » نعم ، الحب ، هذا هو . ويجب الا يُصنع منه شيء آخر غير هذا : دفعة نسغ .. وياغو على حق .

فلاحظ جاك مبتسماً :

– لك دائماً طريقتك في ايراد نصوص انكليزية .

لم يكن لديه أية رغبة في الجدال حول الحب .. ونظر إلى ساعته . في جريدة الانسانية « الاومانيته » لا تصل برقيات الوكلاء ، قبل الساعة الرابعة والنصف او الخامسة .

ورأى دانيال الحركة فقال :

– اوه ! لدينا الوقت الكافي . ولكننا سنتحدث عندي بصورة أفضل .

ونادى سيارة أجرة .

في السيارة استمر دانيال ، قصد اطالة الحديث ، في الكلام عن نفسه وعن حظوظه الحسنة في لونيفيل ونانسي ، وأخذ يطري المغامرات العابرة .

وقال قلقاً :

– أتنظر الي ؟ تتركني أثرثر .. بماذا تفكر ؟

فارتجف جاك . كان يميل إلى أن يطرق مرة اخرى القضايا التي تلازمه ، الا إنه تملص هذه المرة أيضاً .

– بماذا افكر ؟ ولكن .. بكل هذا .

واثناء الصمت الذي تلا ذلك تساءل كل منهما ، وهو مثقل القلب ، إذا كانت الصورة التي احتفظ بها للآخر لا تزال تماثل الحقيقة .

وصاح دانيال في السائق :

– خذ شارع السين .

ثم التفت نحو جاك وقال :

اعتقد انك لا تعرف بيتي .

ذلك المشغل الذي استأجره دانيال في السنة التي سبقت خدمته العسكرية (والذي كان لودفيكسون يدفع بدل ايجاره بحجة ان دانيال كان يحتفظ فيه بمحفوظات مجلتهما الفنية) ، كان في الطابق الاخير من بناية قديمة ذات نوافذ مرتفعة في داخل ساحة مبلطة .

والدرج الحجري كان مظلماً ، خاسفاً في بعض الاماكن ، ذا رائحة ، وبالياً ؛ ولكنه عريض ومزين بدرابزين من الحديد المشغول . وتثقب باب المشغل كوة صغيرة ككوة السجن ، ويُفتح بمفتاح ثقيل اخذه دانيال من عند حارس البناية .

وتبع جاك صديقه ، فدخل إلى غرفة واسعة قريبة من السقف ينيرها من السماء غطاء زجاجي مليء بالغبار . وبينما كان دانيال منهمكاً بشغله اخذ جاك يتفحص بفضول اجزاء البيت . كانت جدران المشغل من الداخل ذات لون رمادي موحد ، دون اي تلوين ، وهناك غرفتان صغيرتان داخليتان تخفيهما ستائر نصف مسدلة ، تثقبان الجدار الذي في الداخل : الأولى مدهونة بالابيض ، وقد حولت إلى غرفة زينة ! والأخرى مفروشة بطنفسة حمراء من بومباي ،

ويشغلها بكاملها سرير كبير منخفض، وتشكل مخدعاً للنوم . وفي احدى الزوايا قوائم تحمل طاولة مهندس بناء ، مثقلة بكتب ، ودفاتر للرسوم ، ومجـــلات منضّدة ؛ وفوق ، يتدلى عاكس نورٍ اخضر . وتحت أغطية سحبها دانيـــال بسرعة ، تتكدس عدة مساند للتصوير على دواليب صغيرة ، وبعض المقـــاعد المبعثرة ، وعلى الجدار في داخل رفوف خشبية بيضاء ، تختفي اطارات خشبية وكرتون لا يُشاهد سوى حافـّاتها المصفوفة .

وجرّ دانيال كنبة ذات جلد بالٍ الى قرب جاك :

– اجلس ... سأغسل يدي .

وسقط جاك على النوابض المتأوهة ، وعيناه مرفوعتان نحو فتحة الباب ، وتتطلع بتنظر السطوح السابحة بالنور الحار ، وعرف قبة المجمع العلمي ، وقباب اجراس سانجرمان – دي‌بريه ، وابراج سان سوبليس .

والتفت نحو غرفة الزينة وشاهد دانيـــال من شقوق الستائر . كان الشاب يبدل قميصه بسترة بيجاما زرقاء . كان جالساً امام المرآة ، ويُمِرُّ كفيه على شعره بابتسامة منتبهة . ودهش جاك كأنه اكتشف سراً . كان دانيال جميلاً ، وبدا انه يعرفه قليلاً جداً ، كان يحمل وجهه الجانبي الذي يشبه المدالية ،ببساطة رجولية ، بحيث لم يكن جاك يتصور ان صديقه يتأخر امام المرآة . وفجأة ، حين عاد دانيال نحوه ، فكر بجني بتأثر شديد ، الاخ والاخت لا يتشابهان ؛ الا ان الاثنين اخذا عن والدهما بعض الكيـاسة في التركيب الجسماني ، ونفس المرونة المشبعة . بحيث تجعل الاثنتان مشيتهما متقاربة لا يمكن انكارها .

ونهض بجدة وسار نحو الرفوف حيث كانت الاطارات. فقال دانيال مقترباً:

– كلا . انها زاوية الاشياء القديمة ... ١٩١١ .. كل ما رسمتــه تلك السنة خلق من الذكريات ... وانت تعرف تلك الكلمة المخيفة التي قالهـــا ويستلر Whistler كما اعتقد ، متكلماً عن بورن – جون : هذا يشبه شيئاً سوف يكون بالـغ الجودة ... » – وقال وهو يسحب عدة قماشات تمثـــل كلها نفس العري ، مع بعض التفاصيل : – الافضل ان تنظر الى هذه . انها قبل ذهابي الى

الخدمة العسكرية . وهذه الرسوم الدراسية هي من تلك التي ساعدتني اكثر من غيرها على فهم ...

فظن جاك ان دانيال لم يتم عبارته :

– على فهم ماذا ؟

– اجل هذا الظهر ، هذان الكتفان ... اعتقد ان من المهم جداً اختبار شيء صلب كهذا الكتف ، هذا الظهر ، والعمل عليه الى ان ابدأ باستشفاف الحقيقة . . . تلك الحقيقة البسيطة التي تستخلص من الاشياء المتينة ، الخالدة ... واعتقد ان جهداً كهذا من التطبيق والتعمق ينتهي بكشف سر ... حل كل شيء .. نوع من مفتاح الكون ... وهكذا ، فهذا الكتف ، وهذا الظهر ...

هذا الكتف ، هذا الظهر ... كان جاك يفكر باوروبا ، وبالحرب .

وتابع دانيال :

– كل ما تعلمته استخرجته من الدراسة المثابرة لنفس النموذج ... ولماذا التغيير ؟ يحصل المرء على المزيد من نفسه حين يصر على العودة دون انقطاع الى نقطة الانطلاق نفسها ؛ وحين يلزم البدء من جديد في كل مرة ، والسير الى أبعد في نفس الاتجاه ... لو كنت روائياً ، فبدلاً من تغيير الاشخاص في كل كتاب جديد كنت اتعلق بالاشخاص انفسهم الى ما لانهاية له ، لكي احفر ...

كان جاك صامتاً بشكل عدائي . كم تبدو له هذه المسائل الجمالية مصطنعة ، عديمة الفائدة ، غير آنية ! انه لم يتوصل الى ادراك هدف حياة كحياة دانيال . وقد تساءل : « كيف ينظرون اليه في جنيف ؟ » انه يخجل بصديقه .

وكان دانيال يرفع قماشاته ، واحدة واحدة ، ويديرها نحو النور ، ويلقي عليها من خلال جفونه المغمضة نظرة سريعة ، ثم يعيدها الى مكانها . وبين وقت وآخر كان يضع واحدة منها جانباً . عند قدم المسند الاقرب : « لاجل لودفيكسون » .

وهز كتفيه ، ودمدم بين شفتيه :

– الموهبة في الاساس ليست شيئاً تقريباً – مع انه لا غنى عنها ! فالمهم هو الشغل . والموهبة بدون الشغل ليست سوى نار اصطناعية تبهر لحظة ، ولكن لا يبقى منها شيء .

ووضع ثلاثة اطارات متتابعة جانباً بأسف . وتأوه :

– كان بودي لو استطيع الا أبيعها ابداً . وحياتي كلها شغل ، شغل ...

– وجاك الذي كان مستمراً في ملاحظته قال متأكداً :

– اتحب فنك دائماً وبعمق ؟

كانت النبرة تدل على دهشة مشمئزة قليلاً ادركها دانيال ، فقال بنبرة مصالحة :

– ماذا تريد ؟ .. ليس كل الناس من اصحاب الموهبة للعمل .

واخفى فكرته الحقيقية بحيطة . كان يعتقد انه يوجد رجال عمل بما فيه الكفاية لاجل الخير الذي تستخرجه الانسانية منهم ؛ وان اولئك الذين يستطيعون بدافع الحظ ، مثله ومثل جاك ، ان يثقفوا مواهبهم ويصبحوا فنانين ، عليهم ، في سبيل مصلحة الجماعة ، ان يتركوا حقل العمل لمن ليس لهم حقل غيره . وجاك ، بنظره ، قد خان مهمته الطبيعية دون اي شك . وكان يعتقد انه يجد تأكيداً لحكمه في موقف رفيق الطفولة الخفي المهتاج : دلالة عدم رضا خفي ، وأسف اولئك الذين وعوا بشكل مشوش انهم لم يتموا مصيرهم ، والذين يخفون بكبرياء ، تحت مظاهر من البسالة والاحتقار ، الشعور بنقصهم الذي لم يعترفوا بـه .

كانت قسمات جاك قد اصبحت قاسية . وتابع خافضاً رأسه ، الامر الذي خنق صوته :

– انت ترى يا دانيال انك تعيش سجين عملك ، كأنك لا تعرف شيئاً عن الناس .

فوضع دانيال الرسم الذي كان يمسكه بيده :

– الناس ؟

وتابع جاك .

– الناس حيوانات بائسة ، حيوانات غامضة ...وما دامت الاعين تتحول عن هذا العذاب فربما يستطاع العيش كما تعيش انت . ولكن حين يجري الاحتكاك ، مرة واحدة ، بالبؤس العالمي فعندئذ لن يكون العيش كعيش الفنان ممكناً ابداً ... اتفهم ؟

– نعم .

قال دانيال ببطء . واقترب من السقف الزجاجي ، وتأخر بضع لحظات ليتأمل أفق السطوح .

وكان يفكر : « نعم ، انه على حق بالتأكيد ... البؤس . ولكن ماذا نستطاع لأجله ؟ .. كل شيء يبعث على اليأس... كل شيء ما عدا الفن ». وشعر اكثر من اي وقت انه مرتبط بهذا الملجأ الرائع حيث كان لديه من الامتياز ما جعله يقيم حياته فيه . « لماذا آخذ على ظهري خطايا وشقاء العالم ؟ اني اشل قوتي الخالقة ، واخنق مواهبي دون فائدة لأحد . اني لم اولد رسولاً ... وثم – لنفترض اني مسخ – ولكن كان لدي الأرادة الثابتة بأن اكون سعيداً ! » وهذا صحيح . فمنذ الطفولة كان يجتهد ليدافع عن سعادته.حيال وضد الجميع ؛ بتلك العاطفة الساذجة تقريباً ، ولكنها متعقلة جداً ، كان هذا واجبه الرئيسي حيال نفسه . الا انه واجب صعب ، يتطلب انتباهاً دائماً : ان تهاون الرجل في سيره نحو المنحدر يعني انه يصنع المصيبة . لأن الشرط الاول لسعادته هو استقلاله؛وكان يعرف جيداً ان المرء لا ينصرف الى قضية جماعية دون ان يقوم اولاً بتضحية جريئة... ولكنه لا يستطيع ان يعترف بذلك لجاك.وعليه ان يصمت ويقبل هذا الحكم الاحتقاري الذي قرأه في عيني صديقه .

والتفت ، واقترب من جاك ، ونظر اليه بضع ثوان بانتباه استفهامي وقال اخيراً :

– لقد احسنت بقولك انك سعيد(مع ان جاك لم يقل شيئاً مماثلاً) ولكنك على العكس تبدو حزيناً .. معذباً .

وانتصب جاك . سيتكلم هذه المرة !وبدا انه اتخذ فجأة قراراً قد أرجىء مدة طويلة ؛ وكان تعبير نظرته رصيناً بحيث تأمله دانيال مندهشاً .

وهزت الهواء رنة جرس قوية وجعلتهما يرتجفان . ونفخ دانيال :

– لودفيكسون .

ففكر جاك : « خيراً .. وما الفائدة ؟ ».

وتمتم دانيال .

– لن يدوم الامر طويلاً . إبقَ ! وبعد ذلك سأوصلك .

فرفض جاك باشارة من رأسه . ورجاه دانيال :

– لن تذهب .

– بلى .

كان وجهه من خشب .

ونظر اليه دانيال هنيهة بيأس . ثم وقد شعر أن لا فائدة من أي إلحاح ، أتى بحركة تدل على فتور الهمة وركض يفتح الباب .

كان لودفيكسون يرتدي بزة من ملابس الكوت دازير ، مرتداة باعتناء كبير ، من الحرير الخفيف بلون الزبدة ، عليها عقدة بشكل وردة تجتذب العين. ورأسه الضخم الذي كان يبدو منحوتاً في عجينة شاحبة جيلاتينية ، يرتاح على طية العنق المزدوجة ، وعلى خير حال في طوق عنق منخفض . كانت الجمجمة مروسة ، والعينان مطبقتين قليلاً ، والوجنتان مسطحتين ، والفم بارز الشفتين وطويل ، يبعث على التفكير بفخ .

كان يتوقع أن يناقشا الثمن لوحدهما ، ودهش دون أن تبدو دهشته من وجود شخص ثالث . ومع ذلك فقد تقدم باشّاً نحو جاك الذي عرفه دون جهد مع أنه لم يلتق به سوى مرة واحدة .

وقال وهو يدحرج حرف « ر » :

– أنا فرح ، فقد كان لي سرور التحدث اليك منذ اربع سنوات ، اثناء فترة استراحة في الباليه الروسي ، اليس كذلك ؟ كنت تستعد لدار المعلمين .

فقال جاك :

ــ فعلاً . لك ذاكرة مدهشة .

فقال لودفيكسون :

ــ اني اعترف بذلك .

وخفض جفونه التي تشبه جفون الضفدعيات . ولما كان يسره أن يؤكد حالاً مديح جاك ، فقد التفت نحو دانيال :

ــ ان صديقك السيد تيبو هو الذي أعلمني ان اولئك الذيم يريدون الحصول على منصب الحاكم في اليونان القديمة ــ في طيبة اذا كنت اذكر جيداً ــ عليهم الا يقوموا بأية تجارة طوال عشر سنوات على الأقل ... غريب ، اليس كذلك؟ اني لا انساه ابداً . وقد علمني أيضاً في ذلك المساء ــ أضاف وهو يلتفت هذه المرة نحو جاك : ــ انه لكي يكون للمرء الحق في حمل لقبه ، في فرنسا وتحت نظامنا القديم ، عليه أن يمتلك ، منذ عشرين سنة ــ كيف كانوا يقولون ؟ ــ احياءه الشريفة ، اليس كذلك ؟

وختم منحنيا بظرف :

ــ انني اشعر بسرور لا نهاية له في التحدث الى أناس مثقفين .

فابتسم جاك . ثم اسرع في رحيله ، واستأذن لودفيكسون .

وتمتم دانيال وهو يتبعه حتى الباب :

ــ اذن ، صحيح ، الا تريد الانتظار ؟

ــ مستحيل فقد تأخرت .

وتجنب النظر الى صديقه . وشدت الرؤية الفظيعة على قلبه من جديد : دانيال في خط النار الأول .

وأقلقها وجود لودفيكسون فتبادلا مصافحة آلية بالأيدي .

وفتح جاك بنفسه الباب الثقيل وتمتم : « الى اللقاء » واندفع في الدور المظلم .

وعلى الرصيف وقف وتنفس بشدة وتطلع الى الساعة . لقد انتهى اجتماع

فوجيرار منذ وقت طويل .

وكان جائعاً . فدخل إلى مخبز ، وأخذ كعكتين ولوحاً من الشوكولا وسار نحو البورصة على قدميه .

٣٢

هذا المساء ، الجمعة في ١٤ تموز ، في جريـدة الانسانية (الاومانيته) ، في مكتبي غالو وستيفاني ، كانت المحادثات متشائمة . كل اولئك الذين دنوا من المعلم – جوريس – بدوا قلقين ، ففي البورصة ذعر مباغت اسقط الثلاثة بالمئة الفرنسية الى ٨٠ . وفي احدى اللحظات الى ٧٨ فرنكاً ايضاً . منذ عام ١٨٧١ لم يعرف الدخل سعراً أكثر انخفاضاً . وكانت البرقيات الالمانية تفصح عن خوف مواز في بورصة برلين .

كان جوريس قد رجع بعد الظهر إلى الكه دورسى ، وعـــاد من هناك مهموماً جداً . وكان يشتغل دون أن يرى احداً ، حابساً نفسه في مكتبه. وكان مقاله جاهزاً ؛ ولم يكن يُعرف منه سوى العنوان ، ولكن هذا العنوان يقول شيئاً كثيراً : « حظ فائق للسلم ». وقد قال لستيفاني : « المذكرة النمساوية شديـدة اللهجة بشكل مخيف . وهـــذا يدعو إلى التساؤل اذا كانت فيينا لم تشأ ، باسراعها في الهجوم ، أن تجعل كل عمـل احتياطي للدول الكبرى مستحيلاً ... »

وبالفعل ، فان كل شيء كان يبدو مرتباً بشكل شيطاني لأثارة اسوأ التشويش في اوروبا . والرؤساء المسؤولون في الحكومة الفرنسية كانوا غائبين حتى ٣١ منه ؛ ويجب أن يكونوا قد علموا بالخبر وهم في البحر ، بين روسيا والسويد ، ولا يستطيعون أن يقوموا بعمل مشترك بسهولة ، لا مع الوزراء الفرنسيين الآخرين ، ولا مع الحكومات المتحالفة . (لقد عمل برختولد بنوع أن القيصر الروسي لا يعرف مضمون المذكرة الا بعد رحيل الرئيس ؛ ومما لا شك فيه انه كان يخشى أن تكون نصائح بوانكاريه صلحية) . والقيصر الالماني هو

ايضاً كان في البحر ، وقد كان قلقاً لابتعاده ، ولم يكن يستطيع ، لو أراد ، أن يعطي فرنسوا جوزيف تنبيهات بالاعتدال . ومن ناحية اخرى فان الأضرابات الروسية ، في أوج الأزمة ، كانت تشل حرية العمل للقادة الروس ، وايضاً فان الحرب الاهلية في ايرلندا كانت تشل حركة العمل في انكلترا . واخيراً فان الحكومة الصربية كانت تجد نفسها في تلك الأيام في ليلة الانتخابات: معظم الوزراء مسافرون إلى المقاطعات لأجل معركتهم الانتخابية؛ وباشيتش ، رئيس الوزراء لم يكن هو أيضاً في بلغراد عند تسليم المذكرة النمساوية .

وبدأ الناس بالحصول على ايضاحات حول هذه المذكرة . فالنص الذي عرض البارحة على الحكومة الصربية أرسل اليوم إلى الدول الكبرى . ورغم التأكيدات السلمية التي اعطتها النمسا في عدة مناسبات (لقد اكد برختولد لسفيري روسيا وفرنسا أن الطلبات ستكون **مقبولة جداً**) ، وبكل وضوح كان للمذكرة صفة انذار نهائي لأن حكومة فيينا تطلب فيها القبول الكلي بشروطها ، وقد حددت مهلة للجواب – مهلة قصيرة بشكل لا يصدق : ثمان واربعون ساعة ! – وذلك لتمنع دون شك تدخل الدول الكبرى لمصلحة الصرب . وهناك تعليمات سرية التقطت من وزارة الخارجية النمساوية ، حملها اشتراكي من فيينا ارسله هوسمر ، إلى جوريس ، تجعل كل قلقٍ مشروعاً : أن البارون دي جيل السفير النمساوي في بلغراد ، قد تلقى سلفاً ، وفي الوقت الذي سُلِّمت فيه المذكرة ، تعليمات حاسمة بقطع العلاقات الدبلوماسية وترك الصرب حالاً في حالة عدم قبول الحكومة الصربية بالمطالب النمساوية ، وذلك في الساعة السادسة من مساء غد السبت ، وبدون مناقشة . معلومات تبعث على التفكير أن الانذار النهائي قد كتب عمداً بشكل مهين وغير مقبول ، ليتيح في فيينا الاسراع باعلان الحرب . وهناك معلومات اخرى تؤكد هذه الافتراضات المتشائمة . أن رئيس اركان الجيش ، هوتزندورف ، قطع اجازته في التيرول بموجب برقية ليصل بسرعة إلى العاصمة النمساوية. وسفير المانيا في فرنسا السيد

دي‌شون Shoen ،والذي كان في اجازة في برختسغادن ، عاد إلى باريس فجأة ، والكونت برختولد ، بعد أن تحادث مع الامبراطور في إيشل ، قام بدورة في طريق سالزبورج ليلتقي فيها بالمستشار الالماني بيتمان ـ هولويغ .

اذن فكل شيء كان يتنافس لأعطاء انطباع عن مؤامرة حيكت بعلم . فأي دور اخذت المانيا فيها ؟ .. أن أصدقـــاء الالمان يلقون الخطأ على الروس ، ويفسرون موقف الالمان بان المانيا عرفت فجأة بمقاصد الجامعة السلافية المقلقة وأهمية الاستعدادات الحربية التي بدأت قبلاً في روسيا . وفي برلين ، فان كلمة السر في الدوائر الحكومية كانت الزعم أن الزعماء الالمان يجهلون حتى ذلك‌اليوم كل شيء عن المطالب النمساوية وانهم لم يعرفوا بهـا الا بواسطة المراسلات التي أجريت‌مع‌الدول الاخرى ، ويقال أن‌جاغوف،سكرتير الدولة في ويلهلمستراس قد اكد ذلك لسفير انكلترا . ولكن المعتقد ان النص قد ارسل إلى برلين منذ يومين على الأقل .

هل يجب الاستنتاج ان المانيا كانت تسنـــد النمسا بشكل قطعي وترغب بالحرب ؟ ان تروتنباخ الذي جاء من برلين ووجده جاك هذا المساء في مكتب ستيفاني قام ضد هذا الاستنتاج الساذج . فموقف المانيـا يُفسّر ، حسب رأيه ، ان الاوساط العسكرية في برلين كانت لا تزال تعتقد بعدم الاستعداد الروسي . فاذا كان حسابها صحيحاً ، واذا كان خطر قتال عام لا وجود له بناء على قصور روسيا المرغم ،فان الامبراطوريتين الجرمانيتين تستطيعـــان‌ان تبيحا لنفسيهما كل شيء : وستربحان بالتأكيد . كان المهم هو العمل بقوة وبسرعة . وكان يجب أن تكون الجيوش النمساوية في بلغراد قبل أن يتسع الوقت لدول الاتفاق الثلاثي للتدخل ، أو حتى للتشاور . وعندئذ تدخل ألمانيـا إلى المسرح : بريئة من كل اشتراك بالذنب ، من كل تعمد ، فتقدم وساطتها لحصر النزاع وحله بمفاوضات تأخذ المبادهة فيها.واوروبا لـكي تنقذ السلام، تتعجل قبول التحكيم الألماني وتضحي بمصالح الصرب دون مشادّات كبيرة إذن يعود كل شيء إلى النظام بفضل ألمانيـــا ، ويرصّد حساب اللعبـة لمصلحة الامبراطوريتين

الجرمانيتين : يتوطد نظام المملكة المزدوجة لوقت طويل ، ويسجل الحلف الثلاثي نصراً دبلوماسياً لم يسبق له مثيل . هذه الافتراضات المتعلقة بمخطط ألمانيا السري قد تأكدت ببعض الأحاديث التي التقطت من المحيطين بالسفارة الإيطالية في برلين .

كان ستيفاني قد استدعاه المعلم . فسار جاك مصحوباً بتروتنباخ إلى « مقهى التقدم » .

كانت القاعة الصغيرة مائجة . وصحف المساء . والأخبار التي جاء بها محررو « الانسانية » أيقظت تعليقات متناقضة ومحمومة .

نحو الساعة التاسعة اخترق الجو تيار تفاؤلي . فقد قضى باجيس بضع دقائق مع المعلم . ووجده أقل قلقاً . وقد قال له جوريس : « ان المصيبة حسنة في بعض الأمور ، فحركة النمسا سوف تضطر شعوب أوروبا إلى أن تنفض عنها الخمول » . ومن ناحية أخرى فإن البرقيات الأخيرة كانت تحمل عدة براهين عن فعالية الأممية . فالأحزاب البلجيكية ، والإيطالية ، والألمانية ، والنمساوية ، والانكليزية ، والروسية كانت على علاقة دائمة بالحزب الفرنسي وكانت تستعد للقيام بمظاهرات عامة واسعة النطاق . فقد تلقوا إيضاحات مشجعة أرسلها الحزب الاشتراكي الألماني الذي يمثل إلى حد ما ضمانة لمقاصد حكومته السلمية . فلا بيتمان ولا جاغوف ، والقيصر أقل منهما ، يقبلون كما يؤكد الإشتراكيون الديموقراطيون ، ان يُجروا إلى حرب : يمكن إذن الاعتماد على تدخل ألماني قوي وفعّال .

من روسيا جاءت أيضاً أخبار مشجعة . فعند تلقي المذكرة النمساوية اجتمع مجلس الوزراء بسرعة برئاسة القيصر وقرر القيام حالاً ، وبصورة مستعجلة ، بمسعى لدى الحكومة النمساوية للحصول على إطالة المهلة المفروضة على الصرب . وهذا الطلب الماهر الذي يحفظ أساس الدعوى ويهدف فقط إلى مسألة المهلة الثانوية لم يكن يبدو أن فيينا سترفضه . لأن تمديداً للمهلة يومين أو ثلاثة من شأنه أن يوفر للدبلوماسية الأوروبية الوقت للاتفاق على خط عمل

مشترك . والآن وفي الماضي ، وبدون أن تضيع وقتاً ، فإن وزارة الخارجية الروسية كانت قد شرعت مع مختلف السفراء المعتمدين في بطرسبورج بمحادثات واضحة لا يمكن إلا أن تؤتي ثمارها . وفي نفس الوقت تقريباً ، فإن برقية من لندن جاءت تؤكد هذه الآمال الأولى . فالسيد ادوارد غراي وزير الخارجية اتخذ المبادهة بمساعدة المسعى الروسي لأجل تمديد المهلة بكل ما له من سلطة . وفضلاً عن ذلك فقد أعدّ بسرعة مشروع وساطة أراد أن يشرك به ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وانكلترا - الدول الأربع الكبرى التي ليس لها مصلحة مباشرة بالنزاع . انه مشروع معتدل لم يكن يخشى أن يُرفض لأن اللاعبين على طاولة هذه الجمعية التحكيمية كانوا من معسكرات متساوية : فمن ناحية ، ألمانيا وإيطاليا للدفاع عن المصالح النمساوية ؛ ومن الناحية الأخري فرنسا وانكلترا لتمثيل المصالح الصربية السلافية .

ولكن ابتداءً من الساعة الحادية عشرة فإن جواً من التشاؤم المكدِّر جهّم الافق من جديد . فقد انتشرت الضجة أولاً أنه إذا قبلت ألمانيا مشروع السير ادوارد غراي فإنها تفعل ذلك بعبارات مبهمة جداً تبدو إنها تعلن أن ألمانيا لن تضم بصراحة عملها التوسطي إلى عمل الدول الأخرى ، ثم عُلِم ، ليس بدون تأثير ، من السيد مارك لوفوار الذي عاد من الكه دورسى ، ان النمسا ، بعكس ما كان ينتظر ، رفضت بصراحة لروسيا تمديد المهلة : الأمر الذي بدا فجأة كاعتراف بإرادتها الاعتدائية .

ونحو الساعة الواحدة صباحاً كان معظم المناضلين قد ذهبوا ، وعاد جاك إلى صحيفة « الانسانية » .

وفي قاعة الدخول كان غالو يشيع نائبين اشتراكيين خرجا من مكتب جوريس . كانا يحملان معلومات سرية ومقلقة : ففي هذا النهار ، بينما كانت جميع الوزارات تعتمد على تدخل برلين المهدِّيء ، فإن السيد دي شون سفير ألمانيا الذي عاد إلى باريس ، حضر إلى الكه دورسى ليقرأ على السيد

بيانفيني - مارتان ، الوزير الموقت ، تصريحات حكومته ؛ وهذه الوثيقة غير المنتظرة كان فيها جفاف الإنذار - والتهديد أيضاً . لقد صرحت ألمانيا فيها بوقاحة أنها « توافق في **الأساس** وفي **الشكل** على المذكرة النمساوية ؛ ويفهم منها أن ليس على الدبلوماسية الأوروبية أن تهتم بذلك ؛ وتصرح أن النزاع يجب أن يبقى محصوراً بين النمسا والصرب ، وانه « ليس على أية دولة **ثالثة** » أن تتدخل في النزاع ؛ « وإلا فهناك خوف من نتائج أكثر خطورة » الأمر الذي يعني بوضوح : « لقد عزمنا على مساندة النمسا ؛ فإذا تدخلت روسيا لصالح الصرب فإننا مجبرون على التحرك ؛ ونظام الأحلاف يلعب دوره آلياً ، وستجد فرنسا وروسيا نفسيهما أمام احتمال وقوع حرب مع الحلف الثلاثي [1] » . وهذه الخطوة من شون بدت أنها تكشف فجأة ، من ناحية الامبريالية الألمانية ، عن موقف متحزب ، اعتدائي ، وعن إرادة أرهاب كانا شؤماً بالتأكيد . ماذا يكون رد الفعل الفرنسي أمام هذه الدعوة النصفية إلى القتال ؟

كان غالو وجاك قد ظلا في قاعة المدخل . وكان جاك على وشك الذهاب حين فتح الباب فجأة وظهر جوريس ، لامع الجبهة من العرق ، وقبعته إلى الوراء ، والكتفان مستديران ، والعين متلبدة تحت الحاجبين ، وذراعه القصير يضم إلى خاصرته محفظة منتفخة بالأوراق . فألقى على الرجلين نظرة غائبة ، وأجاب آلياً على تحيتهما واجتاز الغرفة بخطوة ثقيلة ، واختفى .

٣٣

كانت مدام دي فونتانان ودانيال قد قضيا الليل على كرسيين متجاورين بجانب التابوت . أما جني فقد أخذت بضع ساعات من الراحة بناءً على إلحاح أخيها .

وحين انضمت الفتاة إليهما حوالي الساعة السابعة صباحاً اقترب دانيال من

---

١ - الحلف الثلاثي Triplice : حلف دفاعي عقد بين إيطاليا والنمسا وألمانيا عام ١٨٨٢ ، وجدد عام ١٨٨٧ وانتهى عام ١٩١٥ .

والدته ولمس كتفها بلطف .

– تعالي يا أمي .. ستظل جني هنا بينما نذهب نحن لنتناول الشاي .

كان الصوت حنوناً ولكنه صلب ، فلفتت مدام دي فونتانان وجهها المتعب نحو دانيال ، وشعرت أن لا فائدة من المقاومة ، فقالت لنفسها : « سأغتنم الفرصة لأحدثه عن رحلتي إلى النمسا » . وألقت نظرة أخيرة على النعش ونهضت وتبعت ولدها طائعة .

وقُدم إليهما طعام الفطور في الغرفة الملحقة التي قضت جني ليلتها فيها ، كانت النافذة مفتوحة تماماً على الحديقة . ومنظر ابريق الشاي اللامع ، والزبدة والعسل في آنيتهما الزجاجية أيقظ على قسمات مدام دي فونتانان ابتسامة لاإرادية ساذجة لقد كان الفطور برفقة ولديها في بدء النهار ، وفي كل وقت ، ساعة مباركة من الراحة والفرح ينشط فيها تفاؤلها الطبيعي .

واعترفت وهي تقترب من الطاولة :

– صحيح انني جائعة ، وانت يا كبيري ؟

وجلست وأخذت تدهن قطع الخبز بالزبدة بصورة آلية . ودانيال ينظر إليها مبتسماً وهي تفعل ذلك ، وقد رق قلبه لرؤيته في وضح النور هاتين اليدين الصغيرتين السمينتين تقومان بكل دقة بهذه الحركات الطقسية ، التي ترتبط ذكراها عنده بكل صباحات طفولته .

وأمام هذا الطبق المليء بالأطعمة تمتمت مدام دي فونتانان ، بدافع من توارد الأفكار المشوشة :

– فكرت فيك مراراً عديدة يا كبيري أثناء تلك المناورات . هل كنت تتغذى بشكل كاف ؟ وفي المساء ، ولمجرد تفكيري أنك ربما كنت تنام على القش بملابس مبللة بالمطر كنت أخجل من نفسي لأنني في سريري ؛ ولم أكن أستطيع النوم .

فانحنى وأسند يده على ذراع أمه :

– أية فكرة هذه يا أمي ! بالعكس ، بعد شهور كثيرة في الثكنة ،

كان ذلك لنـا بمثابة لهو ان نلعب لعبة الحرب الصغيرة .

وكان وهو يتكلم ، منحنياً نحوها ، يلمس السلسلة الذهبية التي يحملها في معصمه ، وأضاف :

– ثم ، انت تعلمين ان صف ضابط يجد في المناورات دائماً سريراً عند احد الاهالي .

وقد قال ذلك بشيء من الطيش . فذكرى بعض الحظوظ الحسنة التي تُنال حسب ظروف انزال الجنود الوقتي في مكان مأهول، قد اجتازت دماغه وسببت له شعوراً خفياً بالقلق سجلته هوائيات (أنتين) مـــدام دي فونتانان بشكل غامض . وتجنبت النظر الى ولدها .

وساد صمت قصير ، ثم سألت بخجل :

– في اية ساعة يجب ان تعود ؟

– هذا المساء ، الساعه الثامنة... تنتهي اجازتي في منتصف الليل ، ولكن يكفي ان اكون حاضراً في صباح الغد عند قراءة الاسماء .

وفكرت بان عملية الدفن لن تنتهي قبل الساعة الواحدة والنصف ، وانهم لن يعودوا الى بيتهم قبل الساعة الثانية ، وان هـــذا النهار الأخير مع دانيال سيكون قصيراً جداً .

وبما انه كان يفكر بالشيء نفسه ، فقد قال :

– في فترة بعد الظهر هذه علي ان اخرج : جولة لا غنى عنها .

فشعرت من لهجة صوته انه يخفي عنها شيئاً . ولكنها اخطأت حول طبيعة هذا السر . كانت بالضبط هي تلك اللهجة المراوغة ، الطليقة نوعاً ، والتي كان يتخذها في السابق ، بعد ان يقضي معها ساعة في المساء بجانب الموقد ، ثم يقول لها وهو ينهض : « عفواً يا امي ، لدي موعد مع رفاق ! »

واحس بالريبة فاراد تبديدها حالاً :

ـ انها حوالة مصرفية أقبضها . . حوالة مصرفية من لودفيكسون .

وكان هذا صحيحاً. لم يكن يريد ترك باريس دون ان يترك هذا المال لوالدته.

ولم تكن تبدو انها تسمع . كانت تشرب شايها ، كما كانت تفعل دائماً ، محترقة ، بجرعات صغيرة صامتة دون ان تضع الفنجان ، وعيناهـا مغطاتان بالبخار . كانت تفكر برحيل دانيال مثقلة القلب . ونسيت آنياً حفلة الجنازة . الا انها لم يكن من حقها ان تشكو : فغياب ولدها الذي تألمت منـه كثيراً منذ اشهر اوشك على نهايته . وسيعود اليهـا في تشرين الاول . وسيعودون الى حياتهم الثلاثية . ولدى هذه الفكرة انتصب امامها مستقبل هادىء ، وبدون ان تعترف بذلك ، فان اختفاء جيروم قـد أضاء الافق . وسوف تكون من الآن فصاعداً وحيدة ، وحرة بين ولديها .

كان دانيال ينظر اليها باهتمام قلق ، وسأل :

– ماذا ستفعلان كلاكما في باريس اثناء هذه الاشهر الصيفية ؟

(كانت مدام دي فونتانان ، بدافع الحاجة الى المال ، قـد أجَّرت بيتها في ميزون – لافيت الى غرباء طوال الفصل) .

وفكرت : « هذه هي اللحظة التي يجب ان احدثه فيها عن رحلتي ».

– لا تقلق نفسك يا كبيري ... قبل كل شيء ، ساكون منهمكة بتصفية كل هذه القضايا ...

فقاطع :

– اني قلق على جني يا امي ..

ومع انه كان معتاداً منذ وقت طويل على تحفظ اخته الصموت ، فقد دهش في هذه الايام الاخيرة من وجه جني الشاحب ومن نظرها المحموم . وصرح :

- حقيقةً فهي ليست على ما يرام وربما كانت بحاجة الى الهواء الطلق .

فوضعت مدام دي فونتانان فنجانهـا على الطبق دون ان تجيب ، هي ايضاً لاحظت شيئاً غير عادي في مظهر ابنتها : مظهر شرود ، قهر ، لا يكفي موت والدها لتفسيرهً . ولكنها كانت تنظر الى جني بغير نظرة دانيال ، وتأوهت قائلة :

– انها طبيعة بائسة .

ثم بسلامة قلب مؤثرة :
– لا تعرف ان تحوز على الثقة ...
ثم اضافت بتلك النبرة الاحتفالية قليلاً، المراعية التي تتخذها حين تتصدى لبعض المشاكل :
– انت ترى ان لكل مخلوق نصيبه من التجارب الداخلية ، من الصراع ..
فوافق دانيال دون ان يدعها تتابع :
– نعم ولكن مهما كان الامر ، لو كانت جني تستطيع في هذا الصيف ان تقيم في الجبل او على شاطىء البحر ...
فاكدت مدام دي فونتانان ، هازةً رأسها ، بـــذلك الاصرار للكائنات الهادئة التي تملك يقيناً لا محيد عنه :
– لا البحر ولا الجبل يستطيعان شيئاً . ليست جني مصـابة في صحتها . وما من احد يستطيع ان يفعل شيئاً لأجلهـــا ، صدّقني ... كل مخلوق يقود معركته وحده كما سيكون وحده في اليوم المعين ليموت فيه ...
وفكرت بنهاية جيروم المنعزلة، وامتلأت عيناها بالدمع . وتوقفت مرة ثانية وأضافت بصوت منخفض كأنها تكلم نفسها : وحده مع **الروح.**
– بهذه المبادىء
بدأ دانيال كلامه بشيء من الانزعاج هز صوته . وسحب سيكارة من علبته وصمت .
فسألت مدام دي فونتانان مندهشة :
– بهذه المبادىء ؟..
ورأته يطبق علبته بشدة ويضرب السيكارة على قفا يده قبل ان يضعها بين شفتيه ، ففكرت : « حركات والده تماماً..نفس اليدين ..» كان الشبه مدهشاً بحيث كان دانيـــال يضع في بنصره الآن الخاتم الذي انتزعته مدام دي فونتانان من اصبع جيروم ، قبل ان تصالب يديه للرحلة الابدية ؛ ان ذلك الحجر الثمين العريض يذكرها بشكل مؤلم بتينك اليدين النــاعمتين الصبيانيتين اللتين لم تعودا

حيتين الا في ذكرياتها . ولدى أول استحضار جسدي لجيروم لم تكن تستطيع امساك قلبها عن الخفقان ، كأنها في سن العشرين .. ولكن هذا الشبه بين الابن والاب كان دائماً يسبب لها تأثيراً عذباً وقلقاً رهيباً معاً . وكررت :

– بهذه المبادىء ؟

فقال :

– كنت فقط اريد ان اقول ..

وتردد ، وأخذ يبحث عن الكلمات عابساً :

– بهذه المبادىء كنت دائماً تتركين.. **الاخرين** .. يتبعون وحدهم مصيرهم ، وبكل حرية ، دون تدخل ، حتى لو كان الطريق الذي يتبعونه رديئاً بشكل ظاهر ، حتى عندما لا يستطيع هذا المصير أن يأتي بغير العذاب في حياتهم .. وفي حياتك !

كانت صدمة مؤلمة . ولكنها رفضت أن تفهم ، وتظاهرت بالابتسام :

– أتلومني الآن لأنني تركت لك الكثير من الحرية ؟

فابتسم دانيال بدوره ، وانحنى ووضع يده على يد امه ، وقال بنظرة رقيقــة :

– لا ألومك ولن الومك على شيء أبداً يا امي ، وانت تعرفين ذلك جيداً – ثم اضاف معانداً رغماً عنه : – وتعلمين ايضاً انني لم أكن افكر بنفسي .

فقالت بتمرد عنيف :

– اوه ! يا كبيري . هذا ليس حسناً – وقد جُرِحَتْ بشدة – انت دائماً تبحث عن الفرص لتتهم اباك !

هذه المناقشة في هذا الصباح قبل بضع ساعات من الدفن ، كانت في غير موضعها . وشعر دانيال بذلك ، وأسف على كلامه . ولكن الاستياء الذي شعر به لأنه قاله ، دفعه بحماقة إلى أن يزيد في الطين بلة :

– وانت يا أمي المسكينة لا تفكرين ابداً الا بتبرئته وتنسين كل شيء ، حتى الصعوبات المستغلقة التي تركنا فيها .

من المؤكد ان لديها كثيراً من الاسباب لتفكر مثل دانيال . ولكنها لم تكن تفكر الا بصيانة ذكرى الأب ضد صرامة الابن . وهتفت وفي صوتها نحيب :
– آه ! يا دانيال . كم انت ظالم ! انك لم تفهم ابداً طبيعة والدك الحقيقية .
– وتابعت بالحمية العنيدة التي يدافع بها عن قضايا لا يمكن الدفاع عنها :
– ليس هناك اي شيء خطير يمكن لوم أبيك عليه ! لا شيء ! كان كثير الفروسية ، كثير الاريحية ، متواكلاً فلا ينجح في الأعمـال ! هذه هي غلطته الوحيدة ! وسأثبت ذلك . ربما ارتكب شيئاً من عدم التبصر : « اعمال طائشة مؤسفة » لا قال امامي السيد ستيلنغ . هذا كل شيء ! أعمال طائشة مؤسفة !

وارتعشت شفتا دانيال بدون ان ينظر إلى امه ، وتحرك كتفاه حركة خفيفة ؛ ولكنه اكتفى ولم يجب بشيء . وهكذا رغم حنوهما ، رغم رغبتهما في أن يتحدثا بقلب مفتوح ، فانهما لم يستطيعا : منذ الاحتكاك الاول اصطدمت افكارهما السرية ؛ ومشاعرهما الجديدة سممت حتى الصمت .. فخفض رأسه وظل جامداً وعيناه في الارض .

وكانت مدام دي فونتانان قد صمتت . ما فائدة متابعة حديث كانت تشعر انه خاطىء منـــذ البدء ؟ كانت تنوي أن تخبر ولدها بالملاحقة الخطرة ضد زوجها ليفهم دانيال كم ان من الضروري ان تقوم برحلتها إلى فيينا . ولكن أمام قساوة دانيال المهتاجة لم يكن لديها سوى فكرة : تبرئة جيروم ، الأمر الذي ينقص من صحة الاسباب التي كان بامكانها ان تدلي بها لتبرير رحلتها ، وقالت لنفسها : « لا يهم ، سأكتب إليه » .

ودام الصمت المؤلم بضع دقائق .

وكان دانيال ملتفتاً الآن نحو النافذة يتأمل السماء الصباحية ، ورؤوس الاشجار ، ويدخن بسهولة مصطنعة لم تكن امه ، ولا هو نفسه ، مفشوشين بها.
– الساعة الثامنة .

تمتمت مدام دي فونتانان بعد ان سمعت ساعة العيادة تدق . والتقطت الخبز الساقط على ثوبها ونثرته للعصافير على متكأ النافذة ، وأضافت بصوت

هادىء :

– انا عائدة إلى هناك .

وكان دانيال قد نهض . كان خجلاً من نفسه ، يعذبه توبيخ الضمير . و ككل مرة يتأكد فيها عماوة الأمومة الحنون فان حقده حيال والده يزداد . وكان شعور لم يعرف ان يسميه ، يدفعه دائماً إلى جرح هذا الحب الكثير التسامح .. وألقى سيكارته واقترب من امه بابتسامة قلقة . وبصمت ، انحنى ليضع ، كما كان يفعل في أغلب الأحيان ، قبلة على رأس الجبهة ، عند منبت الشعر الذي ابيضّ قبل الاوان . كانت شفتاه تعرف المكان،ومنخراه يعرفان فتور البشرة. وقلبت رقبتها قليلاً ، وامسكت وجهه بين كفيها ، ولم تقل شيئاً . ولكنها ابتسمت له وتطلعت في اعماق عينيه . وهذه النظرة ، وتلك الابتسامة ، حيث لا يبقى أية فكرة مضمرة للتوبيخ ، بدتا انهما تقولان : « لقد نسيت كل شيء . عفواً لأنني كنت عصبية . لا تأسف على الغم الذي سببته لي » . وفهم جيداً هذه اللغة الصامتة بحيث خفض جفونه مرتين علامة الموافقة . وبما انها اعتدلت فقد ساعدها على الوقوف .

وبدون أن تقول شيئاً استندت على ذراعه لتهبط إلى تحت الأرض وفتح لها الباب وجعلها تدخل وحدها .

واستقبلت بوجهها عطر الورود الذابلة على النعش ممزوجاً بلهاث القبو . وكانت جني جالسة جامدة ، ويداها على ركبتيها .

واخذت مدام دي فونتانان مكانها إلى جانب الفتاة . وأخذت التوراة من محفظة اليد المتدلية من مسند كرسيها ، وفتحتها كيفما اتفق (على الاقل كان هذا هو ما تدعوه « كيفما اتفق » ؟ وفي الواقع فان هذا الكتاب القديم الممزق الظهر كان يقدم لها دائماً احد المقاطع التي كانت تتغذى منها بشكل دائم) .

وقرأت :

« من الذي سيستخرج الخبيث من الطيب ؟ لا أحد . أن ايام الانسان

محدودة ، وعدد اشهره بين يديك ؛ انت عينت له حدوده ولن يتجاوزها .
انسحب منه ليشعر بالراحة الوقتية إلى أن ينهي نهاره ، كعامل مأجور . »

ورفعت عينيها ، وحلمت بضع لحظات ، ثم وضعت الكتاب في تجويف تنورتها . أن طريقتها الكثيرة الحيطة في لمس ، وفتح ، وإطباق التوراة . كانت لها وحدها عمل تقوى وشكران .

واستعادت كامل هدوءها .

٣٤

مساء البارحة ، بعد أن رأى جاك صعود جوريس إلى سيارة اجرة واختفاءه في الليل ، جاء يختلط بجمهور المناضلين الساهرين الذين يتأخرون في أغلب الاحيان حتى ساعة متقدمة في مقهى « لاشوب » . والغرفة الخاصة التي احتفظ بها مقهى شارع فايدو للاشتراكيين لها مدخل من الساحة ، الأمر الذي يسمح بان تظل مفتوحة حتى بعد إقفال المحل . وكانت المناقشات فيها حامية جداً ، وتظل إلى وقت متأخر بحيث لا يخرجون منها الا في الساعة الثالثة صباحاً . ولما كان لا يملك الشجاعة في مثل هذه الساعة المتأخرة ليذهب إلى ساحة موبير ، فانه وجد ملجأ بقرب البورصة ، في فندق حقير . وما كاد يصبح في السرير حتى راح في نوم ثقيل لم تنجح الضوضاء الصباحية أن تعكره في ذلك الحي الآهل .

وعندما استيقظ كانت الشمس مرتفعة .

وبعد زينة مقتضبة هبط إلى الشارع واشترى الصحف ، وركض يقرأها على سطيحة احدى مقاهي الشارع .

كانت الصحف هذه المرة عازمة على دق جرس الانذار . وقد ابعدت دعوى كايو اخيراً إلى الصفحة الثانية . واعلنت جميع الصحف بعناوين كبيرة خطورة الوضع ، ناعتة المذكرة النمساوية « بالانذار النهائي » وحركة النمسا « بالاثارة

الوقحـــة » . والفيغارو نفسها التي كانت منذ اسبوع تخصص عددها اليومي لتنقـــد بصورة مختصرة مناقشات كايو ، اصبحت تعلن منذ الصفحة الاولى ، وبحروف اعلانية عن « **التهديد النمساوي**» وهناك صفحة كاملة مخصصة للتوتر الدبلوماسي تحت هذا العنوان المقلق : « **هل هي الحرب ؟** » . وجريدة الصباح (الماتان) ، وهي صحيفة نصف رسمية كانت ذات لهجة حربية : « النزاع النمساوي – الصربي قد بُحث اثناء الزيارة التي قام بهـــا رئيس الجمهورية إلى روسيا ... » وكليمانصو في صحيفته « الرجـــل الحر » كتب يقول : « منذ عام ١٨٧٠ لم تجد اوروبا نفسها ابداً بمثل هذا القرب من صدمة حربية لا يمكن قياس مدى امتدادها » . وصحيفة « صدى باريس » روت بالتفصيل زيارة السيد شون إلى الكه دورسى : « الانذار الرسمي النمساوي عقبـه التهديد الالماني ... » ، وانهت ، في آخر ساعة ، بهذا الانذار : « اذا لم تخضع الصرب فان الحرب ربما اعلنت هذا المساء » . ومن المعلوم انه لم يكن المقصود سوى حرب نمساوية – صربية . ولكن من كان يستطيع التأكيد انهم سيتوصلون إلى حصر الحريق ؟ .. وجوريس في مقاله الرئيسي لم يخفِ أن « اكبر حظ للسلم » هو في اذلال الصرب وفي القبول المميت بالمطالب النمساوية . ووفقـاً لمختارات الصحف فان الجرائد الاجنبية لم تكن اقل تشاؤماً . ففي هذا الصباح ، في ٢٥ تموز ، قبل انتهاء المهلة المعطاة للصرب باثنتي عشرة ساعة ، فان اوروبا بكاملها ، (وفقاً لنبوءة الجنرال النمساوي التي التقطهـا جاك قبل اسبوعين في فيينا) فاقت فجأة على الرعب .

ودفع جاك الاوراق التي كانت تزحم الطاولة ، وشرب قهوته الباردة . هذه القراءة لم تعلمه شيئاً لم يكن يعرفه قبلاً ؛ وبين الاجماع على القلق كان يردد صوتاً جديداً مأساتياً . وظل هناك منهوكاً ، ونظره تائه على جمهور الشغيلة والمستخدمين الذين كانوا ينزلون من الاوتوبيس ويركضون ، ككل يوم ، إلى عملهم ، ووجهه اكثر جدية من المعتاد ، وفي يده صحيفة مطوية . وكانت فترة

ضعف . وأثقلت عليه وحدته بشكل لا يحتمل، وساورته فكرة جني، ودانيال والدفن الذي يجري هذا الصباح .

ونهض بجدة وسار باتجاه مونمارتر . وجاءته فكرة الصعود حتى ساحة دانكور والمرور على « الليبرتير » . كان متعجلا ليجد نفسه في جو المعركة .

هناك اثنا عشر رجلا يتنسمون الاخبار ، كانوا موجودين في شارع اورسيل . وكان يجري التعليق بحرارة على مختلف مواقف صحف اليسار . فصحيفة « القلنسوة الحمراء » خصصت صفحتها الأولى للاضرابات الروسية . وعند معظم الثوريين فان اهمية الهياج العمالي في بطرسبورج كان إحدى أوثق الضمانات للحياد الروسي ، يعني حصر النزاع في البلقان . وكان الجميع في « الليبرتير » متفقين على توجيه النقد إلى الاممية ، واتهام الرؤساء بالتواطؤ مع الحكومات . الم تكن هي اللحظة المناسبة للقيام بضربة كبرى ؟ ولإثارة اضرابات اخرى بجميع الوسائل في البلدان الاخرى ، لأجل شل جميع حكومات اوروبا في وقت واحد ؟ فرصة وحيدة لانتفاضة جماهيرية تستطيع ، ليس فقط ابعاد التهديدات الحالية ، بل تقديم الثورة عشرات من السنين .

كان جاك يصغي إلى المناقشات ، ويتردد في إعطاء رأيه . ففي رأيه كانت الاضرابات الروسية سلاحاً ذا حدين . كانت تستطيع بالفعل ان تشل ارادة الحرب لدى اركان الجيش ، ولكنها كانت تستطيع ايضاً أن تقدم لحكومة ذات موقف حرج الرغبة في القيام بألهية عنيفة : ان تأمر بحالة الحصار بحجة خطر الحرب ، وخنق العصيان الشعبي بواسطة عملية قمع حقود .

سجلت الساعة الحادية عشرة تماماً حين وجد نفسه في ساحة بيغال وتساءل : « ماذا كان عليّ أن افعل هذا الصباح ، في الساعة الحادية عشرة ؟. » لم يكن يعرف شيئاً . السبت ، الساعة الحادية عشرة ... شعر فجأة بالقلق وحاول أن يتذكر . دفن فونتانان ؟ .. ولكنه لم يكن ينوي الحضور ابداً... كان يمشي منخفض الرأس ، حائراً . « لست اهلا لمرض نفسي... ولم احلق... وصحيح اني اضيع بين الجمهور ... انا قريب جداً من مقبرة مونمارتر ... لو

كنت قررت ، فان حلاقا ، بخمس دقائق ... أشد على يـد دانيال ؛ سوف يكون في هذا شيء من اللطف ، ولن يلزمني بشيء ..

وبحث بعينيه عن آرمة حلاق .

وحين وصل الى المقبرة أعلمه حارس المدخل ان الموكب قد مرّ ، ودله على الاتجاه الذي يجب ان يتبعه .

وبعد قليل شاهد من خلال القبور جمعاً محتشداً أمام كنيسة ضيقة :

عائلة فونتانان

وعرف دانيال وغريغوري من ظهريهما .

وكان صوت القس الأبح يرتفع في الصمت :

– قال الله لموسى : ساكون معك ! وهكذا ايها الخاطىء ، حتى حين تسير في اودية الظلام ، لا تخف ان الله معك .

ودار جاك ليرى وجوه الحاضرين. جبهة دانيال العارية في وهج النور كانت تسيطر على جميـع الرؤوس . ويقف بقربه ثلاث نسوة ، يَبدَوْنَ مختفياتٍ تحت اقنعتهن السوداء . كانت الأولى هي مدام دي فونتانـان ، فاي الاثنتين هي جني ؟ ..

القس واقف ، أشعث ، ذاهل العين ، مرفوع الذراع بحركة تهديد ، كان يخاطب ، بلهجة لاذعة ، التـابوت الخشبي الاصفر الملقى تحت النور القوي على عتبة القبر .

– مسكين ، ايها الخاطىء المسكين ! لقد غابت شمسك قبـل نهاية النهار ! ولكننا لن نبكي عليك كأولئك الذين فرغوا من الأمل ! لقد تركت حقل النظر ، ولكن الذي اختفى عن أعيننا المادية هو الشكل الوهمي لمادتك الكريهة ! انت الآن تتألق ، وقد دعيت الى جانب المسيح تمجيداً لله ! ووصلت قبلنا الى النعيم السماوي ..؟ وانتم كلكم ايهـا الاخوة ... الموجودون هنا ، المصلون حولي ، وطدوا قلوبكم بالصبر ! لأن نعيم المسيح يبدو قريباً لكل فرد ! أبتاه ، اني أضع ارواحنا بين يديك ! آمين .

ورفع بعض الرجال التابوت، وأرجحوه واسقطوه دون اصطدام، بأطراف حبالهم، وكانت مدام دي فونتانان، يسندها دانيال، منحنية على الحفرة المفتوحة، ووراءهـا جني دون شك. بجانب نيكول هيكيه.. ثم أن النسوة الثلاث قادهن مستخدم من موكب الدفن فبلغن عربة حداد كانت تنتظر على الطريق، وسارت حالاً، متمهلة.

وكان دانيال يقف وحده في نهاية المشى الصغير، وقبعته اللامعة تحت ابطه. وكان ذا مظهر حسن، مشيقاً، أنيقاً، مرتاحاً تماماً، احتفاليـاً في موقفه، يتلقى تعازي الحضور الذين تسير موجتهم متمهلة أمامه.

وكان جاك يلاحظه؛ وما ان ينظر إليه هكذا من بعيد حتى يشعر، كما في الزمن السابق، بشعور عذب متوقد من الحرارة.

وعرفه دانيال. وكان وهو يشد على الايدي يدير بين وقت وآخر عينيه نحوه بشعور مفاجأة ودية. وقال متردداً:

– شكراً لمجيئك. انا عائد هذا المساء.. لكم احببت أن أراك مرة أخرى ايضاً!

كان جاك، أمام صديقه، يفكر بالحرب، بجنود الاصطدام، بأولى الضحايا..

وسأل:

– اقرأت الصحف؟

فتأمله دانيال دون أن يفهم جيداً.

– الصحف؟ كلا، لماذا؟ – ثم بصوت يحاول ألا يبدو كثير الالحاح: – ألا تأتي هذا المساء لوداعي في محطة الشرق؟

– اي ساعة؟

فتألق وجه دانيال:

– القطار في الساعة التاسعة والنصف.. أتريد أن انتظرك في مطعم المحطة، في الساعة التاسعة؟

– ساكون هناك .

وتطلعا ببعضهما البعض قبل أن يشدا عل اليدين . وتمتم دانيال :

– شكراً .

وابتعد جاك دون أن يلتفت .

٣٥

تساءل جاك عدة مرات أثناء فترة الصباح ماذا يمكن أن تكون ردودالفعل عند انطوان أمام خطورة الوضع السياسي . كان يامل ، بشيء من الغموض ، أن يلتقي باخيه في الدفن .

وعزم على تناول غدائه بسرعة ، وأن يذهب إلى شارع الجامعة .

وقال ليون وهو يسير بجاك نحو غرفة الطعام :

– لا يزال السيد على المائدة ، ولكنني قدمت الفاكهة .

واغتاظ جاك لرؤيته، عند دخوله، اسحق ستودلر وجوسلان وروا الشاب، يجلسون الى المائدة حول اخيه . كان يجهـل انهم يتناولون غداءهم هنا كل يوم . (وقد طلب انطوان ذلك : كان هذا بالنسبة اليه وسيلة أكيدة، بين صباحية المستشفى وفترة ما بعد الظهر التي يستأثر بها الزبائن ، ان يتصل يومياً بمعاونيه . وبالنسبة اليهم – والجميع عازبون – كان ذلك اقتصاداً بالوقت وفائدة مالية ثمينة) .

وقال انطوان :

– اتاتي لتتناول الغداء .

– شكراً ، لقد أكلت .

ودار حول الطاولة الكبيرة ، وشد على الايدي التي امتدت ، وسأل قبـل أن يجلس :

– اقرأتم الصحف ؟

فتطلع انطوان باخيه لحظة قبل أن يجيب ، وبدت هذه النظرة انها تعترف:

« ربما كنت على حق » . وقال مفكراً :

– نعم لقد قرأنا كلنا الصحف .

واعترف ستودلر مداعباً ذقنه السوداء :

– لم نتكلم بشي آخر منذ بدء الطعام .

وحرص انطوان على ألا يبدو قلقه . فقد كان يشعر طوال فترة الصباح بهياج خفي . كان بحاجة حوله لجمعية منظمة بشكل ملائم ، كما كان بحاجة إلى بيت منظم جيداً ، تُحل فيه المسائل المادية بمعزل عنه وبطريقة مرضية بواسطة مستخدمين من اصحاب الضمائر . كان يريد أن يغضي عن بعض العيوب في النظام ، ويمحو بعض الفضائح البرلمانية ، ويغمض عينيه ايضاً عن اسراف ليون وارباح كلوتيلد الصغيرة . ولكن مصير فرنسا لا يجب بأي حال أن يسبب له هماً أكثر من خدمة السفرة والمطبخ . ولا يحتمل فكرة أن تأتي بعض الاضطرابات السياسية وتقيد حياته ، وتهدد مشاريع عمله وقال :

– لا اعتقد انه يجب الافراط في الخوف، وقد مررنا بسوابق أخرى . ومع ذلك فمن الراهن أن الصحف هذا الصباح قد اسمعتنا صليل سيف غير منتظر .. مقيتاً بما فيه الكفاية .

ورفع مانويل روا ، عند الكلمة الأخيرة ، وجهه الفتي ذا العينين السوداوين نحو انطوان :

– صليل سيف ، ايها المعلم ، لتُسمعْ من الجهة الأخرى من الحدود . ولن يعوزها دون شك أن تخيف الجيران الشرهين !

وجوسلان المنحني على صحنه ، رفع رأسه ليتامل روا . ثم عاد الى عمله : كان يقشر دراقة بطرف الشوكة والسكين بدقة مفرطة . وقال ستودلر :

– ليس هناك شيء أقل تأكيداً من ذلك .

فقال انطوان :

– رغم كل شيء فهو محتمل . وربما كان ضرورياً .

فقال ستودلر :

– نعرف ان سياسة التهويل هي دائماً خطرة . انها تسخط الخصم في أغلب الأحيان أكثر من ان تشلّه . واعتقد على الخصوص أن الحكومة ترتكب خطأ خطيراً بتركها صليل السيف ينتشر على جميع الأصداء .

فصرح انطوان بنبرة رزينة :

– من الصعب جداً أن يضع المرء نفسه في مركز الرجال المسؤولين .

وقال ستودلر :

– اني اطلب من الرجال المسؤولين ان يكونوا حذرين قبل كل شيء . فاختيار موقف عدائي هو الغفلة الاولى. والحمل على الاعتقاد ان هذا الموقف اصبح ضرورياً ، هو الغفلة الثانية . ما من شيء يصبح اكثر خطراً على السلم من ان ترسّخ في الرأي العام فكرة ان الحرب تهددنا ... او حتى ان حرباً هي ممكنة !

وصمت جاك ، وقال انطوان دون ان ينظر الى اخيه :

– بالنسبة الي ، فاني افهم تمام الفهم ان وزيراً ، حتى لو ذم الحرب بصفته رجلاً ، يكون قد اضطر الى اتخاذ بعض الاحتياطات الاعتدائية وهذا ناتج عن سبب وحيد هو انه في مركز السلطة . والرجل الذي وُضع على رأس بلاد للسهر على سلامتها ، فاذا كان لديه حسن الاعمال ، واذا كانت سياسة الدولة المجاورة المهددة تبدو له كأمر واقع ....

فقاطعه روا :

– دون ان نحسب انه يوجد رجل دولة ينوي تجنب الحرب مهما كان الثمن ، بدافع حنو شخصي كاذب ! فحين يكون المرء على رأس بلد يحتل مكاناً على رقعة الشطرنج، بلد يملك اراضي وامبراطورية استعمارية ، فان هذا يضطره الى رؤية واقعية . واكثر رؤساء الوزارات محبةً للسلام يجب ان يشعر بسرعة ، منذ ان يصبح في الوظيفة ، ان دولة لا تستطيع الاحتفاظ بثروتها وتنقذ املاكها من طمع الجيران ، دون ان يكون لديها جيش قوي يفرض الاحترام ويحمل سيفه بين وقت وآخر لالشيء الا ليذكر بقية العالم انه موجود .

وفكر جاك : « الاحتفاظ بثروتها . وها نحن في صلب المشكلة ! الاحتفاظ بما تملك، والاستيلاء على ما يملك الجار حين تسنح الفرصة ! هذه هي كل السياسة الرأسمالية – سواء اكان المقصود افراداً أو امماً .. فالافراد يناضلون لضمان المنافع ، والامم لاكتساب منافذ لترويج البضائع ، واراضي ، ومرافىء ! كما لو ان ليس هناك قانون آخر للفعالية البشرية سوى المنافسة ...»

وقال ستودلر :

– مما يؤسف له ، ومهما كان الدور الذي ستتخذه الامور غداً ، فان صليل سيفك يخشى ان يكون له اسوأ النتائج على السياسة الفرنسية في الخارج كما في الداخل ...

وكان ، وهو يتكلم ، منحنياً نحو جاك كما لو انه يطلب رأيه . وكان لحدقتيه بريق فاتر ، مضطرب يضطر المرء الى ان يلفت عينيه عنه .

ورفع جوسلان رأسه من جديد لينظر الى ستودلر : ثم مر نظره على الوجوه الاخرى مستعرضاً . كان ذا وجه اشقر ، كله رقة وعذوبة : انف اقنى طويل و كئيب ؛ وفم طويل ، رقيق يبتسم بسهولة ؛ وعينان طويلتان ايضاً ، غريبتان ، بلون رمادي عذب . وتمتم لاهياً :

– مهما كان الامر يبدو، انكم نسيتم ان الحرب لا يريدها احد ، لا احد !

فقال ستودلر :

– امتأكد انت من ذلك ؟

فقال انطوان راضخاً :

– بعض الشيوخ .

وقال ستودلر :

– بعض الشيوخ الخطرين الذين يتغرغرون ببعض الصيغ البطولية الجميلة ، والذين يعرفون جيداً انهم في تيار الحرب ، يستطيعون الغرغرة على مهل دون اي خطر ، في المؤخرة .

ولمح جاك بحذرٍ لاحظه انطوان :

– الخطر متأت من ان مراكز القيادة في كل اوروبا تقريبــاً هي في ايدي هؤلاء الشيوخ.

فتطلع روا الى ستودلر ضاحكاً :

– انت ، أيها الخليفة ، الذي لا تخاف الافكار الجديدة، تستطيع ان تقذف بهذه الفكرة من قبيل الاحتياط : في حالة التعبئة العامة فان جميع الطبقات القديمة اولاً ! جميع الشيوخ ، يجب ان يكونوا في الخط الاول !

وتمتم ستودلر :

– ولن تكون هذه حماقة !

وساد صمت بينما كان ليون يقدم القهوة . وصرح ستودلر متجهماً :

– ومع ذلك فهناك وسيلة ، وسيلة واحدة لتجنب الحرب بشكل مؤكد . وسيلة جذرية وقابلة للتطبيق بشكل تام في اوروبا .

– وهذه الوسيلة ؟

– طلب التصويت الشعبي .

كان جاك هو الوحيد الذي استصوب باشارة من رأسه . وتشجع ستودلر فتابع :

– اليس من غير المنطقي، اليس من المستحيل ان يُترك اعلان الحرب لمبادهة الحكومات في ديموقراطياتنا ذات التصويت العام ؟ لقد قال جوسلان : « ما من احد يريد الحرب ». حسناً . وما من حكومة في اي بلد يجب ان يكون لديها الحق باقرار ، او حتى بقبول حرب ، ضد الارادة الحاسمة لأكثرية المواطنين ! عندما يتعلق الامر بحياة وموت الشعوب ، فان اقل ما يمكن قوله هو ان استشارة الشعوب نفسها هي امر شرعي ، ويجب ان يكون اجبارياً .

وما ان تحمس حتى بدأ عرنينه المعقوف بالارتجاف . وأدكنت بعض البقع وجنتيه . واحتقن بشيء من الدم بياض عينيه الكبيرتين كعيون الخيل. وتابع :

– ليس في هذا شيء وهمي. يكفي ان يرغم كل شعب حكوماته على اضافة ثلاثة اسطر من التعديل على الدستور : « لا يمكن اقرار التعبئة العامــــة ، ولا

يمكن اعلان الحرب الا بعد استفتاء شعبي وباكثرية ٧٥ بالمئة » . فكروا بهذه . انها الوسيلة الوحيدة القانونية التي لا تخطىء لمنع حروب جديدة إلى الابد ... ففي وقت السلم - وقد رأينا ذلك في فرنسا - يوجد عند اللزوم اكثرية لتنتخب للحكومة رجلاً ذا سياسة عسكرية: يوجد دائماً مغفلون يلعبون بالنار. ولكن عشية يوم التعبئة اذا كان هذا الرجل مضطراً لاستشارة اولئك الذين وضعوه في مركز السلطة ، فانه لن يجد شخصاً يرضى بمنحه حق اعلان الحرب .

وكان روا يضحك بصمت . ونهض انطوان ولمس كتفه :

اعطني عود ثقاب يا صغيري مانويل .. ماذا تقول بكل هذا ، انت؟ وما ستقول صحيفتك عن ذلك ؟

فرفع روا إلى انطوان نظرته الملساء كنظرة تلميذ جيد..واستمر فيالضحك بشيء من التحدي .

وأوضح انطوان ملتفتاً نحو أخيه :

– ان مانويل هو من قراء صحيفة العمل الفرنسي (الأكسيون فرانسيز) .

فقال جاك ، متفحصاً الطبيب الشاب الذي كان يتفرس فيه ايضاً :

- وأنا أيضاً أقرأها كل يوم . هناك جماعة مرموقة من الجدليين الذين يأتون بتعليلات عقلية منزهة عن الخطأ في أغلب الأحيان . ولسوء الحظ – في رأيي على الأقل فان ذلك يكون مبنياً في أكثر الأحيان على معطيات خاطئة .

فخنخن روا :

– اتعتقد ؟

ولم يكف عن الابتسام بغطرسة وكبرياء . كان يبدو انه لا يريد ان يتنازل إلى مناقشة اناس من الجهلة في أمور تشد على قلبه . كان يبعث على التفكير بولد يريد الاحتفاظ بسر . ومع ذلك فقد كان ينبعث من نظره مرة بعد مرة ألق غير مألوف . وكما لو ان حكم جاك جعله ينوي الخروج عن تحفظه رغم كل شيء ، فقد خطا خطوة نحو انطوان وقذف بعنف :

– أنا اعترف لك ايها المعلم ان لدي مـــا يكفي من المشكلة الفرنسية –

الالمانية ! وها اننا ندحرج هذه الكرة ، آباؤنا ونحن ، منذ أربعين سنة . وهذا يكفي . فاذا كانت الحرب لازمة للانتهـاء من ذلك ، فلا بأس ، ليكن . هيا ! ما دام سيلزم ان نصل إلى هنا ! فلماذا الانتظار ؟ وما فائدة تأخير ما لا بد منه ؟

فقال انطوان مبتسماً :

– لنؤخر دائماً . ان الحرب المرجأة إلى ما لا نهاية له هي اشبه ما تكون بالسلم .

– لعمري اني افضل الانتهاء منها دفعة واحدة . لأن هناك شيئاً اكيداً على الأقل : فبعد كل حرب – نكون فيها منتصرين كاهو محتمل ،أو حتى لو كنا مغلوبين – ستجد القضية نفسها قد سوّيت نهائياً في هذا الاتجاه او ذاك ؛ ولن يكون هناك مشكلة فرنسية – المانية . – وأضاف بوجه اصبح رزيناً : – دون ان نحسب الحسنة الـتي ستكسبنا إياها عملية فصد جيدة ، في الحالة التي نكون فيها . ان اربعين سنة من السلم المنتن لم تصلح شأن معنويات بلد ! فاذا كانت نهضة فرنسا الروحية ليست ممكنة الا بثمن حرب ، فنحن ولله الحمد ،من الناس الذين سوف يضحون بجلودهم بدون مساومة .

لم يكن يوجد اثر للتبجح في لهجة هذه الكلمات . كان صدق روا ظاهراً . وشعر الجميع به . لقد كان امامهم رجل مقتنع ، مستعد لإعطاء حياته في سبيل ما يعتقد انه الحقيقة .

وكان انطوان يستمع ، واقفاً ، والسيكارة بين شفتيه ، والجفون مطبقة . وبدون أن يجيب ، شمل الشاب بنظرة ودودة ورصينة ، تتنوع بالكآبة ؛ لقد كانت الشجاعة تسره دائماً . ثم تأمل ، محدقاً ، بضع ثوان بطرف سيكارته المحترق .

وكان جوسلان قـد اقترب من ستودلر . وبسبابته المنتهية بثؤلولة صفراء قرضها الأسيد لمس صدر الخليفة عدة مرات :

– أنت ترى أننا نعود دائماً إلى التمييز الاساسي : **المنظمون والمختلون** : اولئك الذين يقبلون الحياة والذين يرفضونها .

فانفجر روا ضاحكاً بمرح :

– اذن ، فأنا من المنظمين ؟

– نعم . والخليفة ، هو مختل. ولن تتغيرا أبداً ، لا أنت ولا هو .

وكان انطوان قد دار نحو جاك ، وابتسم وهو يستشير ساعته :

– لست مستعجلاً ايها المختل .. تعال لحظة إلى غرفتي .

وقال وهو يفتح باب مكتبه الصغير ويتنحّى امام أخيه :

– اني احب روا الصغير جداً .انهطبيعة سليمة وكريمة...عقل مستقيم... محدود ، وانا مقتنع بذلك . – اضاف امام صمت جاك – اجلس . سيكارة ؟ انا واثق انه ازعجك قليلاً . يجب معرفته وفهمه . انه ذو مزاج رياضي بشكل اساسي . ولديه ذوق التأكيد . ويقبل الحقائق والوقائع دائماً بمرح وبجرأة . ويمتنع عن الاعجاب بالتحليل مع أن الروح النقدية لا تعوزه– في عمله على الاقل . ولكنه بدافع الغريزة يبعد الشك الذي يشل.وربما لا يكون مخطئاً... والحياة عنده يجب ألاّ تكون مناقشة فكرية . وهو لا يقول ابداً : « ماذا يجب أن افكر؟» .بل يقول:«ماذا يجب أن اعمل؟كيف اعمل بشكل مفيد؟..» وارى انحرافاته جيداً ؛ ولكنها على الخصوص عيوب شباب . وهذا سيزول. هل لاحظت صوته ؟ في بعض الاحيان يتغير صوته ايضاً كصوت الطفل ، وعندئذ يفرط في نبرته ليبلغ درجة الصوت الخشنة ، درجة صوت الاشخاص الكبار .

وكان جاك قد جلس . واخذ يصغي دون ان يظهر استصوابه . واعترف قائلاً :

– اني افضل الاثنين الآخرين . فجوسلان على الخصوص يبدو لي خفيف الروح .

فقال انطوان ضاحكاً :

– آه ! هذا نموذج يعيش في حكاية جن دائمة . مزاج حقيقي لمبتدع . فقد قضى حياته يحلم بأشياء هي على حدود الممكن والمستحيل في ذلك الصعيد نصف الواقعي حيث العقول التي كعقله تنجح احياناً في القيام باكتشافات . وقد قام بذلك . حتى انه قام باكتشافات هامة . وسيصبح بامكاني ان اشرح لك ذلك متى سنح لنا الوقت . ورروا مسلٍّ جداً حين يتكلم عنه . انه يقول : « لم يشأ جوسلان ان يرى سوى عجول على ثلاث قوائم . ويوم يرضى أن يرى عجلاً طبيعياً فسيعتقد انه اكتشف معجزة . وسيصيح في كل مكان : « هل تعلمون أن هنا ايضاً عجولاً ذات اربع قوائم ؟ » .

ومد ساقيه على الاريكة ، وصالب يديه على رقبته .

– انت ترى انها فرقة جميلة تلك التي انشأتها هنا . . الثلاثة يختلفون عن بعضهم البعض ، ولكنها عقول تكمل بعضها بعضاً . . . اكنت تعرف الخليفة قبلاً ؟ لقد قدم لي خدمات عظيمة ، قوة عملٍ قليلة الوجود . انه موهوب بشكل غير عادي ، الحيوان ! اقول ايضاً ان هذا هو ما يميزه : كونه موهوباً . قوته وحدودها دفعة واحدة ، انه يفهم كل شيء دون جهد ، وكل تحصيل جديد يأتي حالاً ويحتل مكانه في أُطر دماغه ، في خزائن تبدو مقررة سلفاً : بنوع انه لا يوجد ابداً اية فوضى في رأسه الضخم . ولكني كنت اشعر دائماً ان فيه شيئاً غريبا لا يمكن تحديده – يأتي من العرقِ دون شك . . . لا أعرف كيف اقول . . وافكاره لا تبدو ابداً انها تخرج منه ، وانها تشكل معه بالحقيقة جسداً واحداً . وهذا عجيب جداً . وهو لا يستعمل دماغه كجهاز يخصه ، بل بالاحرى كآلة . . . آلة آتية من الخارج وقد أُعيرت له .

وكان وهو يتكلم ينظر إلى ساعته ويسحب ساقيه عن الاريكة بكسل . وكان جاك يقول لنفسه : « ومع ذلك فقد قرأ الصحف . الم يدرك اذن خطورة التهديد ؟ ام أنه يتكلم ليتجنب الحوار ؟ » .

وسأل انطوان وهو ينهض :

– من أية ناحية ستذهب ؟ اتريد ان اوصلك إلى مكـان ما بالسيارة ؟ انا ذاهب الى الوزارة ... الى الكه دورسى .

– آه !

قال جاك مندهشاً دون أن يحاول إخفاء دهشته .

واوضح انطوان دون ان يطلب منه .

– انا مضطر لرؤية روميل . اوه! لا لنتكلم في السياسة .. ففي هذه اللحظة عندي ابرة أحقنه بها ، كل يومين . والعادة أن يأتي إلى هنا . ولكنه تلفن لي انه مرهق بالشغل ولا يستطيع ترك مكتبه .

فقال جاك مجازفاً :

– ما رأيه في الحوادث ؟

– لا أعلم . وفي نيتي أن اسأله . عد هـذا المساء وساقص عليك .. أو من الأفضل .. اتريد ان ترافقني ؟ .. سامكث معه عشر دقائق : وستنتظرني في السيارة .

وراقت الفكرة لجاك ، ففكر لحظة وقبل بهزة رأس .

وقبل أن يخرج انطوان أقفل ادراج مكتبه بالمفتاح ، وتمتم :

– اتعلم ماذا فعلت منذ قليل عندمـا عدت ؟ بحثت عن دفتري العسكري لأقرأ فيه ورقتي المتعلقة بالتعبئة . – لم يكن يبتسم ، وقـد اعلن بهدوء : – كومبيانيه . وفي اليوم **الاول** ..

وتبادل الاخوان نظرة وهما صامتان . وبعد تردد قال جاك بوقار :

– انا متأكد أن هناك ألوفاً في اوروبا، فعلوا مثلك منذ هذا الصباح ..

وقال انطوان عندما هبط الدرج :

– هذا المسكين روميل ، كان تعبـاً جداً في الشتاء ، وكان عليه أن يذهب باجازة في هـذه الأيام . وثم – بسبب كل هذه القصص دون شك – طلب اليه برتلو أن يترك عطلته . وعندئذ جـاء الي لأساعده على تحمل الضربة . وبدأت المعالجة . وآمل أن انجح .

لم يكن جاك يسمع . كاد يتأكد انه شعر باستعادة محبته الأخوية لانطوان ، اليوم ، بدون أن يوضح لماذا . محبة ملأى بالحرارة ، وايضاً بالتطلّب وعـــدم الرضا . وقال تلقائياً :

– آه ! لو كنت تعرف يا انطوان ، بصورة أفضل ، الرجـــال ، وجماهير الناس ، والشعب الذي يكدح . كم تكون ... مختلفاً !

« كانت اللهجة تقول : « كم ستصبح افضل. كم ستصبح اكثر قرباً مني .. كم سيكون حسناً ان استطيع ان احبك ») .

وانطوان الذي كان يسير في المقدمة التفت غاضباً :

– اتعتقد انني لا اعرفهم ؟ بعد خمس عشرة سنة في المستشفى ! أتنسى انني منذ خمس عشرة سنة ، وكل صباح ، طوال ثـلاث ساعات ، لا اعمل شيئاً آخر سوى رؤية الناس ... اناس من جميـع الاوساط ، وعمال مصانع ، وسكان الضواحي ... وانا ، كطبيب ، ارى الانسان عارياً : الانسان المجرد من كل تصنع بواسطة الألم ؟ اذا كنت تعتقد أن هذه التجربة لا تساوي تجربتك !

ففكر جاك بهياج عنيد : « كلا ، كلا . ليست التجربتان متشابهتين » .

بعد عشرين دقيقة حين خرج انطوان من الوزارة ، عـاد نحو السيارة حيث كان جاك ينتظر . وكان وجهه مهموماً ، ودمدم :

– القضية حامية في الداخل . رواح ومجيء مجنون بين جميع المصالـــح . برقيات تصل من جميـع السفارات ... انهم ينتظرون بقلق نص الجواب الذي يجب ان تسلمه الصرب هذا المساء .

وبدون ان يجيب على استفهام اخيه الصامت ، سأل :

– الى اين تذهب الآن ؟

كان جاك على وشك القول : « الى صحيفة الانسانية » ولكنه اكتفى بأن يجيب :

– الى حي البورصة .

– لا استطيع إيصالك . سوف اتأخر . اذا اردت فساضعك في ساحة الاوبرا .

وما أن جلس انطوان حتى عاد الى الكلام :

– ان روميل متكدر ... ففي هذا الصباح كان الاهتمام كبيراً في غرفة الوزير بمذكرة غير رسمية من سفارة المانيا تعلن أن المذكرة النمساوية لم تكن انذاراً نهائياً . بل فقط « طلب جواب في مهلة قصيرة ». وهذا كما يبدو يعني في اللغة الدبلوماسية اشياء كثيرة: من ناحية، ان المانيا اهتمت بتخفيف خطورة الحركة النمساوية ؛ ومن ناحية أخرى ان النمسا لن ترفض مفاوضة الصرب .

وقال جاك :

– إلى هذه الدرجة ؟ أإلى هذه الدرجة يتعلقون بحجج ركيكة كهذه ؟

– ومن ناحية أخرى. فان صربيا بدت مستعدة للرضوخ دون مناقشة تقريباً، والامل هذا الصباح يبدو كبيراً .

فقال جاك بملل : ولكن ؟

– ولكن الآن علموا ان صربيا قد عبأت ثلاثماية الف رجل ، وان الحكومة الصربية ، وقد خافت أن تظل في بلغراد قريبة جداً من الحدود، فقد استعدت هذا المساء لترك العاصمة واللجوء الى وسط البلاد . ومن هنا الميل للاستنتاج ان الجواب الصربي لن يكون استسلاماً كما كانوا يأملون ؛ وأن لدى صربيا اسباباً لتتوقع هجوماً عنيفاً .

– وفرنسا ؟ هل في نيتها التحرك ، واتخاذ مبادهة ما ؟

– من الطبيعي ان روميل لا يستطيع أن يقول كل شيء . ولكن وفقاً لما اعتقد اني فهمته ، فان الرأي السائد اليوم بين اعضاء الحكومة انه يجب الظهور بمظهر الصلابة القصوى ؛ وعند الحاجة مضاعفة استعدادات الحرب بشكل مكشوف .

– دائماً سياسة التهويل .

– يقول روميل – ويبدو جيداً أن هذه هي كلمة السر اليومي: « في النقطة

التي وصلت اليها الامور فليس لفرنسا وروسيا حظ في ثني عنان الامبراطوريات الوسطى إلا بظهورهما بمظهر العازم على « كل شيء » . ويقول : اذا تراجع واحد منا فهي الحرب » .

– ومن الطبيعي ان تكون الفكرة المضمرة لدى الجميع هي: « إذا اندلعت الحرب رغم موقفنا التهديدي فان استعداداتنا سوف تعطينا الافضلية » .

– دون شك وهذا يبدو لي صحيحاً كل الصحة .

فهتف جاك :

– ولكن اذا اضطرت الامبراطوريات الوسطى الى التفكير بالشيء نفسه ، فالى أين المصير ؟ ان ستودلر على حق : هذه السياسة الحربية هي اخطر الجميع.

فتطلع انطوان بعصبية :

– هذه الأمور يجب أن تكون من اختصاص رجال المهنة . وعليهم ان يعرفوا ما يجب عمله افضل منا .

فهز جاك كتفيه وصمت .

واقتربت السيارة من الاوبرا . فسأل انطوان :

– متى أراك ؟ هل ستبقى في باريس ؟

فاتى جاك بحركة مبهمة :

– لا اعلم ...

وكان قد فتح باب السيارة . فلمس انطوان ذراعه .

– اسمع.. – وتردد باحثاً عن كلماته: – انت تعلم ، او لا تعلم، انني استقبل بعض الاصدقاء كل خمسة عشر يوما ، الاحد بعد الظهر ... غداً روميل يجب أن يأتي في الساعة الثالثة لأحقنه بالإبرة ، ووعدني بان لا يبقى في الاجتماع سوى برهة يسيرة . فاذا كان يروقك أن تراه فأهلاً وسهلاً بك ، مع القول أن حديثه في هذه الظروف يمكن أن يكون مفيداً .

فقال جاك مراوغا :

– غداً ، الساعة الثالثة ؟ ربما نعم .. سأحاول .. شكراً .

٣٦

في صحيفة الانسانيــة لم يكونوا يعرفون أكثر مما عرفه جاك بواسطة انطوان وروميل .

كان جوريس قد ذهب لمدة أربع وعشرين ساعة إلى الرون ليسند معركة انتخاب صديقه ماريوس موتيه . ومع أن غياب المعلم في هذه الساعات الحرجة سبب شيئاً من الاضطراب بين المحررين ، فإن الريح كانت مائلة إلى التفاؤل . وكانوا ينتظرون دون كثير من القلق ، الجواب على الإنذار . وكانوا يعتقدون أن الصرب ، تحت ضغط الدول الكبرى ، سوف تبدو ميالة إلى المصالحة لكي لا يكون للنمسا حجة للقول إنها أهينت . وكانوا يعلقون أملاً كبيراً على التأكيدات المترددة بأن الحزب الاشتراكي الألماني قد أكثر الوعود للاشتراكيين الفرنسيين : الاتفــاق في وجه الخطر المشترك كان يبدو كلياً . وفضلاً عن ذلك فإن المعلومات الأكثر تشجيعاً حول انتشار حركة السلام الدولية ظلت تتــكاثر . ففي كل النواحي تشتد المظاهرات ضد التهديد بالحرب . وكانت مختلف الأحزاب الاشتراكية في أوروبا تتبادل فعلياً وجهات النظر لأجل القيام بعمل مركــز وقوي ؛ وفكرة القيام بإضراب عام احتياطي بدأت تتجسم أكثر فأكثر .

وبينما كان جاك خارجاً من مكتب ستيفــــاني التقى بورلان الذي جاء يستقي الأخبار . وبعد بضع كلمات حول الحوادث ، فإن الثوري العجوز دفع جاك إلى احدى الزوايا وقال :

– أين تسكن أيها الغلام ؟ أنت تعلم ان الشرطة العسكرية في هذه الفترة تدس أنفها في كل مــكان ... وقد تعرض جيرفيه لمزعجات ، وكذلك كرابول ...

لم يكن جاك يجهل ان مؤجره في رصيف التورنيل كان مشبوهاً ؛ وبما أن أوراقه كانت كلها ضمن النظام فإنه لم يكن يهتم أبداً بالاحتكاك بالشرطة .

ونصحه مورلان :

– صدّقني . لا تنتظر . انتقل من البيت هذا المساء .

– هذا المساء ؟

كان من الممكن إجراء ذلك . ودقت الساعة السابعة والنصف وموعده مع دانيال لم يكن إلا في التاسعة . ولكن إلى أين يذهب ؟

وخطرت لمورلان فكرة . هناك رفيق في صحيفة « البيرق » ، وكيل متجول لمحل تجاري ، سيغيب لمدة أسبوع . وغرفته التي استأجرها لمدة سنة تقع في الطابق الأخير من بناية في شارع دي جور ، في الهال ، أمام بوابة سان اوستاش : بناية قديمة هادئة لا يوجد أي سبب لتكون مدرجة على لوائح الشرطة .

وقال مورلان :

– لنذهب إلى هناك . أنها على بعد خطوتين .

كان الرفيق في غرفته . وسوّيت المسألة حالاً . وبعد أقل من ساعة جاء جاك يحمل أمتعته الخفيفة .

وسجلت الساعة التاسعة وبضع دقائق حين وصل الى أمام محطة الشرق .

كان دانيال ينتظر خارجاً ، أمام مدخل مطعم المحطة . وما ان رأى جاك حتى جاء نحوه بهيئة قلقة . وقال على الأثر .

– جئ هنا .

واحمرت جبهة جاك . وانفرجت شفتاه عن « آه ! » خفية . وفي مدى ثانية خطرت في ذهنه عدة مشاريع متناقضة . فأدار رأسه ليخفي اضطرابه .

وظن دانيال أنه يبحث بعينيه عن الفتاة فقال موضحاً :

– أنها على الرصيف .

ثم كأنه يعتذر :

– لقد أرادت أن ترافقني حتى القطار .. ولم يكن من اللائق أن أكلمها عن موعدنا ، وإلا لما جرؤت على المجيء . ولم أخبرها إلا في هذه اللحظة .

وكان جاك قد امتلك نفسه ، فقال بجدة :

– سأترككما . لقد اردت مصافحتك – وابتسم – وقد فعلت . وها أنا ذاهب .

فقال دانيال :

– آه ! كلا ! لدي اشياء كثيرة أقولها لك . – وأضاف حالاً : – لقد قرأت الصحف .

فرفع جاك عينيه ولكنه لم يجب .

وسأل دانيال :

– إذا كان هنالك حرب فماذا ستفعل ، أنت ؟

– انا (كانت هزة رأسه تبدو انها تقول: « وهذا امر يطول شرحه لك»).

وصمت بضع ثوان . وأكد اخيراً بكل ما في امله من قوة :

– لن يكون هناك حرب .

فتطلع دانيال بانتباه ، وتابع جاك :

– لا أستطيع ان اعلمك بكل ما 'يهيأ . ولكن صدّقني . أنا أعرف ما أقول . يوجد الآن في جميع الاوساط الشعبية في اوروبا انتفاضة في الرأي العام ، وتجمّع للقوى الاشتراكية ، بحيث لا تستطيع أية حكومة أن تكون واثقة من سلطتها لتزج بشعبها في الحرب .

فتمتم دانيال ، وقد ظهر انه غير مصدق :

– نعم ؟

فخفض جاك عينيه لحظة . وتمثل فجأة الوضعية كلها في ذهنه ، فشاهد بوضوح تخطيطي التيارين اللذين يقسمان الاحزاب الاشتراكية في جميع البلدان : اليسار المعادي للحكومات بشكل عنيف ، محاولاً اكثر فأكثر التأثير على جماهير الشعب في سبيل نهايات عصيانية ؛ واليمين « حيث الاصلاحيون المؤمنون بفعالية الوزارات يحاولون التعاون مع الحكومات .. وفجأة شعر بخوف . وساوره شك . ولكنه رفع جفنيه وردد باقتناع هزّ دانيال رغم كل شيء :

– نعم .. ليس لديك اية فكرة . ان أؤمن بالقوة الحالية للاممية العمالية ! كل شيء متوقع كل شيء مُعَدّ في سبيل مقاومة حامية الوطيس . في كل مكان، في فرنسا ، في ألمانيا ، في بلجيكا ، في ايطاليا .. فان اقل محاولة للحرب سوف تكون هي الاشارة للقيام بعصيان عام .

فقال دانيال متأثراً :

– ربما كان هذا اشد هولاً من الحرب .

فتجهم وجه جاك واعترف بعد وقفة .

– اني غير متحزب ابداً للعنف . ولكن كيف اتردد بين احتمال حرب اوروبية وعصيان احتياطي؟ اذا لزم الامر لبضعة الوف من الموتى على المتاريس لمنع مجزرة حمقاء من عدة ملايين من الرجال ، ففي اوروبا عدد لا بأس به من الاشتراكيين الذين لن يترددوا اكثر مني .

وكان يتساءل : « ماذا تفعل جني ؟ إذا تأخر اخوها كثيراً فستأتي » . .

وهتف دانيال فجأة :

– عدني يا جاك .. – وصمت غير متجرىء على صياغة فكرته ، وتمتم : – اني خائف عليك .

ففكر جاك بكثير من التأثر : « انه معرّض للموت مئة مرة اكثر مني ، وما من لحظة يفكر فيها بنفسه » . وحاول الابتسام :

– اكرر عليك : لن تكون هناك حرب . فقط ، ربما كان الانذار حامياً ، وآمل ان تفهم الشعوب الانذار هذه المرة .. سوف نتحدث ثانية بهذا ذات يوم اذا اردت .. والآن فاني اتركك .. إلى اللقاء .

– كلا ، لا تذهب الآن . لماذا تذهب ؟

فتمتم جاك بجهد :

– هناك مَن ينتظرك .

واشار بيده بشكل غامض إلى داخل المحطة ، فقال دانيال بحزن :

– سر معي على الاقل حتى عربة القطار . وستلقي التحية على جني .

فارتعش جاك وقد أُخذ على حين غفلة ، ونظر إلى صديقه بغباوة .

– هيا ، تعال .

قال دانيال ذلك ممسكاً ذراعه بمودة . واخرج بطاقة من كمه :

– اخذت لك بطاقة دخول إلى الرصيف .

وكان جاك يقول لنفسه : « لقد اخطات في انصياعي له . انها بلاهة . يجب ان ارفض ، يجب ان اهرب » .

ومع ذلك فقد جعلته مجاملة خرقاء في أعماقه يتبع صديقه .

كانت القاعة الكبيرة مزدحمة بالجنود والمسافرين وعربات نقل الامتعة . لقد كان الوقت مساء السبت ، وهو بدء عطلة لدى الكثيرين . وكان جمهور فرح صاخب يتزاحم على شبابيك التذاكر . ووصلا إلى حاجز الرصيف . وكان الجو المتجهم داخناً ، مدوياً تحت السقف الزجاجي الواسع . وهناك أناس يسرعون في جميع الجهات ، في صخب يصم الآذان .

وقال دانيال في اذن جاك :

– ولا كلمة عن الحرب امام جني .

وكانت الفتاة قد شاهدتهما من بعيد ، فالتفتت بسرعة متظاهرة بعدم رؤيتهما . كانت تشعر باقترابه جافة الحنجرة ، متصلبة الرقبة . وأخيراً لمس اخوها كتفها ، فاستجمعت قوتها لتدور على عقبيها وتتصنع المفاجأة . ودهش دانيال من شحوبها ، انه التعب والتأثر من الفراق دون شك . وربما ايضاً التناقض مع الملابس السوداء .

ورسمت تحية برأسها دون ان تنظر الى جاك ؛ ولكن ، امام اخيها ، لم تجرؤ على ان تمد يدها ، واعلنت بصوت مترجرج :

– سأترككما لوحدكما .

فقال جاك بشدة :

– كلا ، ابداً ! انا الذي ... لاني لا استطيع البقاء . يجب ان اكون قبل الساعة العاشرة في ... مكان بعيد جداً .. على الضفة اليسرى .

ويجانبهم تحت عربة قطار تنبجس نوفرة ذات صوت حاد تمنعهم من سماع بعضهم البعض ؛ وسحابةٍ من البخار التافه غمرتهم . وقال جاك لامساً ذراع صديقه :

– اذن، الى اللقاء يا صديقي .

وتحركت شفتا دانيال . فهل اجاب ؟ نصف ابتسامة مكشرة شمرت زاوية فمه : وعيناه كانتا في ظل القبعة لامعتين جداً ؛ ونظرته يائسة . وقد امسك بيد جاك مشدودة بين يديه . ثم انحنى فجأة وحضن بشكل أخرق النصف الاعلى من جسم صديقه وقبّله . لقد كانت هذه هي المرة الاولى في حياتهما . وردد جاك :

– الى اللقاء .

وتخلص بدون ان يعرف ماذا يفعل ، والقى على جني نظرة وداع وحنى رأسه وابتسم لدانيال بكآبة وهرب .

ولكنه حين اجتاز المحطة أوقفته قوة خفية على حافة الرصيف .

كانت الساحة التي تثقبها الكرات الكهربائية وتشق فيها العربات أثلاماً ، تمتد امامه في نور الغسق الزائف : منطقة فاصلة بين عالمين ، فيما وراءها تنتظره حياته كمناضل ، مستعدة لاستعادته ؛ ووحدته ايضاً . وبقدر تأخره من هذه الناحية في المحطة فان اموراً اخرى تظل ممكنة . ماذا ؟.. انه لم يكن يعلم ، لم يشأ الايضاح . كان يبدو له فقط ان اجتياز هذه الساحة يعني تقريباً رفض عرضٍ من القدر ، التنكر نهائياً لحظٍّ بديع .

لم يكن يحاول سوى تأخير القرار ، بكل جبن ، وهو مسترخي الساقين . وهناك عدة عربات فارغة لنقل الامتعة كانت مصفوفة على طول الجدار ، فاختار واحدة منها وجلس عليها . ألكي يفكر ؟ كلا ، فقد كان غير قادر ؛ كان جامداً وقلقا معاً ، منحني الظهر ، يمد ذراعيه ويهزهما بين ركبتيه ، والقبعة على الرقبة والعينان في الأرض . كان يتنفس بجلبة ولا يفكر بشيء .

مما لا شك فيه أنه كان سيظل وقتاً طويلاً هناك وهو جامد ، لولا تدخل

الصدفة ، ولكان ارتاح وامتلك نفسه ؛ ولخضع من جديد لإيقاع حياته المحموم فيسرع الى صحيفة « الانسانية » ليعرف نص الجواب الصربي . ولكان عالم من الامكانات ينغلق عندئذ أمامه الى الأبد .. ولكن الصدف تتدخل : رجل من فرقة العمال كان بحاجة الى العربات . فنهض جاك وتطلع الى الرجـل ، ثم الى ساعته ، وابتسم بشكل غريب .

وبأسفٍ تقريباً ، كأنه يلبي محرّضاً عرضياً ، عاد الى المحطة بدون سرعة واستعاد بطاقةً واجتاز القاعة الكبرى ، ووجد نفسه امام رصيف الرحيل .

٣٧

لم يكن قطار ستراسبورغ السريع قد انطلق ، كانت مصابيح العربة الثلاثة تلمع في المؤخرة وهي جامدة . ودانيال وجني اللذان ضاعا بين الجمهور كانا غير منظورين .

الساعة التاسعة والدقيقة الثامنة والعشرون . الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثون . على الرصيف جَيَشانٌ يحرك المنملة . واصطفقت آخر الأبواب الصغيرة . وصفرت القاطرة . وفي النور الشاحب للمصابيح ذات القوس ، فان نفخات كثيفة بيضاء كانت تصعد نحو السقف الزجاجي . وصف العربات المضاء قد اهتز . وحدث صرير ، وبعض اصطدامات خفية . وجاك واقف يحملق بعينيـه في مؤخرة العربة الأخيرة التي لم تكن تحركت بعد ؛ والتي اهتزت اخيراً . والنيران الحمراء الثلاث كشفت ، وهي تبتعد ، الخطوط الحديدية . وغاص القطار الذي حمـل دانيال في الظلام ببطء .

« والآن ؟ » قال جاك لنفسه ، معتقداً عن حسن نيـة أنه ما زال متردداً حول ما يجب عمله .

وكان قد تقدم حتى اول الرصيف . والناس الذين كانوا يقصدون المخرج بعد رحيـل القطار رآهم يأتون نحوه . وبمرور هذه الوجوه لحظةً تحت الكرات الزجاجية فانها كانت تأخذ حياةً قبل أن تضيع من جديد في الظلام النصفي .

جني ..

عندما عرفها من بعيد كانت حركته الأولى أن يهرب ؛ أن يختبىء . ولكن الخجل لم يكن هو الأشد قوة ؛ فاقترب ليكون على طريقها .

كانت آتية نحوه رأساً ووجهها لا يزال يحمـــل أثر الفراق . كانت تمشي بسرعة دون أن ترى شيئاً .

وفجأة ، وعلى مسافة مترين ، شاهدته . ورأى جاك قسماتها تتشنج تحت الصدمة ، كما حدث ذلك المساء عند انطوان ، ومدد حدقتيها ألق قصير من الرعب .

قبل كل شيء لم تفكر انه كان ينتظرها : فقد ظنت انه وُجد هنـا متأخراً بطريق الصدفة . كانت فكرتها الوحيدة أن تلفت عينيها ، وتتجنب لقاءه . ولكنها علقت في التيار واضطرت إلى المرور أمامه . شعرت أنه ينظر إليها وأدركت عندئذ انه تمركز هنا لأجلها . وعندما أصبحت على محاذاته رفع قبعته بحركة آلية ، فلم تجب على تحيته . وتعثرت قليلاً وهي منخفضة الرأس ، وانزلقت نحو المسافرين الذين تقدموها . وسارت رأساً نحو المخرج . وأمسكت نفسها عن الركض . لم يكن لها سوى هدف واحد : أن تكون في مأمن بأسرع ما يمكن ، وتذوب بين الجمهور ، وتبلـغ المترو وتختبىء فيه .

وكان جاك قد التفت يتبعها بنظره ، ولكنه ظل واقفاً مكانه . وقال لنفسه من جديد : « والآن ؟ » يجب أن يصمم على أمر . كانت الدقيقة حاسمة : « قبل كل شيء يجب ألا أضيعها ! » .

وسار على أثرها .

المسافرون ، والحمالون ، وعربات البضاعة ، كانت تزحم الطريق ، وقد اضطر إلى الدوران حول عائلة مقعية على الأمتعة ؛ واصطدم أيضاً بدولاب دراجة . وحين بحث بعينيه عن جني كانت قد اختفت . فسار يميناً ويساراً وهو يركض ، ووقف على رؤوس أصابعه ليبحث بعين شاردة بين ذلك التراكم

من الظهور المتحركة . وأخيراً ، وبأعجوبة ، عرف الحمار الاسود والكتفين الضيقين في القطيع الذي كان يسير مسرعاً نحو المخرج .. يجب ألا يضيعها .. وأن يبقيها عالقة بطرف نظره .

ولكنها كانت متقدمة عنه . وبينما كان يقرع الأرض بقدميه في مكانه ، وقد حاصره الجمهور ، رآها تقطع شباك التذاكر وتجتاز القاعة الكبرى ، وتدور إلى اليمين نحو المترو . وجن من الملل ، فلاعب مرفقيه ودفع الناس ، ووصل إلى شباك التذاكر ، وهبط الدرج الموصل إلى ما تحت الأرض . أين أصبحت ؟ وشاهـــدها فجأة عند أسفل الدرج . وببضع وثبات استعاد المسافة .

وقال أيضاً مرة أخرى : « والآن ؟ » .

كان قريباً جداً . أيدنو منها ؟ وخطا خطوةً أيضاً ، ووجد نفسه وراءها تماماً . وعندئذ ، وبصوت لاهث لفظ اسمها :

– جني ..

كانت تعتقد أنها نجت . وهذا النداء العنيف كضربة بين كتفيها جعلها تترنح . وكرر : جني ..

فلم تبد أنها سمعت ، وانطلقت كالسهم . كان الرعب يحثها كالمهماز . ولكن قلبها أصبح ثقيلاً بحيث بدا لها شبيهاً بتلك الأحمال التي لا يمكن حملها وتُنقل في الأحلام ، وتشلّ الهرب ..

كان أمامها في نهاية الرواق درج شبه مقفر . فاندفعت فيه دون أن تهتم بالاتجاه . وهناك درابزين كان يضيق عرض الدرجات إلى النصف . وفي أسفل شاهدت الباب الصغير الموصل إلى الرصيف ، والمستخدم الذي يثقب البطاقات . فبحثت بيد محمومة في محفظتها . ورأى جاك الحركة . كان معها بطاقات ؛ أما هو فلا ! وبدون بطاقة لا يدعونه يجتاز الآلة الدائرة . وإذا بلغت الباب الصغير فلن يدركها ! وبدون أن يتردد ، أسرع ولحق بها ، ومر أمامها ، والتفت ، وسد الممر بعنف .

فأدركت أنها علقت . وارتجف ساقاها ولكنها تصدت له وتطلعت إليه . كان هناك على عرض الطريق ، وقبعته على رأسه ، محمر الوجه ، وقسماته منتفخة ، والعين وقحة وثابتة : كانت هيئته هيئة شرير أو مخبول .

– أريد أن أكلمك !

– كلا .

– بلى .

كانت تنظر إليه دون أن تظهر شيئاً من خوفها ، وحدقتاها الشاحبتان الممتدتان لم تكونا تفصحان إلا عن الغضب والازدراء .

وصرخت بصوت منخفض لاهث أبح :

– اذهب من أمامي !

وجمد أحدهما في وجه الآخر بضع ثوان ، منتشيين بعنفهما . والتقت نظراتهما الحاقدة .

ولكنهما كانا يسدّان الممر الضيق : فتداخل بينهما مسافرون متعجلون وهم يتذمرون ، ثم التفتوا متلبكين . وفطنت جني لذلك . إلا أنها فقدت كل وسائلها . والخضوع أفضل من إطالة مدى هذه الفضيحة . لقد كان هو الأكثر قوة ؛ ولن تتهرب من إيضاح . ولكن ليس هنا على الأقل ، ليس تحت عيون الفضوليين .

ودارت بعنف نصف دورة وعادت القهقرى ، وصعدت الدرجات بسرعة ، فتبعها .

ووجدا نفسيهما فجأة خارج المحطة . وقال جاك لنفسه : « لتوقف سيارة أجرة أو تثب إلى قطار كهربائي ، فسأصعد إليها معها » .

كان المكان مضاءاً بشدة . وجني ألقت نفسها بجسارة بين العربات . وهو أيضاً . وقد تجنب هو اوتوبيس بدقة ، وسمع شتائم السائق . كانت عينه محلقة بالشبح الهارب ، وهزأ بالخطر . ولم يشعر أبداً أنه واثق من نفسه كهذه المرة .

وأخيراً بلغت الرصيف والتفتت . كان هناك على مسافة بضعة امتار . لن تفلت منه . واتخذت قرارها ، أصبحت الآن تتمنى لو تستطيع أن تصيح فيه باحتقارها لتنتهي منه . ولكن أين ؟ ليس بين هذا الجمع الغفير .

كانت لا تعرف هذا الحي جيداً . هناك شارع يصعد نحو اليمين . ويعج بالحركة ، فدخلت فيه كيفما اتفق .

وتساءل جاك ! إلى أين تذهب ؟ هذه حماقة !

وكانت عواطفه قد تغيرت . فالهياج السيء الذي كان يستولي عليه منذ قليل قد استبدله بالخجل والشفقة .

وفجأة ترددت . إلى اليسار ينفتح طرف شارع ضيق ، مقفر ، تملأه كتلة عمارة بالظل . فألقت نفسها فيه متعمدة .

ماذا سيفعل ؟ لقد شعرت به يقترب . سيتكلم .. الاذن مرهفة ، والأعصاب متوترة . لقد استعدّت : سوف تلتفت لدى أول كلمة وتترك غضبها يأخذ بجراه .

– جني .. اسألك الصفح .

انه الكلام الوحيد الذي لم تكن تنتظره .. هذا الصوت الخاضع المؤثر .. وظنت أن قواها خارت .

فتوقفت وأسندت يدها إلى الجدار .. وظلت فترة طويلة جامدة ، دون نفس ، مطبقة العينين .

فلم يتقدم . وكان قد رفع قبعته .

– إذا طلبت فإني أتركك .. وأذهب حالاً دون أن أضيف كلمة . أعدك بذلك .

فلم تلتقط معنى الكلمات إلا بعد ثوان من سماعها . وتابع بصوت منخفض :

– أتريدين أن أذهب ؟

وبدون أن ينتظر جوابها ، ردد عدة مرات بصوت منخفض : « جني » .

وكانت نبرة الصوت كثيرة العذوبة ، كثيرة الرأفة ، كثيرة الخجل ، عادلتها بأرق اعتراف .

لم تكن مخطئة . ففي الظل رفعت نظرة خفية إلى ذلك الوجه القلِق العنيد ، وقلـّصت حنجرتها نسمة من السعادة .

وسأل من جديد :

– أتريدين أن أتركك ؟

ولكن درجة الصوت كانت تختلف . كان واثقاً هذه المرة أنها لن تطرده دون أن تصغي إليه .

وهزت كتفيها هزة مقتضبة . وبالغريزة ، اتخذت قسماتها برودة محتقرة : القناع الوحيد الذي يمكنه لبضع لحظات أن ينقذ كبرياءها .

– جني ، دعيني أكلمك .. يجب ذلك .. أرجوك .. وبعد ذلك سأذهب .. تعـــالي حتى الحديقة الموجودة أمام الكنيسة .. هناك على الأقل تستطيعين الجلوس . أتريدين ؟

وشعرت بمرور نظرة ملحـّة عليها بعثت فيها الاضطراب أكثر من الصوت . كم كان يبدو عازماً على فك رموز أسرارها .

لم تكن لديها القوة لتجيب . ولكن بحركة متشددة ، كما لو أنها لم تخضع بعد إلا قسراً ، ابتعدت عن الجدار ، منتصبة الجسم ، والعينان ثابتتان أمامها . وعادت سيرها بخطى من يمشي في نومه .

وظل إلى جانبها صامتاً ، متأخراً قليلاً . كان يتضوع من اثر الفتاة بين لحظة وأخرى عطر منعش يـكاد لا يُشعر به . كان يتنشقه مع هواء الليل الفاتر . والتأثر والندم أصعدا الدموع إلى عينيه .

هذا المساء فقط رضي أن يعترف لنفسه أية ضراعة نادمة ، وأية حاجة إلى العفو والحب كانت تعذبه خفيةً منذ أن ظهرت له جني مرة ثانية .. لم تكن تصدّقه . فهو لم يعرف أن يظهر لها سوى العنف والخشونة .. لا شيء أبداً يمكن أن يمحو إهانة هذه الملاحقة غير اللائقة .

٣٨

ونفذا من فوق إلى الحديقة الصغيرة ذات السطح والمنسقة أمام مدخل كنيسة سان فنسان دي بول . وعلى ساحة لافييت ، من أعلى إلى أسفل ، لم تكن تمر سوى عربات قليلة . كان المكان مقفراً بالكلّية ولكنه يسبح بنور هادىء يرفع عنه كل صفة الخفاء .

ووجّه جاك سيرهما نحو المقعد الأكثر إنارة . وتركته يقودها ؛ وجلست من تلقاء نفسها بعزم — بسهولة مصطنعة لأن ساقيها لم يعودا يحملانها . ورغم الضوضاء التي كانت تحدثها المدينة حولها ، فقد كانت تشعر أنها مغمورة بذلك الصمت الكثيف ، المحمّل بالصاعقة التي تسبق العاصفة : كان شيء خطير رهيب يحوم ! شيء لم يكن يتعلق بها ، وربما لا يتعلق به أيضاً ، سينفجر فجأة .

— جني ..

ذلك الصوت البشري بدا لها خلاصاً . كان هادئاً ذلك الصوت : عذباً ، شبه محسن .

وكان قد ألقى قبعته على المقعد : وظل واقفاً ، على مسافة منها . وكان يتكلم . ماذا قال ؟

— .. لم أستطع أبداً أن أنساك .

وصعدت كلمة « كذّاب » إلى شفتي جني ولكنها صمتت ، وعيناها في الأرض . .

وردد بقوة : أبداً .

ثم بعد وقفة بدت طويلة جداً . أضاف بصوت أكثر انخفاضاً :

— وأنت أيضاً !

هذه المرة لم تستطع أن تمنع حركة اعتراض . وتابع بكآبة :

— كلا ! لقد كنت تكرهينني . نعم ، هذا ممكن . وأني أكره نفسي

بسبب ما فعلته ! ولكن أن أنسى ، كلا . لم ينقطع الواحد منا ، سراً ، عن أن يدافع عن الآخر .

لم تكن تستطيع أن تخرج صوتاً ، ولكي لا يسيء فهم صمتها على الأقل ، فأنها هزت رأسها سلبياً بكل ما لديها من قوة .

واقترب فجأة :

– لا شك بأنك لن تغفري لي أبداً . أني لا آمل ذلك . اني أطلب منك فقط أن تفهميني . أن تصدقيني إذا قلت لك ، وعيناي في عينيك ، أنني حين ذهبت منذ أربع سنوات . وكان يجب ذلك ! فانني لم أكن أستطيع أن أفعل غير ذلك حيال نفسي !

ووضع رغماً عنه في هذه الكلمات الأخيرة رعشة الهرب ، والحرية . فلم تتحرك . وكانت تثبت نظراً قاسياً على الحصى . وبدأ بحركة مراوغة :

– ان ما صرته أثناء هذه السنوات كلها .. اوه ! ليس ذلك محاولة لأخفي عنك شيئاً ، عنك أنت ، كلا .. بل بالعكس ، فرغبتي العميقة هي أن أستطيع أن أقول لك كل شيء ، كل شيء .

فهتفت : اني لا اسألك شيئاً .

واستعادت بهذا الكلام تلك النبرة القاطعة التي تجعلها صعبة المنال .

وساد صمت . وتنهد قائلاً :

– كم أشعر ببعدك عني في هذه اللحظة !

وبعد وقفة جديدة ، وببساطة تطفىء الغضب ، قال معترفاً :

– أشعر أنا ، انني قريب ، قريب جداً منك .

واتخذ الصوت من جديد تلك النغمة الحارة الأخاذة . وفجأة استولى الخوف على جني . لقد رأت نفسها وحيدة مع جاك ، في هذا المكان المنعزل المظلم . وأتت بحركة لتنهض وتهرب .

فقال وهو يقوم بحركة متسلطة من يده :

– كلا ، كلا . اصغي إلي . لم أكن اجرؤ على الذهاب نحوك بعد الذي

فعلته . ولكن انت أيضاً ، أنت هنا . منذ ثمانية أيام وضعتنا الصدفة في مواجهة بعضنا البعض . آه ! لو تستطيعين قراءة ما في أعماقي هذا المساء ! فرحيلي ، وتلك السنوات الأربع ، كل هذا قليل الأهمية بالنسبة إلي ، وحتى – ما أقبح ما أقوله – وحتى كل الغم الذي سببته لك ! نعم ، كل هذا قليل الأهمية إلى جانب ما أشعر به .. كل هذا بالنسبة إلي لا شيء أبداً يا جني ، لا شيء أبداً ، ما دمت أنت هنا ، واني أخيراً أكلمك ! لن تستطيعي معرفة ما حدث في نفسي ذلك اليوم ، عند أخي ، حين رأيتك ..

ففكرت لاإرادياً : « وفي نفسي » ! ولكن في هذه اللحظة لم تكن تفكر باضطرابها في تلك الأيام الأخيرة إلا لتقضي على ضعفها وتجمده . وقال :

– اسمعي ، لا أريد أن أكذب عليك . اني أكلمك كما أكلم نفسي : منذ أسبوع لم أكن اجرؤ دون شك على القول انني طوال هذه السنوات الأربع لم انقطع عن التفكير بك . ربما لم أكن أعرف ذلك . أما الآن فأعرفه . الآن أدرك ماذا كنت أحمل في نفسي مما هو مؤلم دائماً وفي كل مكان ؛ حنين عميق ، جرح ، وكان ذلك .. كان ذلك هو غيابك ، حسرتي عليك . كان ذلك هو البتر الذي أحدثته في نفسي والذي لا يمكن أن يندمل . وأرى الآن بوضوح ، بفضل ذلك النور الذي حدث في داخلي فجأة ، منذ أن استعدت مكانك في حياتي .

كانت تسمع بشكل سيء . كانت متخدرة . ونبضات شرايينها تحدث في رأسها ضجة مُصمِتة . وحولها كان كل شيء غير واضح ، ومترنح ، الأشجار ، واجهات البيوت . ولكن حين رفعت جبهتها لحظة ، والتقت عيناها بعيني جاك ، توصلت إلى اقتحام نظرته دون ضعف ، وصمتها ، وتعبير وجهها ، وهيئة رأسها ، كانت تبدو أنها تقول : « متى ستكفّ عن إحداث كل هذا الألم لي ؟ » .

واستمر يتكلم في الصمت الرنان :

– انك تسكتين . وانا لا احزر افكارك . ولكن سيان عندي ، نعم ، صحيح ، سيان عندي اعتقادك بي ! الا اني اشعر انـــك اذا اصغيت الي فسأستطيع ان اقنعك ! وهل بالامكان المكابرة بالملموس ؟ عاجلاً ام آجلاً ، عاجلاً ام آجلاً ستفهمين . اني اشعرفي نفسي بالقوة والصبر للفوز بك ... طوال طفولتي كلها كان عالمي يدور حولك : ولم استطع تصور مستقبلي الا ممزوجاً بمستقبلك – ولكن رغماً عنك . رغماً عنك في هذا المساء لانك كنت دائمـــا على شيء من الصرامـــة حيالي . جني ... أن طبعي ، وتربيتي ، ومعاملاتي العنيفـة ، وكل شيء فيّ لم يكن يرضيك . وطوال سنوات كنت تقابلين تمهيداتي بفتور كان يجعلني اكثر حمقـا واكثر نفوراً ايضا . فهل هـذا صحيح ؟

ففكرت : « هذا صحيح » .

– ولكن الآن ، وفي هذا الوقت ، اصبح نفورك لا يهمني . . . كما في هذا المساء .. فهل يُعدّ هذا شيئا إلى جانب ما شعرت به انا ؟ إلى جانب هذه العاطفة القوية ، المصرّة ، الطبيعية ، المركزية التي لم اعرفها اثناء وقت طويل جداً ، أولم اجرؤ على اعطائها اسمها الحقيقي ؟ – وارتجف صوته واصبح لاهثا – تذكري ذلك الصيف الجميل ... صيفنا الاخير في ميزون ... الم تفهمي في ذلك الصيف أن هنالك قدراً علينا ؟ وانا لن نتفلت منه ؟

كان كل تذكار مثار يوقظ فيها تذكارات اخرى ويبعث فيها الاضطراب بعمق بحيث تميل من جديد إلى الهرب حتى لا تسمع . الا انها كانت تصغي دون أن تضيع مقطعا . كانت ايضا لاهثة اكثر منه ، مركزة قوتها في السيطرة على نفسها لئلا تضعف .

– عندما يكون بين كائنين ما هو بيننا يا جني – هذه الجاذبية ، هـذا الامل الكبير – اربع سنوات ، عشر سنوات يمكن أن تمر ، وما يهم ؟ .. ان هذا لا يمحى .. كلا – وردد بعنف « أن هذا لا يمحى » . وبصوت منخفض كأنه مسارّة : « أن هذا ينمو ويتأصل دون أن ندري ! »

وشعرت كأنها اصيبت في لبابها ، كأنه عرّى مكاناً مؤلما ، جرحا مخبأ لا تكاد تعرفه هي نفسها ، فقلبت رأسها قليلاً ، وأسندت يدها إلى المقعد .وتشدد الذراع ليحتفظ بنصفها الاعلى مستقيما .

– وانت دائما جني ذلك الصيف . اني اشعر بك ولست مخطئا . هي نفسها ! وحدها كما في السابق – وتردد : – ليست سعيدة ... كما في السابق ! .. وانا ايضا ، أنا نفسي . وحيد ، وحدي كما في السابق . آه ! . هاتان الوحدتان يا جني ! هاتان الوحدتان اللتان تقومان بيأس في الظلام ، كل واحدة من جهتها ، منذ اربع سنوات . واللتان وجدتا بعضهما البعض فجأة ، واللتان تستطيعان الآن ...

وانقطع لحظة ثم قال بعنف :

– تذكّري ذلك اليوم الاخير من ايلول عندما جمعت شجاعتي لاقول لك كهذا المساء : « يجب أن اكلمك » . اتذكرين ؟ . في نهاية ذلك الصباح . على ضفة السين ،ودراجتانا امامنا على العشب ؟ كهذا المساء ، انا الذي تكلمت ... وكهذا المساء لم تجيبي ... ولكنك اتيت . وأصغيت الي كهذا المساء... لقد ادركت انك راضية . وامتلأت عيوننا بالدموع .. وعندما سكتُّ افترقنا حالاً دون ان نستطيع النظر إلى بعضنا البعض ... آه ؟. اي جرح في هذا الصمت ! اية كآبة . ولكنها كآبة متألقة – متألقة بالأمل .

هذه المرة جعلتها انتفاضة عنيفة من جسمها تعتدل وهتفت :

– نعم ... وبعد ثلاثة اسابيع ! ...

وانتهت العبارة بشهقة مخنوقة .ولكنها استخدمت غضبها بشكل لاشعوري لتخفي عن عينيه الدوار الذي اصابها .

وزال من جاك كل ما كان فيه من خوف أو شكّ حتى هذه اللحظة دفعة واحدة بسبب صرخة اللوم تلك ، المملوءة بالاعتراف .وانتابه سرور شديد . وتابع بصوت يرتجف :

– آه ياجني ! هذا ايضا ، هذا الرحيل المفاجيء يجب أن أوضحه لك ..

اوه ! لا اريد ان انتحل الاعذار . فقد خضعت لنوبة جنون . ولكنني كنت بائساً جداً ! دروسي ، حياتي العائلية ، ابي .. واشياء أخرى ايضاً ..

وكان يفكر بجيز . أكان يستطيع منذ ذلك المساء ؟ .. لقد خيل اليه انه يتقدم متلمساً على محاذاة مهواة .

وردد بصوت منخفض جداً :

– وشيء آخر ايضاً.. سأشرح لك كل شيء. اريد ان اكون صادقاً معك . صادقاً بالكلية . وهذا صعب جداً . فحين يتكلم المرء عن نفسه لا يقول الحقيقة كلها .. ذلك الهرب المتكرر ، تلك الحاجة الى حريق بتحطيم كل شيء ، انها امر رهيب ، انها كالمرض .. كنت اتوق كل حياتي الى الهدوء وطمأنينة الفكر ! اتخيل دائماً انني فريسة الآخرين ؛ وانني اذا افلتُ منهم ، اذا توصلت الى ان ابدأ من جديد ، في الخارج بعيداً عنهم ، حياة جديدة كلها ، فانني سأبلغ اخيراً تلك الطمأنينة الفكرية ! ولكن اصغي الي يا جني : انا واثق اليوم انه يوجد في العالم كائن يستطيع ان يشفيني ، ويجعلني استقر .. – هو انت !

فالتفتت مرة ثانية وبنفس العنف :

– ولكن هل كنت استبقيك منذ اربع سنوات ؟

فشعر انه اصطدم بشيء صلب كان فيها وسيبقى فيها دائماً . ففي السابق ايضاً ، حتى في الساعات النادرة التي كانت تبدو فيها طبيعتاهما المختلفتان متفقتين للحظة ، فقد كان يصطدم دون انقطاع بهذه القساوة الخفية .

وتردد :

– هذا صحيح .. ولكن ... دعيني اجرؤ على قول ما اعتقد . ماذا فعلت حتى الآن لاستبقائي ؟

ففكرت : « آه ! لو كنت اعلم انه يريد الرحيل لحاولت أن افعل شيئاً ، بالتأكيد » .

– افهمي جيداً : اني لا احاول أن اخفف غلطتي ! كلا .. اريد فقط ...

(وبدت ابتسامته النصفية وعذوبة صوته انهما تطلبان الصفح مسبقاً عما سيقوله) .

على ماذا حصلت منك ؟ قليل جداً ... بين وقت وآخر نظرة أقل صرامة ، موقف أقل تهرباً ، اقل تحفظاً . احياناً كلمة تشي بقليل من الثقة ، هذا كل شيء.. ولكن مقابل أي عدد من الكتمان والتكرار والرفض!.. اهذا صحيح؟ هل ابديت لي مرة أقل تشجيع قادر ان يعوض تلك الاندفاعة المرضية التي كانت تدفعني نحو المجهول ؟

كان لديها من الصدق ما يجعلها تعترف بصحة هذا اللوم، الى درجة انهاتعزت في هذه الدقيقة لاستطاعتها الاعتراف بدورها . ولكنه جاء يجلس بقربها ؛ فتشددت فجأة .

– اني لم اقل لكِ الحقيقة كلها بعد .

تمم بهذه الكلمات الاخيرة بصوت مختلف ، قلق ، رزين ، وفي الوقت نفسه عزوم ، بحيث اخذت ترتجف .

– هناك أمر آخر كيف اشرحه لك ؟.. الا اني لا اريد ابداً، لا اريدابداً ان احتفظ اليوم بسر .. لقد كان في حياتي شيء آخر في تلك الفترة . كائن رقيق ، فاتن .. جيز ..

فشعرت بحربة حادة تدخل في قلبها . الا ان عفوية هذا الاعتراف الذي كان بامكانه الا يقوم به ، قد أثرت بها بشدة ، بحيث نسيت ألمها تقريباً. انه لم يكن يخفي عنها شيئاً ، وبامكانها الاستسلام للثقة ! وانتابها نوع من الفرح الشديد . وحدست بأنها بلغت الخلاص وانها ستستطيع اخيراً الاقلاع عن تلك المقاومة الفظة التي كانت تخنقها .

اما هو ، ففي اللحظة التي جاء فيها اسم جيز على شفتيه ، اضطر الى كبح نداء غريب ، دفعة من ذلك الحنو المزدوج الذي كان يعتقد انه انطفأ فيه منذ وقت طويل . وهذا لم يدم سوى ثانية واحدة . آخر لهب لنار تحت الرماد ربما كانت منتظرة هذا المساء لتنطفيء . وتابع :

– ما كنت اشعر به نحو جيز ، كيف اوضحه ؟ الكلمات تفسد .. ميل ، ميل لاشعوري ، سطحي ، مصنوع على الخصوص من ذكريات الطفولة .. كلا ،

ليس هذا بالقول الكافي . ولا اريد ان انكر شيئاً . يجب أن اكون عادلاً فيما كان .. كان وجودها هو سروري الوحيد في البيت. انها طبيعة لذيذة كاتعلمين.. قلب صغير حار ، مليء بالتسامح .. كان يجب ان تكون كأخت بالنسبة الي .. ولكن – وتابع بصوت كان يختنق عند نهاية كل عبارة – انا مدين لك بالحقيقة يا جني : ان ما كنت اشعر به نحوهـا لم يكن فيه شيء .. أخوي .. ولا شيء طاهر ! – وصمت ، ثم اضاف بصوت منخفض : – انت التي كنت احبك حباً اخوياً ، حباً طاهرا ، انت التي احببتها كأخت .. كأخت !

كان استحضار هذه الذكريات مؤلماً هذا المساء، بحيث خانته أعصابه فجأة، وصدمت حنجرته انتحابة لم يكن يعرفها ولا يتوقعها ، ولا يخنقهـا . فخفض رأسه ، وأخفى وجهه بيديه .

ووقفت جني فجأة . وكانت قد ابتعدت خطوة . هذا الضعف غير المنتظر قد صدمها ، ولكنه بعث فيها الاضطرابات ايضاً . وللمرة الأولى تساءلت إذا لم تكن مخطئة حتى الآن في شكاويها من جاك .

ولم يرها تنهض . وحين رأى انها تركت المقعد ظن انهـا افلتت منه ، وانها ستذهب . الا انه لم يسأت بحركة ؛ واستمر يبكي منطوياً على نفسه . هل كان يحدس في هذه اللحظة ، وفي ازدواجية نصف واعية ، ونصف مخاتلة ، بما يمكن ان يستخرجه من هذه الدموع ؟

ولم تبتعد ، بل ظلت هناك ، محتارة ، جامدة في حيائها ، في كبريائهـا ، ولكنها مرتعشة من الشفقة والحنو . كانت تكافح ضد نفسها بيأس ، وتوصلت اخيراً الى ان تخطو الخطوة التي كانت تفصلها عن جاك . وميزت على ارتفـاع ركبتيها الرأس المنحني ، المختبىء في اليدين . وعندئذ ، وبشيء من الحمق ، مدت ذراعها ولامست اصابعها كتفـاً قد ارتعش . وقبل ان تستطيع القيام بحركة تراجع اخذ يدها وابقى الفتاة امامه . واسند جبهته بلطف الى الثوب . وهذا الاحتكاك كان يحرقه . وصوت داخلي ، يكاد لا يسمع ، انذرها مرة اخيرة انها تغرق في مهواة رهيبة ؛ وانهـا اخطأت في ان تحب . اخطات بمحبتها لهذا ..

فتعلقت ، وتصلبت ، ولكنها لم تتراجع . وبخوف ، وبلذة ، رضيت بما لا يمكن تجنبه ، بمصيرها ، وما من شيء ينقذها الآن .

وقدم ذراعيه كانه يريد احتضانها ولكنه اكتفى بان يمسك بين يديه اليدين الموجودين في قفاز اسود . وبواسطة هاتين اليدين اللتين رضيت الآن ان تتركهما له ، جذبها نحو المقعد وأجبرها على الجلوس .

– انت وحدك .. انت وحدك تستطيعين اعطائي تلك التهدئة الداخلية التي ما عرفتها ابداً ، والتي اجدها بقربك هذا المساء .

وقالت لنفسها : « وانا ايضاً ، وانا ايضاً » .

وتابع بصوت لا رنة فيه ، بدا لجني ان فيه ما يكفي من الرنين للوصول اليها والنزول فيها ، ويسبب لها اضطراباً وقلقاً لذيذاً :

– ربما قال لك احد في السابق انه يحبك . ولكن ، ما انا واثق منه هو انه ليس هناك احد يستطيع ان يحمل اليك عاطفة شبيهة بعاطفتي ، عميقة ، قديمة ، باقية حية رغم كل شيء .

فلم تجب . كـــان التأثر قد اضناها . كانت تشعر من ثانية الى أخرى ان استيلاءه عليها يزداد . وبعكس ذلك ان تملكها له يزداد بقدر خضوعها لحبه وردد :

– وربما احببتِ انساناً آخر ؟ .. اني لا اعرف شيئاً عن حياتك .

عندئــذ رفعت اليه عينين شاحبتين ، مندهشتين ، صافيتين بحيث يعطي كل شيء في هذه الدقيقة ليمحو حتى ذكرى سؤاله .

وببساطة . وبالنبرة الصلبة الساذجة التي أكد فيها ظاهرةً طبيعية لا جدال فيها ، صرح :

– ما من كائن قد أُحِبَّ كما احببتك انا . – ثم بعد وقفة : – اشعر أن حياتي كلها لم تكن سوى انتظار لهذا المساء .

فلم تجب حالاً . واخيراً ، بصوت مترجرج ، بصوت من الحنجرة لم يكن يعرفه ، تمتمت :

– وانا ايضا يا جاك .

واستندت الى مسند المقعد ، وجمدت . الرقبة منقلبة قليـــلاً ، والعينان مفتوحتان على الليل . لقد تغيرت في ساعة ما لم تتغيره في عشر سنوات : ان التاكد من كونها محبوبة صنع لها روحا جديدة .

لقد شعر كل منهما على كتفه ، وعلى ذراعه بحرارة الآخر الحية . وصمتا ، متضايقين ، والاهداب ترف ، والقلب مليء بالصخب ، وصمتا خـــائفين من انفرادهما ، من هذا الصمت ، من الليـــل ، خائفين من سعادتهما ، كأن هذه السعادة لم تكن فتحاً بل معاهدة تسليم امام الظلام .

وفجأة ، في الزمن المعلّق ، ملأت ساعة الكنيسة فوقهما الفضاء بضرباتها المطرّقة ، الملحّة .

فبذلت جني جهداً لتعتدل .

– الساعة الحادية عشرة .

– لن تتركيني يا جني .

فقالت يائسة :

– امي يجب ان تكون قلقة .

فلم يحاول ابقاءها.حتى انه شعر بسرور غريب وجديد في ان يقلع في سبيلها عما كان يتمناه اكثر من اي شيء : ان يبقيها لاصقة به .

وجنبا الى جنب ، دون كلام ، هبطا الدرجات حتى ساحة لافاييت. وحين بلغا الرصيف وقفت سيارة اجرة امامهما ، فقال :

– على الأقل ، دعيني اوصلك .

– كلا ...

كانت اللهجة كئيبة . حنونا وصلبة معاً. وفجأة كانها تعتذر ، ابتسمت له. انها المرة الأولى ، منذ وقت طويل ، التي رآها فيها تبتسم .

– انا بحاجة لأكون وحدي قبل أن ارى امي ..

فقال في نفسه : « لا يهم » وكان مندهشا من نفسه لأن هذا الفراق أمكن

حدوثه دون جهد .

وكفت عن الابتسام . وعلى قسماتها الدقيقة يقرأ تعبير قلق ، كما لو أن مخالب الألم القديمة ظلت مغروسة في هذه السعادة الجديدة .

واقترحت بخجل :

– غداً ؟

– اين ؟

فاجابت دون تردد :

– في البيت . لن اتحرك . سانتظرك .

كان مندهشا قليلا رغم كل شيء . وفكر بشعور بالكبرياء ، ان ليس لديهما ما يخفيانه .

– عندكم ، نعم .. غداً .

فخلصت بهدوء اصابعها التي كان يشد عليها بشيء من القوة . وحنت رأسها ، واختفت في ظلام السيارة التي اقلعت .

وفكر فجأة : « الحرب » ..

وفجأة بدّل الكون نوره وحرارته . وناضل لحظة ضد شعور مميت بالخوف ، واليدان متأرجحتان ، والعينان محدقتان بالسيارة التي غابت عن نظره . والقلق الذي كان يثقل في هذا المساء على اوروبا كان يبدو منتظراً ليستولي عليه ويعود من جديد فارغا ووحيداً .

وتمتم وهو يشنج قبضتيه : كلا . ليس الحرب ، بل الثورة .

في سبيل هذا الحب الذي استرهن كل حياته ، كان بحاجة اكثر من اي وقت الى عالم جديد من العدالة والطهارة .

٣٩

افاق جاك مرتجفاً . تلك الغرفة الدالة على الفاقة ... كان متبلداً ، يطرف بعينيه في النور ، منتظراً عودة ذاكرته اليه .

جني ... حديقة الكنيسة ... التويلري ... ذلك الفندق الصغير للسائحين حيث جنح عند الفجر الى ما وراء محطة اورسي ..

وتثاءب ، وألقى عينيه على ساعته : « الساعة التاسعة الآن ! » وشعر بتعب. الا انه وثب من السرير ، وشرب قدح ماء ، وتفحص قسماته المتعبة في المرآة ، وعينيه اللامعتين ، وابتسم .

لقد قضى الليل خارجاً . وحوالي منتصف الليل وجد نفسه دون ان يدري امام صحيفة « الانسانية » ، وقد دخل ايضاً ، وصعد بضع درجات . ولكنه عند نصف الطابق دار على عقبيه . ان برقيات صحف المساء التي اجال النظر فيها تحت مصباح بعد ذهاب جني جعلته على علم بمجرى اخبار آخر ساعة . واعوزته الشجاعة ليجابه تعليقات الرفاق السياسية . ايقطع الهدنة التي منحها لنفسه ، ويترك فواجع الحوادث تسلب تلك الثقة التي جعلت الحياة جميلة بنظره هذا المساء .. كلا ! اذن سار حسب الصدف ، في الليل الحار ، والرأس رنان وفي النفس عيد . ان فكرة عدم وجود شخص غير جني يعرف سر سعادته في باريس الكبيرة الليلية قد اثارت حماسه . وربما كانت المرة الاولى التي شعر فيها انه متخلص من حمل الوحدة الذي كان يجره الى كل مكان ، منذ الأبد . كان يسير امامه بخطوة سريعة ، خفيفاً ، راقصاً كما لو ان ايقاع الركض يستطيع وحده ان يفسر سروره الشديد . لم يفارقه التفكير في جني ابداً . كان يردد اقوالها ويهتز بكليته لصداها ، ويسمع ايضاً اقل تبديل في صوتها . ولا يكفي القول ان وجودها لم يكن يتركه : كان يعيش فيه ؛ كان مستأثراً به الى درجة انه لم يعد يملك نفسه ، الى درجة ان مظهر الاشياء ، وحتى معنى الكون ، قد تغيرا ، اصبحا روحيين... وفي وقت متأخر وصل الى قرب فسطاط مارسان ، في ذلك القسم من التويلري الذي يبقى مفتوحاً في المساء . الحدائق المقفرة تماماً في تلك الساعة تبدو كملجأ . وتمدد على مقعد . مروج ، احواض ، اريج طري يتصاعد تتخلله ، على دفقات ، روائح زهور التبغيات وابرة الراعي .. كان

يتهيب ان ينام ، فلم يكن يريد الانقطاع عن تذوق فرحه . وظـل هناك وقتاً طويلاً جداً ، حتى اولى تباشير الفجر ، دون فكرة معينة ، العينان مفتوحتان على السماء حيث تشحب النجوم شيئاً فشيئاً . واجتازته عاطفة كبرياء وسلام ، نقية ، واسعة ، بحيث لم يتذكر انه شعر بمثلها ابداً .

وما كاد يخرج من الفندق حتى بحث عن كوخ لبيع الصحف. جميع صحف هذا الاحد ، في ٢٦ تموز ، اعادت بعناوين غير لائقة نشر برقية هافـــاس[1] المتعلقة بالجواب الصربي ، واعترضت باجماعٍ يشي بوجود اشارةٍ حكومية ضد المسعى التهديدي الذي قام به السيد شون في الكه دورسى .

ان مجرد النظر الى العناوين ، ورائحة الحبر التي تنشرها تلك الاوراق التي لا تزال جـديدة ، ايقظا فيه المناضل . فقفز الى الاوتوبيس ليصل باسرع ما يمكن الى صحيفة « الانسانية ».

ورغم الساعة الصباحية كان يسيطر على المكاتب حركة حياة غير معتادة. وكان غالو وباجيس وستيفاني في مراكزهم .

لقد تلقوا ايضاحات محيرة حول الحوادث البلقانية . وفي السهرة ، في الساعة المحددة لمهلة الانذار ، فان باشيتش رئيس الوزراء حمـل الجواب الصربي الى البارون جيسل وزير النمسا في بلغراد . وهذا الجواب لم يكن مصالحاً فقط . لقد كان استسلاماً . رضيت الصرب بكل شيء رضيت ان تقضي علناً على الدعاية الصربية ضد مملكة النمسا ـ هنغاريا ، وان تنشر ذلك في جريدتها الرسمية ؛ وتعهدت بحل الجمعية الوطنية «نورودنا اوبرانا» والشطب من اطر الجيش لأسماء جميع الضباط المشبوهين بقيامهم بعمل ضد النمسا . ولكنها طلبت فقط ملحقاً بالمعلومات عن الشكل الحرفي الذي يجب ان يكون عليه نص الجريدة الرسمية ، وعن تأليف المحكمة المكلفة بتحديد الضباط المشبوهين . انها تحفظات قليلة لا يمكن ان تكون مادة شكوى . ومع ذلك ، وكما لو ان المفوضية النمساوية قد تلقت امراً بان تقطع

---

١ ـ هافاس : شركة قديمة لنشر الاخبار .

العلاقات الدبلوماسية مهما كان الامر لتجعل عقوبات السلاح لا غنى عنها ، فان باشيتش ما كاد يصل الى وزارته حتى تلقى من جيسل الانذار المذهـــل بان « الجواب الصربي لم يكن كافياً » وان المفوضية النمساوية بكاملها قد تركت الاراضي الصربية في المساء نفسه ، عندئذ ، فان الحكومة الصربية التي قامت بعد الظهر ، بدافع الحيطة ، باستعدادات للتعبئة العامة ، اسرعت بترك بلغراد ونقلت مصالحها الى كراغويفاتز .

لقد برزت خطوات هذه الوقائع للعيون . لم يبق هناك شك: فالنمسا تريد الحرب .

والتهديد بالخطر ، بدون ان يزعزع ثقة الاشتراكيين المجتمعين في جريدة الانسانية ،بدا انه يقوي ايمانهم بالنصر النهائي للسلم . والمعلومات الواضحة التي جمعها غالو حول فعالية الاممية جعلت هذه الآمال مشروعة . فالمقاومة البروليتارية لم تنقطـــع عن الحصول على التقدم ، والفوضويون انفسهم انضموا الى الصراع : فمؤتمرهم ينعقد في مدى ثمانية ايام في لندن ؛ ومناقشة حوادث اوروبا المسجلة على الامر اليومي يجب ان تسبق كل مناقشة اخرى فيه . وفي باريس فان الاتحاد العام للشغل توخّى مظاهرة ضخمة ليوم قريب في قاعات جادة واغرام . والناطق باسمه غير الرسمي ، صحيفة « المعركة النقابية » ، جاءت تذكّر ، بحروف كبيرة ، بالقرارات التي اتخذتها ، بشكل حـــاسم ، المؤتمرات الاتحادية حول موقف الطبقة العاملة في حالة الحرب : « يجب على الشغيلة ان يجيبوا دون امهال على اعلان الحرب بالاضراب العام الثوري » . واخيراً بواسطة تبادل وجهات نظر بصورة دائمة ، فان القادة الاوروبين الكبار في الاممية ، المدعوين للاجتماع فوراً هذا الاسبوع في بيت الشعب في بروكسل ، قد اعدوا فعلياً اجتماع مكتبهم — اجتماع هدفه المحدد هو توحيد المقاومة في كل اوروبا ، واتخاذ الاحتياطات الجماعية الفعالة لاعطاء الشعوب دون تأخير وسيلة المعارضة بواسطة الفيتو الجذري على سياسة الحكومات الخطرة .

كل هذا كان يدعو للتفاؤل .

وفي البلدان الجرمانية فان المقاومة السلمية كانت ذات مغزى بشكل خاص. والاعداد الاخيرة من صحف المعارضة النمساوية والالمانية التي وصلت هذا الصباح كانت تنتقل من يدٍ الى يد . وكان غالو يترجمها مع تعليقات منعشة . فصحيفة « اربيتر زيتنغ » في فيينا نشرت نص بيان القـــاه الحزب الاشتراكي النمساوي يقاضي فيه الانذار النهائي دون تحفظ ، وطلب اجراء مفاوضــات سلمية باسم جميع الشغيلة: «ليس السلم معلقاً الا بخيط... اننا لا نستطيع ان نقبل مسؤولية هذه الحرب التي نرفضها بكل قوانا ... »

وفي المانيا ايضاً فان احزاب اليسار تمردت . وصحيفتا «ليبزيغر فولكزيتنغ وفورفارتز » بمقالات عنيفة أخطرتا الحكومة الالمانية بأن تستنكر سوء تصرف النمسا علناً . والحزب الاشتراكي الديموقراطي نظم في برلين يوم الثلاثاء في ٢٨ ، اجتماعاً واسع النطاق . وبواسطة اعتراض شديد جدا مرسل الى جميع المواطنين اعلن بدون مراعاة انه حتى لو انفجر النزاع في البلقان فان على المانيا ان تظل حيادية بشكل دقيق. وكان غالو يعلق اهمية كبيرة جداً على البيان الذي اذاعته اللجنة القائدة امس وقد ترجم منه المقاطع التالية بصوت مرتفع : « الهيـاج الحربي الذي اطلقت عقاله الامبريالية النمساوية – الهنغارية يسعى لنشر الموت والخراب في كل اوروبا . واذا قاضينا دسائس القوميين من الجامعة الصربية فان تحريض الحكومة النمساوية – الهنغارية يستحق من ناحية اخرى الاحتجاجات الاكثر شدة . وطلباتها ذات عنف لم يقدم مثلها الى حكومة مستقلة. ولا يمكن اعتبارها الا تحريضاً مبــاشراً على الحرب . والبروليتاريا الواعية في المـانيا ، رفعت باسم الانسانية والمدنية احتجاجاً حامياً ضد الدسائس المجرمــة لمهيجي الحرب . وتطلب بكبرياء ان تمارس الحكومة نفوذها على النمسا لحفظ السلم ».

هذه القراءة اثارت في الجمهور الصغير انفجاراً من الحماس .

ولم يكن جاك يقاسم رفاقه الاستحسان بدون تحفظ ، فقـــد بدا له هذا البيان مفرط الاتزان ، وأسف لان الاشتراكيين الالمان لم يجرؤوا على الاشارة بصورة مكشوفة الى اشتراك الحكومتين الجرمانيتين بالذنب . كان يعتقد ان

ثارة الشك بعمل مدبر قام به المستشاران برختولد وبيتمان هولويغ يدفع الحزب الاشتراكي الديموقراطي الى ان يثير ضد الحكومة الرأي العام لدى جميع الطبقات في المانيا . وقد دافع عن وجهة نظره باقناع، ونقد بخشونة ، الموقف الحذر الذي بدا له ان الاشتراكية الالمانية قد اتخذته (دون ان يقول ذلك ، وكان يقصد الاشتراكية الفرنسية ايضاً من خلال الاشتراكية الالمانية ، وخصوصاً الجماعة البرلمانية ، اي اشتراكيي صحيفة « الانسانية » الذين كان موقفهم في هذه الأيام الأخيرة متحرزاً في اغلب الأحيان، مفرطاً في الحكومية والدبلوماسية، مفرطاً في الوطنية) . وقد عارضه غالو برأي جوريس الذي لا يضع صلابة الاشتراكيين الديموقراطيين وفعالية معارضتهم موضع شك . الا أن غالو، رداً على سؤال القاه جاك ، اضطر الى الاعتراف ، وفقاً لمعلومات مستقاة من برلين ، ان معظم الرؤساء الرسميين للحزب الاشتراكي الديموقراطي، وقد اعترفوا ان عملاً عسكرياً نمساوياً ضد الصرب لم يعد بالامكان تجنبه تقريباً، بدوا مستعدين لمساندة نظرية ويلهمستراس : ضرووة حصر الحرب على الحدود النمساوية الصربية . وقال :

– بعد أن عرضنا موقف النمسا الحالي والطريقة التي وجدت نفسها فيها منخرطة بالعمل – وهذا ما يجب عمل حسابه رغم كل شيء – فان نظرية **حصر النزاع** نظرية عقلانية وواقعية: اشعال النار ؛ والاقتصار على منع امتداد النزاع .

ولم يكن جاك من هذا الرأي :

– الحرص على حصر النزاع . هذا يتضمن الاقرار بقبول – ان لم نقل اكثر – الحرب النمساوية الصربية : وهذا يتضمن بالنتيجة الرفض الضمني ، بشكل يكثر أو يقل ، للمساهمة بعمل الدول الكبرى التوسطي . وهذا خطير . وليس هذا كل شيء . فحرب ولو محصورة ، تضع روسيا امام ضرورة اختيار أحد أمرين : أما الاستسلام والقبول بسحق الصربيين ؛ وأما القتال لأجلهم ضد النمسا . وهناك كثير من الحظوظ لتغتنم الامبريالية الروسية هذه الفرصة المنتظرة

لتوطيد نفوذها ، ولتجد نفسها مجازة لحشد الجيوش ضد النمسا . وانتم ترون إلى اين يقودنا هذا . وبواسطة اللعب الآلي للاحلاف فان التعبئة الروسية سوف تكون هي الحرب العمومية . اذن ، سواء أكان عن علم ام لا ، وبالاصرار على حصر النزاع ، فان المانيا تدفع روسيا إلى الحرب ! وحظ السلام الوحيد كما يبدو ، سوف يكون ، بالعكس ، كطلب انكلترا في **عدم حصر النزاع** والعمل منه مشكلة دبلوماسية **اوروبية** تهتم بها جميع الدول مباشرة ، وجميع الوزارات تسعى لحل ..

كانوا يصغون إليه دون أن يقاطعوه ، ولكن ما ان سكت حتى انهالت الاعتراضات . كان كل واحد يؤكد بنبرة لا جواب لها : « المانيا تريد .. » ، « روسيا عزمت على .. » كما لو ان الجميع كانوا في اجتماع بمجلس التاج السري .

واصبحت المناقشة مشوشة اكثر فأكثر حين ظهر كاديو .. فقد جاء من الرون : ورافق جوريس وموتيه إلى ويز ، ونزل من القطار لتوه .

وكان غالو قد نهض .

– اعاد المعلم ؟

– كلا. سيعود بعد الظهر ، وقد توقف في ليون حيث كان على موعدمع أحد **تجار الحرير** .. – وابتسم كاديو : – اوه ! لا أعتقد اني افشي سراً .. فتاجر الحرير هذا هو صناعي اشتراكي ومحب للسلم .. رجل غني بشكل فائق كما يبدو .. وهو يعرض ان يعطي حالاً قسماً من ثروته لصناديق المكتب الدولي لاجل الدعاية ! وهذا يستحق الاعتبار ..

فدمدم جوملان :

– لو كان جميع الاشتراكيين الاغنياء يفعلون هكذا ..

فارتجف جاك ، وجمد نظره المصوب على جوملان .

في منتصف الغرفة كان كاديو مستمراً في الكلام . وقد اندفع في حكاية مؤثرة عن رحلته مساء البارحة . وكان يؤكد : « لقد تفوق المعلم على اعماله السابقة ! » وروى ان جوريس ، قبل الاجتماع بنصف ساعة ، علم بتسليم الصرب

بالمطالب ، ورفض النمسا، بقطع العلاقات الدبلوماسية وتعبئة الجيشين . وصعد إلى الاجتماع مضطرباً . وقال كاديو : « انـــه الخطاب التشاؤمي الوحيد الذي ألقاه !» وقد ارتجل جوريس ، وقد اثاره إلهام مفاجىء ، لوحة أخّاذة للتاريخ المعاصر . وبصوت ثأري ، فضح بالدور مسؤوليات جميــع الدول الأوروبية : مسؤولية النمسا التي يخشى أن تشعل جساراتها المتكررة عدة مرات النــار في اوروبا ، وحيث كان التعمد واضحاً اليوم . وليس لها هدف آخر ، ببحثها عن هذه المعركة مع الصرب ، سوى توطيد مملكتها المترنحة بواسطة اعتداء بالقوة . ومسؤولية ألمانيا التي بدت اثناء هذه الاسابيع التمهيدية انها تسند اطماع النمسا الحربية ، بدلاً من تخفيفها و كبحها.ومسؤولية روسيا التي كانت تلاحق باصرار توسعها نحو الجنوب ؛ والتي كانت منذ عشر سنوات تتمنى حرباً بلقانيــة ، حيث تستطيع التدخل بحجة الدفاع عن امتيازاتها دون كثير من الأخطار ، وتتقدم نحو القسطنطينية ، وتستولي أخيراً على المضائق .. ومسؤولية فرنسا أخيراً ؛ فرنسا التي بسياستها الاستعمارية ، وخصوصاً باستيلائها على المغرب ، اصبحت في مركز يستحيل معه أن تعترض على عمليات الضم التي يقوم بهـــا الآخرون ، وان تدافع عن قضية السلام بقوة.. ومسؤولية جميع رجال الدولة الاوروبيين ، وجميع الوزارات ، الذين كانوا منذ ثلاثين سنة يعملون في الظلام بتلك المعاهدات السرية التي تتوقف عليها حياة الشعوب،وبتلك الاحلاف الخطيرة التي لاتستخدمها الدول الا في ارتكاب اعمالها الحربية ، والغزوات الاستعمارية . وكان قد هتف : « هناك حظوظ رهيبة ضدنا ، ضد السلم .. ليس هناك سوى حظ واحد لحفظ السلام : هو ان تجمع البروليتاريا كل قواها .. اقول هـــذه الامور بنوع من اليأس » ..

كان جاك يصغي باذن منتبهة . وما ان انتهى كاديو حتى نهض .

ودخل رجل هزيل وطويل ، ذو مظهر يدل على انحراف المزاج ، بلحيــة وشعر رماديين ، وربطة عنق على طريقة لافاليير ، ويعتمر قبعة من اللباد ذات رفارف كبيرة . انه جول غيسد Guesde .

وصمتت المحادثات . فحضور غيسد ، وتعبير وجهه الشبيه بوجه الناسك ، المتيقظ الشرس قليلاً ، كانا دائماً يخلقان لحظة قلق .

وظل جاك بضع دقائق ايضاً ، وظهره إلى الجدار . وفجأة بدا انـه عزم على امر ، فنظر الى الساعة ، وأتى باشارة وداع لغالو وبلغ الباب .

على الدرج كان بعض المناضلين يصعدون ويهبطون جماعـــات صغيرة ، مشغولين بأنفسهم ، متابعين مناقشات صاخبة . وفي أسفل ، عامل عجوز بسترة زرقاء ، ويداه في جيوبه ، وحده ، مستند إلى اطار المدخل ، وينظر بعـــين حالمة إلى رواح النـــاس ومجيئهم في الشارع ، ويدندن بصوت أجوف اغنية الأنار كوس القديمة (تلك التي انشدها رافا كول على المقصلة) !

اذا أردت أن تكون سعيداً ،

واسم الله ،

اشنق مالكك ..

وجاك أثناء مروره تأمل لحظة الرجل الجامد . ذلك الوجه المدبوغ ،المخدد، وتلك الجبهة الكبيرة الصلعاء ، وذلك المزيج من النبل والخسّة ، من النشاط والانهاك ، لم يكن مجهولاً لديه . ولم يتذكر إلا حين أصبح في الشارع ! لقـــد التقى به ذات مساء في الشتاء الماضي ، في شارع لاروكيت،في صحيفة «البيرق» وكان مورلان قد قـــال له ان العجوز خرج من السجن ليوزع نشرات معادية للعسكريين على ابواب الثكنات .

الساعة الحادية عشرة ، شمس مغطاة بالضباب تثقل على المدينـــة بحرارة عاصفة . وصورة جني ،حيث التفكير بها ، الامين كالظل ، كانت ترافقه منذ استيقاظه،وقد توضحت : الطيف الرقيق ، وانحناء الكتفين الخفيف ، والرقبة الواضحة تحت طيات الخمار .. وجاءت ابتسامة سعيدة الى شفتيه . بالتأكيد ، انها ستستصوب الحل الذي اتخذه .

ساحة البورصة . مر أمامـه جمهور مرح . راكبو دراجات فتيان ، محملون بالمؤونة ، كانوا ذاهبين دون شك ليتناولوا فطورهم في مكان رطب ، في

الغابات . فتبعهم بعينيه لحظة ، وسار في اتجاه السين . لم يكن متعجلاً . كان يريد أن يرى انطوان ، ولكنه كان يعلم ان اخاه لا يعود ابداً قبل الظهر . وكانت الشوارع صامتة وفارغة . والاسفلت المرشوش بالماء تنبعث منه رائحة قوية . ومشى منخفض الرأس ، مدندناً دون أن يفكر بذلك :

اذا أردت ان تكون سعيداً

اسم الله .

وقالت له حارسة البيت حين وصل إلى شارع الجامعة :

– لم يرجع الدكتور بعد .

فعزم على الانتظار في الخارج وهو يقوم بالمئة خطوة . وعرف السيارة من بعيد . وكان انطوان يقودها ؛ وكان وحده ، ويبدو مهموماً . وقبل أن يقف رأى أخاه وهز رأسه عدة مرات . وسأل حين اصبح جاك قريباً من باب السيارة :

– ما قولك بكل ذلك ، في هذا الصباح ؟

ودل باصبعه على نصف دزينة من الصحف على الوسائد .

وكشر جاك دون أن يجيب . واقترح انطوان :

– اتصعد لتناول الغداء ؟

– كلا . لدي فقط كلمة اقولها لك .

– هنا على الرصيف ؟

– نعم .

– ادخل إلى السيارة على الأقل .

وجلس جاك إلى جانب اخيه . وصرح على الأثر بصوت مضغوط قليلاً :

– جئت أكلمك بخصوص المال .

– المال ؟

وبدا انطوان مندهشاً طوال ثانية واحدة . ثم هتف قائلاً :

– ولكن حتماً . كل ما تريد .

فأوقفه جاك بحركة غاضبة :

– ليس المقصود هذا .. اريد ان أكلمك عن الرسالة ، وانت تعلم ، بعد موت والدي .. بخصوص ال ..

– الميراث ؟

– نعم .

وبدا متعزياً لأنه لم يعد مضطراً إلى لفظ الكلمة . وسأل انطوان بحذر !

– هل غيرت رأيك ؟

– تقريباً .

– حسناً .

وابتسم انطوان ، واتخذ تلك الهيئة التي كانت تثير سخط جاك ؛ تلك الهيئة التي تشبه هيئة عرّاف يرى أفكار الغير بوضوح . وبدأ :

– بدون لوم . ذلك الجواب الذي اجبتني به في ذلك الوقت ..

فقطع جاك كلامه :

– اريد فقط أن اعرف ..

– ماذا صار بنصيبك ؟

– نعم .

– انه ينتظرك .

– لو اردت أن اقبض هذا النصيب فهل سيكون الأمر معقداً ؟ طويلاً ؟

– لا شيء اكثر بساطة من ذلك . ذهاب إلى مكتب بينو ، الكاتب العدل، ليخبرك عن ادارة نصيبك . ورواح آخر على حساب جونكوا صرافنا ،حيث وضعت الصكوك – لكي تعطيه تعليماتك .

– وهذا يمكن ان يحدث .. منذ الغد ؟

– عند اللزومِ .. انت متعجل ؟

– نعم .

فقال انطوان دون أن يجازف بالقاء اسئلة أخرى :

– حسناً · ليس هناك سوى ان تعلم الكاتب العدل بزيارتك .. الن تعود إلى عندي بعد الظهر لنرى روميل ؟

– ربما ·· نعم ·

– اذن فالامر يسير من تلقاء نفسه : سأعطيك رسالة بإمكانك حملها إلى بينو غداً ·

فقال جاك وهو يفتح باب السيارة :

– اتفقنا ·أنا ذاهب · شكراً · سأعود لأخذ الرسالة بعد قيل ·

ورآه انطوان يبتعد ، وهو يسحب قفازيه : « يا له من شاذ ! انه لم يسأل حتى عن قيمة نصيبه » ·

والتقط رزمة الصحف وترك العربة على حافة الرصيف ودخل إلى بيتـــه حالاً · فقال له ليون دون أن يرفع عينيه :

– انهم تلفنوا لك ·

كانت هذه هي الصيغة المراوغة التي انتقاها لكي لا يلفظ اسم مدام دي باتنكور ؛ ولم ينو انطوان ان يعطيه ملاحظة بهذا الموضوع ·

– وطلبوا أن يذكّر السيد عند رجوعه .

فعبس انطوان. هذه العادة المستهجنة التي اعتادتها آن بأن توبخه في الهاتف دون انقطاع .. الا أنه سار رأساً إلى مكتبه الصغير ، واقترب من جهـاز الهاتف ، وقبعته على الرقبة ، ويـــده مترددة ، وظل بضع ثوان أمام السماعة دون أن يرفعها . كان ينظر بعين غائبة إلى الصحف التي ألقاها على الطاولة . وفجأة دار على عقبيه . وقال بصوت منخفض :

– وثم .. زوت !

بالحقيقة ، يوجد في رأسه اليوم اشياء اخرى .

عادت بشاشة جاك اليه من جراء حديثه مع انطوان ، ولم يعد يفكر إلا برؤية جني · ولكن بسبب مدام دي فونتانان لم يكن يجرؤ على المثول في شارع

الابسرفاتوار قبـــل ساعة ونصف او ساعتين وكان يتساءل. : « ماذا قالت لأمها ؟ اي استقبال ينتظرني ؟ »

ودخل في دفعـــة من الطلاب بالقرب من الاوديون ، وتناول غداءه بدون اسراع . ثم ذهب إلى اللوكسبورغ قتلاً للوقت .

هناك سحب كثيفة آتية من الغرب تخفي الشمس مرة بعد أخرى . وقال لنفسه ، مفكراً بالمقال الرئيسي الذي قرأه في صحيفة « العمل الفرنسي » : « أولاً ، انكلترا لن تمشي . انكلترا سوف تظل محايدة ، وسوف تعد الضربات بانتظار ساعة التحكيم . . وروسيا سوف تظل شهرين لتدخل المعركة . . وفرنسا ستُغلب بسرعة . . اذن، فالسلم هو الحل الوحيد المعقول ، حتى لرجلٍ متعصب لقوميته !. . ومقالات كهذه هي مجرمة ؛ ومهما يقول ستيفاني فان قوتهـــا الايجائية لا يمكن انكارها . . ومن حسن الحظ انه يوجد بين جماهير الشعب غريزة محافظة قوية ، ورغم كل شيء ، اتجاه مدهش نحو الحقائق » . .

كانت الحديقة الكبرى ملأى بالاشعة والظلال ، بالخضرة والزهور، وبألعاب الأطفال . واستماله مقعد فارغ عند منعطف بمجموعة متلاصقة من الاشجار ، فسقط عليه . ملله يعذبه ، غـــير قادر على تركيز ذهنه ، يفكر بألف شيء ، بأوروبا ، بجني ، بمينستريل ، بجوريس ، بالمال الأبوي . وسمع دقة الربـــع ، ثم النصف من ساعة القصر، وأرغم نفسه على الانتظار عشر دقائق ايضاً . وأخيراً لم يعد يستطيـــع البقاء ، فنهض وسار بخطى كبيرة .

ولم تكن جني في منزلها .

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يكن يتوقعه . ألم تقل له : « لن اتحرك ابداً طول النهار ؟ » .

واسودت الدنيا في عينيه ، وردد لنفسه نفس الايضاحات عدة مرات : السيدة ذهبت في رحلة لعدة ايام . والآنسة رافقتها إلى القطار ، ولم تقل في اية ساعة ستعود .

ورضي أخيراً أن يترك المنزل ، ووجد نفسه في الخارج ، دائخاً ، وكان

اضطرابه يذهب إلى درجة التساؤل اذا لم يكن هناك علاقة بين رحيل مدام دي فونتانان المفاجىء والاعترافات التي قالتها دون شك جني لأمها مساء البارحة عندما عادت . افتراض مستحيل .. كلا ، يجب أن يقلع عن التفكير قبل أن يرى جني . وتذكر كلمة حارسة البيت : « ذهبت السيدة في رحلة لبضعة ايام » . وهكذا ستكون جني وحدها في باريس لبضعة ايام .. ان هـذا الامل المناسب خفف شيئاً من إخفاقه.

ولكن ما العمل في الوقت الحاضر ؟ كان محتفظاً بفترة بعـد الظهر حتى الساعة الثامنة والربع – الساعة التي يجب ان يتصل فيها ، بواسطة ستيفاني ، باثنين من المناضلين العاملين بشكل خاص في أحد فروع غلاسيير . وكان حراً حتى ذلك الوقت .

وعادت إلى ذهنه دعوة انطوان . فعزم على الذهاب لينتظر عند اخيه ساعة عودته إلى عند جني.

تمّ الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع

فهرس

انتهى طبع هذا الكتاب على
مطابع منيمنه الحديثة
بيروت — لبنان
في شهر آب ١٩٧٠

منشورات عويدات ١٥٦/٨/٩٧٠

Roger MARTIN DU GARD

LES THIBAULT

Tome III

L'été 1914

Texte traduit en arabe

Par

Bahige CHAABAN

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

المجموعة الكاملة من خمسة اجزاء

الثمن [illegible] ة او ما يعادلها